

# من أعلام الإسلام

جمع

دكتور / بدر عبد الحميد هميسه

## مُقَدِّمَةٌ



إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا نجدة له ولياً مرشداً.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أراد ما العباد فاعلوه ولو عصمهم لما خالفوه .. ولو شاء أن يطيعوه جميعاً لأطاعوه وسع الخلائق خير له ولم يسع الناس غيره وأشهد أن سيدنا ونبينا محمد عبده ورسوله نبي الأميين ورسول رب العالمين بعثه ربه بين يدي الساعة هادياً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً فصلى الله وملائكته والصالحون من خلقه عليه كما وحد الله وعرف به و دعا إليه اللهم وعلى آله الأخيار وأصحابه الأبرار وعلى من سلك مسلكهم وأتبع منهجهم يا حسان إلى يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار..

### ويعر؛

إن المرء ليذكر أقواماً يحبهم وهو يعلم أنه لن يبلغ صنيعهم مثقال ذرة ولكنه يتعزى بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعرابي كما في حديث أنس " أنت مع من أحببت " ونحن نشهد الله وملائكته وحمله عرشه والصالحين من خلقه أننا نحب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم جميعاً بلا استثناء ونخص منهم المهاجرين الأولين والأوس والخزرج أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين نصره وأيدوه وبلغوا عن الله مع نبيهم صلى الله عليه وسلم الرسالات بذلوا المهج والأموال وقدموا الأبناء والبنات في سبيل نصرته دين الرب تبارك وتعالى حتى شهد لهم نبي الأمة ورسول الملة أنهم قد قضوا الذي عليهم .

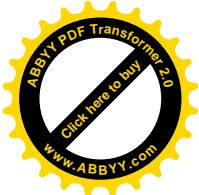
والأمة لم تحرم ممن يقتدي بأولئك الأخيار ويستن بأولئك الأبرار فينصر في هذا الزمن ينصر الله ورسوله ينصر الله بإعلاء دينه وينصر رسوله بنصرة سنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه ودون ذلك أمور عظام وصبر على جلائل المهام وإتباع لكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ولن تجد طريقاً موصلاً إلى الله إلا طريق محمد صلى الله عليه وسلم .

وكم في الأمة من أعلام ورواد يقتدى بهم ، ويسار على دربهم ، وبخاصة في هذا الزمان الذي افتقد فيه الشباب القدوة والمثل . وقد - وفقني الله تبارك وتعالى لجمع هذه النبذ عن حياة بعض العلماء وبعض القواد والأمرء وبعض الأدباء والشعراء ؛ علنا نجد في حياتهم وتاريخهم عبرة وعظة لكل سالك ، ومثلاً طيباً لكل سائر .

والله أسأل أن يجعلنا من المخلصين العاملين . إن ربي على ما يشاء قدير ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

وكتبه : بدر عبد الحميد هميسه

تحريراً في ١٠ / ١٢ / ٢٠٠٨ م .



علماء

## عيد بن المسيب

الإسلام عزيز بك وبأمثالك أيها الرجل.. إنك كالجبل الراسخ، وقفت في وجه الطغاة.. علمتنا أن الحق الأعزل قادر على أن يقف في وجه الباطل المدجج

بالسلاح، وأن المؤمن لا تريده نحن إلا عزة وإيمانًا، أما الظالم فيرجع إلى الوراء، يتخاذل ويتقهقر، يخشى سيف الحق وعزة الإسلام، فهنيئًا لك يا سيد التابعين.

بعد مضي سنتين من خلافة الفاروق عمر -رضي الله عنه- ولد (سعيد بن المسيب) في المدينة المنورة؛ حيث كبار الصحابة، فرأى عمر بن الخطاب، وسمع عثمان بن عفان، وعليًا، وزيد بن ثابت، وأبا موسى الأشعري، وأبا هريرة.. فنشأ نشأة مباركة، وسار على نهجهم، واقتدى بأفعالهم، وروى عنهم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتزوج بنت الصحابي الجليل أبي هريرة، فكان أعلم الناس بمحدثه.

وهبه الله في نشأته الباكورة ذكاءً متوقفاً، وذاكرة قوية، حتى شهد له كبار الصحابة والتابعين بعلو المكانة في العلم، وكان رأس فقهاء المدينة في زمانه، والمقدم عليهم في الفتوى، حتى اشتهر بفضله الفقهاء، وكان عبد الله بن عمر -رضي الله عنه- وهو المقدم في الفتوى بالمدينة آنذاك- إذا سئل عن مسألة صعبة في الفقه، كان يقول: سلوا سعيداً فقد جالس الصالحين.

ويقول عنه قتادة: ما رأيت أحداً قط أعلم بالحلال والحرام منه، ويكفي ابن المسيب فخراً أن الخليفة العادل (عمر بن عبد العزيز) كان أحد تلاميذه، ولما تولى عمر إمارة المدينة لم يقض أمراً إلا بعد استشارة سعيد، فقد أرسل إليه عمر رجلاً يسأله في أمر من الأمور، فدعاه، فلبى الدعوة وذهب معه، فقال عمر بن عبد العزيز له: أخطأ الرجل، إنما أرسلناه يسألك في مجلسك.

وعاش سعيد طيلة حياته مرفوع الرأس، عزيز النفس، فلم يحن رأسه أبداً لأي إنسان، حتى ولو أهبوا ظهره بالسياط، أو هددوه بقطع رقبتة، فهذا هو ذا أمير المدينة في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان يأمره بالبيعة للوليد بن عبد الملك، فيمتنع فيهدده بضرب عنقه، فلم يتراجع عن رأيه رغم علمه بما ينتظره من العذاب، وما إن أعلن سعيد مخالفته حتى جردوه من ثيابه، وضربوه خمسين سوطاً، وطافوا به في أسواق المدينة، وهم يقولون: هذا موقف الخزي!! فيرد عليهم سعيد في ثقة وإيمان: بل من الخزي فررنا إلى ما نريد.

ولما علم عبد الملك بما صنعه والى المدينة لأمه وكتب إليه: سعيد.. كان والله أحوج إلى أن تصل رحمه من أن تضربه، وإننا لنعلم ما عنده من خلاف، وبعد كل هذا التعذيب الذي ناله سعيد جاءه رجل يحرضه في الدعاء على بني أمية، فما كان منه إلا أن قال: اللهم أعز دينك، وأظهر أوليائك، وأخز أعداءك في عافية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم. صلى (الحجاج بن يوسف الثقفي) ذات مرة، وكان يصلي بسرعة، فلم يتم ركوع الصلاة وسجودها كما يجب، فأخذ سعيد كفاً من الحصى ورماه به، فانتبه الحجاج لذلك واطمأن وتمهل في صلاته، وكان ذلك قبل أن يتولى الحجاج الإمارة، ورفض سعيد أن تكون ابنته أعظم سيدة في دولة الخلافة الإسلامية؛ وذلك حين أراد الخليفة عبد الملك بن مروان أن يخاطب ابنة سعيد لولي عهده الوليد، لكن سعيداً رفض بشدة، وزوج ابنته من طالب علم فقير.

فقد كان لسعيد جليس يقال له (عبد الله بن وداعة) فأبطأ عنه أياماً، فسأل عنه وطلبه، فأتاه واعتذر إليه، وأخبره بأن سبب تأخره هو مرض زوجته وموتها، فقال له: ألا أعلمتنا بمرضها فنعودها، أو بموتها فنشهد جنازتها، ثم قال: يا عبد الله تزوج، ولا تلق الله وأنت أعزب، فقال: يرحمك الله ومن يزوجني وأنا فقير؟ فقال سعيد: أنا أزوجك ابنتي، فسكت عبد الله استحياء، فقال سعيد: مالك سكت، أسخطاً وإعراضاً؟ فقال عبد الله: وأين أنا منها؟ فقال: قم وادع نفعاً من الأنصار، فدعا له فأشهدهم على النكاح (الزواج)، فلما صلوا العشاء توجه سعيد بابنته إلى الفقير ومعها الخادم والدرهم والطعام، والزوج لا يكاد يصدق ما هو فيه!!

وحرص سعيد على حضور صلاة الجماعة، وواظب على حضورها أربعين سنة لم يتخلف عن وقت واحد، وكان سعيد تقياً ورعاً، يذكر الله كثيراً، جاءه رجل وهو مريض، فسأله عن حديث وهو مضطجع فجلس فحدثه، فقال له ذلك الرجل: وددت أنك لم تتعب ولا تتعب نفسك، فقال: إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله وأنا مضطجع، ومن احترامه وتوقيره لحرمة الله قوله: لا تقولوا

سيحف ولا مسيجد، ما كان لله فهو عظيم حسن جميل، فهو يكره أن تصغر كلمة مصحف، أو كلمة مسجد أو كل كلمة غم تكون لله تعالى إجلالا لشأنها وتعظيمًا. ومرض سعيد، واشتد وجعه، فدخل عليه نافع بن جبير يزوره، فأغمى عليه، فقال نافع: وجّهوه، ففعلوا، فأفاق فقال: من أمركم أن تحولوا فراشي إلى القبلة.. أنافع؟ قال: نعم، قال له سعيد: لئن لم أكن على القبلة والملة والله لا ينفعني توجيهكم فراشي، ولما احتضر سعيد بن المسيب ترك مالا، فقال: اللهم إنك تعلم أنني لم أتركها إلا لأصون بها ديني، ومات سعيد سنة ثلاث أو أربع وتسعين من الهجرة، فرحمه الله رحمة واسعة.

## سعيد بن جبير

وُلِدَ سعيد بن جبير في زمن خلافة الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بالكوفة، وقد نشأ سعيد محباً للعلم، مقبلاً عليه، ينهل من معينه، فقرأ القرآن على ابن عباس، وأخذ عنه الفقه والتفسير والحديث، كما روى الحديث عن أكثر من عشرة من الصحابة، وقد بلغ رتبة في العلم لم يبلغها أحد من أقرانه، قال خصيف بن عبد الرحمن عن أصحاب ابن عباس: كان أعلمهم بالقرآن مجاهد وأعلمهم بالحج عطاء، وأعلمهم بالطلاق سعيد بن المسيب، وأجمعهم لهذه العلوم سعيد بن جبير. وكان ابن عباس يجعل سعيداً بن جبير يفتي وهو موجود، ولما كان أهل الكوفة يستفتونه، فكان يقول لهم: أليس منكم ابن أم الدهماء؟ يعني سعيد بن جبير، وكان سعيد بن جبير كثير العبادة لله، فكان يحج مرة ويعتمر مرة في كل سنة، ويقوم الليل، ويكثر من الصيام، وربما ختم قراءة القرآن في أقل من ثلاثة أيام، وكان سعيد بن جبير مناهضاً للحجاج بن يوسف الثقفي أحد أمراء بني أمية، فأمر الحجاج بالقبض عليه، فلما مثل بين يديه، دار بينهما هذا الحوار: الحجاج: ما اسمك؟

سعيد: سعيد بن جبير. الحجاج: بل أنت شقي بن كسير.

سعيد: بل أُمِّي كانت أعلم باسمي منك.

الحجاج: شقيت أنت، وشقيت أمك.

سعيد: الغيب يعلمه غيرك.

الحجاج: لأبدلُكَ بالدنيا ناراً تُلْظِي.

سعيد: لو علمتُ أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً.

الحجاج: فما قولك في محمد.

سعيد: نبي الرحمة، وإمام الهدى.

الحجاج: فما قولك في علي بن أبي طالب، أهو في الجنة أم في النار؟

سعيد: لو دخلتها؛ فرأيت أهلها لعرفت.

الحجاج: فما قولك في الخلفاء؟

سعيد: لست عليهم بوكيل.

الحجاج: فأيهم أعجب إليك؟

سعيد: أَرْضَاهُمْ لخالقي.

الحجاج: فأيهم أَرْضَى للخالق؟

سعيد: علم ذلك عنده.

الحجاج: آييت أن تصدُقني.

سعيد: إني لم أحب أن أكذبك.

الحجاج: فما بالك لم تضحك؟

سعيد: لم تسترِ القلوب.. وكيف يضحك مخلوق خلق من طين والطين

لله النار. وهب سعيد حياته للإسلام، ولم يخش إلا الله، ولد في الكوفة، يفيد الناس بعلمه النافع، ويفقه الناس في أمور دينهم ودنياهم، فقد كان إماماً عظيماً من أئمة الفقه في عصر الدولة الأموية، حتى شهد له عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- بالسبق في الفقه والعلم، فكان إذا أتاه أهل مكة يستفتونه يقول: أليس فيكم ابن أم الدهماء (يقصد سعيد بن جبير). كان سعيد بن جبير يملك لساناً صادقاً وقلباً حافظاً، لا يهاب الطغاة، ولا يسكت عن قول الحق، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، فألقى الحجاج بن يوسف القبض عليه بعد أن لفق له تمماً كاذبة، وعقد العزم على التخلص منه، لم يستطع الحجاج أن يسكت لسانه عن قول الحق بالتهديد أو التخويف، فقد كان سعيد بن جبير مؤمناً قوياً بالإيمان، يعلم أن الموت والحياة والرزق كلها بيد الله، ولا يقدر عليه أحد سواه. اتبع الحجاج مع سعيد بن جبير طريقاً آخر، لعله يزحزحه عن الحق، أغراه بالمال والدنيا، وضع أموالاً كثيرة بين يديه، فما كان من هذا الإمام الجليل إلا أن أعطى الحجاج درساً قاسياً، فقال: إن كنت يا حجاج قد جمعت هذا المال لتتقي به فرع يوم القيامة فصالح، وإلا ففرعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت. لقد أفهمه سعيد أن المال هو أعظم وسيلة لإصلاح الأعمال وصلاح الآخرة، إن جمعه صاحبه بطريق الحلال لا تلقاء فرع يوم القيامة.. {يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم} [الشعراء: ٨٨-٨٩].

ومرة أخرى تفشل محاولات الحجاج لإغراء سعيد، فهو ليس من عباد الدنيا ولا ممن يبيعون دينهم بدنياهم، وبدأ الحجاج يهدد سعيداً بالقضاء عليه، ودار هذا المشهد بينهما:

الحجاج: ويلك يا سعيد!

سعيد: الوليل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار.

الحجاج: أي قتلة تريد أن أقتلك؟

سعيد: اختر لنفسك يا حجاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلتك قتلة في الآخرة.

الحجاج: أتريد أن أعفو عنك؟ سعيد: إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه. فلما خرجوا ليقتلوه، بكى ابنه لما رآه في هذا الموقف، فنظر إليه سعيد وقال له: ما يبكيك؟ ما بقاء أبيك

بعد سبع وخمسين سنة؟ وبكى أيضاً صديق له، فقال له سعيد: ما يبكيك؟ الرجل: لما أصابك. سعيد: فلا تبك، كان في علم الله أن

يكون هذا، ثم تلا: {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها} [الحديد: ٢٢] ثم ضحك سعيد،

فتعجب الناس وأخبروا الحجاج، فأمر برده، فسأله الحجاج: ما أضحكك؟ سعيد: عجبت من جرأتك على الله وحلمه عنك. الحجاج:

اقتلوه. سعيد: {وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين} [الأنعام: ٧٩]. الحجاج: وجهوه لغير

القبلة. سعيد: {فأينما تولوا فثم وجه الله} [البقرة: ١١٥]. الحجاج: كبوه على وجهه. سعيد: {منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها

نخرجكم تارة أخرى} [طه: ٥٥]. الحجاج: اذبحوه. سعيد: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده

ورسوله، خذها مني يا حجاج حتى تلقاني بها يوم القيامة، ثم دعا سعيد ربه فقال: اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي. ومات سعيد

شهيداً سنة ٩٥هـ، وله من العمر سبع وخمسون سنة، مات ولسانه رطب بذكر الله.

## الحسن البصري

يروى أن رجلاً اغتابه، فما كان منه إلا أنه أرسل له بطبق من الحلوى قائلاً له: بلغني أنك نقلت حسناتك إلى ديواني وهذه

مكافأتك!! إنه (الحسن البصري بن أبي الحسن يسار) وكنيته (أبو سعيد) ولد في المدينة عام واحد وعشرين من الهجرة، كان أبوه من

سبي (ميسان) من بلاد فارس، سكن المدينة وبها اعتق، وتزوج بمولاة أم سلمة -رضي الله عنها- (خيرة) فكانت أم سلمة -رضي الله

عنها- تبعث أم الحسن البصري لتقضي لها الحاجة، وتترك (الحسن) فيبكي وهو طفل فترضعه أم سلمة، وتخرجه إلى أصحاب رسول

الله -صلى الله عليه وسلم- وهو صغير فكانوا يدعون له، فأخرجته إلى عمر -رضي الله عنه- فدعا له وقال: (اللهم فقهه في الدين

نبيه إلى الناس). تعلم في مدينة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وحفظ القرآن في العاشرة من عمره، وتعلم على أيدي كبار الصحابة في مسجد الرسول -صلى الله عليه وسلم- روى الحديث عن علي وعثمان وعبد الله بن عمرو وابن عباس وغيرهم رضي الله عنهم، ثم رحل إلى البصرة، فكان فقيهاً وعالمها، وشيخ القراء فيها، أقبل الناس عليه يتلقون عنه العلم، يأخذون منه الحكمة، فقد كان موضع إعجاب العلماء والتلاميذ، فقد قال أنس بن مالك: سلوا الحسن، فإنه حفظ ونسينا، وقال عنه أحد تلاميذه: ترددت على مجلس الحسن عشر سنين، فليس من يوم إلا أسمع منه ما لم أسمع قبل ذلك.

وكانت حلقة في المسجد يدرس فيها الحديث والفقه وعلوم القرآن واللغة، وكان من تلاميذه من يصحبه للحديث، ومنهم من يصحبه للقرآن، ومنهم من يصحبه للبلاغة واللغة، وكان دائماً ينصح تلاميذه قائلاً: إذا طلب الرجل العلم فينبغي أن يرى ذلك في تخشعه وزهده ولسانه وبصره. لقد نذر الحسن البصري حياته لله تبارك وتعالى، فكان همه الأول النصح والإرشاد، فأقبل عليه طلاب العلم إقبالاً عظيماً، فذاع صيته، واتسعت حلقاته بالمسجد حتى لقب بـ(إمام البصرة).. لازمته ظاهرة البكاء والخشية من الله، وعندما سئل عن ذلك قال: (نضحك ولا ندرى، لعل الله قد اطلع على أعمالنا، فقال لا أقبل منكم شيئاً) وسجل له التاريخ على صفحاته البيضاء موقفه من الحجاج بن يوسف، وقد كان الحسن البصري يعتبر أن حياة القلب وسلامته طريق الإيمان الحق، وفي ذلك صفة إذا قاتل عدواً يجعله في مقدمة الجيش. وكان الحسن البصري يعتبر أن حياة القلب وسلامته طريق الإيمان الحق، وفي ذلك كان يرسل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في هذا الشأن فيقول له: (سلام عليك، أما بعد فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات، فأجابه عمر: (سلام عليك كأنك بالدنيا ولم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل). وجلس الحسن ذات يوم في مسجد البصرة الكبير يفسر قوله تعالى: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله} [الحديد: ١٦] ثم وعظ الناس وعظاً بليغاً حتى أبكاهم، وكان من بينهم شاب يقال له (عتبة) فقام وقال أيها الشيخ: أيقبل الله تعالى الفاسق الفاجر مثلي إذا تاب؟ فقال الحسن: نعم، يقبل توبتك عن فسقك وفجورك، فلما سمع الشاب ذلك صاح صيحة وخر مغشياً عليه، فلما أفاق دنا الحسن البصري منه وقال له:

أيّا شاب لرب العرش عاصي

أتدري ما جزاء ذوي المعاصي

سعر للعصاة لها زفير

وغيظ يوم يؤخذ بالنواصي

فإن تصبر على النيران فاعصمه

وإلا كن عن العصيان قاصي

وفيم قد كسبت من الخطايا

رهنت النفس فاجهر في الخلاص

فخر الشاب مغشياً عليه، ثم أفاق، فسأل الحسن: هل يقبل الرب الرحيم توبة لثيم مثلي؟ فقال الحسن: هل يقبل توبة العبد الجافي إلا الرب المعافي؟! ثم رفع رأسه، ودعا له؛ فأصلح الله حال الشاب. ومن أقواله لتلاميذه: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاثة: أنه لم يشيع بما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما قدم عليه، يابن آدم إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك، الفقيه هو الزاهد في الدنيا، البصير بدينه المداوم على عبادة ربه، تفكر في الله ساعة خير من قيام ليلة، يا عجباً من ضاحك ومن ورائه النار، ومن مسرور ومن ورائه الموت. وقال ناصحاً تلميذاً له: إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت، ولا تقطع على أحد حديثه وإن طال حتى يمسك. وفارق الحسن دنيا الناس سنة ١١٠ هـ عن نحو ثمان وثمانين سنة، وكانت جنازته مشهودة، صلوا عليه عقيب الجمعة، وشيعه خلق كثير.

**جعفر الصادق**



٨٠هـ. نشأ جعفر في داصر الهجرة النبوية الشريفة، معتزاً بنسبه؛ فجدّه لأبيه هو الإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وجدّه لأمه صديق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو الخليفة (أبو بكر الصديق). استمع جعفر لنصائح والده الذي أخذ يقول له: (إياك والكسل والصجر، فإنهما مفتاح كل شر، إنك إن كسلت لم تؤدّ حقاً، وإن ضجرت لم تصبر على حق، إن طلب العلم من أداء الفرائض خير من الزهد) واستجاب جعفر لنصائح والده، فحفظ القرآن الكريم وأحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفهمهما فهماً جيداً، فلما بلغ جعفر مبلغ الشباب، ورأى آل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- وخلافهم مع الدولة الأموية، وشاهد عمه زيداً قتيلاً؛ بكى وحزن عليه حزناً شديداً، ورأى أن خير ما يقاوم به هذا الظلم هو كلمة الحق التي تنير طريق الناس وتحركهم للدفاع عن المظلومين. فقد تعلم من سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن طلب العلم ونشره جهاد في سبيل الله، بل إنه فريضة على كل مسلم ومسلمة، وأن الله تعالى جعل للعلماء مكانة بين الأنبياء والشهداء؛ فاهتم جعفر بعلوم الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والنبات والأدوية إلى جانب دراسته للقرآن والحديث والفقه. وظل جعفر يدرس ويقرأ في كل العلوم؛ حتى أشرفت دولة بني أمية على الزوال؛ فأرسل إليه المؤيدون لآل بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن ينتهز الفرصة، ويأتي على الفور ليتولى خلافة المسلمين، ولكنه لم يشعر بقبول تجاه هذه الرسالة؛ فأحرقها!! لقد كان يشعر أنه بعلمه أقوى من أي ملك على وجه الأرض، ومضى الإمام جعفر الصادق يتعلم العلم ويعلمه الناس في تواضع فريد، يسأله الناس فيجيب دون كبر أو خيلاء، سأله أحد الناس: لقد قال الله تعالى: {ادعوني أستجب لكم} [غافر: ٦٠] فما بالنا ندعوه فلا يجيب؟! فقال الإمام جعفر الصادق: لأنك تدعو من لا تعرف. وأحب الناس جعفر الصادق والتفوا حوله، فاغتاظ الخليفة المنصور، وحاول أن يخرج الإمام جعفر الصادق؛ فأمر أبو حنيفة (الفقيه المشهور) أن يهيئ له مسائل شداً يناقشها فيها، فقال أبو حنيفة: فهيأت له أربعين مسألة، والتقى الإمامان في حضرة الخليفة المنصور، فلم يلتق أبو حنيفة مسألة إلا أجاب عنها الإمام جعفر الصادق، فقال أبو حنيفة في النهاية: (إن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس) لأن جعفر الصادق كان يجيب عن كل مسألة بما أجاب به كل الفقهاء السابقون ثم يأتي برأيه. وكان الإمام جعفر الصادق حليماً لا يغضب؛ كان له غلام كسول يحب النوم، فأرسله يوماً في حاجة، فغاب، وخشي الإمام أن يكون الغلام قد أصابه مكروه، فخرج يبحث عنه، فوجده نائماً في الطريق، فجلس عند رأسه، وأخذ يوقظه برفق حتى استيقظ، فقال له ضاحكاً: تنام الليل والنهار؟! لك الليل ولنا النهار. ولم يخش الإمام جعفر الصادق أحداً إلا الله، فها هو ذا يقول للخليفة المنصور عندما سأله: لماذا خلق الله الذباب؟ بعد أن تضايق الخليفة من ذبابة كانت تحط على وجهه ولم يفلح في إبعادها، فقال الإمام: (ليذل به الجابرة). وأقام الإمام في المدينة وقد جاوز الستين يعلم الناس ويفقههم، وفي الثامنة والستين من عمره سنة ١٤٨هـ توفي الإمام جعفر الصادق، فحزن الخليفة المنصور عليه حزناً شديداً وقال: توفي سيد الناس وعالمهم، وبقية الأخيار منهم، إن جعفرًا ممن قال الله فيهم: {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا} [فاطر: ٣٢].

## أبو حنيفة النعمان

كان كثير العبادة، لا ينام الليل إلا قليلاً؛ حتى سموه (الوتد) لكثرة صلاته، يبكي حتى يسمع جيرانه بكاءه فيشفقون عليه مما هو فيه من خوف ووجل من الله!! وأبوه (ثابت) كان تاجراً غنياً أسلم فحسن إسلامه، قيل: إنه التقى بالإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- فدعا له الإمام ولذريته بالخير والبركة، واستجاب الله الدعاء، ورزق الله ثابتاً بطلاً أسماه النعمان وكناه (أبا حنيفة النعمان بن ثابت) وكانت ولادته سنة ثمانين للهجرة بمدينة الكوفة. نشأ أبو حنيفة في مدينة الكوفة، فوجد الحلقات العلمية منتشرة في كل مكان، ورأى طلاب العلم يتعلمون ويجتهدون في الدراسة؛ فتلقى العلم على يد شيوخ وأساتذة كبار، منهم: فقيه الكوفة (حماد بن أبي سليمان) والإمام (جعفر الصادق) و(عطاء) و(الزهري) و(قتادة).. وغيرهم، وكان (حماد) من أكثر شيوخه الذين يحبهم؛ فكان أبو حنيفة يحفظ أقواله ويرددها، وأعجب حماد هو الآخر بتلميذه (أبي حنيفة) حتى قال لمن حوله: لا يجلس في صدر الحلقة بجواري غير



حنيفة. ويعد موت حماد تولى ابن له اسمه إسماعيل حلقة الدرس بدلا من أبيه، لكنه ترك مجلس الفقه وانتقل إلى النحو لحبه له، الناس إلى (أبي حنيفة) يطلبون منه أن يجلس إليهم ويعلمهم أمور دينهم؛ فقبل أبو حنيفة، وأخذ يدرس للناس حتى اشتهر فقهه بين البسطاء والأمراء، لكنه لم ينسَ فضل شيخه وأستاذه (حماد) بل ظل يذكره بالخير، ويدعو له حتى قال أبو حنيفة: (ما صليت قط إلا ودعوتُ لشيخِي (حماد) ولكل من تعلمتُ منه علماً أو علمته).

وكان أبو حنيفة يهتم بملبسه ومظهره، ويكثر التعطر، ويرى وقوراً حليماً، فهو الذي يقول: (اللهم من ضاق بنا صدره، فإن قلوبنا قد اتسعت له) ولقد سبه أحد الناس بقوله: يا مبتدع، يا زنديق، فردَّ عليه بقوله: غفر الله لك، الله يعلم مني خلاف ذلك، وأني ما عدلت به (أي ما أشركت به أحداً) منذ عرفته، ولا أرجو إلا عفوه، ولا أخاف إلا عقابه. وكان أبو حنيفة كريماً واسع الكرم، وتاجراً أميناً ماهراً، ظل يعمل بالتجارة طوال حياته، وكان له دكان معروف في (الكوفة) كان أبو حنيفة -رضي الله عنه- يحب العمل حتى ينفق على نفسه، فكان يبيع الخبز (وهو نسيج من الصوف).

سمع أبو حنيفة رجلاً يقول لآخر: هذا أبو حنيفة لا ينام الليل؛ فقال: والله لا يتحدث عني بما لم أفعل؛ فكان يحبي الليل صلاة وتضرعاً، فكان ورعاً، ولا يحدث بالحديث الذي يحفظه، ولا يحدث بما لا يحفظ، وكان يتورع عن القسم خشية الهلاك، حتى إنه جعل على نفسه إن حلف بالله صادقاً أن يتصدق بدينار.

وكان واسع الصدر هادئ الطبع في حديثه مع الناس، فلقد روي أن رجلاً قال له: اتق الله، فانتفض، وطأطأ رأسه، وأطرق.. وقال له: يا أخي جزاك الله خيراً، ما أحوج الناس في كل وقت إلى من يذكرهم الله تعالى، وكان يخاف عاقبة الظلم؛ لذا رفض تولي القضاء للخليفة المنصور العباسي. ومات سنة ١٥٠ هـ، وصلى عليه خمسون ألف رجل، ودفن في بغداد، ويقال إنه مات في نفس الليلة التي ولد فيها الإمام الشافعي. وأبو حنيفة هو مؤسس المذهب الحنفي أحد المذاهب الفقهية الأربعة، وقد انتشر مذهبه في العراق والهند وبلاد المشرق، يقول عنه الشافعي: (الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة) وقال عنه النضر بن شميل: كان الناس نيماً في الفقه حتى أيقظهم أبو حنيفة، وقيل: لو وزن علم الإمام أبي حنيفة بعلم أهل زمانه لرجح علمه عليهم، وقال عنه ابن المبارك: (ما رأيت في الفقه مثل أبي حنيفة) وقال عنه يزيد بن هارون: (ما رأيت أحداً أحلم من أبي حنيفة).

## الليث بن سعد

لله درك يا إمام.. لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم: العلم، والعمل، والزهد والورع. في سنة ٩٤ هـ، وفي أحد أيامها المباركة ولد الليث بن سعد، في قرية (قرقشندة) من قرى مصر، ونشأ ذلك الطفل بين ربوع تلك القرية، فوجد الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة ويحفظون القرآن الكريم، فأسرع الليث إلى متزله، وأحضر أوراقه وقلمه، وبدأ يحفظ القرآن الكريم، ثم درس الحديث والفقه والعلوم العربية، فسبق زملاءه، وساعده على ذلك نبوغه المبكر، وذاكاؤه الفريد. واصل الليث الدراسة والتعلم والحفظ، فكان كلما قرأ شيئاً في الفقه أو الحديث علّق بذاكرته وحفظه فلا ينساه أبداً، فقد كان قوي الذاكرة، جيد الحفظ، ولفت الفتى الليث الأنظار إليه بعلمه وورعه، وأصبحت له مكانة كبيرة بين أهله، يعرفون فضله، ويقدمونه على من سواه، ولكن الفتى لم يفتّر بهذه الشهرة، ولم يخلد إليها ولا إلى التقدير الذي كان له وسط العلماء، بل استمر يتعلم ويتزود وينهل من غيره من العلماء، حتى صار أستاذاً يدرس للعلماء. واشتاشت نفس الليث يوماً لزيارة بيت الله الحرام وزيارة المصطفى -صلى الله عليه وسلم- فشدد رحاله وأعد نفسه للسفر، وهناك في تلك الأراضي المقدسة كانت حلقات العلم منتشرة في كل مكان؛ والتقى هناك بـ(عطاء بن أبي رباح) و(ابن أبي مليكة) و(نافع مولى ابن عمر) و(ابن شهاب الزهري).. وغيرهم، فأخذ عنهم ونهل منهم رغم رسوخه في العلم، ومضت الأيام والسنون، وأصبح الليث شيخاً جاوز الخمسين من عمره، وهو لا يمل العلم والتعلم؛ حتى أصبح من كبار العلماء في عصره. وكان الإمام الفقيه الليث بن سعد غنياً، ينفق كل سنة على الفقراء والمساكين أكثر من خمسين ألف دينار ولا يدخر منها شيئاً لنفسه، ويتصدق في كل صلاة على ثلاثمائة مسكين، ويطعم الناس عسل النحل وسمن البقر في الشتاء، واللوز والسكر في الصيف. جاءتته امرأة ذات يوم وقالت له: يا شيخنا، إن لي ابناً مريضاً يشتهي أكل العسل، فقال الليث: يا غلام، أعطها مرطاً من عسل (والمرط:

به وعشرون رطلاً وكان مع المرأة إناء صغير الحجم، فلما رآه الغلام قال: يا شيخنا إنما تطلب قليلاً من العسل، فقال الليث: طلبت على قَدَرِهَا ونحن نعطيهها على قدرنا، وأمره أن يعطيها المرط. ولم يكن الليث بن سعد كريماً على أهل بلده فحسب، بل كان سخياً كريم اليد على الآخرين، فيحكى عنه أنه لما جاء إلى المدينة المنورة بعث إليه الإمام مالك بن أنس بطبق من الرطب، فلم يشأ الليث أن يرد الطبق إلى الإمام مالك خاوياً، فوضع في الطبق ألف دينار ورده إليه. وقد شهد له كثير من علماء عصره بعلمه وفضله؛ سئل الإمام أحمد بن حنبل ذات مرة عن الليث، فقال: الليث بن سعد كثير العلم، صحيح الحديث، وقال عنه يحيى بن بكير: ما رأيت أحداً أكمل من الليث بن سعد، كان فقيه البدن، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الحديث والشعر، حسن المذاكرة، لم أر مثله. وقد عرض عليه الخليفة المهدي ذات يوم أن يتولى القضاء، ويعطيه من بيت المال مائة ألف درهم، فرفض وقال: إني عاهدت الله ألا ألي شيئاً، وأعيد أمير المؤمنين بالله ألا أفي بعهدي، فقال له المهدي: الله.. قال الليث: الله.. قال المهدي: انطلق فقد أعفيتك، وكان الليث زاهداً في حكام الدنيا، مشغولاً عن الجاه والسلطان بغرس الأخلاق العظيمة في نفوس الناس، وكان يصل النهار بالليل في العلم والعبادة ليرضي ربه. وفي سنة ١٧٥هـ توفي الإمام الكبير الليث بن سعد، فحزن الناس عليه حزناً شديداً، وكان الشافعي -رضي الله عنه- يحب لقاءه، فلم يمهله القدر فوقف يوماً على قبره وقال: لله درك يا إمام، لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم: العلم، والعمل، والزهد، والورع.

## شريك بن عبد الله

القضاء.. العدل.. الظلم.. حق الناس.. حق الله.. كلمات أخذ يرددها شريك بينه وبين نفسه عندما عرض عليه الخليفة أن يتولى قضاء (الكوفة) فما أعظمها من مسئولية!! في مدينة (بخارى) بجمهورية أوزبكستان الإسلامية الآن، وُلِدَ شريك بن عبد الله النخعي سنة خمس وتسعين للهجرة، ولما بلغ من العمر تسع سنوات أتم حفظ القرآن الكريم، ثم درس الفقه والحديث، وأصبح من حفاظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي مدينة الكوفة اشتهر بعلمه وفضله، فأخذ يعلم الناس ويفتيهم في أمور دينهم، وكان لا يخل بعلمه على أحد، ولا يُفَرِّق في مجلس علمه بين فقير وغني؛ فيحكى أن أحد أبناء الخليفة المهدي دخل عليه، فجلس يستمع إلى دروس العلم التي يلقيها شريك، وأراد أن يسأل سؤالاً؛ فسأله وهو مستند على الحائط، وكأنه لا يحترم مجلس العلم، فلم يلتفت إليه شريك، فأعاد السؤال مرة أخرى، لكنه لم يلتفت إليه وأعرض عنه؛ فقال له الحاضرون: كأنك تستخف بأولاد الخليفة، ولا تقدرهم حق قدرهم؟ فقال شريك: لا، ولكن العلم أزين عند أهله من أن تضيعوه، فما كان من ابن الخليفة إلا أن جلس على ركبتيه ثم سأله، فقال شريك: هكذا يطلب العلم. وقد عُرضَ عليه أن يتولى القضاء لكنه امتنع وأراد أن يهرب من هذه المسئولية العظيمة، خوفاً من أن يظلم صاحب حق، فعندما دعاه الخليفة المنصور، وقال له: إني أريد أن أوليك القضاء، قال شريك: اعفني يا أمير المؤمنين، قال: لست أعفيك.. فقبل تولي القضاء، وأخذ شريك ينظر في المظالم ويحكم فيها بالعدل، ولا يخشى في الله لومة لائم، فيحكى أنه جلس ذات يوم في مجلس القضاء، وإذا بامرأة تدخل عليه وتقول له: أنا بالله ثم بك يا نصير المظلومين، فنظر إليها شريك وقال: مَنْ ظلمك؟ قالت: الأمير موسى بن عيسى ابن عم أمير المؤمنين، فقال لها: وكيف؟ قالت: كان عندي بستان على شاطئ الفرات وفيه نخل وزرع ورثته عن أبي وبنيت له حائطاً، وبالأمس بعث الأمير بخمسمائة غلام فاقتلعوا الحائط؛ فأصبحت لا أعرف حدود بستاني من بساتينه؛ فكتب القاضي إلى الأمير: "أما بعد.. أبقى الله الأمير وحفظه، وأتم نعمته عليه، فقد جاءني امرأة فذكرت أن الأمير اغتصب بستانها أمس، فليحضر الأمير الحكم الساعة، والسلام".

فلما قرأ الأمير كتاب شريك غضب غضباً شديداً، ونادى على صاحب الشرطة، وقال له: اذهب إلى القاضي شريك، وقل له - بلساني -: يا سيحان الله!! ما رأيت أعجب من أمرك! كيف تنصف على الأمير امرأة حقاء لم تصح دعواها؟ فقال صاحب الشرطة: لو تفضل الأمير فأعفاني من هذه المهمة، فالقاضي كما تعلم صارم، فقال الأمير غاضباً: اذهب وإياك أن تتردد. فخرج صاحب الشرطة من عند الأمير وهو لا يدري كيف يتصرف، ثم قال لغلماؤه: اذهبوا واحملوا إلى الحبس فراشاً وطعاماً وما تدعو الحاجة إليه،

صلى صاحب الشرطة إلى شريك، فقال القاضي له: إنني طلبت من الأمير أن يحضر بنفسه، فبعثك تحمل رسالته التي لا تغني عن شيئاً في مجلس القضاء!! ونادي على غلام اجلس وقال له: خذ بيده وضعه في الحبس، فقال صاحب الشرطة: والله لقد علمت أنك تحبسي فقدمت ما أحتاج إليه في الحبس. وبعث الأمير موسى بن عيسى إليه بعض أصدقائه ليكلموه في الأمر فأمر بحبسهم، فعلم الأمير بما حدث، ففتح باب السجن وأخرج مَنْ فيه، وفي اليوم التالي، عرف القاضي شريك بما حدث، فقال لغلامه: هات متاعي والحقني ببغداد، والله ما طلبنا هذا الأمر (أي القضاء) من بني العباس، ولكن هم الذين أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا أن نكون فيه أعزة أحراراً. فلما عرف الأمير موسى بذلك، أسرع ولحق بركب القاضي شريك، وقال له: يا أبا عبد الله أتجس إخواني بعد أن حبست رسولي؟ فقال شريك: نعم؛ لأنهم مشوا لك في أمر ما كان لهم أن يمشوا فيه، وقبولهم هذه الوفاة تعطيل للقضاء، وعدوان على العدل، وعون على الاستهانة بحقوق الضعفاء، ولست برافع عن غاييتي أو يردوا جميعاً إلى السجن، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين فاستعفيته من القضاء، فخاف الأمير وأسرع بردهم إلى الحبس، وجلس القاضي في مجلس القضاء، واستدعى المرأة المتظلمة وقال: هذا خصمك قد حضر.. فقال الأمير: أما وقد حضرت فأرجو أن تأمر بإخراج المسجونين، فقال شريك: أما الآن فلك ذلك. ثم سأل الأمير عما تدعيه المرأة، فقال الأمير: صدقت.. فقال القاضي شريك: إذن ترد ما أخذت منها، وتبني حائطها كما كان.. قال الأمير: أفعل ذلك، فسأل شريك المرأة: أبقى لك عليه شيئاً؟ قالت: بارك الله فيك وجزاك خيراً، وقام الأمير من المجلس وهو يقول: مَنْ عَظَّمَ أمرَ الله أذل الله له عظماء خلقه، ومات القاضي شريك سنة ١٧٧ هـ.

## مالك بن أنس

بُشِّرَ أنس بن مالك بن أبي عامر ذات يوم ببشرى سعيدة، فقد رزقه الله بمولود أسماه (مالكاً) كان ذلك الحدث السعيد سنة ثلاث وتسعين من الهجرة على بقعة من أظھر بقاع الأرض وهي المدينة المنورة، البلد الذي هاجر إليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، فاستنارت بهم وازدانت. فتح مالك عينيه على الحياة، فوجد التقدير والمهابة يعم المدينة وأهلها، وكيف لا وقد حوى تراهما جثمان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ودفن فيها، وضمت أرجاؤها حلقات العلم التي تنتشر في كل مكان. نشأ الطفل في أسرة تشتغل بالعلم، فجدّه (مالك بن أبي عامر) من كبار التابعين فشجعه ذلك على حفظ القرآن الكريم، فآتم حفظه وأتقن تلاوته، لكنه لم يكتف بذلك بل إنه أراد حفظ أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فذهب إلى أمه وقال لها: يا أماه إني أحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأريد أن أحفظ أحاديثه، فكيف لي بذلك؟! ابتمت أمه ابتساماً صافية، وضمت إليها، ثم ألبسته ثياباً جميلة وعممته وقالت له: اذهب إلى (ربيعة الرأي) -وكان فقيهاً كبيراً- وتعلم من أدبه قبل علمه. فجلس الطفل الصغير -مالك بن أنس- يستمع إلى شيخه وينهل من علمه، وبعد انتهاء الدرس يسرع بالجلوس تحت ظلال الأشجار ليحفظ ما سمعه من معلمه؛ حتى لا ينساه، وقد رآته أخته ذات مرة وهو على هذه الحال؛ فذهبت إلى أبيها وقصت عليه ما شاهدته، فقال لها: يا بنيّ إنه يحفظ أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكان مالك بن أنس كغيره من الأطفال الصغار يحب اللعب؛ فشغله ذلك عن الدرس والعلم قليلاً إلى أن حدث له موقف كان له أثر كبير في حياته، فقد سأله أبوه يوماً في مسألة هو وأخوه النضر، فأصاب النضر، وأخطأ مالك في الرد على السؤال؛ فغضب منه والده، فكانت هذه الحادثة سبباً في عزمه على الجد والاجتهاد في العلم، فذهب من فوره إلى (ابن هرمز) وهو عالم كبير، فأخذ يتلقى العلم عليه سبع سنوات، وكان شديد الحرص على الاستفادة منه خلالها. قال (ابن هرمز) لجارته في يوم من الأيام: انظري من الباب، فلم تر إلا (مالكاً) فرجعت إلى الشيخ وقالت له: لا يوجد إلا ذلك الغلام الأشقر (يعني مالكاً) فقال لها: دعيه يدخل فذلك عالم الناس!! وتعلم منه مالك كيف يرد على أصحاب البدع والضلالات، وأراد مالك المزيد، فذهب إلى نافع (مولى عبد الله بن عمر) أحد الرواة العظام الذين رووا عن ابن عمر أحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- وكان ينتظره في شدة الحر يترقب خروجه من منزله، ثم يصطحبه إلى المسجد، حتى إذا ما انتهى (نافع) من أداء الصلاة ومكث برهة؛ انتهز الصبي الصغير الفرصة وسأله في الحديث والفقه، فنهل من علمه وأخذ عنه ما في رأسه من نور رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم لازم مالك بن أنس الحدث الكبير (ابن شهاب الزهري) ليتعلم على يديه، وحرص على ألا يفوته درس من دروس هذا الشيخ، حتى يوم العيد

سبه وهو اليوم الذي يلهو فيه الصبيان ويمرحون، روي عن مالك أنه قال: شهدت العيد، فقلت: هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه، فسمعتة يقول لجاريته: انظري من الباب، فنظرت، فسمعتها تقول: مولاك الأشقر مالك.. قال: أدخله، فدخلت، فقال: ما أراك انصرفت بعد إلى منزلك؟ قلت: لا، قال: هل أكلت شيئاً؟ قلت: لا، قال: اطعم، قلت: لا حاجة لي فيه، قال: فما تريد؟ قلت: تحدثني.. قال لي: هات، فأخرجت ألواحى، فحدثني بأربعين حديثاً فقلت: زدني، قال: حسبك، إن كنت رويت هذه الأحاديث (أي يكفيك هذه الأحاديث إن كنت حفظتها) فأنت من الحفاظ، قلت: قد رويتها، فجذب الألواح من يدي، ثم قال حدث، فحدثته بها، فردها إلي.. أي الألواح. ولم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكا في العلم والفقه، والحفظ، والعزة ولم يجلس للفتوى حتى شهد له سبعون من جلة العلماء أنه أهل لذلك، يقول الإمام مالك: (ما أجبت في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني: هل تراني موضعاً لذلك؟ سألت ربيعة، وسألت يحيى بن سعيد، فأمراني بذلك، فقال له رجل: فلو أهمم فهو؟ قال مالك: كنت أنتهي، لا ينبغي للرجل أن يبذل نفسه حتى يسأل من هو أعلم منه). اشتهر الإمام مالك بكتابه (الموطأ) وهو كتاب حديث وفقه معاً، جمع فيه ما قوي عنده من حديث أهل الحجاز وأضاف إليه أقوال الصحابة وفتاوى التابعين، ثم رتبته على أبواب الفقه كالطهارة والصلاة والزكاة، وقد عمل في هذا الكتاب نحو أربعين عاماً، وقد تلقاه الناس بالقبول، وسمى مالك كتابه بهذا الاسم لأنه مهذب للناس ما اشتمل عليه من الحديث والفقه، أو لأن العلماء المعاصرين له بالمدينة واطنوه ووافقوه عليه، وقد طبع الكتاب كثيراً في مصر والهند. والإمام مالك هو مؤسس المذهب المالكي الذي انتشر في المغرب العربي وبلاد الأندلس وصعيد مصر، فهذا هو مالك بن أنس شيخ الأئمة، وإمام دار الهجرة، مات بالمدينة سنة ١٧٩هـ وهو ابن تسعين سنة.

## أبو يوسف

في مدينة الكوفة ولد أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري سنة ١١٣هـ، وتطلع إلى العلم والدراسة فلم يجد خيراً من مجلس الفقيه الكبير (أبي حنيفة) فتتلمذ على يديه، ودرس عنده أصول الدين والحديث والفقه. ولصحبه لأبي حنيفة قصة يرويها لنا (أبو يوسف) فيقول: كنت أطلب الحديث والفقه عند أبي حنيفة، وأنا مقل (يعني قليل المال) رث الحال والهيئة، فجاءني أبي يوماً فانصرفت معه، فقال لي: يا بني، لا تمد رجلك مع أبي حنيفة (أي لا تذهب إليه) فإن أبا حنيفة خبزه مشوي (يقصد أنه غني وقادر على أن يعيش عيشة كريمة) وأنت تحتاج إلى معاش (عمل حتى تنفق على نفسك ولا تنقطع للعلم)، فقصرت عن كثير من الطلب (أي طلب العلم) وآثرت طاعة أبي، فنفقدي أبو حنيفة وسأل عني، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه؛ فقال لي: ما شغلك عنا؟ قلت: الشغل بالناس وطاعة والدي، وجلست حتى انصرف الناس، ثم دفع لي صرة وقال: استمتع بما فنظرت فإذا فيها مائة درهم وقال: الزم الحلقة وإذا أفرغت هذه (إذا أنفقتها) فأعلمني، فلزمت الحلقة، فلما قضيت مدة يسيرة، دفع إليّ مائة أخرى، ثم كان يتعهدني (يرعاني) وما أعلمته بقلّة قط، ولا أخبرته بنفاد شيء، وكأنه يخبر بنفادها وظل كذلك حتى استغنيت. ولم يكن لأبي حنيفة تلميذ في نجابة أبي يوسف وذكائه، فقد استمر في تلقي العلم حتى حفظ التفسير والحديث والمغازي وأيام العرب، وسار أبو يوسف على نهج أستاذه أبي حنيفة في الفقه، إلا أنه كانت له اجتهادات خاصة به، وألف كتباً كثيرة أشهرها كتاب (الخراج) وهو رسالة في إدارة المال العام والقضاء، وقد قرّبه الخليفة (هارون الرشيد) إليه، وولاه القضاء، ومنحه لقب قاضي القضاة، وكان يستشيريه في أمور الدين والدنيا. وفي عام (١٨٢هـ) مات أبو يوسف وهو يقول: اللهم إنك تعلم أنني لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمداً، وقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم، وكلماً أشكل عليّ أمر جعلت أبا حنيفة بيني وبينك، ومات الفقيه أبو يوسف، فحزن عليه الناس جميعاً؛ وقال صديقه أبو يعقوب الحريري: (اليوم مات الفقيه).. فرحم الله أبا يوسف وأسكنه فسيح جناته.

## الشافعي

له الإمام مالك: إن الله تعالى قد ألقى في قلبك نوراً فلا تطفئه بالمعصية، واتق الله فإنه سيكون لك شأن!!

في غرة بأرض فلسطين سنة ١٥٠هـ، وضعت (فاطمة بنت عبد الله الأزدي) مولودها (محمد بن إدريس الشافعي) في نفس العام الذي توفي فيه الإمام (أبو حنيفة) ليموت عالم ويولد عالم، يملأ الأرض علماً ويحيي سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويلتقي الشافعي مع الرسول -صلى الله عليه وسلم- في الجدد الأعلى.

فتح الشافعي عينيه على الحياة، فلم يجد والده بجانبه، حيث مات بعد ولادته بزمان قصير، فنشأ يتيمًا، لكن أمه الطاهرة عوضته بحنانها عن فقدان أبيه، وانتقلت به أمه إلى مكة وهو ابن سنتين، ففيها أهله وعشيرته وعلماء الإسلام، وظلت تربيته تربية صالحة، وترعاه، وتأمل أن يكون من العلماء الصالحين؛ الذين يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر.

حفظ الشافعي القرآن الكريم وسنه سبع سنين، ثم شرع في حفظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمه تشجعه وتشد من أزره وتحو عليه، ولما كان الشافعي لا يقوى على دفع أجر الحفظ أو شراء الورق الذي يسجل فيه محفوظاته؛ كان يطوف شوارع وطرق مكة يجمع قطع الجلود وسعف النخيل وعظام الجمال ليكتب عليها!!

وكما أتقن الشافعي تحصيل العلم أتقن الرمي، حتى كان يرمي عشرة سهام، فلا يخطئ في سهم واحد منها، ثم أرسلته أمه إلى قبيلة (هذيل) في البادية، وهي قبيلة معروفة بالفصاحة والبلاغة؛ فمكث بينهم سبع سنين يتعلم لغتهم، ويحفظ أشعارهم، حتى عاد إلى مكة فصيح اللسان، ينشد الأشعار، ويذكر الآداب وأخبار العرب إلى أن اتجه إلى طريق الفقه والحديث، فرحل الشافعي إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليلتقي بعالم المدينة الإمام (مالك بن أنس) إمام دار الهجرة، ولما التقى به قال له الإمام مالك: إن الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بالمعصية، واتق الله فإنه سيكون لك شأن. وأخذ الشافعي بتلك النصيحة الغالية، فما مال إلى شرٍّ، ولا جح إلى هو أو مجون، بل كان قانعاً بما قسم الله له، يرضى بالقليل، ويقنع باليسير، ويزداد زهداً كلما وقف على قيمة الدنيا، ويعيش في محراب الحق مسيحاً مناجياً، يعبد الله بلسانه وقلبه، وظل الشافعي يتلمذ على يد الإمام (مالك) حتى انتقل عالم المدينة إلى جوار ربه، لكن الشافعي رحل من بلد إلى أخرى، يتعلم على أيدي علمائها وشيوخها، فتعلم في العراق على يد (محمد بن الحسن) تلميذ أبي حنيفة وغيره، وهناك ظهرت صلابة الشافعي وقوته وقدرته على التحمل والصبر؛ حيث إن بعض الوشاة قد اتهموه عند أمير المؤمنين (هارون الرشيد) بالتشيع ومناصرة العلويين، ولكنه استطاع بثقته في الله ورباطة جأشه أن ينفي هذه التهمة عن نفسه.

ثم ترك بغداد إلى مكة حيث تعلم على يد (مسلم بن خالد الزنجي) و(سفيان بن عيينة) وفي الحرم المكي أخذ الشافعي يلقي دروسه، وحضر مجلسه أناس من جميع الأقطار والبلدان، والتقى به كبار العلماء وخاصة في مواسم الحج، ثم عاد مرة أخرى إلى بغداد سنة ١٩٥هـ، وكان له بها مجلس علم يحضره العلماء يستزيدون من

علمه، ويقصده الطلاب من كل مكان. وجاء الشافعي إلى مصر في عام ١٩٨هـ، لينشر مذهبه فيها، وليبتعد عن جو الاضطرابات السياسية في العراق، وألقى دروسه بجامع (عمرو بن العاص) وأحبه المصريون وأحبهم، وبقي في (مصر) خمس سنوات قضاه كلها في التأليف والتدريس والمناظرة والرد على الخصوم ومن أشهر مؤلفاته: كتاب (الأم) في الفقه، وكتاب (الرسالة) في أصول الفقه، وهو يُعد أول كتاب يُصنف في هذا العلم. وقد لقي الشافعي تقديراً كبيراً من فقهاء عصره ومن بعدهم، سأل عبد الله بن أحمد بن حنبل والده عن الشافعي فقال: يا بني، كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للبدن.

وقيل فيه :

وَمَنْ يَكُ عِلْمُ الشَّافِعِيِّ إِمَامَةً

فمرته في باحة العلم واسع

وكان أحمد بن حنبل -أحد تلاميذه- يحرص على ألا يفوته درس الشافعي، ويقول لأحد أصحابه: (يا أبا يعقوب، اقتبس من الرجل، فإنه ما رأيت عينا مثله) وكان (سفيان بن عيينة) أستاذ الشافعي يستفسر منه عن بعض الأحكام الفقهية التي لم يقف عليها. وكان الشافعي يقضي الساعات الطوال في دروس متصلة، ينتقل من علم إلى علم، يجلس في حلقاته إذا صلى الفجر، فيأتيه من



بدون تعلم القرآن، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء طلاب الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه، فإذا انتهوا جاء بعدهم من يريد تعلم العربية والعروض والنحو الشعر، ويستمر الشافعي في دروسه من بعد صلاة الفجر حتى صلاة الظهر!! وكما كان الشافعي فقيها ومحدثاً كبيراً، كان أيضاً شاعراً رقيقاً فاض شعره بالتقرب إلى الله، فهذا هو ذا يستغفر الله ويدعوه قائلاً:

ولما قَسَا قَلْبِي وضَاقَتْ مذاهبي  
جعلتُ رجائي نحو عَفْوِكَ سُلْماً  
تعاظمني ذَنْبِي فلَمَّا قَرِئْتُه  
بعَفْوِكَ رَبِّي كان عَفْوُكَ أَعْظَمَ

ويوصي الشافعي من خلال شعره ألا نرد على السفية قائلاً:

إذا نطق السفية فلا تجبه  
فخبر من إجابته السكوت  
فإن كلمته فرجت عنه  
وإن خليته كمدًا يموت

ويصور عزة نفسه، وإن كانت ثيابه قديمة بالية، فتحتها نفس أبيّة عزيزة غالية لا مثيل لها فيقول:

عليّ ثياب لو يباع جميعها  
بفلس لكان الفلس منهن أكثر  
وفيهن نفس لو يُقاسُ ببعضها  
نفوسُ الوري كانت أجلاً وأكبراً

ومرض الشافعي، وقربت ساعة وفاته؛ فدخل عليه أحد أصحابه وقال له: كيف أصبحت؟ فأجاب الشافعي: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقاً، ومن كأس المنية شارباً، ولسوء عملي ملاقياً، وعلى الكريم سبحانه وارداً، ولا والله ما أدري روعي تصير إلى الجنة فأهنيها أو إلى النار فأعزيها. ومات الشافعي ليلة الجمعة من آخر رجب عام ٢٠٤هـ، وبعد صلاة العصر خرجت الجنازة من بيت الشافعي (بمصر) مختربة شوارع الفسطاط وأسواقها، حتى وصلت إلى درب السباع؛ حيث أمرت السيدة نفيسة -رضي الله عنها- بإدخال النعش إلى بيتها، ثم نزلت إلى فناء الدار وصلت عليه صلاة الجنازة، وقالت: رحم الله الشافعي إنه كان يحسن لوضوء.

## أحمد بن حنبل

خرجت صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيباني من مدينة (مرو) وهي تحمل في بطنها جنيناً، وما إن وصلت إلى بغداد حتى ولدت (أحمد بن حنبل) في شهر ربيع الأول سنة ١٦٤هـ.

كان والده قائداً في جيش خراسان، أما جده فكان والياً للأمويين في بلدة تسمى (سرخس) تابعة لبلاد خراسان، وحين بلغ أحمد من العمر ثلاث سنوات توفي والده، فنشأ يتيمًا، تكفله أمه وترعاه، وتقوم على تربيته والعناية به، وعاش أحمد عيشة فقيرة، فلم يترك له والده غير منزل ضيق، مما دفعه إلى العمل وهو طفل صغير، فكان يلتقط بقايا الزروع من الحقول بعد استئذان أهلها، وينسج الثياب ويبيعها، ويضطر في بعض الأوقات أن يؤجر نفسه ليحمل أمتعة الناس في الطريق، وكان ذلك عنده أفضل من أن يمد يده إلى غيره. حفظ أحمد القرآن الكريم، ولما بلغ أربع عشرة سنة، درس اللغة العربية، وتعلم الكتابة، وكان يحب العلم كثيراً حتى إن أمه كانت تخاف عليه من التعب والجهد الكبير الذي يبذله في التعلم، وقد حدث ذات يوم أنه أراد أن يخرج للمكان الذي يتعلم فيه الصبية قبل طلوع الفجر، فجذبته أمه من ثوبه، وقالت له: يا أحمد انتظر حتى يستيقظ الناس. ومضت الأيام حتى بلغ أحمد الخامسة عشرة من عمره فأراد أن يتعلم أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من كبار العلماء والشيوخ، فلم يترك شيخاً في بغداد إلا وقد

متفاد منه، ومن شيوخه: أبو يوسف، وهشيم بن مشير.

وفكر أحمد أن يطوف ببلاد المسلمين ليلتقي بكبار علمائها وشيوخها لينقل عنهم الأحاديث التي حفظوها، فزار الكوفة والبصرة، ومكة، والمدينة، واليمن، والشام والعراق وفارس وغيرها من بلاد الإسلام، فكان في رحلاته إذا لم يجد دابة يركبها يمشي حتى تتشقق قدماه ليلتقي بكبار العلماء في هذه البلاد، وظل أحمد طيلة حياته ينتقل من بلد إلى آخر، ليتعلم الحديث حتى أصبح من كبار العلماء.

سأله أحد أصحابه ذات يوم: إلى متى تستمر في طلب العلم، وقد أصبحت إماماً للمسلمين وعالمًا كبيراً؟! فقال له: (مع الخبرة إلى المقبرة) ومعنى ذلك أنه سيستمر في طلب العلم إلى أن يموت ويدخل القبر، ولم يكن في عصره أحد أحفظ منه لحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى سمّوه (إمام السنة وفقه المحدثين) وقالوا: إنه كان يحفظ ألف ألف حديث!! شملت المكرر من الحديث والآثار، وفتوى التابعين ونحو ذلك.

وبعد أن تعلم الإمام أحمد بن حنبل ما تعلم، وحفظ ما حفظ من أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جلس في المسجد الجامع ببغداد سنة (٢٤هـ) وعمره أربعون سنة، ليعلم الناس أمور دينهم؛ فأقبل الناس على درسه إقبالا عظيماً، فكانوا يذهبون إلى المسجد في الصباح الباكر ليتخذوا لهم مكاناً يجلسون فيه.

وكان أغلى شيء عند الإمام أحمد بن حنبل ما جمعه من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لذلك كان يكتبه في أوراق يحفظها في مكان أمين، وقد حدث ذات يوم أن سرق لص منزله، فأخذ ملابسه وكل ما في بيته، فلما جاء الإمام أحمد إلى البيت، لم يسأل عن شيء إلا عن الأوراق التي يكتب فيها أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولما وجدها اطمأن قلبه ولم يحزن على ما سرق منه. ولم يكن الإمام أحمد بن حنبل مجرد حافظ لأحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - بل كان يعمل بما في هذه الأحاديث، فيقول عن نفسه: ما كتبت حديثاً إلا وقد عملتُ به، وكان الإمام أحمد زاهداً في الدنيا، يرضى بالقليل، فقد كان كثير العبادة والذكر لله. وقد تعرض الإمام أحمد - رضي الله عنه - للتعذيب والأذى بسبب شجاعته من مواجهة الفتن والبدع التي حدثت في زمانه، تلك الفتن التي تعرض من أجلها للضرب والسجن في عهد الخليفة المعتصم، فكان يُضرب بالسياط، حتى أغمي عليه عدة مرات، ودخل السجن وظل فيه عامين ونصف، ثم خرج منه مريضاً يشتكي من الجراح، وظل في منزله بعض الوقت؛ حتى شفي وعاد إلى درسه، ولما تولى الخليفة (الواثق) الخلافة لم يتعرض الإمام أحمد للإيذاء، لكنه منعه من الاجتماع بالناس، فظل معزولاً عنهم، حتى مات الخليفة (الواثق) وتولى (المتوكل) الخلافة الذي عامل الإمام أحمد معاملة حسنة وعرض عليه المال، فرفضه، لكنه ألح عليه أن يأخذه، فتصدق به كله على الفقراء.

ورغم انشغال الإمام أحمد الشديد بالعلم وضيق وقته فإنه كان شديد الاهتمام بمظهره، فقد كان من أنظف الناس بدنًا، وأنقاهم ثوبًا، شديد الاهتمام بهذيب شعر رأسه، وكان الإمام أحمد يميل إلى الفقراء، ويقربهم منه في مجلسه، وكان حليماً، كثير التواضع تعلوه السكينة والوقار، وكان إذا جلس في مجلسه بعد العصر لا يتكلم حتى يُسأل، كما كان - رضي الله عنه - شديد الحياء، كريم الأخلاق، سخيًّا، وكان مع لينة شديد الغضب لله.

والإمام أحمد مؤسس المذهب الحنبلي أحد المذاهب الفقهية الأربعة، وقد ترك الإمام أحمد كتباً كثيرة منها: (المسند) وهو أكبر كتبه وأهمها بل هو أكبر دواوين السنة النبوية، إذ يحتوي على أربعين ألف حديث، وكتاب (الزهد) و(الناسخ والمنسوخ). ومرض الإمام أحمد - رضي الله عنه - واشتد عليه المرض يوم خميس، فتوضأ، فلما كانت ليلة الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٢٤١هـ، وفي بغداد صعدت روحه إلى بارئها، فحزن عليه المسلمون حزناً شديداً، وصاح الناس، وعلا بكأؤهم، حتى كأن الدنيا قد ارتجت، وامتألت السكك والشوارع، وأخرجت الجنازة بعد انصراف الناس من صلاة الجمعة، وشيعه ما يقرب من ست مائة ألف إنسان، بالإضافة إلى الذين صعدوا إلى أسطح المنازل ليلقوا نظرة الوداع الأخيرة على الإمام أحمد بن حنبل.

**ابن حزم**



ي مِنَ الدُّنْيَا عُلُومٌ أَبْتَهَـ  
وَأَنْشُرُهَا فِي كُلِّ بَادٍ وَحَاضِرٍ  
دُعَاءٌ إِلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ الَّتِي  
تَنَاسَى ذِكْرُهَا فِي الْمَحَاضِرِ

قد تحققت أمنيته أيها الفقيه، وأفكارك وكتيبك لها مكانة عظيمة في نفوس الكثيرين من أبناء الإسلام، يدرسونها بعناية، ويستفيدون منها، ويتخذون منها مصباحاً كلما ضل بهم الطريق. في (مدينة) قرطبة الساحرة، إحدى مدن الأندلس وفي قصر أحد الوزراء، في أواخر شهر رمضان في عام ٣٨٤هـ، كان ميلاد طفل مبارك أصبح له بعد ذلك شأن كبير، فرح به والده فرحاً شديداً، وشكر الله سبحانه وتعالى على نعمته وعطائه. نشأ الغلام في قصر أبيه نشأة كريمة، فقد كان أبوه وزيراً في الدولة العامرية وتعلم القرآن الكريم، والحديث النبوي، والشعر العربي، وفنون الخط والكتابة، وتمر الأيام ويكبر الغلام، فيجعله أبوه في صحبة رجل صالح يشرف عليه، ويشغل وقت فراغه، ويصحبه إلى مجالس العلماء.. إنه: (علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي) الشهير بابن حزم الأندلسي. كانت أسرته لها مكانة مرموقة وعراقة في النسب، فـ(بنو حزم) كانوا من أهل العلم والأدب، ومن ذوي الجند والحسب، تولى أكثر من واحد منهم الوزارة، ونالوا بقرطبة جاهاً عريضاً.

وكان (أحمد بن سعيد) والد (ابن حزم) من عقلاء الرجال، الذين نالوا حظاً وافراً من الثقافة والعلم، ولذلك كان يعجب ممن يلحن في الكلام، ويقول: (إني لأعجب ممن يلحن في مخاطبة أو يجيء بلفظة قلقة في مكاتبة، لأنه ينبغي له إذا شك في شيء أن يتركه، ويطلب غيره، فالكلام أوسع من هذا). وكانت هذه الثقافة الواسعة، والشخصية المتزنة العاقلة هي التي أهلت والد ابن حزم لتولي منصب الوزارة للحاجب المنصور ابن أبي عامر في أواخر خلافة بني أمية في الأندلس، وفي القصر عاش ابن حزم عيشة هادئة رغبة، ونشأ نشأة مترفة، تحوط بها النعمة، وتلازمها الراحة والترف، فلا ضيق في رزق ولا حاجة إلى مال، وحوله الجوارى الحسان ورغم هذه المغريات عاش ابن حزم عفيفاً لم يقرب معصية.. يقول في ذلك: (يعلم الله وكفي به عليمًا، أبي بريء الساحة، سليم الإدام (أي: أكل حلالاً) صحيح البشرة، نقي الحجرة، وأني أقسم بالله أجل الأقسام، أي ما حللت متزري على فرج حرام قط، ولا يحاسني ري بكبرة الزنى منذ عقلت إلى يومي هذا).

وتغيرت الأحوال؛ فقد مات الخليفة، وجاء خليفة آخر، فانتقل ابن حزم مع والده إلى غرب قرطبة بعيداً عن الفتنة، ومن يومها واخن تلاحق ابن حزم، فالحياة لا تستقر على حال، فقد كشرت له عن أنيابها، وأذاقته من مرارة كأسها، بعدما كانت له نعم الصديق، واضطر (ابن حزم) إلى الخروج من قرطبة إلى (المرية) سنة ٤٠٤هـ وبعدها عاش في ترحال مستمر بسبب السياسة واضطهاد الحكام له، وكان ابن حزم واسع الاطلاع، يقرأ الكثير من الكتب في كافة المجالات، ساعده على ذلك ازدهار مكتبات قرطبة بالكتب المتنوعة، واهتمام أهل الأندلس بالعلوم والآداب، واشتهر ابن حزم بعلمه الغزير، وثقافته الواسعة، فكان بحق موسوعة علمية أحاطت بالكثير من المعارف التي كانت في عصره في تمكن وإحاطة. قال عنه أحد العلماء (أبو عبد الله الحميدي): كان ابن حزم حافظاً للحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متفنتاً في علوم جمّة عاملاً بعلمه، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء، وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين.. وبعد أن بلغ ابن حزم رتبة الاجتهاد في الأحكام الشرعية، طالب بضرورة الأخذ بظاهر النصوص في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وكان ابن حزم متنوع الكتابات، كتب في علوم القرآن والحديث، والفقه والأديان، والرد على اليهود والنصارى، والمنطق.. وغيرها من العلوم، قال عنه أحد المؤرخين: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان (أي علوم اللغة) وزيادة حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار.. وقد بلغ ما كتبه ابن حزم أربعمئة مجلد، تشتمل على ثمانين ألف ورقة تقريباً، كما قال ابنه الفضل.. يقول عنه الإمام (أبو حامد الغزالي): وجدت في أسماء الله تعالى كتاباً ألفه (ابن حزم الأندلسي) يدل على عظيم حفظه وسيلان ذهنه. شغل ابن حزم منصب الوزارة ثلاث مرات، وكان وفيّاً للبيت الأموي الحاكم في الأندلس، وموالياً لهم، يعمل على إعادة الخلافة للدولة الأموية، ويرى

بعيتها في الخلافة، وبسبب ذلك كان يعرض نفسه للأسر أو السجن أو النفي، وقد دبر له خصومه المكائد، وأوقعوا بينه وبين السلطان حسداً وحقدًا عليه، حتى أحرقت كتبه في عهد (المعتضد بن عباد) فقال ابن حزم في ذلك:

فإن تحرقوا القُرطاس لا تحرقوا الذي

تضمّنه القُرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبـي

ويُنزل إن أنزل ويُدفن في قبـري

وقد منح الله ابن حزم ذاكرة قوية وبديهة حاضرة، فكان متواضعا لله، شاكرا له، يقول في ذلك: (وإن أعجبت بعلمك فاعلم أنه لا خصلة لك فيه، وأنه موهبة من الله مجردة، وهبك إياها ربك تعالى، فلا تقابلها بما يستخطه، فلعله ينسبك ذلك بعلّة يمتحنك بها، تولد عليك نسيان ما علمت وحفظت). وكان عزيز النفس، واثق الكلمة أمام خصومه وأعدائه، لا ينافق الحكام، ويرفض قبول هداياهم حتى لو سبب له ذلك الكثير من المتاعب، وكانت صفة الوفاء ملازمة له، فكان وفياً لدينه وإخوانه وشيوخه، ولكل من اتصل به. وتفرغ ابن حزم للتأليف؛ فأخرج كتباً كثيرة، مثل: (الحلى) في الفقه و(الفصل بين أهل الآراء والنحل) و(الإحكام في أصول الأحكام) و(جوهرة أنساب العرب) و(جوامع السير) و(الرد على من قال بالتقليد) و(شرح أحاديث الموطأ) كما يعد كتاب (طوق الحمامة) من أشهر كتبه، وفيه الكثير من الشعر الذي قاله في مختلف المناسبات.

وعاش هذا الفقيه في محراب العلم، يتصدى للظلم والجهل، ويجاهد مع ذلك هوى نفسه، وبعد حياة حافلة بالكفاح والعلم والصبر على الإيذاء، لقي ابن حزم ربه في الثامن والعشرين من شعبان سنة ٥٦٤ هـ عن عمر يقارب إحدى وسبعين سنة، ويقف (أبو يوسف يعقوب المنصور) ثالث خلفاء دولة الموحدين أمام قبره خاشعاً ولم يتمالك نفسه، فيقول: كل الناس عيال على ابن حزم.

## الجويني

بين أحضان والدين حريصين على تنشئة أبنائهما تنشئة إسلامية صحيحة، ولد عبد الملك بن عبد الله بن يوسف سنة ٤١٩ هـ في جوين (وهي مدينة بين بسطام ونيسابور) ببلاد فارس، فوالده (عبد الله الجويني) كان يعقد في (نيسابور) ببلاد فارس المجالس للمناظرة والفتوى، وتعليم الخاصة والعامة، وكان يحب العلم حباً شديداً حتى إنه كان يدعو ويقول: (اللهم لا تعقنا عن العلم بعائق ولا تمنعنا عنه بمانع) وكان زاهداً عابداً يحرص حرصاً شديداً على ألا يقع في الشبهات، حتى إنه كان يحتاط في أداء الزكاة فيؤديها في السنة مرتين، خوفاً من النسيان وزيادة في القربى. ولأزم الطفل الصغير (عبد الملك) والده الفقيه الحداث المتكلم، فتعلم الفقه واللغة العربية على يديه، كما تعلم من والده الالتزام بأخلاق الإسلام كالأمانة والصدق وحب الخير؛ فقد كان والده خير قدوة له، وتفوق الجويني على زملائه ممن كانوا يتعلمون على يد أبيه، ولم يقتصر إمام الحرمين على قراءة العلوم الإسلامية وحدها، بل إنه أخذ يطالع في كل العلوم، يصل ليله بنهاره قراءة واطلاعاً. وقبل أن يبلغ (عبد الملك) سن العشرين أصبح أحد الأئمة الكبار، وما إن توفي والده، حتى قعد مكانه للتدريس، إلا أنه استمر في تحصيل العلم، فكان يذهب إلى (أبي القاسم الإسفراييني) وهو من العلماء الكبار يتعلم منه الفقه والأصول، ويذهب في الوقت نفسه إلى مجالس (عبد الله محمد بن علي النيسابوري الخبازي) ليتلقى عنه علوم القرآن. وظل طوال الفترة التي أقامها بنيسابور يدرس علوم الدين، وكان بارعاً في مناظرة الخصوم، يحاورهم في ذكاء شديد، ولا يبغي من وراء ذلك إلا إظهار الحق، إلا أن أعداءه أخذوا يكيدون له، فترك (نيسابور) إلى بغداد واشتهر هناك، ووفد إليه الناس من كل مكان للتعلم على يديه، لكنه لم يقيم بها طويلاً، وإنما توجه إلى مكة، وظل بها أربع سنوات تفرغ فيها للعلم والعبادة ينشر العلم، ويلقي الدروس، ويجمع طرق المذهب الشافعي، وكانت هذه الفترة سبباً في تسميته بإمام الحرمين تكريماً له واعتزازاً بمجهوده وقدره. وكان يقضي نهاره في تعليم الناس، وهدايتهم إلى طريق الحق والنور، ويقضي ليله بجوار الكعبة الشريفة في عبادة الله، وبعد أن قضى أربع سنوات في مكة رجع إمام الحرمين إلى (نيسابور) وقام بالتدريس بالمدرسة النظامية، التي بناها له الوزير (نظام الملك) ليتولى الجويني التدريس بها لما

منه عنه من رسوخ في العلم ونبوغ لم يتوافر لغيره، وظل بها نحو ثلاثين سنة، وجاء إليه الكثيرون من شتى البلاد يطلبون العلم يديه، ومن أشهر تلاميذه: أبو حامد الغزالي، والكنيا الهراسي، وعبد الغافر بن إسماعيل الفارسي. وقد ترك (الجويني) مؤلفات عديدة من أهمها: كتاب (نهاية المطلب في دراية المذهب) وهو كتاب كبير في الفقه الشافعي و(البرهان في أصول الفقه) و(الإرشاد في أصول الدين) و(الرسالة النظامية) ومن كتبه أيضاً: (غياث الأمم في التياث الظلم) في الفقه السياسي الإسلامي و(الورقات) في أصول الفقه وأدلته.. وغيرها من الكتب المهمة، وقد مرض إمام الحرمين في أيامه الأخيرة، وتوفي وله من العمر ٥٩ سنة، وكان ذلك سنة ٤٧٨هـ.

## عز الدين بن عبد السلام

قل لي بالله عليك.. مالك لا تخاف سطوة ولا سلطاناً.. قهالك الملوك والسلاطين، وأنت الذي لا تحمل في يدك سوطاً ولا سيفاً؟! عفواً يا سلطان العلماء، لا تجب، فقد تذكرت أنك كنت عبداً طائعاً لله، تطيع أوامرهم، وتجنب نواهيهم، يعلو صوتك بالحق في وجه الطغاة، فمتحك الله قوة وعزة!! تمكن التتار من إسقاط الخلافة الإسلامية في بغداد عام ٦٥٦هـ، وواصلوا غزوهم إلى الشام ومصر حاملين معهم الخراب والدمار، فهاجر إلى مصر والشام أعداد غفيرة من العلماء، وأصبحت هذه البلاد مركزاً للعلم حيث انتشرت فيها المساجد والمدارس، ووفد إليها طلاب العلم، من كل مكان ليدرسوا علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه والنحو والصرف والتاريخ، إلى جانب الفلسفة والفلك والهندسة والرياضيات.. وغيرها. وسط هذا الجو الذي يشجع على التعلم والدراسة، ولد بدمشق عام ٥٧٧هـ (عز الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد السلام) ففتح عينيه على الحياة ليجد أسرته تعاني من الفقر وضيق العيش، ونشأ عز الدين على حب العلم، فسمع الحديث الشريف من العالم الجليل (فخر الدين ابن عساكر) الذي اشتهر بعلمه وزهده، وتعلم على يد قاضي قضاة (دمشق) الشيخ (جمال الدين بن الحارثاني) وغيرهما من الأساتذة الكبار، حتى أصبح عالماً له مكانته المرموقة بين أساتذته.

وكان منصب الخطابة في الجامع الأموي (بدمشق) منصباً عظيماً لا يتولاه إلا كبار العلماء، فتولاه (عز الدين بن عبد السلام) فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وصدع بكلمة الحق، ولم يكن يخشى في الله لومة لائم، فحارب كل بدعة، وأمات كل ضلالة، وكان يقول: (طوبى لمن تولى شيئاً من أمور المسلمين، فأعان على إماتة البدع وإحياء السنن). وفي عام ٦٣٥هـ ولاه السلطان الكامل الأيوبي قضاء دمشق، لكنه لم يستمر فيه طويلاً، بل تركه في العام نفسه عندما تولى الحكم (الصالح إسماعيل) الذي كان على خلاف مع الشيخ عز الدين؛ لأن الملك الصالح تحالف مع الصليبيين، وأعطاهم بيت المقدس وطبرية وعسقلان، وسمح لهم بدخول دمشق، وترك لهم حرية الحركة فيها، وشراء السلاح منها، وفوق ذلك وعد الصليبيين بجزء من مصر إذا هم نصره على أخيه نجم الدين أيوب سلطان مصر، فلم يرضَ الشيخ عز الدين بهذا الوضع المهين، فهاجم السلطان في خطبه من فوق منبر المسجد الأموي هجوماً عنيفاً، وقطع الدعاء له في خطب الجمعة، وأفتى بتحريم بيع السلاح للصليبيين أو التعاون معهم، ودعا المسلمين إلى الجهاد. غضب السلطان الصالح إسماعيل، وأمر بعزل (عز الدين) من إمامة المسجد الأموي، ومنعه من الفتوى والاتصال بالناس، ولم يكتف بذلك، بل منعه من الخروج من بيته، فقرر عز الدين الهجرة من (دمشق) إلى (مصر) فلما خرج منها عام ٦٣٨هـ ثار المسلمون في (دمشق) لخروجه، فبعث إليه السلطان أحد وزرائه، فلحق به في نابلس، وطلب منه العودة إلى دمشق، فرفض، فقال له الوزير: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وإلى ما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان، وتعتذر إليه وتقبل يده لا غير.

فقال عز الدين: والله يا مسكين، ما أَرْضَى أن يقبل السلطان يدي، فضلاً عن أن أقبل يده، يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ.. الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكُم به، فقال له الوزير: قد أمرني السلطان بذلك، فإما أن تقبله، وإلا اعتقلتك، فقال: افعلوا ما بدا لكم!! واعتقله جنود السلطان في نابلس، وظل في محبسه، حتى جاءت جنود مصر وخلصته، وجاء الشيخ عز الدين إلى القاهرة عام ٦٣٩هـ فرحب به (نجم الدين أيوب) سلطان مصر، وولاه منصب قاضي القضاة، وخطيب مسجد عمرو بن العاص، واشتهر الشيخ بالعدالة في القضاء، والجراة في الحق، حتى أحبه الناس والتفوا حوله. وقد حدثت له حادثة أثناء توليه القضاء تدل على شجاعته

بدله: فقد أفتى العز بن عبد السلام أن أمراء المماليك حكام مصر في ذلك الوقت مازالوا عبيدًا رقيقًا، وأنه يجب بيع هؤلاء المصالح بيت مال المسلمين وذلك لتحريرهم من عبوديتهم وعتقهم بالطريق الشرعي، حتى يجوز لهم أن يتصرفوا تصرف الأحرار، فكانت هذه الفتوى ضربة قاضية لهم، حطمت كبرياءهم، وعطلت مصالحهم بل إنهم أصبحوا مصدرًا لسخرية الناس بعد أن قوي نفوذهم، وزاد طغيانهم، وكثرت مظالمهم.

غضب الأمراء المماليك غضبًا شديدًا، وقدموا شكوى إلى السلطان، وطالبوه بأن يقنع العز بن عبد السلام، بالعدول عن رأيه، فتحدث معه السلطان في ذلك، وطلب منه أن يتركهم وشأنهم، فغضب عز الدين واستقال من منصب قاضي القضاة، وعزم على مغادرة مصر، فحمل أمتعته على حمار، وحمل أهله على حمار آخر، وسار خلفهم على قدميه خارجًا من القاهرة؛ وعندما علم الناس خروجوا وراءه، فخاف السلطان من الثورة، وقال له أعوانه: متى خرج عز الدين من مصر ضاع ملكك!! فركب السلطان بنفسه ولحق بالشيخ وطيب خاطره، لكنه لم يقبل أن يعود معه إلى القاهرة إلا بعد أن وافق السلطان على بيع الأمراء المماليك في مزاد علني. رجع الشيخ وأمر بأن ينادي على الأمراء في المزاد، وكان من بين الذين سيبيعون في المزاد نائب السلطنة، فغضب واشتد غيظه، ورفض أن يباع كما تباع الماشية، وصاح في كبرياء: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟! والله لأضربنه بسيفي. ركب نائب السلطان فرسه وأخذ معه جماعة من الأمراء، وذهبوا إلى بيت الشيخ يريدون قتله، وطرقوا الباب، فخرج ابن الشيخ فلما رآهم فرع ورجع إلى أبيه خائفًا يخبره بما رأى، ابتسم الشيخ في وجهه، وقال له: يا ولدي أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله، ثم خرج إلى أمراء المماليك، فنظر إليهم نظرة عزة وإباء، وأطال النظر إلى نائب السلطان الذي كان شاهراً سيفه؛ فارتعدت مفصل نائب السلطان وسقط السيف من يده، ثم بكى وسأل الشيخ أن يعفو عنه ويدعو له، وتم للشيخ ما أراد وباع الأمراء في المزاد واحدًا واحدًا، وغالى في ثمنهم، ثم صرفه في وجوه الخير. وكانت لسلطان العلماء (العز بن عبد السلام) مواقف إيمانية في ميدان الجهاد ضد التتار أعداء الإسلام والمسلمين، وكان له دور فعال في هذا الأمر، ولم يرص أن تتحمل جماهير الشعب وحدها نفقات الجهاد، وهو يعلم أن السلطان ورجاله لديهم أموال كثيرة فقال: إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وأن يؤخذ كل ما لدى السلطان والأمراء من أموال وذهب وجواهر وحلي، ويبقى لكل الجند سلاحه، وما يركبه ليحارب عليه ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ أموال الناس مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال، فلا. وقد اشترك الشيخ (عز الدين) بنفسه في الجهاد المسلح ضد العدو، وكان دائمًا يحرض السلطان (قطز) على حرب التتار حتى كتب الله له النصر في (عين جالوت) عام ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) وكان (العز بن عبد السلام) شجاعًا مقدامًا، فقد ذهب ذات مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة، فشاهد الأمراء والخدم والحشم يقبلون الأرض أمام السلطان، وشاهد الجند صفوفًا أمامه، ورأى الأئمة والعظمة تحيط به من كل جانب، فتقدم الشيخ إلى السلطان، وناداه باسمه مجردًا، وقال: يا أيوب، ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوء لك مصر، ثم تبيع الخمر؟ فقال السلطان نجم الدين أيوب: هل جرى هذا؟ قال الشيخ: نعم تباع الخمر في الحانات وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة، وأخذ الشيخ يناديه بأعلى صوته والعساكر واقفون. فقال السلطان: يا سيدي هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي.

فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة..

فأصدر السلطان أوامره بإغلاق تلك الحانات، ومنع تلك المفاسد، وشاع الخبر بين جمهور المسلمين وأهل القاهرة، فسأل أحد تلاميذ الشيخ عن السبب الذي جعله ينصح السلطان أمام خدمه وعساكره في مثل هذا اليوم الكريم؟ فقال الشيخ: يا بني، رأيت السلطان في تلك العظمة، فأردت أن أذكره لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه.. قال التلميذ: أما خفته؟ قال عز الدين: والله يا بني، استحضرت هيبته الله تعالى فلم أخف منه.

وكان (العز بن عبد السلام) رغم فقره كريمًا كثير الصدقات، فيحكي أنه لما كان بدمشق، وحدثت ضائقة، وعانى الناس من قلة المال، وانخفضت أسعار البساتين فأعطته زوجته مصاغها، وقالت: اشتر لنا بثمانه بستانا نصيف فيه، فأخذ المصاغ وباعه وتصدق

منه، فسألته زوجته: هل اشتريت لنا بستاناً؟ قال: نعم، بستاناً في الجنة، إني وجدت الناس في شدة، فتصدقتُ بثمانه، فقالت: يا الله خيراً. وعاش الشيخ (عز الدين) ٨٣ عاماً يدعو إلى الله ويجاهد في سبيله، يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر إلى أن توفي عام ٦٦٠هـ، فخرج الرجال والنساء والشباب والأطفال يودعون سلطان العلماء، وصلى عليه سلطان مصر والشام - في ذلك الوقت - الظاهر (بيبرس). وقد أشاد به العلماء والمؤرخون حتى أطلق عليه تلميذه شيخ الإسلام (تقي الدين بن دقيق العيد) لقب (سلطان العلماء).. رحم الله العز بن عبد السلام رمز العزة والإباء.

## ابن تيمية

(حبسي خلوة، وقتلي شهادة، ونفيي سياحة) رحمك الله يا شيخ الإسلام !!

سقطت (بغداد) في يد التتار، فأخذوا يخربون البلاد، ويأسرون العباد، والناس يفرون من أمامهم، وقد ساد الناس ذعر شديد، وفي هذا الوقت العصيب وُلد (تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية) في (حوران) بالغرب من دمشق في يوم الاثنين ١٠ ربيع الأول ٦٦١هـ الموافق ١٢ يناير ١٢٦٣م، بعد سقوط بغداد في أيدي التتار بثلاث سنوات.

وخوفاً من بطش التتار انتقل به والده إلى (دمشق) وكانت مليئة بالعلماء والمدارس، فأخذ يتلقى العلم على علمائها وشيوخها حتى وصل عدد شيوخه إلى (٢٠٠) شيخ، وتفوق (ابن تيمية) في دراسة الحديث والفقه والخط والحساب والتفسير وسنه لا تتجاوز عشر سنوات، فقد كان الطفل الصغير (ابن تيمية) سريع الحفظ، قوي الذاكرة، حتى أدهش أساتذته وشيوخه من شدة ذكائه. ولم يكن الطفل الصغير (ابن تيمية) كغيره من الأطفال يلعب ويلهو، بل كان يسارع إلى مجالس العلماء يستمع إليهم، ويستفيد منهم، ولما بلغ السابعة عشرة من عمره بدأ في التأليف والإفتاء، فالتسعت شهرته وذاع صيته، ولما توفي والده الذي كان من كبار الفقهاء في الفقه الحنبلي؛ تولى التدريس بدلاً منه. كان الإمام (ابن تيمية) جريئاً في إظهار رأيه، مدافعاً عن السنة حتى سمي بـ (محبي السنة).. عاش ابن تيمية فترة صباه أيام حكم الملك الظاهر بيبرس لمصر والشام الذي غني بالجهاد في سبيل الله، فوقف (ابن تيمية) معه ثم مع السلطان قلاوون، وجاهد بسيفه ضد التتار الذين هجموا على البلاد، وذهب على رأس وفد من العلماء وقابل (قازان) ملك التتار، وأخذ يخوفه مرة ويقنعه مرة أخرى حتى توقف زحف التتار على دمشق، وأطلق سراح الأسرى. وكان ابن تيمية قوي الإيمان، فصيح اللسان، شجاع القلب، غزير العلم، وكان وحده قوة عظمى يحسب لها الأعداء ألف حساب، فازداد الناس تعلقاً به، والتفافاً حوله، وظل ابن تيمية يقضي وقته بين التدريس في المساجد، وتبصير الناس بأمور دينهم، وبيان ما أحل الله وحرم، والدفاع عن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن أعداءه ومنافسيه كانوا له بالمرصاد، فأوقعوا بينه وبين سلطان مصر والشام (ركن الدين بيبرس الجاشنكير) فنقل إلى مصر وتمت محاكمته بحضور القضاة وكبار رجال الدولة، فحكموا عليه بالحبس سنة ونصف في القلعة، ثم أخرجوه من السجن، وعقدوا جلسة مناظرة بينه وبين منافسيه وخصومه، فكسب (ابن تيمية) المناظرة، ورغم ذلك لم يتركه الخصوم فئني إلى الشام، ثم عاد مرة أخرى إلى مصر وحبس، ثم نقل إلى الإسكندرية حيث حبس هناك ثمانية أشهر. واستمرت محنة (ابن تيمية) واضطهاده إلى أن عاد إلى القاهرة حيث قرر السلطان الملك (الناصر محمد بن قلاوون) براءته من التهم الموجهة إليه، وأعطاه الحق في عقاب خصومه الذين كانوا السبب في عذابه واضطهاده، لكن الإمام (ابن تيمية) فضّل أن يعفو عنهم !! وهكذا تكون شيم الكرام. وظل (ابن تيمية) في القاهرة ينشر العلم، ويفسر القرآن الكريم، ويدعو المسلمين إلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، ثم رحل إلى (دمشق) بعد أن غاب عنها سبع سنين، وخلال وجوده هناك أفتى في مسألة، فأمره السلطان بأن يغير رأيه فيها، لكنه لم يهتم بأوامر السلطان وتمسك برأيه وقال: (لا يسعني كتمان العلم) فقبضوا عليه وحبسوه ستة أشهر، ثم خرج من سجنه، ورجع يفتي بما يراه مطابقاً لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. لكن خصومه انتهزوا فرصة إفتائه في مسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين، فقد كان (ابن تيمية) يرى أن تلك الزيارة ليست واجبة على المسلمين، فشنعوا عليه حتى حبس هو وأخوه الذي كان يخدمه، ورغم ذلك لم ينقطع عن التأليف والكتابة، لكنهم منعه من ذلك، فأرادوا كتمان صوت علمه



سما، فأخرجوا ما عنده من الحبر والورق، فلم تلن عزيمته ولم تضعف همته وتحداهم، فكان يكتب بالفحم على أوراق مبعثرة هنـه وهناك، وكان من أقواله (حبسي خلوة، وقتلي شهادة، ونفسي سياحة).  
وقد توفي (ابن تيمية) عام ٧٢٨هـ وهو على حاله صابراً مجاهداً، مشتغلاً بالعلم، وحضر جنازته أكثر من خمسمائة ألف مسلم، وله مؤلفات كثيرة تجاوزت ثلاثمائة مجلد أغلبها في الفقه وأصوله والتفسير، ومن أهم كتبه (منهاج السنة) و(درء تعارض العقل والنقل) و(اقتضاء الصراط المستقيم) و(الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) و(الصارم المسلول على شاتم الرسول) و(الفتاوى الكبرى) و(مجموع الفتاوى) و(السياسة الشرعية في صلاح الراعي والرعية).

## سفيان الثوري

في مدينة الكوفة، ولد (سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري) أحد الأئمة الأعلام سنة ٩٧هـ، وفتحت عيننا سفيان على الحياة، فوجد كتب الحديث والفقه تحيط به من كل جانب، فقد كان والده من العلماء الكبار الذين يحفظون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. نشأ سفيان في أسرة فقيرة صالحة تعبد الله حق عبادته، وكانت أمه تنظر إليه وهو مازال طفلاً وتقول له: (اطلب العلم وأنا أعولك بمغزلي، وإذا كتبت عشرة أحرف، فانظر هل ترى في نفسك زيادة في الخير، فإن لم ترَ ذلك فلا تتعب نفسك)..  
فيالها من أم صالحة!! لا تفكر في الجاه ولا الثراء، ولكن كل ما كانت ترجوه لولدها أن يتعلم علماً نافعا يبتغي به وجه الله، وبدأ (سفيان) يتعلم ويجعل من والده قدوة صالحة له، ويستجيب لرغبة والدته التي أحبها من قلبه. ومرت الأيام، وأصبح سفيان شاباً فتياً، وفي إحدى الليالي أخذ يفكر ويسأل نفسه: هل أترك أُمِّي تنفق علي؟ لابد من الكسب والعمل.. لأن أخلف عشرة آلاف درهم أحاسب عليها، أحب إليَّ من أن أحتاج إلى الناس؛ فالمال ضروري للإنسان حتى ولو كان عابداً زاهداً، ومن أجل ذلك عمل سفيان بالتجارة، ولم يكن المال هدفه في الحياة، بل وهب سفيان نفسه للعلم وأخذ يتعلم ويحفظ أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصبح في دنياه لا يطلب إلا العلم، فكان يقول: (الرجل إلى العلم أحوج منه إلى الخبز واللحم). واشتهر سفيان بين الناس بعلمه وزهده وخوفه من الله، وظل طالب علم، متواضعاً يتعلم ويستفيد من الآخرين، يستمع إليهم، ويحفظ ما يقولون، وينشر ما تعلمه على الناس، يأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر، ويملي عليهم أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكان سفيان الثوري إذا لقي شيخاً سأل: هل سمعت من العلم شيئاً؟ ولقد منحه الله ذاكرة قوية فحفظ الآلاف من أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- التي كان يحفظ أكثر من نفسه. كان ينصح العلماء ويقول لهم: (الأعمال السيئة داء، والعلماء دواء، فإذا فسد العلماء فمن يشفي الداء؟! ) وكان يقول: (إذا فسد العلماء، فمن بقي في الدنيا يصلحهم) ثم ينشد:

يا معشرَ العلماءِ يا مِلْحَ البلدِ

ما يصلح الملح إذا الملح فسَدَ

وبمرور الأيام، كانت شهرة سفيان الثوري تزداد في بلاد الإسلام، ويزداد معها احترام الناس له، لخلقه الطيب، وعلمه الغزير، وحبه لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحابته، حتى إن أحد العلماء قال عنه: ما رأيت أحداً أعلم من سفيان، ولا أروع من سفيان، ولا أفقه من سفيان، ولا أزهد من سفيان، وكان الناس يتسابقون إلى مجلسه ويقفون بباب داره في انتظار خروجه.. قال عنه شعبة وغيره: سفيان أمير المؤمنين في الحديث، وقال عبد الرحمن بن مهدي: ما رأيت أحفظ للحديث من الثوري. ولذلك كان ينصح الناس قائلاً: أكثرُوا من الأحاديث؛ فإنها سلاح، وكان يتجه إلى الشباب الذي كان ينتظر خروجه من منزله ويقول لهم: (يا معشر الشباب تعجلوا بركة هذا العلم) وكان سفيان لا يخشى أحداً إلا الله، كثير القراءة للقرآن الكريم، فإذا تعب من القراءة وضعه على صدره، حريصاً على الصلاة في الثلث الأخير من الليل، وإذا نام قام ينتفض مرعوباً ينادي: النار النار.. شغلني النار عن النوم والشهوات، ثم يطلب ماء، فيتوضأ ثم يصلي فيبكي بكاء شديداً.

عاش سفيان حياته كلها يدعو إلى الله، وكانت سعادته في هداية إنسان عاصٍ أحب إليه من الدنيا وما فيها، وعرض عليه أن يكون قاضياً فهرب خوفاً من الحساب أمام الله، وأرسلت إليه هدايا الملوك والأمراء فرفضها، فعاش حياته لله، وفي سبيل الله، وبعد هذه

ياة الكريمة في خدمة الإسلام والمسلمين، مات سفيان الثوري بالبصرة في شعبان سنة ١٦١هـ.

## البخاري

فتح عينيه على الحياة فوجد العلم يحيط به من كل جانب، وشاهد منذ طفولته حلقات الحديث والفقه والتفسير تموج بطالي العلم حول شيخ أو معلم زاده العلم بماء ووقاراً، فأحب أن يكون مثل هؤلاء وتطلعت نفسه إلى تحقيق ذلك، فكان له ما أراد؛ فملاً الدنيا علماً، ورددت الألسنة ذكره إعجاباً وإجلالاً، أليس هو صاحب صحيح البخاري، إنه الإمام (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة) الإمام الحافظ البخاري. ولد بمدينة (بخارى) وهي تقع في جمهورية أوزبكستان سنة ١٩٤هـ، وكان والده عالم كبير يحفظ آلاف الأحاديث النبوية، ورحل في طلب العلم إلى المدينة المنورة، وتعلم على أيدي كبار العلماء والمحدثين، أمثال: مالك بن أنس، وحماد بن زيد وغيرهما، وكان رجلاً غنياً، أنعم الله عليه بثروة كبيرة كان ينفقها في الخيرات على الفقراء والمساكين. توفي والد البخاري وتركه طفلاً مع والدته بعد أن ترك له مالا كثيراً وعلماً نافعاً، وظلت أمه تعطف عليه وتحيطه بحنانها ورعايتها لتعوضه عن فقد أبيه، وما إن بلغ البخاري سن العاشرة حتى ظهرت عليه علامات الذكاء والتفوق؛ فحفظ القرآن الكريم وكثيراً من الأحاديث النبوية، وتردد على حلقات علماء الحديث في بلده ليتعلم على أيديهم، وعمره إحدى عشرة سنة، وكان مع صغر سنه يصحح لأساتذته وشيوخه ما قد يخطئون فيه. ومن ذلك ما روي عنه أنه دخل يوماً على أستاذه (الداخلي) فقال الداخلي: عن سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقال له البخاري: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم وقال له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك، فدخل فنظر فيه، ثم رجع فقال: كيف هو يا غلام؟ فقلت: هو الزبير بن عدي عن إبراهيم، فأخذ القلم وأصلح كتابه، وقال لي: صدقت.. وقد ساعد البخاري على ذلك حفظه الجيد للأحاديث، وذاكرته القوية والكتب الكثيرة التي تركها له والده، فحفظها ودرسها دراسة جيدة، وأصبح البخاري -ذلك الغلام الصغير- يحترمه الشيوخ ويقدرونه حق قدره، ولم لا، وهو يحفظ في هذه السن كتب ابن المبارك ووكيع بن الجراح وهما من أئمة الحديث النبوي وكثير من الأحاديث؟! فقد قرأ على زملائه خمسة عشر ألف حديث عن ظهر قلب، وفي كل يوم كان البخاري يزداد علماً، وكان مشايخه يأملون له خيراً ويتوقعون له مستقبلاً كريماً، وكان من الممكن أن يقنع الفتى الصغير بذلك القدر من العلم، ولكنه رحل مع والدته وأخيه الأكبر أحمد إلى مكة المكرمة لتأدية فريضة الحج وعمره ستة عشر عاماً ولما أدى الفريضة استقر هناك يتعلم الحديث على أيدي علماء مكة وشيوخها، ثم رحل إلى المدينة المنورة فزار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم. وظل في المدينة المنورة سنة، ثم رحل إلى البصرة ليسمع الحديث، ومكث بها خمس سنوات، كان يتردد فيها على مكة المكرمة في مواسم الحج؛ ليلتقي فيها بعلماء المسلمين، وظل البخاري ينتقل في بلاد الإسلام لطلب العلم. يقول البخاري عن نفسه: لقيت أكثر من ألف رجل، أهل الحجاز والعراق والشام ومصر لقيتهم مرات؟ أهل الشام ومصر والجزيرة مرتين، وأهل البصرة أربع مرات، ومكثت بالحجاز ستة أعوام، ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع محدثي خراسان.

كتب البخاري الحديث وسمعه عن ألف وثمانين من الشيوخ وحفاظ الحديث، وكان يدون الأحاديث الصحيحة، ويترك الأحاديث التي يشك في أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قالها، وقد أدهش البخاري العلماء والشيوخ لسرعة حفظه للأحاديث حتى ظنوه يشرب دواءً للحفظ، فقد كان البخاري ينظر إلى الكتاب مرة واحدة فيحفظ ما فيه من أحاديث لا يستطيع غيره أن يحفظها في شهور عديدة. وفي أحد رحلاته إلى بغداد أراد العلماء أن يختبروه فاجتمعوا واختاروا مائة حديث، وقلبوا متونها وأسانيدها أي أسندوا الأحاديث إلى غير رواها، ليتمحنوا حفظه، ودفعوا إلى كل واحد عشرة أحاديث ليلقوها على البخاري في المجلس، فقام أحدهم فسأل البخاري عن حديث من عشرته، فقال: لا أعرفه، وسأله عن آخر فقال: لا أعرفه وهكذا حتى فرغ من أحاديثه العشرة، ثم قام آخر فسأل البخاري، وكذلك الثالث والرابع إلى آخر العشرة..

فلما فرغوا التفت البخاري إلى الأول منهم فقال له: أما أحاديثك: فالأول قلت كذا وصحته كذا، والثاني قلت كذا وصحته كذا... إلى آخر العشرة أحاديث؛ وفعل بالآخرين مثل ذلك، عندئذ أقر له الناس بالحفظ.



كان البخاري عالماً كبيراً إذ كان يحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتي ألف حديث غير صحيح، مما جعل عشرات الآلاف من طلاب العلم يلتفوا حوله؛ لينهلوا منه ويتعلموا عليه، ومن أشهرهم الإمام مسلم صاحب كتاب الجامع الصحيح، وقد أنثى العلماء على البخاري، فقال ابن خزيمة: ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل البخاري.. وقال قتيبة بن سعيد: جالست الفقهاء والعباد والزهاد فما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل (البخاري) وهو في زمانه كعمر في الصحابة. وكان البخاري كثير العبادة لله - عز وجل - يجتمع مع أصحابه في أول شهر رمضان، فيصلي بهم ويقرأ في كل ركعة عشرين آية، ويظل هكذا إلى أن يجتم القرآن، وكان يقرأ في السحر ما بين النصف إلى الثلث من القرآن، وكان يجتم بالنهار في كل يوم ختمة ويقول: عند كل ختمة دعوة مستجابة، وكذلك كان ينفق من أمواله الكثيرة التي ورثها عن أبيه على الفقراء من المسلمين، وتعلم البخاري رمي السهام، ولم يشغله طلب العلم عن ذلك، بل إنه كان يرى ذلك واجباً على كل مسلم؛ حتى يستطيع الدفاع عن ديار المسلمين. وعاد البخاري إلى بلده (بخارى) فاستقبله أهلها أروع استقبال، ومن فرحتهم الشديدة بقدمه نشروا عليه الدراهم والدنانير، فعقد جلسات للعلم في مسجده ومثله ليورث علمه للمسلمين، ولم يخل البخاري بعلمه على أحد، غير أن أمير بخارى (خالد بن أحمد) طلب منه أن يأتيه بكتبه؛ حتى يسمعها له ولأولاده في قصره وحدهم، فرفض البخاري أن يستجيب لطلبه، وقال: من أراد أن يتعلم فليأت إلى مجلس العلم، فالعلم يؤتى له ولا يأتي، ولا يمكنني أن أحرم الناس الآخرين من علمي، وقال لرسول الأمير قل له: إني لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب السلاطين فإن كان له إلي شيء منه حاجة فليحضر في مسجدي أو في داري، وإن لم يعجبه هذا فإنه سلطان فليمنعني من الجلوس، ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة لنلا أكرم العلم. وظل الإمام البخاري عزيزاً كريماً، لا يخضع لأحد مهما كان مركزه وقدره، فأحبه الناس، وأراه الله في حياته قبل مماته منزله ومكانته، حيث كان الناس ينصرونه بأنفسهم حفظاً للعلم والعلماء، وكتب إليه أهل بغداد يوماً قائلين:

المُسْلِمُونَ بِخَيْرٍ مَا بَقِيََتْ لَهُمْ  
وَلَيْسَ بَعْدَكَ خَيْرٌ حِينَ تُفْتَقَدُ

وقد كتب الإمام البخاري الكثير من الكتب النافعة؛ من أشهرها: كتابه (الجامع الصحيح) المعروف بصحيح البخاري الذي كان يغتسل ويصلي ركعتين لله قبل أن يكتب أي حديث فيه، وقد كتبه في ست عشرة سنة، ويعد أصح كتب الحديث على الإطلاق وألف أيضاً (التاريخ الكبير) في تراجم رجال الحديث، و(الأدب المفرد). وقد توفي البخاري ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦هـ بعد أن ملأ الدنيا بعلمه وأضاءها بإخلاصه.. رحم الله البخاري جزاء ما بذل وقدم.

## ابن ماجه

يا للعجب!! هاهي ذي أرض الفرس، التي كانت أرضاً للكفر تنجب الكثير من رجال الإسلام وأعمدة دفاعه، ويظهر منها عدد كبير من كبار المحدثين والفقهاء، يحفظون سنة النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، وتحققت بذلك نبوءة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: كنا جلوساً عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فأنزلت عليه سورة الجمعة، وفيها قول الله تعالى: {وآخرين منهم لما يلحقوا بهم} [الجمعة: ٣] فقلت: من هم يا رسول الله؟ فلم يجبه الرسول صلى الله عليه وسلم حتى سأله أبو هريرة ثلاث مرات، فوضع الرسول - صلى الله عليه وسلم - يده على سلمان الفارسي - رضي الله عنه - ثم قال: (لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال - أو رجل - من هؤلاء) [متفق عليه]. ففي بلدة (قزوين) التي تقع في أذربيجان، ولد (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني) الشهير بابن ماجه، نسبة إلى لقب والده سنة (٢٠٩هـ) وكانت ولادته في زمن الخليفة المأمون الذي كان عهده مليئاً بأئمة الفقه والحديث، وكانت (قزوين) قد فتحت في خلافة عثمان ابن عفان - رضي الله عنه - في سنة ٢٤هـ، وأصبحت ذات شهرة كبيرة في رواية الحديث النبوي الشريف، فمن أرضها خرج كبار المحدثين الذين يحفظون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشرونها بين الناس. وقد حفظ ابن ماجه القرآن الكريم، وتعلم الحديث الشريف على يد المشايخ والمحدثين الكبار أمثال: (إسماعيل

نوبة القزويني) وهو محدث وفقيه مشهور، و(هارون بن موسى بن حيان التميمي) و(علي بن محمد أبو الحسن الطنفاقي).. وغيرهم. رحل ابن ماجه في طلب العلم، وأخذ ينتقل من بلد إلى آخر، ليتعلم ويسمع من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهب إلى خراسان، والعراق، والحجاز ومصر، والشام.. وغيرها من البلاد، ثم أمى ابن ماجه رحلاته في طلب الحديث وعاد إلى بلده (قزوين) وأمضى بها بقية عمره في خدمة الحديث إلى أن توفي في عهد الخليفة العباسي (المعتمد على الله) في يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء الموافق الثاني والعشرين من رمضان سنة ٢٧٣هـ عن عمر يقارب الرابعة والستين. وكانت لابن ماجه مؤلفات في التفسير والتاريخ، إلا أن أشهر كتبه (السنن) الذي استحق به الإمامة في الحديث الشريف، فهو من كتب الحديث المعتمدة عند علماء الحديث، وأحد كتب الحديث الستة المعروفة، وهي صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن ابن ماجه، وقد احتوت سنن ابن ماجه على كثير من الأحاديث التي لم تروها كتب الحديث الأخرى، كما تضم سنن ابن ماجه أربعة آلاف من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

## أبو داود

في إقليم صغير مجاور لإقليم السند يدعي (سجستان) ولد (أبو داود سليمان بن الأشعث بن بشر بن شداد بن إسحق السجستاني) سنة ٢٠٢ هـ، وأحب الحديث منذ صغره، فطاف البلاد يسمع الأحاديث من المشايخ الكبار في الشام ومصر والحزيرة والعراق وخراسان.. وغيرها من أمثال (أحمد بن حنبل) و(يحيى بن معين) و(مسدد بن مسرهد) و(قتيبة بن سعيد). تألق نجم أبي داود في الحديث واشتهر بعلمه وعمله، حتى أصبح من كبار أئمة الإسلام في عصره، وروي عنه الترمذي والنسائي وغيرهما من الأئمة الأعلام، ذهب أبو داود إلى بغداد ومنها إلى البصرة ويروى في سبب رحيله إليها: أنه ذات يوم طرق باب أبي داود طارق؛ ففتح له الخادم، فإذا بالأمير (أبو أحمد الموفق) ولي عهد الخليفة العباسي يستأذن، فأذن له أبو داود، فدخل الأمير وأقبل عليه، فقال له أبو داود: ما جاء بالأمير في هذا الوقت؟! فقال: خلال ثلاث، يعني أسباب ثلاثة: أما الأولى: أن تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطنًا، ليرحل إليك طلبة العلم من أقطار الأرض، فتعمر بك، بعد أن خربت وانقطع عنها الناس بعد محنة الزنج. والثانية: أن تروي لأولادي كتاب (السنن). والثالثة: أن تفرد لهم مجلسًا لأن أبناء الخلفاء لا يجلسون مع العامة!! فقال أبو داود: أما الثالثة فلا سبيل إليها لأن الناس شريفهم ووضعهم في العلم سواء. وحاز كتاب السنن الذي جمعه أبو داود وعُرفَ بـ(سنن أبي داود) إعجاب الناس وتقدير العلماء، فقد روي أنها قرئت على ابن الأعرابي فأشار إلى النسخة، وهي بين يديه، وقال: لو أن رجلاً لم يكن عنده من العلم إلا كتاب الله عز وجل ثم هذا الكتاب يقصد سنن أبي داود، لم يحتج إلى شيء من العلم بعد ذلك، وهذا الكتاب الذي يبلغ عدد أحاديثه نحو أربعة آلاف حديث وثمان مائة حديث اختارها أبو داود من بين خمس مائة ألف حديث كتبها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان أبو داود متمسكًا بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، حريصًا كل الحرص على تطبيقها، وبيان أهميتها للناس ليقوموا بأدائها، وكان لأبي داود منهج أشبه بمنهج الصحابة في اتباع السنة النبوية والتسليم بها، وترك الجدل في الأمور التي تشعل نار الفتنة بين المسلمين. مات أبو داود عن ثلاثة وسبعين عامًا، قضاه في خدمة السنة النبوية المطهرة، بعد أن ترك له ابنًا يشبهه في كثير من صفاته هو: الحافظ (أبو بكر عبد الله بن أبي داود) الذي كان تلميذًا نجيبًا لوالده، وشارك أباه في التلمذ على شيوخه بمصر والشام، وسمع الحديث عن كبار العلماء ببغداد وخراسان وأصبهان وسجستان وشرiraz، فصار عالمًا فقيهاً، وألف كتاب (المصابيح). رحم الله أبا داود وجزاه الله عن الإسلام خيرًا، لقد كان للسنة النبوية الشريفة حصنًا منيعًا.

## ابن حجر العسقلاني

ن يوم وفاته يوماً مشهوداً، اجتمع في تشييع جنازته من الناس ما لا يحصيه إلا الله، حتى كادت تتوقف حركة الحياة بمصر، يتقدمهم سلطان مصر والخليفة العباسي والوزراء والأمراء والقضاة والعلماء، وصلت عليه البلاد الإسلامية صلاة الغائب، في مكة وبيت المقدس، والخليل.. وغيرها، ورثاه الشعراء بقصائدهم، والكتاب برسائلهم.

إنه شيخ الإسلام (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني) المصري المولد والنشأة، المعروف بابن حجر، وهو لقب لبعض آبائه، وُلد بمصر العتيقة (الفسطاط) في ١٢ شعبان سنة ٧٧٣هـ، ونشأ يتيماً، فما كاد يتم الرضاعة حتى فقد أمه، وما إن بلغ الرابعة من عمره حتى توفي أبوه في رجب ٧٧٧هـ، تاركاً له مبلغاً من المال أعانه على تحمل أعباء الحياة، ومواصلة طلب العلم. وبعد موت أبيه، كفله (زكي الدين الخروبي) كبير تجار مصر، الذي قام بتربيته والعناية به، فحفظ ابن حجر القرآن الكريم، وجوَّده وعمره لم يبلغ التاسعة، ولما رحل الخروبي إلى الحج سنة ٧٨٤هـ رافقه ابن حجر وهو في نحو الثانية عشرة من عمره، ليدرس في مكة الحديث النبوي الشريف على يد بعض علمائها.

ولما عاد إلى القاهرة، درس على عدد كبير من علماء عصره أمثال: (سراج الدين بن الملقن) و(البلقيني) و(العز بن جماعة) و(الشهاب البوصيري) ثم قام ابن حجر برحلات دراسية إلى الشام والحجاز واليمن، واتصل بمجد الدين الشيرازي، وتعلم اللغة صاحب (القاموس المحيطة) عليه يديه، غير أن ابن حجر وجد في نفسه ميلاً وحباً إلى حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- فأقبل عليه منكباً على علومه مطالعة وقراءة، وأجازه معظم شيوخه بالرواية وإصدار الفتاوى والقيام بالتدريس، فكانت تقام له حلقات الدرس، ويجلس فيها العلماء في كل بلد يرحل إليه، حتى انتهت إليه الرياسة في علم الحديث في الدنيا بأسرها، وبلغت شهرته الآفاق، وارتحل أئمة العلم إليه من كل أنحاء العالم الإسلامي. وقد أهَّله علمه الغزير أن يشغل عدة مناصب مهمة، فقام بتدريس الحديث والتفسير في المدرسة الحسنية، والمنصورية، والجمالية، والشيخونية والصاحية.. وغيرها من المدارس الشهيرة بمصر، كما تولى مشيخة المدرسة البيبرسية، وولي الإفتاء بدار العدل، وتولى ابن حجر منصب القضاء، واستمر في منصبه نحو عشرين سنة شهد له فيها الناس بالعدل والإنصاف، وإلى جانب ذلك تولى الخطابة في الجامع الأزهر ثم جامع عمرو بن العاص. وكان من عادة ابن حجر أن يجتمع في شهر رمضان قراءة صحيح البخاري على مسامع تلاميذه شرحاً وتفسيراً، وكانت ليلة الختام بصحيح البخاري كالعيد؛ حيث يجتمع حوله العلماء والمريدون والتلاميذ، ثم توجَّهَ لصحيح البخاري وشغفه به بأن ألَّف كتاباً لشرحه سماه (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) استغرق تأليفه ربع قرن من الزمان!! حيث بدأ التأليف فيه في أوائل سنة ٨١٧هـ وانتهى منه في غرة رجب سنة ٨٤٢هـ. وهذا الكتاب يصفه تلميذه (السخاوي) بأنه لم يكن له نظير، حتى انتشر في الآفاق وتساوق إلى طلبه سائر ملوك الأطراف، وقد بيع هذا الكتاب آنذاك بثلاثمائة دينار وقد كتب الله لابن حجر القبول في زمانه، فأحبه الناس؛ علماءهم وعوامهم، كبارهم وصغيرهم، رجالهم ونسائهم، وأحبه أيضاً النصارى، وكانت أخلاقه الجميلة وسجاياه الحسنة هي التي تحملهم على ذلك، فكان يؤثر الحلم واللين، ويميل إلى الرفق وكظم الغيظ في معالجة الأمور، يصفه أحد تلاميذه بقوله: كل ذلك مع شدة تواضعه وحلمه وبهائه، وتحريه في مأكله ومشربه وملبسه وصيامه وقيامه، وبذله وحسن عشرته ومحاضراته النافعة، ورضي أخلاقه، وميله لأهل الفضائل، وإنصافه في البحث ورجوعه إلى الحق وخصاله التي لم تجتمع لأحد من أهل عصره. وقد ترك لنا ابن حجر ثروة ضخمة من الكتب تزيد على المائة والخمسين كتاباً، أهمها:

(فتح الباري بشرح صحيح البخاري) و(تهذيب التهذيب) في تراجم رجال الحديث و(بلوغ المرام من أدلة الأحكام) في الفقه و(الإصابة في تمييز الصحابة)

و(الدرر الكامنة) في أعيان المائة الثامنة، و(القول المسدد في الذب عن مسند

الإمام أحمد).. وغيرها، وفي ليلة السبت ٢٨ ذي الحجة سنة ٨٥٢هـ توفي شيخ الإسلام، وحامل لواء السنة (ابن حجر العسقلاني).

## الطبري

في بلاد (طبرستان).. بلاد العلم والأدب والفقه، وفي أجمل مدنها.. مدينة (آمل) العريقة عاصمة طبرستان، والتي تقع الآن في

نة أذربيجان، جنوب بحر قزوين، وُلد حجة العلوم، وعالم العلماء في عصره، الإمام (محمد بن جرير الطبري) سنة ٢٢٤هـ، بالطبري لأن أهل طبرستان جميعاً يُنسبون إليها؛ فيقال لكل واحد منهم طبري، فكان أهل طبرستان كثيري الحروب، فكان كل منهم يحمل سلاحه في يده، وهو نوع من الأشجار يسمى (الطبر). لم يكد الطبري يبلغ السن التي تؤهله للتعليم حتى عهد به والده إلى علماء (آمل) وسرعان ما تفتح عقله، وبدت عليه علامات النبوغ، فكان هذا النبوغ المبكر حافظاً لأبيه على إكمال تعليم ابنه، وبخاصة أنه رأى رؤية تفاعل من تأويلها، قال الطبري: (رأى أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعني مخللة مملوءة بالأحجار، وأنا أرمي بين يديه) وقصَّ رؤياه على مفسر للأحلام، فقال له: إن ابنك إن كبر نصح في دينه، ودافع عن شريعته، فحرص أبي على معونتي من أجل طلب العلم وأنا حينئذ صبي صغير.

أخذ ابن جرير الطبري يرحل في طلب العلم، فتعلم الفقه ببغداد، والمغازي والسير في الكوفة، ثم توجه ناحية مصر، وفي طريقه إليها مرَّ ببسروت، وقضى بها عدة أيام حتى قرأ القرآن برواية الشاميين، ثم واصل مسيرته، وفي مصر تلقى الطبري العلم، فأخذ من علمائها قراءة (حمزة) (وَوَرَّش) ثم عاد إلى بغداد مرة أخرى، وانقطع للعلم والدراسة والتأليف في كثير من الأوقات، وكان يتاجر ببقية الوقت ليأتي برزقه.

وكان الطبري عالي المهمة، عظيم الاجتهاد؛ ومما يحكى عنه: أن رجلاً جاءه يسأله في العروض (وهو علم يعرف به الشعر من النثر) ولم يكن الطبري له إمام كبير بهذا العلم فقال له: علي قولٌ ألا أتكلم اليوم في شيء من العروض، فإذا كان في غد فتعال إلي، ثم طلب أبو جعفر كتاب العروض، فتدارسه في ليلته، وقال: أمسيت غير عروضي، وأصبحت عروضيًا. وقد تمكن ابن جرير من نواحي العلم، وأدلى بدلوه فيها، حتى أصبح إمام عصره بغير منازع، وقد قيل عنه: كان كالفقار الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالحديث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالحنوي الذي لا يعرف إلا النحو.. وظل الطبري أربعين عاماً يكتب كل يوم أربعين ورقة، قاصداً بذلك وجه الله، بما ينفع به الإسلام والمسلمين، وكان رحمه الله من العباد الزهاد، يقوم الليل، نظيفاً في ظاهره وباطنه، ظريفاً، حسن العشرة، مهذباً في جميع أحواله. من مؤلفاته العظيمة: (تفسير القرآن) المعروف بتفسير الطبري في ٣٠ جزءاً، وهو من أجل التفاسير وأعظمها، و(تاريخ الرسل والملوك) في ١١ مجلداً، وهو يعد أوفى عمل تاريخي بين مصنفات العرب، و(لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام).. وغير ذلك الكثير.. وفي يوم السبت ليومين بقيا من شوال سنة ٣١٠هـ فاضت روحه إلى بارئها، تاركاً للمسلمين تراثاً علمياً ضخماً، نفع الإسلام والمسلمين، فجزاه الله خير الجزاء.

## الألوسي

في سنة ١٢١٧هـ / ١٨٥٢م سعدت (بغداد) بميلاد (أبي الشفاء شهاب الدين محمود الألوسي) أمير المفسرين في العصر الحديث!! تطلع منذ صغره إلى العلم، فأخذ العلم عن كبار العلماء في عصره أمثال الشيخ (خالد النقشبندي) والشيخ (علي السويدي) فضلاً عن والده الذي تعلم على يديه، ظهرت علامات النبوغ والذكاء على شهاب الدين الألوسي منذ صغره، حتى إنه اشتغل بالتدريس وهو في الثالثة عشرة من عمره، وهبه الله قوة الذاكرة، يقول عن نفسه: ما استودعت ذهني شيئاً فخانني، ولا دعوت فكري لمعضلة إلا وأجابني. لم يترك الألوسي علماً من علوم الدين إلا وقرأ فيه، فكان يسهر الليالي، ويضحّي براحته وصحته طلباً للمعرفة، ورغم هذا المجهود الكبير الذي كان يبذله فإنه كان يشعر بسعادة كبيرة، وفي داره قام بتدريس علوم الدين، فتتلمذ على يديه الكثيرون، ولم يكن يفيض عليهم من علمه الواسع فحسب، بل كان يعطف عليهم ويرعاهم، ويعطيهم من ملبسه ومأكله ويسكنهم بيته!! ولما ترك الألوسي منصب الإفتاء بالعراق، تفرغ لتفسير القرآن الكريم، وتعلقت نفسه رغبة لإتمام هذا العمل، فكان في أحيان كثيرة يقوم من نومه، ويترك فراشه حين يخطر بذهنه معنى جديد لم يذكره المفسرون السابقون عليه، ولا يهدأ له بال حتى يسجل خواطره في كراريسه، وعندئذ يعود إليه الهدوء، ويزول عنه القلق والتوتر، ويذهب إلى فراشه حيث يستسلم للنوم. وكان يجمع كل ما كتبه غيره في التفسير، وينقيها من كل شائبة (الإسرائيليات) ويظهر الحقيقة جلية واضحة، كل ذلك في أسلوب رائع جذاب، حتى أصبح تفسيره الذي سمي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) من أحسن التفاسير جامعاً لآراء

سلف، مشتملاً على أقوال الخلف بكل أمانة وعناية، فهو جامع لخلاصة كل ما سبقه من كتب التفسير.. وكانت مؤلفات الإلوسي في أنواع مختلفة من العلوم والمعارف، أهمها تفسيره الشهير بـ(تفسير الألوسي) و(دقائق التفسير) و(غرائب الاغتراب).. وغير ذلك من الكتب. توفي الإمام الكبير في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م بعد أن ملأ الأرض علماً، ودفن مع أهله في مقبرة الشيخ (معروف الكرخي) في (الكرخ).

## إبراهيم بن أدهم

كان والده من أغنى أغنياء خراسان وأحد ملوكها، ولد (إبراهيم) بمكة حينما خرج أبوه وأمه إلى الحج عام ١٠٠ هـ أو قريباً منها، وفتح عينيه على الحياة؛ ليجد الشراء يحيط به من كل جانب؛ فعاش حياة الترف والنعيم، يأكل ما يشاء من أطيب الطعام، ويركب أحسن الجياد، ويلبس أفخم الثياب. وفي يوم من الأيام خرج راكباً فرسه، وكلبه معه، وأخذ يبحث عن فريسة يصطادها، وكان إبراهيم يحب الصيد، وبينما هو كذلك إذ سمع نداء من خلفه يقول له: (يا إبراهيم ليس لذا خلقت، ولا بذأ أمرت) فوقف ينظر يمينه وشماله، ويبحث عن مصدر هذا الصوت فلم ير أحداً، فأوقف فرسه ثم قال: والله لا عصيت الله بعد يومي ذا ما عصمني ري. ورجع إبراهيم بن أدهم إلى أهله، فترك حياة الترف والنعيم ورحل إلى بلاد الله الواسعة ليطلب العلم، وليعيش حياة الزهد والورع والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، ولم يكن إبراهيم متواكلاً يتفرغ للعبادة والزهد فقط ويعيش عالة على غيره، بل كان يأكل من عمل يده، ويعمل أجيراً عند أصحاب المزارع، يحصد لهم الزروع، ويقطف لهم الثمار ويطحن الغلال، ويحمل الأحمال على كتفيه، وكان نشيطاً في عمله، يحكي عنه أنه حصد في يوم من الأيام ما يحصده عشرة رجال، وفي أثناء حصاده كان ينشد قائلاً: اتَّخَذِ اللَّهُ صَاحِبًا... وَدَعِ النَّاسَ جَانِبًا. يروي بقية بن الوليد، يقول: دعاني إبراهيم بن أدهم إلى طعامه، فأتيته، فجلس ثم قال: كلوا باسم الله، فلما أكلنا، قلت لرفيقيه: أخبرني عن أشد شيء مرَّ بك منذ صحبتك.. قال: كنّا صباحاً، فلم يكن عندنا ما نفطر عليه، فأصبحنا، فقلت: هل لك يا أبا إسحاق أن تأتي الرّسّنة (بلدة بالشام كانت بين حماة وحمص) فنكري (فؤجر) أنفسنا مع الحصادين؟ قال: نعم.. قال: فاكتراني رجل بدرهم، فقلت: وصاحبي؟ قال: لا حاجة لي فيه، أراه ضعيفاً.. فمازلت بالرجل حتى اكتراه بثلاثي درهم، فلما انتهينا، اشترت من أجرتي طعامي وحاجتي، وتصدقت بالباقي، ثم قربت الزاد، فبكى إبراهيم، وقال: أما نحن فاستوفينا أجورنا، فليت شعري أوفينا صاحبه حقه أم لا؟ فغضبت، فقال: أتضمن لي أنا وفيناه، فأخذت الطعام فتصدقت به. وظل إبراهيم ينتقل من مكان إلى مكان، زاهداً وعابداً في حياته، فذهب إلى الشام وأقام في البصرة وقتاً طويلاً، حتى اشتهر بالتقوى والعبادة، في وقت كان الناس فيه لا يذكرون الله إلا قليلاً، ولا يتعبدون إلا وهم كسالي، فجاءه أهل البصرة يوماً وقالوا له: يا إبراهيم.. إن الله تعالى يقول في كتابه: {ادعوني أستجب لكم} (غافر: ٦٠) ونحن ندعو الله منذ وقت طويل فلا يستجيب لنا؟! فقال لهم إبراهيم بن أدهم: يا أهل البصرة، ماتت قلوبكم في عشرة أشياء:

أولها: عرفتم الله، ولم تؤدوا حقه .

الثاني: قرأتم كتاب الله، ولم تعملوا به .

الثالث: ادعيتم حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتركتم سنته.

الرابع: ادعيتم عداوة الشيطان، ووافقتموه .

الخامس: قلتم: نحب الجنة، ولم تعملوا لها .

السادس: قلتم: نخاف النار، ورهنتم أنفسكم بها

السابع: قلتم: إن الموت حق، ولم تستعدوا له .

الثامن: اشتغلتم بعيوب إخوانكم، ونبذتم عيوبكم.

التاسع: أكلتم نعمة ربكم، ولم تشكروها .

العاشر: دفنتم موتاكم، ولم تعتبروا بها .



كان إبراهيم كريماً جواداً، فالعسل والسمن غالباً ما يكونان على مائدته يطعم من يأتيه، سمعه أحد أصحابه ذات مرة وهو يقول (ذهب السخاء والكرم والجود والمواساة، من لم يواس الناس بماله وطعامه وشرابه فليواسهم ببسط الوجه والخلق الحسن.. إياكم أن تكون أموالكم سبباً في أن تتكبروا على فقرائكم، أو سبباً في أن لا تميلوا إلى ضعفائكم، وألا تبسطوا إلى مساكينكم).

وكان إبراهيم بن أدهم شديد التواضع، لا يحب الكبر، كان يقول: (إياكم والكبر والإعجاب بالأعمال، انظروا إلى من دونكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم، من ذلل نفسه؛ رفعه مولاه، ومن خضع له أعزه، ومن اتقاه وقاه، ومن أطاعه أنجاه) ودخل إبراهيم بن أدهم المعركة مع الشيطان ومع نفسه مصمماً على الانتصار، وسهر الليالي متعبداً ضارعاً باكياً إلى الله يرجو مغفرته ورحمته، وكان مستجاب الدعاء. ذات يوم كان في سفينة مع أصحابه، فهاجت الرياح، واضطربت السفينة، فبكوا، فقال إبراهيم: يا حي حين لا حي، ويا حي قبل كل حي، ويا حي بعد كل حي، يا حي، يا قيوم، يا محسن يا مُجمل قد أريتنا قدرتك، فأرنا عفوك.. وبدأت السفينة تمداً، وظل إبراهيم يدعو ربه ويكثر من الدعاء. وكان أكثر دعائه: (اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك) وكان يقول: (ما لنا نشكو فقرنا إلى مثلنا ولا نسأل كشفه من ربنا) وقال: (كل سلطان لا يكون عادلاً فهو واللص سواء، وكل عالم لا يكون تقياً فهو والذئب سواء، وكل من ذلَّ لغير الله، فهو والكلب سواء) وكان يقول لأصحابه إذا اجتمعوا: (ما على أحدكم إذا أصبح وإذا أمسى أن يقول: اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واحفظنا بركنك الذي لا يرام، وارحمنا بقدرتك علينا، ولا تهلك وأنت الرجاء). وكان إبراهيم راضياً بحالة الزهد القاسية، وظل يكثر من الصوم والصلاة ويعطف على الفقراء والمساكين إلى أن مات رضوان الله عليه سنة ١٦٢ هـ.

## عبد الله بن المبارك

في مدينة (مرو) سنة ١١٨ هـ ولد (عبد الله بن المبارك) ونشأ بين العلماء نشأة صالحة، فحفظ القرآن الكريم، وتعلم اللغة العربية، وحفظ أحاديث كثيرة من أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ودرس الفقه، وأنعم الله عليه بذاكرة قوية منذ صغره، فقد كان سريع الحفظ، لا ينسى ما يحفظه أبداً، يحكي أحد أقربائه واسمه صخر بن المبارك عن ذلك فيقول: كنا غلماناً في الكتاب، فمررت أنا وابن المبارك ورجل يخطب، فأطال خطبته، فلما انتهى قال لي ابن المبارك: قد حفظتها، فسمعه رجل من القوم، فقال: هاها، أسمعنا إن كنت حفظتها كما تدعي، فأعادها عليه ابن المبارك وقد حفظها ولم يخطئ في لفظ منها. وفي الثالثة والعشرين من عمره رحل عبد الله إلى بلاد الإسلام الواسعة طلباً للعلم، فسافر إلى العراق والحجاز.. وغيرهما، والتقى بعدد كبير من علماء عصره فأخذ عنهم الحديث والفقه، فالتقى بالإمام مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وأبي حنيفة النعمان، وكان عبد الله كلما ازداد علماً، ازداد خوفاً من الله وزهداً في الدنيا، وكان إذا قرأ كتاباً من كتب الوعظ يذكره بالآخرة وبالجنة والنار، وبالوقوف بين يدي الله للحساب، بكى بكاء شديداً، واقشعر جسمه، وارتعدت فرائضه، ولا يكاد يتكلم أحد معه. وكان عبد الله يكسب من تجارته مالا كثيراً، وها هو ذا يعطينا درساً بليغاً في السلوك الصحيح للمسلم، وذلك حين أتاه أحد أصدقائه واسمه (أبو علي) وهو يظن أن الزهد والتجارة لا يجتمعان قائلاً لعبد الله: أنت تأمرنا بالزهد، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد (خراسان) إلى (البلد الحرام) كيف ذا؟! فقال له عبد الله بن المبارك: يا أبا علي، إنما أفعل ذا لأصون وجهي، وأكرم عرضي، وأستعين به على طاعة ربي، لا أرى الله حقاً إلا سارعت إليه حتى أقوم به، وكان عبد الله بن المبارك لا يخل على أحد بماله، بل كان كريماً سخياً، ينفق على الفقراء والمساكين في كل سنة مائة ألف درهم. وكان ينفق على طلاب العلم بسخاء وجود، حتى عوتب في ذلك فقال: إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث، فأحسنوا طلبه لحاجة الناس إليهم، احتاجوا فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أعانهم بثوا العلم لأمة محمد -صلى الله عليه وسلم- لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم. وكان ابن المبارك يحب مكة، ويكثر من الخروج إليها للحج والزيارة، وكان كلما خرج من مكة قال:

بُغِضَ الحَيَاةِ وَخَوْفُ اللَّهِ أَخْرَجَنِي

بِعْ نَفْسِي بِمَا لَيْسَتْ لَهُ ثُمَّ نَسَا  
إِنِّي وَزَلْتُ الَّذِي يَبْقَى لِيَعْدَلَهُ  
مَا لَيْسَ يَبْقَى فَلَا وَاللَّهِ مَا أَتَزَكَّا

وكان عبد الله بن المبارك يجاهد في سبيل الله بسيفه، حتى إن كثيراً ممن أتوا ليستمعوا إلى علمه، كانوا يذهبون إليه فيجدونه في الغزو، وكان يرى أن الجهاد فريضة يجب أن يؤديها المسلمون كما أداها الرسول -صلى الله عليه وسلم- ويروى عنه أنه أرسل إلى صاحبه الفضيل بن عياض يحثه على قتال الأعداء، ويدعوه إلى ترك البكاء عند البيت الحرام قائلاً له:

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا  
لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ  
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ  
فَنَحُورُنَا بِدُمَانِنَا تَتَخَضَّبُ  
أَوْ كَانَ يُتَعَبُ خَيْلُهُ فِي بَاطِلٍ  
فَخِيُولُنَا يَوْمَ الصَّيْحَةِ تَتَعَبُ  
رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ، وَنَحْنُ عَبِيرُنَا  
رَهَجُ السَّنَابِكِ وَالْغَبَارُ الْأَطْيَبُ

وأحب عبد الله بن المبارك أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حباً عظيماً وكان لا يجيب أحداً يسأله عن حديث منها وهو يمشي، ويقول للسائل: (ليس هذا من توقير العلم) وكان حفاظ الحديث في الكوفة إذا اختلفوا حول حديث قالوا: مروا بنا إلى هذا الطبيب نسأله (يقصدون عبد الله بن المبارك).

ولقد اجتمع نفر من أصحابه يوماً وقالوا: تعالوا نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فقالوا: جمع العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والشعر، والفصاحة والزهد، والورع، والإنصاف، وقيام الليل، والعبادة، والفروسية، والشجاعة، والشدة في بدنه، وترك الكلام في ما لا يعنيه.. حتى أجهدهم العُدُّ.

ولقد قدر الناس عبد الله بن المبارك وزادت مهابته لديهم على مهابة هارون الرشيد.. رُوي أن هارون الرشيد قدم ذات يوم إلى (الرقّة) فوجد الناس يجرون خلف عبد الله بن المبارك لينظروا إليه، ويسلموا عليه، فنظرت زوجة هارون الرشيد من شباك قصرها، فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟! قالوا: عالم من خراسان قدم (الرقّة) يقال له (عبد الله بن المبارك) فقالت: هذا والله الملك، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بالشرطة والأعوان. وفي يوم من أيام شهر رمضان سنة ١٨١هـ توفي عبد الله بن المبارك وهو راجع من الغزو، وكان عمره ثلاثة وستين عاماً، ويقال: إن الرشيد لما بلغه موت عبد الله، قال: مات اليوم سيد العلماء.

## الفضيل بن عياض

الخشية من الله والبكاء يلازمانه، لا يرى إلا وعيناه تفيض من الدمع، كلما ذكر اسم الله تعالى عنده ظهر عليه الخوف والوجل، وارتعشت كل أعضاء جسده، ترى من يكون هذا الرجل الذي غمر الإيمان قلبه!؟

كان عاصياً فتاب الله عليه، وجعله من عباده المؤمنين، تحول من قاطع طريق يروع الآمنين إلى عابد زاهد، وكان سبب توبته؛ أنه كان يتسلق جدران أحد المنازل بالليل؛ فسمع صوتاً يتلو قوله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [الحديد: ١٦] فلما سمعها قال: بلي يا رب، قد آن فرجع فمرّ على أرض خربة، فوجد بها قومًا، فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم:

ننتظر حتى نصبح، فإن الفضيل يقطع علينا الطريق، قال (أي: الفضيل): ففكرت وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين هاهنا يخافونني!! وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع (أي أن الله قدر لي أن آتي إلى هذا المكان لأتوب وأرجع إليه) اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام.. لقد جعل مظاهر توبته مجاورته لبيت الله حيث الرحمة والبركة، يدعو الله



استغفره، ويندم على ما فرط في حقه. في أرض خراسان ولد (الفضيل بن عياض) ثم رحل إلى الكوفة في العراق، فسمع الأحاديث النبوية الشريفة والفقه من العلماء؛ أمثال (الأعمش) و(يحيى بن سعيد الأنصاري) و(جعفر الصادق) فأثرت تأثيراً كبيراً في شخصيته، حتى أصبح من الزهاد الذين يرون أن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولا تستحق أن يتكالب الناس عليها، ويتصارعون من أجلها، فهي فانية زائلة، بل الأولى أن يعمل الناس لأخراهم، فهي الباقية الدائمة بفعل الخير، وتجنب المعاصي، ثم انتقل إلى مكة وأقام بها حتى توفي. وكان إذا خرج في جنازة مع الناس، يعظهم ويذكرهم بالآخرة، حتى إذا وصل إلى المقبرة، جلس في حزن شديد، وظل يبكي ولا ينقطع بكأؤه، سأله الخليفة (هارون الرشيد) ما هي صفات المؤمن أيها الزاهد؟ فقال له الفضيل: صفات المؤمن؛ صبر كثير، ونعيم طويل، وعجلة قليلة، وندامة طويلة. ومراً الفضيل بن عياض على جماعة أغنياء، فوجدهم يلعبون ويشربون ويلهون؛ فقال لهم بصوت عال: إن مفتاح الخير كله هو الزهد في الدنيا، وقد سأله أحدهم: وما الزهد في الدنيا؟ فقال: القناعة والرضا وهما الغنى الحقيقي، فليس الغنى في كثرة المال والعيال، إنما الغنى غنى النفس بالقناعة والرضا في الدنيا، حتى نفوز في الآخرة، ثم توجه إلى الله داعياً: اللهم زهدنا في الدنيا، فإنه صلاح قلوبنا وأعمالنا وجميع طلباتنا ونجاح حاجتنا. وحج هارون الرشيد ذات مرة؛ فسأل أحد أصحابه أن يدلّه على رجل يسأله؛ فدلّه على الفضيل، فذهبا إليه، فقابلهما الفضيل وقال للرشيد: إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا أناساً من الصالحين فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء (يعني الحكم) فأشيروا علي.. فعُدَّ عمر الخلافة بلاء، وعددتما أنت وأصحابك نعمة، فبكى الرشيد، فقال له صاحب الرشيد: ارفق بأمر المؤمنين، فقال الفضيل: تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا؟ (يقصد أن عدم نصحه كقتله) فقال له الرشيد: زدني يرحمك الله.. فأخذ يعظه وينصحه، ثم قال له: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيته، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ما من والٍ يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاشٌّ لهم إلا حَرَّمَ الله عليه الجنة) [متفق عليه] فبكى هارون وقال له: أعليك دين أقضيه عنك؟ فقال:

نعم، دين لربي لم يحاسبني عليه، والويل لي إن ناقشني، فالويل لي إن لم أهتم بحجتي، قال: إنما أعني من دين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا؛ أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره، فقال الرشيد: هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك، فقال الفضيل: سبحان الله، أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا، سلّمك الله ووفّقك، ثم صمت فلم يكلمنا؛ فخرج الرشيد وصاحبه، وكان الفضيل شديد التواضع، يشعر دائماً بأنه مقصر في حق الله، رغم كثرة صلاته وعبادته. وتمضي الأيام، ويتقدم السن بالفضيل بن عياض وذات مرة كان بعض الناس جلوساً عنده، فقالوا له: كم سنك؟ فقال:

بَلَعْتُ الثَّمَانِينَ أَوْ جُزْئَهَا  
فَمَاذَا أُوْمَلُّ أَوْ أَتُظَلَّمُ  
عَلَّتِي السَّنُونَ فَأَبْلَيْتَنِي  
فَدَقَّ الْعِظَامُ وَكَلَّ الْبَصَرُ

ومرض الفضيل، فسُمع يقول: ارحمني بحبي إياك، فليس شيء أحب إلي منك، وأقام الزاهد العابد الفضيل بن عياض بـ(مكة) حتى توفي عام ١٨٧هـ وأطلق عليه هناك (شيخ الحرم المكي).

## الخليل بن أحمد

(اللهم هب لي علماً لم يسبقني إليه أحد).. قالها وهو يتضرع إلى الله متعلقاً بأستار الكعبة، كان يرجو أن يسبق الناس بوضع علم جديد، فيكون سباقاً إلى الخير، ولم يكن هذا الرجاء وليد تكاسل وتواكل، بل كانت قدراته ومهاراته تؤهله لأن يكون عظيم الشأن. هو (الخليل بن أحمد الفراهيدي) الذي وُلِدَ في البصرة عام (١٠٠هـ) ونشأ عابداً لله تعالى، مجتهداً في طلب العلم، واسع المعرفة، شديد الذكاء، أدرك الخليل بفطرته السليمة أن الإسلام دين شامل لكل جوانب الحياة، فاجتهد في طلب العلم وأخلص في طلبه؛ فكان غيوراً على اللغة العربية (لغة القرآن)؛ مما دفعه إلى العمل على وضع قواعد مضبوطة للغة، حتى عدّه العلماء الواضع

يعتقي لعلم النحو في صورته النهائية، التي نقلها عنه تلميذه (سيبويه) في كتابه المسمى (الكتاب) فذكره وروى آراءه في نحو سبعين موضعاً معترفاً له بوافر علمه، وعظيم فضله. وذات يوم ذهب الفراهيدي إلى الكعبة حاجاً، فتعلق بأستار الكعبة، ودعا الله أن يهب له علماً لم يسبقه أحد إليه، ثم عاد إلى وطنه، فاعتزل الناس في كوخ بسيط من خشب الأشجار، كان يقضي فيه الساعات الطويلة يقرأ كل ما جمعه من أشعار العرب، ويرتبها حسب أنغامها، ويضع كل مجموعة متشابهة في دفتر منفرد.. وذات يوم مرَّ الخليل بسوق النخاسين، فسمع طرقات مطرقة على طست من نحاس، فلمعت في ذهنه فكرة علم العروض -ميزان الشعر أو موسيقى الشعر- الذي ميز به الشعر عن غيره من فنون الكلام، فكان للخليل بذلك فضل على العرب، إذ ضبط أوزان الشعر العربي، وحفظه من الاختلال والضياع، وقد اخترع هذا العلم وحصر فيه أوزان الشعر في خمسة عشر بحراً (وزناً) وكما اهتم بالوزن اهتم بضبط أحوال القافية -وهي الحرف الأخير في بيت الشعر، والتي يلتزم بها الشاعر طوال القصيدة- فأخرج للناس هذين العلمين الجليلين كاملين مضبوطين مجهزين بالمصطلحات.

ولم يكتف الخليل بما أنجزه، وبما وهبه الله من علم؛ استجابة لدعائه وتوسله وتضرعه، فواصل جهوده وأعدَّ معجماً يعدُّ أول معجم عرفته اللغة العربية، وامتدت رغبته في التجديد إلى عدم تقليد من سبقوه، فجمع كلمات المعجم بطريقة قائمة على الترتيب الصوتي، فبدأ بالأصوات التي تُنطق من الحلق وانتهى بالأصوات التي تنطق من الشفتين، وهذا الترتيب هو (ع - ح - هـ - خ - غ... ) بدلاً من (أ - ب - ت - ث - ج ... ) وسمَّاه معجم (العين) باسم أول حرف في أبجديته الصوتية. وعُرف الخليل بالتعبد والورع والزهد والتواضع، وكان إذا أفاد إنساناً شيئاً لم يشعره بأنه أفاده، وإن استفاد من أحد شيئاً أجزل له الشكر، وأشعره بأنه استفاد منه، وقيل في زهده: أقام الخليل في خُص له بالبصرة لا يقدر على فُلْسَيْن (قدر ضئيل من المال) وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال، وأرسل إليه سليمان بن علي -والي منطقة البصرة- ليأتيه يؤدب ولده، فأخرج الخليل خبزاً يابساً، وقال: ما عندي غيره وما دمت أجدّه فلا حاجة لي في سليمان، ثم قال لرسول سليمان:

أبلغ سليمان أني عنه فلي سعة

وفي غني غير أني لستُ ذا مال

والفقرُ في النفس لا في المال تعرفه

ومثل ذاك الغني في النفس لا المال

وقال: إني لأغلق علي باي فما يجاوزه همي، وذلك لانصرافه عن الدنيا واستغراقه في العلم والعبادة، وذات يوم دخل المسجد وهو شارد البال مستغرق الفكر فاصطدم بسارية (عمود) المسجد فانصدع رأسه ومات سنة ١٧٠هـ.

## سيبويه

في أدب طالب العلم مع أستاذه، وفي عزم المسلم الصادق في تحصيل ما ينفعه قال سيبويه: (لا جرم، سأطلب علماً لا تُلحني فيه لا تُخَطَّنِي فيه). مقولة قالها سيبويه لأستاذه حماد بن سلمة مفتي البصرة، فقد كان يعقد حلقة للعلم، وكان سيبويه تلميذه، وكان حريصاً كل الحرص على حضورها، وذات مرة جلس حماد يلقي درساً من دروسه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس من أصحابي إلا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء) فظن سيبويه أن شيخه قد أخطأ في عبارة: (ليس أبا الدرداء) فقام من مكانه ليصححها له، وقال: (ليس أبو الدرداء) لأنه اعتقد أن كلمة (أبا) اسم ليس التي ترفع المبتدأ وتنصب الخبر فابتسم الشيخ في وجه الفتى الصغير وقال: لحت وأخطأت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت، إنما ليس ها هنا استثناء، فقال سيبويه بأدب لأستاذه قولته السابقة: لا جرم سأطلب علماً لا تُلحني فيه.

ومنذ ذلك الحين بدأ الفتى الصغير رحلة الاجتهاد والجد، لتحصيل علوم اللغة العربية وخاصة علم النحو، ولد أمير النحاة (عمرو بن عثمان بن قنبر) أبو بشر، المعروف بـ(سيبويه) في (البيضاء) إحدى قرى (شراز) ببلاد فارس عام ١٤٨هـ، وكان نظيفاً كل من

به يشم منه رائحة طيبة؛ وكانت أمه تناديه منذ صغره بـ(سيبويه) وهي كلمة فارسية تعني: رائحة النفايح، وذلك لطيب رائحة النفايح.

رحل سيبويه إلى البصرة، فنشأ بها، وكانت لديه رغبة شديدة في تحصيل العلم؛ فبدأ يتعلم الحديث والفقه ولازم الفقهاء وأهل الحديث، ثم أخذ يتلقى العلم على أيدي العلماء، فتعلم على يد (حماد ابن سلمة) مفتي البصرة وأحد علماء عصره، كما تعلم على يد (الأخفش الأكبر) وهو من أئمة اللغة والنحو، فأخذ عنه سيبويه اللغة وشيئا من النحو، أما (الخليل بن أحمد) فقد كان المعلم الأكبر لسيبويه، حتى إنه دخل على الخليل ذات مرة، فقال له: مرحبًا بزائر لا يُمل، وكان يحب سيبويه كثيرا ويفسح له صدره. ظل سيبويه على هذه الحال حتى أصبح معلما، وأصبح له تلاميذ يلتفون حوله ويأخذون منه، ويكتبون عنه، وكان من تلاميذه (أبو الحسن الأخفش) وقد ألف سيبويه كتابا عظيما في علم النحو سماه (الكتاب) جمع فيه كل ما سمعه من أستاذه (الخليل بن أحمد) وغيره من العلماء في هذا العلم، واشتهر بعده بـ (كتاب سيبويه) الذي يعده العلماء دستوراً لعلم النحو وقانوناً لقواعده، ومن شدة اعتزاز القراء -وهو أحد كبار علماء النحو- بهذا الكتاب أن الناس وجدوا عند موته وتحت وسادته (كتاب سيبويه)!! وقد أفاد سيبويه الكثيرين بعلمه، حتى وصل علمه إلى عامة الناس الذين أخذوا عنه، وتعلموا منه الفصاحة.. يحكي أن رجلاً قال لسماك (بييع السمك) بالبصرة: بكم هذه السمكة؟ قال: بدرهمان.. فضحك الرجل مستهزئاً من السماك لأنه رفع الجرور. فقال السماك: ويلك أنت أحمق، لقد سمعت سيبويه يقول: ثمنها درهمان!! وقد أصيب سيبويه بمرض قبل وفاته، وفي أثناء مرضه، وجده أخوه -يوماً- متعباً قد اشتد عليه المرض، فبكى وتساقطت دموعه على وجه سيبويه، فرآه سيبويه فأنشد يقول:

يَسْرُ الْفَتَى مَا كَانَ قَدَمٌ مِنْ تُقَى  
إِذَا عَرَفَ الدَّاءَ الَّذِي هُوَ قَاتِلُهُ  
وعند مماته أخذ ينصح أصحابه ومن حوله قائلاً:  
يَوْمَئِذٍ لَدُنِّيَا لَتَبْقَى لَكُمْ  
فَمَاتَ الْمُؤْمِلُ قَبْلَ الْأَمَلِ  
حَيْثُ يُرَوَّى أَصُولَ النَّخِيلِ  
فَعَاشَ الْفَسِيلُ وَمَاتَ الرَّجُلُ

ومات سيبويه سنة ١٨٠هـ بعد أن ترك ثروة كبيرة من العلم، لينتفع بها الناس في كل زمان ومكان.

## الفيروزابادي

في واحدة من أجمل مدن شيراز وهي (كارزين) ولد أحد أئمة اللغة والأدب العظام، إنه (محمد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي الفيروزابادي). ولد الفيروزابادي في سنة ٧٢٩هـ، وحفظ القرآن الكريم في السابعة من عمره، فقد كان سريع الحفظ، حتى إنه قال: (لا أنام حتى أحفظ مائتي سطر كل يوم) ثم انتقل في الثامنة من عمره إلى شيراز لطلب العلم، وقد اشتهر بالفيروزابادي نسبة إلى (فيروزاباد) وهي مدينة جنوب شيراز كان منها أبوه وجده. رحل (الفيروزابادي) في طلب العلم فسافر إلى مصر والشام، ودخل بلاد الروم (أي الدولة العثمانية) والهند، وتعلم على عددٍ من كبار العلماء أمثال التقي السبكي وابنه عبد الوهاب وابن الحُبَّاز محدث دمشق المعروف وغيرهم، حتى ذاع اسمه في الآفاق، وصار مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير. عمل (الفيروزابادي) بالتدريس في عدة مدارس منها مدرسة القدس التي بدأ فيها أستاذاً عملاقاً، تلقى عنه كثير من العلماء منهم الصلاح الصفدي وغيره من علماء القدس، ثم رحل إلى القاهرة ولقي هناك علماءها أمثال ابن عقيل، وابن هشام وهما من أئمة اللغة ثم عاد إلى القدس مرة أخرى. والفيروزابادي عالم واسع العلم والثقافة، حافظ لكثير من الشعر والحكايات والنوادر وكان هذا هو سر مكانته عند الملوك والأمراء، ساعده على ذلك معرفته الجيدة باللغتين العربية والفارسية، وحبه الشديد لاقتناء الكتب وقراءتها، فيروى أنه قال: (اشتريت بخمسين ألف مثقال ذهباً كتباً) فكان لا يسافر إلا وصحبته عدة أحمال من الكتب يخرجها في كل منزل يترله، ينظر

ب. ويعيدها إذا رحل. وبعد أن طاف الفيروزبادي في بلاد كثيرة، انتهى به المطاف في (زبيد) باليمن حين استدعاه صاحبها وأمين (الأشرف إسماعيل بن العباس) إلى حضرته، فلما جاء إليه بالغ في إكرامه، وكان يحضر درسه الذي كان يلقيه، وفي سنة ٧٩٧هـ ولاه الأشرف إسماعيل منصب القضاء، ثم تزوج السلطان ابنته وبذلك نال الفيروزبادي المكانة العليا عنده، حتى يروى أنه ألف كتاباً وأرسله إليه محمولاً على أطباق فردها السلطان إليه مملوءة بالدراهم، وقد بلغ من إعزاز (الأشرف) به وحرصه على ألا يفارقه أنه حين جاءه يستأذن منه في السفر فمنعه من ذلك بحجة أن في ذلك حرماناً للبلاد والعباد من علمه، وكان مما قاله له: (كانت بلاد اليمن عمياء فاستنارت بك، وقد أحيا الله بك ما كان ميتاً من العلم، فبالله عليك إلا ما وهبتنا بقية عمرك). وقصده طلاب العلم من جميع بلاد المسلمين، ينهلون من علمه الغزير، ومعرفته الواسعة، واهتم باللغة وعلومها اهتماماً كبيراً حتى نبغ ومهر فيها وفاق جميع علماء عصره.. ألف (الفيروزبادي) كثيراً من الكتب أشهرها (القاموس المحيط) وهو معجم ضخم يضم كمّاً هائلاً من مفردات اللغة العربية وقد أثنى (ابن حجر) على هذا الكتاب فقال: (لا مزيد عليه في حسن الاختصار وكثير الكلمات اللغوية، وكثير أخذوه عنه) ومن مؤلفاته: (الروض المسلول فيما له اسمان إلى ألوف) و(سفر السعادة) في التصوف، وكتاب (المصايح) وكتاب (تنوير المقياس في تفسير ابن عباس) وكتاب (تسهيل الوصول إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول) و(بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز).. وكثير من الكتب غيرها. وقد أخذ عنه العلم علماء كثيرون من بلاد الإسلام أشهرهم (الجمال المراكشي) و(الحافظ ابن حجر) الذي أخذ عنه القاموس وأذن له أن يروي عنه جميع ما كتبه، ومن هنا نرى أن (الفيروزبادي) عاش حياة حافلة بالعلم، وكانت وفاته في ليلة الثلاثاء العشرين من شوال سنة ٨١٧هـ بمدينة زبيد باليمن.

## الماوردي

(حفظ الله دينك، كما حفظت علينا ديننا).. كلمة قالها الخليفة العباسي (القادر بالله) وذلك بعد أن قرأ كتاباً للماوردي في الفقه فأعجب به وأثنى عليه، فمن ذلك الرجل الذي حفظ دين الإسلام؟! في شوارع البصرة وفي زمن العباسيين، كان هناك طفل صغير لم يتجاوز الرابعة من عمره، ورث عن أبيه صناعة (ماء الورد) يقضي النهار كله أمام أبواب المساجد، يبيع ماء الورد لطلاب العلم ورواد المدارس مقابل دراهم معدودة، يتقوى بها على متاعب الحياة. وقد أصبح هذا الصبي من قادة الفكر وحملة مشاعل العلم ومن أبرز رجال السياسة، وقاضياً من أعدل القضاة، وأديباً ناضجاً ومؤلفاً عظيمًا في شتى فروع ثقافة أمته.. إنه (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي) الشهير بالماوردي.. ولد عام ٣٦٤هـ - ٩٧٤م في مدينة البصرة، ونشأ فيها يسقي طلاب العلم ماء الورد، ويرتوي من علم العلماء المشهورين في زمانه، وظل في البصرة حتى سمع أن عالماً ببغداد يقصده الطلاب من كافة الأنحاء هو (أبو حامد الإسفراييني) فتعلم على يديه الفقه والعلوم الشرعية، وأصبح من مريديه، وما زال يرحل ويتنقل في بلاد المسلمين طلباً للمعرفة حتى عاد إلى بغداد، ليبدأ فيها رحلة الدرس والتأليف، يتلقى عنه الطلاب القادمون من بلاد كثيرة. وتولى الماوردي القضاء في البلاد التي رحل إليها، كما تولى وظيفة قاضي القضاة في نيسابور، وذاعت شهرته، ولقب بأقضى القضاة سنة ٤٢٩هـ، وكان أول من لقب بذلك في تاريخ الإسلام، وعلم الماوردي أن توليه القضاء ليس تشريعاً له، ولكنها رسالة وأمانة في عنقه؛ فكان يتمهل قبل أن يصدر أحكامه، ويقرأ كتاب الله وأحاديث رسوله، حتى لا يضل الطريق؛ فيقضي بحكم فيه ظلم لأحد، كما كان جريئاً عادلاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، يحكم بالحق حتى على أولي القربى وأصحاب السلطان. فقد أمر الخليفة العباسي أن يلقب (جلال الدين بن بويه) بلقب شاهنشاه الأعظم ملك الملوك، واختلف الفقهاء ما بين موافق، وغير موافق لأن هذا اللقب لا يجوز إلا في حق الله، وانحاز عوام الناس إلى رأي الفقهاء المانعين، وانتظر الجميع رأي القاضي الماوردي الذي كانت تربطه بجلال الدين البويه صلة ود وصداقة؛ وظهرت شجاعة الماوردي، فانحاز إلى جانب الحق، وضرب مثلاً فريداً في الثبات على الحق، فأفتى بالمنع، وأعجب جلال الدين بصدقه وشجاعته فقال له: (أنا أعلم أنك لو حايت أحداً لحايتني، لما بيني وبينك من أواصر المحبة، وما هلك إلا الدين، فراد بذلك محلك عندي).

ولما ذاعت شهرة الماوردي أثناء فترة إقامته ببغداد لما عُرف عنه من فضل وعلم، وحسن رأي، وجلالة قدر؛ اختير ليكون سفيراً بين

نال الدولة في بغداد، وبني بويه في أصبهان من سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م إلى ٤٢٢هـ / ١٠٣٠م، وكان لقربه من الحياة السياسية عصره، واختلاطه بالأمراء والوزراء أثر كبير، فقام بكتابة العديد من المؤلفات السياسية الرائعة التي صدرت عن خبرة كبيرة ودراسة واسعة مثل (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) وكانت له مكانة ممتازة عند الأمراء والملوك في عصره، فكان يتصدر المراسم والاحتفالات الرسمية، وأسندوا إليه عقد قران الخليفة القائم بأمر الله على خديجة بنت داود أخي السلطان (طغرل بك) سنة ٤٤٨هـ. واشتهر الماوردي بالحلم والوقار والأدب والتعفف عن سؤال غيره، كما عرف عنه التدين والتزه عن اللهو والهزل، وشهد المعاصرون للماوردي بالصلاح والتقوى، وهم محقون في ذلك، فقد أخفى مؤلفاته عن الناس في عصره خوفاً من أن يكون قد خالطها الرياء وهو يؤلفها، وعهد إلى صديق له ألا يظهرها إلا بعد وفاته، وترك الماوردي العديد من المؤلفات منها: كتاب في التفسير و(الحاوي) في الفقه الشافعي و(قانون الوزارة وسياسة الملك) و(أدب الدنيا والدين). والماوردي مفكر سياسي إسلامي يعد من أوائل من اهتموا بعلم السياسة وأصول الحكم الإسلامي، يأخذ أفكاره وآراءه من وحي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وظل الماوردي في خدمة العلم إلى أن فاضت روحه إلى بارئها في يوم الثلاثاء آخر شهر ربيع الأول سنة ٤٥٠هـ، وحضر جنازته جمع من الخطباء والعلماء والقضاة يودعون به إلى مثواه الأخير. أبو حامد الغزالي

## أبو حامد الغزالي

في مدينة (طوس) إحدى مدن بلاد (فارس) وبالتحديد في قرية (غزاة) جلس طفلان صغيران ينظران إلى والدهما وهو يغزل الصوف، أخذوا يتأملان أصابعه؛ ويتابعانه في إعجاب شديد، ترك الأب مغزله وأخذ ينظر إلى ولديه (محمد وأحمد). شعر الشقيقان أن أباهما يريد أن يقول لهما شيئاً، لقد فهما ذلك من نظرات عينيه، وفجأة.. انهمرت الدموع من عيني الأب الذي عرف بالتقوى والصلاح، فقد تملكه إحساس جارف بأنه سيموت قريباً، ولم يترك لولديه شيئاً من المال يعينهما على تحمل أعباء الحياة، غادر الأب دكانه، وذهب إلى صديق وفي له؛ فأوصاه بتربية ولديه الصغيرين، وترك له ما كان معه من مال، وكان قليلاً، ومات الأب، فعمل الصديق بالوصية، فنشأ الطفلين تنشئة دينية صحيحة، وعاملهما معاملة طيبة وأحقوقهما بإحدى المدارس، وكانت أهمها ترعاها بعناية كبيرة، وتتابع دراستهما، فنبغ الطفلان، وتفوقا على أقرانهما، وبخاصة (محمد الغزالي) الذي تعلم مبادئ النحو واللغة، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم اللغة الفارسية. وسافر محمد إلى (جرجان) لسماع دروس الإمام (أبو نصر الإسماعيلي)، وفي أثناء عودته إلى بلده (طوس) قطع اللصوص عليه الطريق، وأخذوا منه مخطته التي فيها كتبه وكراريسه، ظناً منهم أن فيها نقوداً ومتاعاً، وساروا في طريقهم؛ فتبعهم (أبو حامد الغزالي) وأخذ يلح عليهم أن يعطوه أوراقه وكتبه التي هاجر من أجلها ومعرفة ما فيها؛ فضحك كبير اللصوص وقال له: كيف تزعم أنك عرفت علمها، وعندما أخذناها منك، أصبحت لا تعلم شيئاً وبقيت بلا علم؟! ولكنه أشفق عليه وسلمه الكتب.

وكان هذا درساً عظيماً للغزالي، فعندما وصل إلى طوس مكث ثلاث سنوات يحفظ ما كتب في هذه الأوراق، حتى لا يتعرض علمه للضياع مرة أخرى، وانتقل الغزالي إلى مدينة (نيسابور) سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م، فتعلم الفقه والمنطق والفلسفة، وأصول الفقه وغيرها من العلوم على يد (أبي المعالي الجويني) الملقب بإمام الحرمين وكان الغزالي أحد تلامذته الأذكياء فبرع في الفقه وأتقن الجدل، وبدأ في تصنيف الكتب.

ولازم الغزالي أستاذه، يتعلم على يديه، حتى انتقل إمام الحرمين إلى ربه سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م، فخرج الغزالي من نيسابور إلى العسكر حيث لقي الوزير السلجوقي (نظام الملك) الذي أكرمه وبالف في إكرامه، وكان الغزالي حينئذ متزوجاً وله ثلاث بنات وولد اسمه (حامد) لذلك كني أبا حامد.

وناظر الغزالي وناقش فكرة الجهاد ضد الباطل سواء داخل أو خارج بلاد الإسلام مع الأئمة والعلماء في مجلس الوزير، فبهرهم غزارة علمه وقوة منطقته، وأعجب به (نظام الملك) فولاه منصب التدريس في المدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م، فأقبل عليه الطلاب إقبالا شديداً، واتسعت حلقاته، وذاع صيته واشتهر؛ حتى لقب بإمام بغداد، فكلفه الخليفة العباسي (المستظهر بالله) بالرد



بعض الفرق التي انحرفت عن الإسلام؛ فكتب الغزالي في الرد عليهم: (القسطاس المستقيم) و(حجة الحق).. وغيرهما من التي كشفت فساد وضلال هذه الفرق.

وترك (الغزالي) التدريس بالمدرسة النظامية، واتجه إلى طريق الزهد والعبادة، ورحل إلى عدة مدن إسلامية، فرحل إلى (دمشق) وأقام مدة قصيرة، ثم رحل إلى بيت المقدس، ومنها ذهب إلى (مكة) واختار طريق التصوف وفضّله على كل الطرق، ولم يزل الغزالي على حالته في الزهد والعبادة حتى طلب منه السلطان العودة مرة أخرى إلى نيسابور للتدريس ونشر العلم، لكنه لم يمكث بها مدة طويلة، فقد عاد بعد سنتين إلى طوس، وهناك أنشأ الغزالي زاوية للزهد والصوفية وطلبة الفقه والعلوم الشرعية، وظل بـ(طوس) حتى توفاه الله في ١٤ جمادى الآخرة عام ٥٠٥هـ/١١١١م عن خمسة وخمسين عامًا قضاه في العلم والتعلم ونشر الفكر الإسلامي الصحيح بين المسلمين، والدفاع عن الإسلام ضد أهل الديانات الأخرى والفرق الضالة، ومن هنا لُقّب الغزالي بـ (حجة الإسلام). وللغزالي مؤلفات كثيرة تزيد على أربعمئة؛ منها: (إحياء علوم الدين) و(الوسيط) في الفقه الشافعي و(تهافت الفلاسفة) و(المستصفى في أصول الفقه).. وغير ذلك، ومع غزارة إنتاج الغزالي، فإن أسلوبه يتسم بالعبارة السهلة، والبعد عن التعقيد.. فجزاها الله خيرًا عما قدم للإسلام من خدمات جليلة.

## ابن رشد

ولد (أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد) الشهير بابن رشد الحفيد في مدينة (قرطبة) عام ٥٢٠هـ، وكانت آنذاك عاصمة من عواصم الثقافة والفنون والآداب، كان أبوه قاضيًا، أما جده فقد كان قاضي القضاة بالأندلس، فهو ينتمي لأسرة عريقة في العلم والقضاء. نشأ بقرطبة وتعلم الفقه والرياضيات والطب على يد كبار الأساتذة في عصره، وتولى القضاء بقرطبة، ولم يشغله هذا المنصب عن القراءة، حتى قالوا عنه: إنه لم يترك ليلة من عمره بلا درس ولا تأليف إلا ليلة عرسه وليلة وفاة أبيه!! كانت سعادة ابن رشد الحقيقية عندما يكون مع كتبه، وكان يحس بحب زائد تجاه كتب الفلسفة التي كان يحسبها بعض الناس في عصره من الكفر والضلالة!! فلم يهتم بما يُقال عنها؛ لأنه واثق كل الثقة في عقيدته ودينه، فأخذ يقرأ لكبار الفلاسفة مثل أرسطو.. وغيره، حتى أصبح عالمًا بالفلسفة إلى جانب سعة علمه في الفقه وسائر علوم عصره.

ونظرًا لمكانته العلمية استدعاه (المنصور أبو يعقوب) سلطان دولة الموحدين إلى مراكش، فأكرمه وقدره تقديرًا كبيرًا، ولم يكن ابن رشد يرتاد مجالس الطرب، بل كان يتعفف عن حضور هذه المجالس، وبلغ من تعفّفه أنه أحرق شعره في الغزل أيام شبابه، وكان ابن رشد طبيبًا.. يقول: (من اشتغل بعلم التشريع ازداد إيمانًا

بالله) إنه يرى أن من يعمل في مهنة الطب، يرى عن قرب إعجاز الله في خلقه، ويشاهد أعضاء الجسم وهي على نظام دقيق؛ فيزداد إيمانه قوة ورسوخًا. ولابن رشد كتب كثيرة في الطب؛ أهمها كتاب (العلل) وهو من الكتب التي تتعرض للأدوية، وقد كان ابن رشد فقيهًا عالمًا، قال عنه ابن الأنبار: كان يفرع إلى فتواه في الطب، كما يفرع إلى فتواه في الفقه، وله كتاب في الفقه سماه: (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) وغير ذلك من الكتب الكثيرة التي بلغت خمسين كتابًا. وبعد هذه الرحلة العلمية المباركة، مرض ابن رشد مرضًا شديدًا ومات ليلة الخميس ٩ صفر سنة ٥٩٥هـ، ونقل جثمانه من (مراكش) إلى قرطبة حسب وصيته حيث المنشأ والأجداد.

## جابر بن حيان

درس الأوربيون كتبه، واستفادوا من تجاربه، وبنوا حضارتهم على جهده العلمي الوافر هو وغيره من العلماء المسلمين.. عاش (حيان) في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية، وتنقل في بلاد الله، وعندما وصل إلى بلدة (طوس) ببلاد العجم رزقه الله بمولود سماه (جابرًا) ولما مات حيان أصبح جابر يتيم الأب، لكن أقاربه أخذوه وتولوا تربيته وتعليمه، فدرس الرياضيات، ثم رحل (جابر) إلى الكوفة، فتلقى دروس الكيمياء على يد الإمام (جعفر الصادق) ورحب العباسيون بجابر وأكرموا؛ فوالده (حيان) قد ضحى بحياته من أجل قيام دولتهم، فأرادوا أن يجازوه على حسن صنيع أبيه معهم، فظل جابر في بغداد مقر الخلافة حتى أصبحت له مكانة كبيرة

برلة عظيمة في قصر الخليفة، وفي عهد الخليفة هارون الرشيد، كان جابر بن حيان على علاقة قوية بالبرامكة وعندما نكبهم رحل جابر إلى الكوفة خوفاً على حياته.

درس جابر بن حيان علوماً كثيرة، منها: علوم الكيمياء، والتاريخ الطبيعي، والطب والفلسفة، وكان ماهراً في كل هذه العلوم، لكنه مال إلى الكيمياء وأتقنها، حتى أنشأ معملًا خاصاً به؛ يقيم فيه تجاربه على المعادن، ويتعرف على خصائصها عن طريق التجربة والملاحظة الدقيقة، ويكرر تجاربه أكثر من مرة حتى يصل إلى جوهر الحقيقة لذلك كان يتخير الوقت والظرف المناسب حتى يتفرغ لإجراء تجاربه العديدة في هدوء، كما أنه كان شديد الملاحظة، صادق التأمل.

ذات مرة جاء بحجر من المغناطيس، فوجد أن المغناطيس يمكن أن يجذب كتلة من الحديد تزن مائة درهم، وبعد مدة من الزمن أراد أن يختبر حجر المغناطيس، فقربه من قطعة أخرى من الحديد فلم يجذبها، فظن أن القطعة الثانية أثقل من الأولى، فوزنها فوجدتها أقل من ثمانين درهماً، فاستنتج بذلك أن قوة المغناطيس تضعف بمرور الزمن، وقد سبق جابر بن حيان عصره، فقد كان خبيراً بالعمليات الكيميائية كالإذابة والتقطير والاختزال، وتمكن من تحضير مجموعة كبيرة من المواد الكيميائية، وشرحها في كتبه بأسلوب سهل، يستطيع الإنسان أن يجربها بنفسه إذا أراد، وتوصل (جابر بن حيان) إلى اكتشاف العديد من طرق تنقية المعادن، ودبغ الجلود، كما تمكن من صنع ورق غير قابل للاحتراق، وتوصل أيضاً إلى نوع من الطلاء يمنع الحديد من الصدأ، كما استطاع أن يتعرف قبل غيره من علماء أوروبا على فوائد المواد المعدنية والحيوانية والنباتية في بعض الأمراض.. وغيرها من الاكتشافات التي لازالت موضع إعجاب العالم كله، وقد اعترف علماء الغرب بفضل هذا العالم الكبير، وتمثل إعجابهم في ترجمة كتبه إلى لغتهم، فلا تخلو أية مكتبة شهيرة في أوروبا مثلاً من مؤلفاته، ويوجد في مكتبة باريس أكثر من ٥٠ كتاباً له وبعض هذه الكتب يبلغ ألف صفحة. وقد عرف جابر أهمية التجربة في العلم، ووضعها جزءاً هاماً من المنهج العلمي، فكان ينصح تلاميذه قائلاً: (وأول واجب أن تعمل وتجري التجارب؛ لأن من لا يعمل ويجري التجارب لا يصل إلى أدنى مراتب الإتيان، فعليك يا بني بالتجربة لتصل إلى المعرفة) وقال ناصحاً أحد تلاميذه: (ياك أن تجرب أو تعمل حتى تعلم).

وتظهر عظمة جابر بن حيان في استخدامه المنهج العلمي الدقيق والذي يتلخص في تحديد الهدف من التجربة العلمية، وتجنب المستحيل والذي لا فائدة منه، واختيار الوقت المناسب لإجراء التجربة، والتحلي بالصبر والمثابرة، والصمت والتحفظ، وعدم الاغترار بالظواهر حتى لا يؤدي ذلك إلى نتائج خاطئة، وهو بهذا قد سبق الغرب إلى معرفة المنهج العلمي، وإن ادعوا أنهم أصحابه. ومؤلفات جابر بن حيان في الكيمياء كثيرة ومتنوعة أشهرها: (الإيضاح) وهو مدخل لفهم كثير من أصول الكيمياء عنده و(الخواص الكبير) و(الأحجار) و(السر المكنون) و(الموازن) وعاش جابر بن حيان ينتقل بين تجاربه وبحوثه، ومن نجاح إلى نجاح إلى أن لقي ربه بعد أن ترك بين أيدينا تراثاً علمياً لا يزال موضع فخر المسلمين، وتوفي رحمه الله سنة ٢٠٠هـ / ٨١٥م.

## أبو بكر الرازي

في مدينة (الري) القريبة من (طهران) ولد (أبو بكر محمد بن زكريا) سنة ٢٥١هـ / ٨٦٥م وسمي بالرازي نسبة إلى مدينة (الري) التي ولد فيها، أحب الرازي الغناء والضرب على العود في بداية حياته، ثم هجر ذلك كله واتجه إلى الطب والكيمياء، يقرأ فيهما كثيراً، وأراد أن يجري إحدى التجارب الكيميائية، فاستنشق غازاً ساماً سبب له مرضاً شديداً، وعالجه أحد الأطباء حتى شفي، وكان له صديق يعمل بالصيدلة، فأخذ يتردد عليه، وطالع كثيراً من الكتب عن الطب، حتى أصبح طبيباً مشهوراً.

ولما بلغ سن الأربعين، صار أشهر أطباء عصره، فطلب منه الخليفة العباسي (المقتدر بالله جعفر بن المعتضد) إنشاء مستشفى في مدينة (بغداد) عاصمة الخلافة ففكر طويلاً واستشار أصدقاءه وتلاميذه، وأخذ يناقش معهم أنسب الأماكن لإقامة المستشفى، وبعد طول بحث ونقاش أدهش الجميع بفكرته الرائعة، حين أخذ قطعة لحم كبيرة، وقطعها إلى قطع صغيرة، ووضعها في أماكن مختلفة من ضواحي مدينة بغداد، وانتظر بضعة أيام، ثم طاف على الأماكن التي وضع القطع فيها ليرى تأثير الجو والزمن عليها، فإذا تَلَفَتِ القطعة بسرعة اعتبر أن هذه المنطقة لا تصلح لإقامة المستشفى، أما إذا ظلت قطعة اللحم كما هي دون أن يصيبها التلف، أو تأخر، فهذا دليل على

ب هواء المنطقة، وصلاحيته لإقامة المشروع، وهكذا وقع اختياره على المكان المناسب لإقامة مستشفى.

ذهب الرازي إلى الخليفة ينصحه ببناء المستشفى في هذا المكان، فأعجب الخليفة بذكائه، وأمر أشهر المهندسين، وأمهر البنائين بتشييدها وبنائها، حتى تم البناء، فكان الرازي هو مدير ذلك المستشفى ورئيس أطبائه بتكليف من الخليفة، واعتاد الرازي أن يشرك تلاميذه في استشاراته الطبية، فكان يجلس في بهو المستشفى الكبير ومن حوله الأطباء أصحاب الخبرة في الدائرة القريبة منه، ثم الأطباء المبتدئون في الدائرة الخارجية، وعند حضور أحد المرضى يعرض حالته أولاً على المبتدئين، فإذا لم يستطيعوا معرفة نوع المرض، انتقل المريض إلى الدائرة الداخلية ليفحصه الأطباء المتمرسون، فإذا لم يعرفوا تشخيص حالة المريض، تولى الرازي بنفسه فحص المريض ومعالجته. وكانت طريقة الرازي مميزة في العلاج إذ أنه كان يتعرف أولاً على أعراض المرض في دقة وصبر، ثم يحصر الاحتمالات التي تشير إلى حقيقته، ثم يستبعد منها ما توحى خبرته وملاحظاته بضرورة استبعاده، فإذا عرف المرض وتأكد منه، وصف له العلاج، وتتبع حالة المريض، وكان النجاح يخالفه في أكثر الحالات التي عرضت عليه. وكان الرازي دائماً ينصح تلاميذه أن يساعدوا الفقراء بأن يعالجوهم مجاناً، ويعلمهم أن مهنتهم مهنة الرحمة بالضعفاء والمُعذِبين، وأن عليهم مساعدة مرضاهم على الشفاء بالكلمة الطبية، وإحياء الأمل في نفوسهم ورفع روحهم المعنوية، كما كان ينصحهم بالمداومة على القراءة والبحث والاطلاع في المراجع الطبية مهما بلغوا من العمر والخبرة، كما نصحهم بالتعفف عند الكشف على النساء، والالتزام بالشرعية الإسلامية السمحة، ونهاهم عن الكبر والخيلاء.

وفي مكتبة اليمارستان (المستشفى) كان الرازي يقرأ على تلاميذه ما قاله الفلاسفة من الأطباء القدماء عن الأمراض المختلفة، وكان من رأيه أنه يجب على الأطباء أن يعرفوا تشريح أعضاء الجسم، لذلك كان يأتي بالقروء من بلاد زنجبار في أفريقيا ويجري عليهم تجاربه أمام تلاميذه، فإذا نجحت التجربة على الحيوان يقوم بإجرائها على الإنسان.

وكان الرازي من أشد المعجبين بجابر بن حيان، فقرأ كتبه، واستطاع أن يطور الكثير مما اكتشفه أستاذه (جابر) وأجرى مئات التجارب الكيميائية، وكان دائم البحث عن أدوية جديدة ووسائل مبتكرة تنفع في علاج المرضى، فحصل على (الكحول) من تقطير المواد النشوية والسكرية المتخمرة، واستعمله في علاج بعض الأمراض، وصنع الأدوية الطبية، واخترع الأنبوب الذي يخرج الدم الفاسد خارج الجرح، ونجحت تجاربه في خياطة أجهزة الجسم الداخلية بخيوط تصنع من أمعاء الحيوانات.

ومن أهم إنجازات الرازي العلمية والطبية أنه اكتشف مرض الحساسية، وكذلك (اليرقان) الناجم عن تكسر الدم، وميّز بينه وبين التهاب الكبد المعدي، واكتشف أيضاً مرض الحصبة، وميّز بينه وبين مرض الجدري، واستعمل الرازي خبرته كعالم كيميائي في إدخال بعض المركبات الكيميائية لأول مرة في العلاج.

وكان الرازي من أوائل الأطباء الذين يعالجون مرضاهم بأسلوب نفسي بدون أدوية.. ويأتي بالقصاصين إلى المستشفى ليقصُّوا على المرضى القصص والحكايات ليرفِّهوا عنهم، وينسوه آلام المرض، واستمر الرازي في خدمة مرضاه، وكلما اكتشف شيئاً جديداً؛ ازداد تواضعاً وحباً لعمله، وظل الرازي يبحث ويفكر ويكتب الكثير من الكتب؛ فترك لنا نحو ٢٢٤ كتاباً في الطب والصيدلة والكيمياء وغيرها من العلوم المختلفة، ومن أشهر كتبه: كتاب (الحاوي) الذي يعد من الكتب المهمة في مجال الطب، وكان مرجعاً للأطباء، وترجمه الأوربيون واستفادوا منه، وقد سماه (الرازي) الحاوي لأن كتابه هذا يعد موسوعة علمية طبية تحوي كل الكتب والأقوال الطبية القديمة من أهل صناعة الطب، ويقع في عشرين مجلداً، ويتناول الكتاب جميع الأمراض الموجودة في جسم الإنسان، ومعالجتها وكيفية الوقاية منها قبل وقوعها. ومن كتبه المهمة: (رسالة في الجدري والحصبة) وهي رسالة علمية هامة، وكتاب (أخلاق الطبيب) الذي شرح فيه الرازي العلاقة الإنسانية بين الأطباء والمرضى، وبينهم وبين بعضهم، وبين الحكام، كما تحدث فيه أيضاً عن نصائح عامة للمرضى في تعاملهم مع الأطباء، وكتاب (المنصوري) وهو أقل حجماً من الحاوي فقد جعله الرازي عشرة أقسام في أبواب الطب، وفي القسم الثامن تجارب أجراها على الحيوانات لاختبار أساليب جديدة في العلاج، وكتاب (سر الأسرار) من أشهر مؤلفاته في الكيمياء. ومن كتبه الأخرى: (قصص وحكايات المرضى) و(المدخل الصغير إلى الطب) و(الطب الروحاني).

رسالة في الداء الخفي) و(المدخل التعليمي) و(مجموعة الرسائل الفلسفية).. وغير ذلك من كتب كثيرة تحتوي على كثير من العلوم التي درسها الرازي، واستمر الرازي يجري التجارب حتى أثرت بأجرة المواد الكيميائية على عينيه؛ فضعف بصره، وفي ليلة من ليالي عام ٣١١هـ/ ٩٢٣م مات الرازي، بعد أن ترك تراثاً طبياً عظيماً.

## ابن سينا

في بلاد ما وراء النهر، في (أفشنة) تلك القرية من بخارى الواقعة في جمهورية أوزبكستان حالياً، ولد (أبو علي حسين بن عبد الله بن علي بن سينا) سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م، فاعتنى والده بتربيته وتعليمه، واهتم به اهتماماً بالغاً، وكان الأب سعيدياً بولده غاية السعادة، فقد حفظ ابن سينا القرآن وسنّه لم تتجاوز العاشرة، وأتم دراسة الفقه والحديث، كما درس العلوم المختلفة مثل الرياضيات، والفلك والطبيعة، والفلسفة والمنطق. كان ابن سينا يصحب والده إلى قصر الأمير نوح بن منصور الساماني حيث يدور الحوار والنقاش في السياسة والدين واللغة، وهو يستمع بشغف إلى العلماء، حتى يتوقف الحديث عند منتصف الليل، وكانت بخارى مدينة عامرة بالقصور والمساجد والمكتبات، فكان العلماء يأتون إليها ضيوفاً في قصر الأمير نوح أو عند عبد الله والد ابن سينا، فكان الصبي يستغل هذه الفرصة ويذهب إلى العلماء يتعلم على أيديهم، وينهل من علمهم.

وأخذ ابن سينا يقرأ ويطالع في فروع العلم المختلفة، لكنه شعر بميل شديد إلى علوم الطب؛ فكان يعتمد على نفسه في دراسته تارة، أو يذهب إلى أبي سهل المسيحي وأبي منصور الحسن بن نوح؛ طبيبي الأمير نوح، يسألها فيما غمض عليه من المسائل الطبية، انقضت أربع سنوات تفرغ خلالها ابن سينا لدراسة الطب، وفي تلك الأيام انتشرت الأمراض بين الناس في مدينة بخارى واشتد فتكها بالفقراء، ولما كان الأطباء في بخارى قليلي العدد؛ فكانوا يبالغون في أجورهم، لكن ابن سينا كان يبذل جهده في علاج الفقراء في المساجد والمنازل، فاشتهر بين أهل بخارى لرحمته وفصله، وأصبح مصدراً للدهشة والإعجاب بين أصدقائه وبنين قومه، وأقبل عليه الأطباء ليستفيدوا من علمه الغزير، ويتعلموا منه أشياء جديدة في الطب لم يعرفوها ولم يدرسوها من قبل وسنه حينذاك لم تتجاوز السادسة عشرة. وذاعت شهرة ابن سينا أكثر، عندما مرض الأمير نوح بن منصور ويئس طبيباه من علاجه، فاستدعوا ابن سينا ولم يجدوا مفرّاً من استشارته، فجاء الطبيب الصغير إلى مجلس الأمير وقد تغير لون وجهه من الخجل، وقال لأستاذه: كيف أعالج أميراً أنتمأ طبيباه وكلاكما لي أستاذ؟! فقال له: يا أبا علي، لقد صرت من الطب في مكانة رفيعة ونحن نعرف تواضعك، فذهب وفحص نوحاً، واستطاع أن يصف العلاج الصحيح الذي جعله الله سبباً في شفاء الأمير، فقربه الأمير من مجلسه، وأذن له بالاطلاع على دار كتبه. ثم خرج ابن سينا من بخارى إلى مدينة الجرجانية بعد أن فقد أباه والأمير نوحاً، وفي الجرجانية ألف كتباً عدة؛ منها: (الأرصاد الكلية في الفلك، والحكمة العروضية)

وبدأ في تأليف كتابه الشهير في الطب: (القانون)، ولم يكد ينتهي من الجزء الأول حتى اضطر إلى الخروج إلى (همدان) حيث قربه الأمير (شمس الدولة)؛ فأعطاه قصرًا وألح عليه ليكون كبيراً لوزرائه، لكن (ابن سينا) لم ينشغل عن العلم لحظة، فكان ينظم ساعات يومه؛ في النهار يشغل نفسه بأمور الدولة، وفي الليل يكتب ويؤلف ويقرأ الكتب. وكان ابن سينا دائماً شارد الذهن، طويل التفكير، قلقاً مضطرباً، لانشغاله بقضية صعبة من القضايا الفلسفية أو العلمية التي تحير العقل وتشتت الذهن، طويل التفكير وكلما حدث له هذا، توضعاً وخرج إلى المسجد؛ فيقضي نهاره في صلاة وعبادة وتضرع إلى الله، ثم يعود إلى داره بعد صلاة العشاء، فيشعل مصباحه ويراجع كتبه ويظل طوال الليل يفكر في الموضوع الذي يحيره، ومن شدة حرصه على إيجاد حل له كان يقرأ حتى يغلبه النوم. ومما يدل على شدة حرصه على العلم ما حكاه عن نفسه من أنه قرأ كتاباً للفارابي فلم يفهمه، وذات يوم وهو في السوق عرض عليه أحد البائعين كتاباً، فلم يلتفت إليه، فلما ألح البائع عليه، وعرضه بثمن رخيص اشتراه؛ فإذا به شرح لكتاب الفارابي، فأسرع ابن سينا إلى داره، وأخذ يقرأ الشرح، حتى فهم كل ما فيه، وقال في ذلك: وفرحت بذلك وتصدقت في ثاني يوم بشيء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى.

كانت حياة ابن سينا حافلة بالنشاط والعمل، حتى إنه ترك لنا الكثير من المؤلفات في الرياضيات والمنطق والطبيعة والإلهيات والفلك والطب والصيدلة والأخلاق والسياسة وغير ذلك من علوم كثيرة، ويعتبر كتابه (الشفاء) من أعظم الكتب في تاريخ الفلسفة؛ فقد درسها ابن سينا دراسة عميقة، وقرأ الكثير من كتب الفلاسفة القدماء من العرب والعجم، أما كتابه (القانون في الطب) فيعتبر من أعظم مؤلفاته على الإطلاق، وقد تناول فيه علم وظائف الأعضاء، وعلم الأمراض ومعالجتها وعلم الأدوية، كما بين فيه أخطاء الأطباء السابقين عليه من يونان وهنود.. وغيرهم. وقد درس الأورييون كتاب ابن سينا، وطوروا الطب من خلاله، ولشدة اهتمامهم بهذا الكتاب طبعوا منه ست عشرة طبعة في القرن الخامس عشر، ثم طبعوا منه عشرين طبعة في القرن السادس عشر، ثم تسعاً وثلاثين طبعة في النصف الأول من القرن السابع عشر، في الوقت الذي لم يطبعوا فيه من كتب (جالينوس) الطبيب اليوناني غير طبعة واحدة.

وبفضل جهود ابن سينا في مجال الطب، تقدمت تلك المهنة بسرعة كبيرة، وظهرت أجيال أخرى من عباقرة الطب الإسلامي الذين طوروا الكثير من الأجهزة العلمية واكتشفوا الكثير من الأمراض مع بيان طرق علاجها والوقاية منها، ولابن سينا العديد من الاكتشافات، فقد اكتشف الديدان المعوية والدود المستدير (وهي ما نسميه الآن الإنكلستوما) وكان أول من نبه إلى أثر حالة المريض النفسية على جهازه الهضمي، وقرحة المعدة، والدورة الدموية وسرعة النبض، كما استطاع ابن سينا أن يصنف بدقة الأعضاء المختلفة لجسم الإنسان، كذلك سمي كل عضلة وعرق وعصب باسمه المشهور به، وابتكر عملية التخدير التي يجب أن تتم قبل إجراء أية عملية جراحية. ولم يقتصر اهتمام ابن سينا على الطب، لكنه اهتم بعلم المنطق الذي ينظم تفكير الإنسان، وكتب في علمي النبات والحيوان، وكتب أيضاً في علم الكيمياء، كما كانت له دراسات في علم الفلك؛ فقد قرر حركة دوران الأرض وانجذابها إلى مركز العالم، كما تحدث عن سرعة الضوء والصوت، ولم يقف اهتمام ابن سينا على هذا الكم من العلوم، فقد اهتم أيضاً بدراسة النفس الإنسانية، وكانت أقواله في علم النفس ذات شأن كبير في العالم الإسلامي والأوروبي، وقد استفاد من كتبه النفسية كل من اطلع عليها في الشرق والغرب، وشهد أهل زمانه من العلماء والمفكرين بعلمه وفضله؛ حتى لقبوه بالشيخ الرئيس، ولقبه علماء الغرب (أبو الطب). وفي (همدان) مرض ابن سينا واشتد عليه المرض، فاشتاق للقاء ربه وتصدق بكل ماله، ولفظ أنفاسه الأخيرة في يوم الجمعة الأولى من رمضان سنة ٤٢٨هـ / ١٠٣٧م.

## البيروني

شهد له الناس في الشرق والغرب بعلمه وفضله، وأشاد الناس في كل مكان باكتشافاته ومؤلفاته، وحفر اسمه بحروف من نور على صفحات التاريخ!! ولد (أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني) في شهر ذي الحجة سنة ٣٦٢هـ / ٣ من سبتمبر ٩٧٣م، في إحدى ضواحي خوارزم، وهي مدينة (كاث) التي توجد مكانها حالياً بلدة صغيرة تابعة لجمهورية أوزبكستان، وكانت مدينة (خوارزم) مركزاً عظيماً من مراكز الثقافة الإسلامية، ازدادت شهرتها بعد انهيار الخلافة الإسلامية في بغداد. ونشأ (البيروني) في هذا الجو الذي يحث على طلب العلم ويدفع إلى التعلم، فحفظ القرآن الكريم ودرس الفقه والحديث النبوي الشريف، وفي (بيرون) خالط أبو الريحان التجار الهنود واليونانيين وغيرهم، فتعرف على طباعهم، وتعلم لغتهم، فأتسع إدراكه وازدادت خبرته وتعمقت تجارته، التقى أبو الريحان بمعلم أعشاب استطاع أن يتعلم منه شيئاً عن تحضير النباتات الطبية، وأن يعرف أسماء النباتات، الأمر الذي دفعه إلى الاهتمام بالعلوم الطبيعية.

وتمكن (أبو الريحان) من أن يتصل بأي نصر منصور بن علي، ذلك العالم الذي يمت بصلة قرابة إلى العائلة المالكة بخوارزم، وكان عالماً كبيراً في الرياضيات والفلك، فأطلعه على هندسة إقليدس، وفلك بطليموس، فأصبح العالم الشاب أبو الريحان مؤهلاً لدراسة الفلك، كما اكتسب دراية كبيرة بالعلوم الهندسية والفلك والمثلثات من أبي الوفاء العالم الفلكي الشهير وصاحب مرصد بغداد. اشتهر (البيروني) وذاع صيته حتى وصلت أخباره إلى أمير (خوارزم) فأعجب به، وضمه إلى علماء قصره، وضمن له ما يكفيه للعيش عيشة كريمة ليتفرغ للعلم والاستنباط والاستكشاف، وفكر (أبو الريحان) في بناء مرصد فلكي، فعرض الأمر على الأمير، فرصد له ما يشاء



مال، وأحضر له جميع المستلزمات التي طلبها، ثم شرع (البيروني) مع أساتذته في بناء المرصد.

كان البيروني يجلس كل ليلة في مرصده، يتابع حركات الشمس والقمر والنجوم ويرسم على أوراقه خريطة لقبة السماء الزرقاء، يضع عليها مواقع اجرات والنجوم وأخذ كل يوم يكتشف الجديد في علم الفلك، وتغيرت الأحوال عندما رحلت العائلة المالكة في خوارزم والتي كانت عوناً له وسنداً، بعد أن جاءت العائلة المالكة الجديدة عائلة (مأمون بن محمد) فكان عليه أن يرحل هو الآخر من (خوارزم) فرحل عنها وظل ينتقل من بلد إلى بلد، وإذا سمع بعالم رحل إليه وأخذ العلم عنه. وأخذ يكتب في أوراقه كل ملاحظاته عن المد والجزر في البحار، وعن حركات النجوم والأفلاك وغيرها مما يتعلق بعلم الطبيعة، وكان الملوك والأمراء يتنافسون في إكرام العلماء، ومن بينهم أمير (جرجان وطبرستان) (شمس المعالي قابوس) ذلك الأمير الذي شغله العلم، وامتلاً قصره بالعلماء، ولما علم ذلك الأمير بقصة أبي الريحان وكثرة ترحاله، شمله بعطفه ورعايته وأعطاه الأموال الكثيرة، حتى تفرغ للعلم واستطاع أن يكتب كتابه الشهير (الآثار الباقية عن القرون الخالية) وقدم هذا الكتاب هدية إلى الأمير (قابوس) سنة ٣٩٠ هـ. وكان أبو الريحان البيروني على اتصال بابن سينا الذي كان من أشهر علماء عصره وكثرت الرسائل بينهما في خدمة العلم، فأعجب به ابن سينا إعجاباً شديداً واستمرت رسائلهما حوالي خمس سنوات يتبادلان الرأي حول قضايا علمية كثيرة، ولما عُزل قابوس عن الإمارة سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م لم يجد أبو الريحان البيروني إلا أن يعود إلى بلده (خوارزم) مرة أخرى.

وفي جرجان عاصمة الدولة الخوارزمية، لقي أبو الريحان كل التقدير من أمير البلاد أبو العباس مأمون بن مأمون، وأتيحت له الفرصة لأن يجتمع بكبار العلماء مثل ابن سينا وغيره، وبدأ العالم الكبير (أبو الريحان البيروني) في إجراء بحوثه ودراساته الفلكية والجغرافية، وشرع هو وتلاميذه في إنشاء مرصد في القصر الملكي لرصد حركة الشمس والقمر والنجوم. وفي حديقة القصر بنى نصف كرة من الحجارة والطين قطرها أربعة أمتار تقريباً ووضع عليها صور البلدان كما تخيلها، ورسم على تلك البلدان خطوط الطول والعرض، كما اشتغل مع علماء المجموع في حساب مساحة الكرة الأرضية، لكن الحياة لا تستقر على حال، فقد قتل الأمير عاشق العلم، واستولي السلطان محمود الغزنوي على البلاد سنة ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ م، فأخذ كل الذخائر العلمية التي تضمها مكتبة القصر، كما اصطحب معه العلماء، وكان من بينهم أبو الريحان البيروني، حيث استقر في القصر الملكي بغزنة (أفغانستان حالياً). وفي قصر السلطان (محمود الغزنوي) التقى البيروني بعدد من الفلاسفة والأدباء المشهورين، وأتيحت له الفرصة أن يشهد غزوات السلطان التي قادها، وصحبه في أكثر من ثلاث عشرة غزوة، وكانت إقامة البيروني بغزنة من العوامل التي ساعدته على القيام بعدة رحلات علمية إلى الهند، وكان قصده من ذلك القيام بدراسة علمية دقيقة على الطبيعة لأحوال هذه البلاد، من حيث تاريخها وثقافتها وأديانها، ورأى البيروني أن الفرصة لن تنهيا له إلا إذا درس اللغة السنسكريتية (لغة الهند)؛ ففتحت له هذه الدراسة أبواب الثقافة الهندية من جميع نواحيها العلمية والدينية، ووضع كتاباً مهماً عن حضارة الهند وتاريخها، أسماه (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة) ذكر فيه الجغرافيا الخاصة بالهند، كما ذكر لنا العقائد الدينية والمعارف العلمية عند الهنود، من رياضة وفلك وتاريخ وغيرها من علوم مختلفة. وقد كتب البيروني أكثر من (١٤٦) كتاباً في علوم مختلفة، فقد كتب في الحساب وشرح الأرقام الهندسية شرحاً وافياً، وهي الأرقام التي اتخذت أساساً للأرقام العربية كما يعد الواضع الحقيقي للقواعد الأساسية لعلم الميكانيكا، وكانت له نظريات في استخراج الأوتار من الدائرة، واستطاع أن يبتكر معادلة لمعرفة محيط الأرض.

ويعد البيروني أبا الصيدلة العربية في العالم الإسلامي، فقد كتب عن الصيدلة كتباً عديدة جعلته يحتل هذه المكانة المهمة في تاريخ الطب الإسلامي، وقد سجل البيروني في كتبه كثيراً من فوائد النباتات الطبية والعقاقير الأدوية، كما كتب كتاباً أسماه (الصيدلة في الطب) وتجمعت لدي البيروني معلومات جغرافية كثيرة وضعها في كتاب سماه (نهاية الأماكن) وأثبت فيه أشياء لم تكن معروفة من قبل مثل: أن وادي السند كان في العصور القديمة حوض بحر قديم كونه الرواسب التي حملها النهر.

وقال البيروني بدوران الأرض، وأنكر أن تكون الأرض مسطحة، وأنشأ مرصداً خاصاً به، وافترض أن الأرض ربما هي التي تدور حول الشمس، كما قال إن الأزمان الجيولوجية تتعاقب في صورة دورات زمنية، كما اهتم البيروني أيضاً بدراسة التكوين الطبقي

سُخَّور والأفكار والمحيطات، وابتكر نظاماً خاصاً لرسم الخرائط

رسماً مجسماً، وللبيروني جهود علمية طيبة في الترجمة عن لغات أخرى مثل: اللغة الهندية والفارسية .. وغيرها، وقد قام بترجمة اثنين وعشرين كتاباً إلى اللغة العربية أهمها: ترجمة كتاب (أصول إقليدس) وكتاب (الجسطي) لبطليموس الفلكي .. وغيرهما. وكان البيروني مفكراً وفيلسوفاً إسلامياً؛ فهو يرى أن طلب العلم هو أسمى هدف للحياة البشرية، وأن مطالب الحياة تستلزم مراعاة أداء الفرائض الدينية والتمسك بالقوي بالدين الإسلامي، لكي تساعد الإنسان المسلم في تصريف الأمور، وتمييز الخير من الشر والصديق من العدو، وكان البيروني يقدر آراء العلماء الذين سبقوه ويسجلها في كتبه بأمانة وموضوعية، ويرجع الفضل إلى أهله، كما كان يحترم تقاليد الشعوب الأخرى وعاداتها، وطرائقها في التفكير والمعيشة، ويظهر تسامح البيروني ومرونة عقله ونزاهته وموضوعيته في تقديره لعلوم اليونان والهنود والفرس .. وغيرهم. ولم يلق البيروني تقديرًا من المسلمين فحسب، بل إن الأوروبيين كانوا يرون أن البيروني أكبر عقلية علمية في التاريخ، وأنه من أعظم العلماء الذين ظهروا على مر العصور، وأن اسمه يجب أن يوضع في لوحة الشرف التي تضم أكابر العلماء، وأنه من المستحيل أن يكتمل أي بحث في الرياضيات أو الفلك أو الجغرافيا أو المعادن أو العلوم الإنسانية، دون الإقرار بإسهاماته العظيمة في كل علم من تلك العلوم، ومرت الأيام وأصبح البيروني شيخاً كبيراً؛ فأراد أن يجمع تجاربه ومشاهداته العلمية في كتاب فكتب كتاباً أسماه (القانون المسعودي) وهو موسوعة ضخمة في العلوم نسبة إلى السلطان (مسعود) وفاءً وإخلاصاً له، فكافأه السلطان بأن أرسل له ثلاثة جمال محملة بالنقود والفضة، فرد أبو الريحان الهدية قائلاً: إنه يخدم العلم للعلم لا للمال. وظل أبو الريحان يكتب البحوث المفيدة والقيمة، وينتقل من اكتشاف إلى اختراع إلى كتابة مؤلفات جديدة، وظل وفياً للعلم؛ فيذكر أنه وهو على فراش الموت زاره أحد أصدقائه فسأله البيروني عن مسألة سبق أن ناقشه فيها، فقال له صديقه: أفي مثل هذه الحال تسأل !!؟ قال البيروني: يا هذا، الأفضل أن أودع الدنيا وأنا عالم بهذا المسألة !! وقد أشاد بمكانة البيروني العلمية كبار مؤرخي العلم، وأنشئت باسمه جامعة في (طشقند) عاصمة جمهورية أوزبكستان الإسلامية تقديرًا لمآثره العلمية، كما اختير من بين (١٨) عالماً إسلامياً أطلقت أسماءهم على بعض معالم القمر، ومات البيروني وشيعه كبار رجال العلم ومحبه ممن تتلمذوا على يديه، وكان ذلك سنة ٤٤٠ هـ.. رحم الله ذلك العالم المسلم الكبير بقدر ما قدم للإنسانية من علم ومعرفة.

## الشريف الإدريسي

في أواخر القرن الخامس الهجري سنة ٤٩٣ هـ، وفي مدينة (سبته) بالمغرب ولد رجل من أعظم علماء الجغرافيا في العالم، إنه (محمد بن عبد الله بن إدريس) المعروف بالشريف الإدريسي. ولد محمد بن عبد الله بن إدريس سنة ٤٩٣ هـ، ونشأ محباً للعلم يحب الطبيعة والأزهار، وكثيراً ما كان يتتبع غموض الأزهار، والنباتات ومظاهر الطبيعة التي كانت تعجبه، وتشغل باله، ذهب الإدريسي في طفولته إلى الكتّاب ليحفظ القرآن ويتعلم اللغة والفقه، ولكنه لم ينتظر حتى يكمل دراسته، بل خرج للرحلة، ومشاهدة مظاهر الطبيعة في البلاد، فأكمل دراسته، وتعلمه خلال رحلاته ومشاهداته، ولم يهتم الإدريسي بعلوم الدين فقط، وإنما خرج يطوف في البلاد يشاهد ويدون، ويرسم ما شاهده، وقد دفعته نفسه التواقة إلى القيام برحلة كبيرة تغطي أرجاء العالم الإسلامي، كما زار البرتغال وإيطاليا وسواحل فرنسا وإنجلترا، وكان هذه الرحلات أثرها في تنمية معلوماته الجغرافية. اتصل الإدريسي بالملك (روجر الثاني) ملك صقلية وكانت صقلية لا تزال تزدهر فيها الثقافة الإسلامية على الرغم من استيلاء النورماندين عليها من المسلمين؛ فطلب من الإدريسي أن يرسم له خريطة للعالم، فاختر الرجال، ودرهم على دقة المشاهدة ليصوروا ما يشاهدونه برسومهم ويزودوه بمعلومات جغرافية عن البلاد التي سيزولون بها، وحين اطمأن إلى قدرتهم على إنجاز مهمته أرسلهم إلى بلاد كثيرة، وكان الإدريسي يدون المعلومات التي تصل إليه منهم، ويعيد صياغتها. ثم جمع الإدريسي كل ما وصل إليه في كتاب سماه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وقد احتوى الكتاب على كثير من المعلومات الخاصة بغرب أوروبا، وقد اشتهر هذا الكتاب بين علماء الشرق والغرب وخاصة المشتغلين بالجغرافيا، واستغرق إخراج هذا الكتاب خمسة عشر عاماً. وبعد الانتهاء من تأليفه، أهده إلى صديقه الملك روجر سنة ١١٥٤م الذي أعجب به، وكافأه عليه، ثم قام برسم خريطة للعالم حسب طلب الملك

وَجَر) على لوح مستطيل من الفضة؛ حيث اشتملت على عدد كبير من الأسماء، ثم طلب منه أن يصنع له كرة توضح شكل الأرضية، فأمر الإدريسي أن تفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظمة الحجم في وزن ٤٠٠ رطل، فلما كملت أمر العمال أن ينقشوا عليها صور الأقاليم ببلادها، وأقطارها وريفها وخلجانها وبحارها ومواقع أنهارها وعامرها والطرق والمسافات بين البلاد والمراسي، لا يتركون شيئاً، ويأتون به على هيئته وشكله، فصنع بذلك أول مجسم لكرة أرضية دقيقة عُرفت في التاريخ على هذا الشكل، ولكن للأسف تعرضت للضياع. ولم يَبْقَ من آثار الإدريسي إلا كتابه وأطلس خرائطه، ويعد الإدريسي أول جغرافي متخصص في هذا العلم، فقد فاق (بطليموس) العالم اليوناني القديم الذي كان يدرس الرياضيات والفلك، فكان اهتمامه بالجغرافيا لهذا السبب، أما الإدريسي فلم يهتم إلا بالجغرافيا فقط، فجعلها علماً مثل باقي العلوم ومن إسهاماته في هذا المجال أنه أكد على خطوط الطول والعرض لتحديد المكان والمسافة، وقال بكروية الأرض، وترك عددًا من الخرائط لمنابع نهر النيل والبحار وأقاليم العالم القديم. وقد اهتمت الدول المختلفة بنقل المعلومات التي كتبها الإدريسي عنها ودرسوها فكان الإدريسي بذلك أعظم جغرافي آنذاك، وحصل على تلك المكانة بفضل ملكاته الممتازة في رسم الخرائط، ويعتبر أطلسه أهم أثر للخرائط التي رُسِمَتْ في العصور الوسطى، وقد استطاع (كونراد ميللر) أن يستخرج من أطلس خرائط الإدريسي خريطة جامعة للعالم، وطُبعت سنة ١٩٣٨م ملونة وفي ١٩٥١م طُبِعَت باللغة العربية وظل الاعتماد على خرائطه في أوروبا حتى القرن السادس عشر الميلادي. ولم يكن الإدريسي بارعاً في الجغرافيا وحدها بل برع أيضاً في النبات وبخاصة الأعشاب الطبية، وألف فيه كتابه (الجامع لصفات أشاتات النبات) وقد استفاد (ابن البيطار) النباتي المشهور من هذا الكتاب الذي لم يصل إلينا، ونقل منه مائة مرة أشياء تختص بالأشجار والنبات والأزهار. وظل الإدريسي يعمل في خدمة العلم، تحت رعاية صديقه الملك (روجر الثاني) ومن جاء بعده، حتى توفي في سنة ٥٦٠هـ على رأي أكثر المؤرخين وهو بعيد وغريب عن بلده يسعى للعلم.

## ابن بطوطة

في درب صغير بمدينة (طنجة) بالمغرب، كان يعيش فتى عربي مسلم يهوى قراءة كتب الرحلات، والاستماع إلى أخبار الدول والناس، وعجائب الأسفار من الحجاج والتجار الذين يلقاهم في ميناء (طنجة) أو من أصدقاء أبيه.. هذا الفتى هو (محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي) الشهير بـ(ابن بطوطة) ولد في (طنجة) في شهر رجب عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤م. كان أبوه فقيهاً يشتغل بالقضاء وكان يعد ولده ليكون خلفاً له، لذلك حفظ ابن بطوطة القرآن، ودرس العلوم الدينية، والأدب والشعر، فشَبَّ تَقِيّاً، ورِعاً، محباً للعلماء والأولياء، ولكنه لم يُتِمَّ دراسة الفقه بسبب رغبته في السفر والترحال؛ فكان خروجه إلى الحج، وهو في الثانية والعشرين من عمره، نقطة التحول في حياته، إذا ارتدى منذ ذاك الحين ثوب الترحال وأخذ يجوب أرجاء العالم الإسلامي، وحين خرج ابن بطوطة من (طنجة) سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥م قاصداً الكعبة، وزيارة قبر النبي صلي الله عليه وسلم، لم يخرج مع قافلة الحج، بل خرج مع قوم لا يعرفهم، ولم يستقر مع جماعة منهم، فأخذ ينتقل من مركب إلى آخر، ومن قافلة إلى أخرى، فقد كان اهتمامه برؤية أصناف الناس، والغرائب التي يصنعونها هو شغله الشاغل.

كان مما لاحظته ابن بطوطة أن أصحاب كل حرفة يتزولون ضيوفاً على أصحاب نفس الحرفة في البلاد الأخرى؛ فالقاضي يتزل على القاضي، والفقيه على الفقيه، لذلك فقد فرح ابن بطوطة عندما قدمه الناس على أنه من القضاة، ومنذ ذاك الحين أصبح يتزل على القضاة والفقهاء في كل بلدٍ يذهب إليه.

ومن خلال رحلات ابن بطوطة، يظهر مدى ترابط الأمة الإسلامية وقوة وحدتها حيث إنه خرج لرحلته الطويلة بمال قليل ولكن ترابط الأمة وتأخيرها عمل على معاونته في رحلته، وإمداده بما يريد، كانت رحلته الأولى من سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥م إلى ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩م وقضى فيها ٢٤ سنة، ومر فيها بمراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر ثم إلى فلسطين ولبنان وسوريا والحجاز، فحج حجته الأولى ومن مكة غادر إلى بلاد العراق وإيران وبلاد الأناضول، ثم عاد إلى مكة فحج حجته الثانية، ثم غادرها إلى اليمن ثم إفريقية الشرقية، ثم زار عمان والبحرين والإحساء، ثم رجع مكة فأدى مناسك الحج. خرج ابن بطوطة إلى الهند وخراسان

ر كستان وأفغانستان وكابل والسند، وتولى القضاء في (دهلي) على المذهب المالكي، ولما أراد السلطان محمد شاه أن يرسل و  
إلى ملك الصين خرج ابن بطوطة فيه، وفي عودته مر بجيزة (سرنديب) والهند والصين، ثم عاد إلى بلاد العرب عن طريق (سومطرة)  
سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م، فزار بلاد العجم والعراق وسوريا وفلسطين ومنها لمكة فحج حجة الرابعة إلى بيت الله، ثم رأى أن يعود  
إلى وطنه فمر بمصر وتونس والجزائر ومراكش فوصل فاس سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م.

وقد كان ابن بطوطة إذا ما ذكر ما تمتع به في حياته من نعمة وجاه يقول: (إنما كان لأنني حججت أربع حججات) ثم ما لبث أن قام  
برحلته الثانية بعد أن أقام في فاس فترة قصيرة لكنه وجد في نفسه شوقاً إلى السفر إلى بلاد الأندلس، فمر في طريقه بـ(طنجة)  
(جبل طارق) و(غرناطة) ثم عاد إلى فاس، وفي سنة ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م كانت رحلة ابن بطوطة الثالثة إلى بلاد السودان، ثم مالي  
(تومبوكتو) وكثير من بلاد إفريقية ثم رجع إلى فاس، وظلت مدة عامين، فقد انتهت ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م.

وكانت لابن بطوطة معرفة بطب الأعشاب التي كان الناس يتداوون بها من الأمراض الشائعة، وكان يداوي نفسه بنفسه، ولقد أعانه  
على رحلته قوة بدنه، فكان يأكل أي طعام -عدا المحرمات- وقد أصابته الحمى أكثر من مرة، وكاد دوار البحر أن يهلكه لولا رعاية  
الله له، وقد استغرقت رحلاته أكثر من ثمانية وعشرين عاماً كشفت هذه الرحلات عن أسرار كثيرة من البلاد التي زارها ابن بطوطة،  
إذ يعد أول من كتب شيئاً عن استعمال ورق النقد في الصين، وعن استخدام الفحم الحجري وكان صادقاً في أغلب أوصافه، حتى إن  
المستشرق (دوزي) أطلق عليه (الرحالة الأمين) وقد اتقن ابن بطوطة خلال رحلته اللغتين الفارسية والتركية، وقطع مائة وأربعين ألف  
كيلو متر، أكثرها في البحر، وتعرض للأخطار والمهلك في الصحاري والغابات، وقطاع الطريق في البر، وقراصنة البحر، ونجا مراراً  
من الموت والأسر. وقد كان ابن بطوطة سريع التأثير يدل على ذلك قوله: وعندما وصلت إلى تونس برز أهلها للقاء الشيخ (عبد الله  
الزبيدي) ولقاء الطبيب ابن القاضي أبي عبد الله النفراوي فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال، ولم يُسلم على أحد لعدم  
معرفتي بهم فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك معه سوايق العبرة، واشتد بكائي، فشعر بحالي بعض الحجاج، فأقبل على بالسلام  
والإيناس وما زال يؤانسني بمدينته حتى دخلت المدينة، وأما حبه لوالديه فقد أفصح عنه أيما إفصاح حيث يقول في مقدمة رحلته: إنه  
تركهما فتحمل لبعدهما المشاق كما لقي من الفراق نصيباً، فلما عاد من رحلته الأولى وبلغه موت أمه حزن حزناً شديداً قطعه عن كل  
شيء، وسافر لزيارة قبر والدته. اتصل ابن بطوطة بالسلطان أبي عنان المريني، وأقام في حاشيته يُحدثُ الناس بما رآه من عجائب  
الأسفار، ولما علم السلطان بأمره وما ينقله من طرائف الأخبار عن البلاد التي زارها أمر كاتبه الوزير محمد بن جزي الكلبي أن يكتب  
ما يمليه عليه الشيخ ابن بطوطة فأنتهى من كتابتها سنة ١٣٥٦م، وسماها (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) وقد  
ظلت رحلة ابن بطوطة موضع تقدير كثير من العلماء والباحثين فترة طويلة، وتُرجمت إلى اللغة الإنجليزية، ونُشرت في لندن سنة  
١٨٢٩م، وتُرجمت إلى اللغة الفرنسية، وطُبعت في باريس سنة ١٨٥٣م وتُرجمت إلى الألمانية، وطُبعت سنة ١٩١٢م، وكذلك  
تُرجمت إلى اللغة التركية. وفي عام ٧٧٩هـ / ١٣٧٨م كان وداع ابن بطوطة للعالم بمدينته طنجة، ومن يزور المغرب اليوم سيجد  
بمدينة طنجة دربا (طريقاً) اسمه درب ابن بطوطة حيث كان يعيش، وسيجد بالقرب من سوق طنجة ضريحه الذي دفن فيه.

## عبد الرحمن الجبرتي

كان والده الشيخ (حسن الجبرتي) من كبار علماء الأزهر، لكنه كان مميزاً عنهم، ففي الوقت الذي كان فيه زملاؤه يتجهون إلى  
دراسة الفقه والنحو والبلاغة والتفسير، أضاف هو إليها دراسة الرياضيات، والمسائل الفلكية، ولقب الجبرتي نسبة إلى (جبرت)  
إحدى مدن الحيشة الإسلامية التي رحل منها أجداد الجبرتي إلى مصر في القرن العاشر الهجري. أحب الشيخ حسن الجبرتي هذه العلوم  
وتعلق بها تعلق الأم بوليدها حتى نبغ فيها، فتوافد عليه التلاميذ يستفيدون من علمه، ففتح لهم منزله الفسيح الرحب؛ حيث كان غنياً  
ورث عن آبائه المنازل والمتاجر، وازداد ثراؤه أكثر وأكثر من أرباح التجارة؛ لأنه كان تاجراً ماهراً في الوقت الذي كان فيه عالماً  
جليلاً. في هذا البيت الحافل بالعلم والنعم، ولد (عبد الرحمن الجبرتي) عام ١١٦٧هـ / ١٧٥٤م، لكن والده لم يفرح بولادته كسائر



باء، بل استقبله استقبالا حزينًا؛ فقد ولد له أطفال كثيرون من قبل، وكان الموت يخطفهم من بين يديه بعد أن يبلغوا من العمر أو عامين، فكان يخشى أن يكون مصيره مثل مصير إخوته لكن عناية الله أحاطت بعبد الرحمن فلم تمتد إليه يد الموت، وقدرت له الحياة. نشأ عبد الرحمن في بيت أبيه، يحفظ القرآن الكريم، وكغيره من أولاد العلماء ذهب إلى المدارس والكتاتيب لتعلم العلوم الدينية، وعين له والده شيخًا ليحفظه القرآن هو الشيخ (محمد موسى الجناحي) وشب عبد الرحمن فرأى العلماء والأدباء يأتون منزل أبيه؛ يتحدثون في العلوم والآداب، فجلس يستمع إليهم، ويأخذ من علمهم، كما استمع إلى كبار رجال الدولة وأمراء الممالك وأغنياء مصر الذين كانوا لا ينقطعون عن زيارة أبيه، بل إن جماعة من الأوروبيين كانت تأتي إليه؛ ليتعلموا على يديه علم الهندسة، فعرف الجبرتي الكثير عن أحوال مصر وأسرارها، وكان يدخر كل ذلك في ذاكرته الحافظة الواعية، وازداد عبد الرحمن الجبرتي علمًا عندما ارتاد حلقات الأزهر الشريف. توفي والد عبد الرحمن عام ١١٨٨هـ فترك له ثروة كبيرة وأراضٍ زراعية في أنحاء عديدة من مصر، فاضطر أن يتفقد أملاكه بنفسه، فرحل عن القاهرة حيث توجد هذه الأراضي في أقاليم مصر المختلفة فتهيأت له فرصة مناسبة ليعرف أحوال مصر، وطبقات الشعب من حكام وفلاحين وعمال ثم عاد إلى القاهرة بعد أن ازدادت معارفه، وواصل الشاب دراسته بالأزهر. وأعجب (عبد الرحمن الجبرتي) بأحد علماء اليمن الذي وفد إلى مصر إعجابًا شديدًا وهو محمد المرتضي الزبيدي صاحب تاج العروس، ولازم مجلسه، حتى أصبح من تلاميذه المخلصين، وذات يوم أخبر (الزبيدي) تلميذه (الجبرتي) بأنه يريد أن يسجل أحداث الماضي، ويؤرخ لعلماء القرن الثامن عشر وأمرائه ومشاهيره، وطلب من الجبرتي أن يساعده في هذا العمل؛ فيجمع كل ما يستطيعه عن حياة السابقين، ويقرأ النقوش فوق القبور وعلى المساجد والآثار، وأعجب (عبد الرحمن الجبرتي) بالفكرة فأخذ يبحث ويسأل ثم يسجل معلوماته ويكتبها. وبينما هو على هذه الحال مات أستاذه سنة (١٢٠٥هـ - ١٧٩٠م) فحزن عليه حزنًا شديدًا، لكنه لم ييأس بل صمم على تكملة سيرته، فأخذ يكتب كل ما يراه ويشاهده، ويسجل كل صغيرة وكبيرة ومضت الأيام، وجاءت الحملة الفرنسية إلى مصر، فكتب عنها بحياء تام وسجل يومياته أولاً بأول في كتابه (مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين) وكتب عما ارتكبه الفرنسيون من تدمير ونسف وقتل، وما أمطروا به المساجد والأسواق والمنازل من قنابل أدت إلى موت الكثيرين من أبناء الشعب المصري، لكنه يغض الطرف عن بعض مزايا الفرنسيين مثل حبهم للعلم والعمل واحترامهم للقانون.

وكتب (عبد الرحمن الجبرتي) عن الممالك وكيف أن بعضهم كانوا ينهبون ويقتلون ويخطفون الغلمان والنساء، ويسرقون الحلبي من صدور النساء، كتب كل ذلك دون أن يجامل أحدًا منهم، بالرغم من أنه كانت تربطه بهم روابط صداقة، فلم يكن كتابه مجاملة لأمير أو طاعة لوزير، ومضى عهد الفرنسيين وتولى (محمد علي) أمور الدولة فكتب (الجبرتي) بكل جرأة عن الغلاء الفاحش في عهد (محمد علي) وعن مصادرة الأموال، وانتهاك الحرمات، والسطو على المتاجر والمصانع، كما ندد بالطغاة أمثال: (سليمان أغا السلحدار) و(محمد الدفتردار) من أتباع الوالي، ومع ذلك لم يغفل ما قام به (محمد علي) من أعمال مفيدة كإنشاء المصانع وبناء السفن وتشجيع العلماء وسجل ذلك كله في كتابه (عجائب الآثار في التراجم والأخبار). وانتشر ما كتبه الجبرتي عن هؤلاء الظلمة، على ألسنة الناس فتربصوا به، وحاولوا النيل منه، فقتلوا ابنه خليلاً في سنة ١٢٣٧هـ، وتوقف بعدها الجبرتي عن الكتابة، وحزن على ابنه حزنًا شديدًا، حتى فقد بصره ومات عام ١٢٤١هـ / ١٨٢٥م.

## ابن ماجد

جلس (شهاب الدين أحمد بن ماجد) يتأمل والده باهتمام بالغ وهو يحكي مغامراته في البحار، ويسرد العجائب التي رآها في رحلاته، فقد كان والده ربانًا (قائدًا للسفن) أطلق عليه البحارة (ربان البرّين) أي بر العرب وبر العجم. وما إن انتهى الوالد من حكاياته حتى قال (شهاب الدين أحمد): يا أبي إني أريد أن أكون معك في الرحلة القادمة، أريد أن أرى بلاد العجم، وأشاهد بعيني العجائب التي ترويها لنا، ابتسم الأب في وجه ابنه، ومسح رأسه بخنان ثم قال: عندما تكبر يا ولدي سوف أصبحك معي، ثم تركه وانشغل بترتيبات السفر والاستعداد للرحلة القادمة التي اقترب موعدها، وحن وقت الرحيل إلى بلاد الله الواسعة، ومضت السفينة ورفع البحارة الأشرعة، وظل شهاب الدين أحمد يلوح لأبيه مودعًا، حتى غابت السفينة عن الأنظار، ثم عاد حزينًا إلى بيته، لكنه



مر أن والده قد وعده باصطحابه في الرحلة القادمة إذا أتقن القراءة والكتابة وأتم حفظ القرآن، وقرأ كل الكتب التي كتبها عن رحلاته وكتب البحارة الآخرين؛ حتى يكون مهيناً لركوب البحر، فأخذ شهاب الدين أحمد يحفظ القرآن الكريم ويتعلم الحساب، وجاء بكتاب من كتب والده واسمه (الأرجوزة الحجازية) التي تضم أكثر من ألف بيت في وصف الملاحة في البحر الأحمر، يقرؤه ويحفظ ما فيه.

وكبر شهاب الدين، وازداد خبرة وعلماً في البحر وأسراره، حتى أصبح أشهر ربان في الخليج العربي، وأطلق عليه البحارة: (أسد البحار) ولم تشغله شهرته الواسعة ومهامه الكثيرة عن معرفة حق ربه، فكان يبدأ رحلاته دائماً بالصلاة، ويدعو من معه إلى كثرة الذكر والتطهر وعدم التغافل عن آيات الله، فيقول: (وينبغي إذا ركبت البحر أن تلزم الطهارة، فإنك في السفينة ضيف من ضيوف البارئ فلا تغفل عن ذكره).

وكان شهاب الدين أحمد بحاراً ماهراً، شديد الحرص والأخذ بالأسباب؛ فقد كان لا يطمئن قلبه قبل أن يفحص المركب بعد صنعها، وقبل أن تتزل البحر لضمان سلامة الركاب والأمتعة، ويتأكد من صلاحية أجهزة السفينة وأدوات الملاحة للعمل قبل أن يبحر، أما فوق ظهر السفينة، فقد كان رباناً حكيماً، ليناً في قوله، عادلاً في

حكمه، لا يظلم أحداً، صبوراً ثابت القلب، دائم اليقظة قليل النوم. وكان شهاب الدين أحمد بارعاً في علم الفلك، وكان له طريقة بسيطة في التعرف على اتجاه الرياح؛ حيث ينصب على المركب عاموداً تعلق عليه قطعة من القماش المصنوع من الحرير ليعرف به اتجاه الرياح، ولا ترجع شهرة شهاب الدين أحمد بن ماجد إلى كونه ملاحاً قديراً ولا إلى مؤلفاته في علوم البحار والملاحة فقط، وإنما اكتسب أيضاً شهرة دولية حينما قاد سفينة الملاح البرتغالي (فاسكو دي جاما) من ميناء (ماليندي) في مملكة (كامبايا) (كينيا الآن) إلى الهند. وقد ترك (ابن ماجد) مؤلفات كثيرة عن الملاحة بصفة عامة، والملاحة العربية بصفة خاصة، ووضع قواعدها، ووصف الطرق البحرية للملاحة، وتصل مؤلفاته إلى أربعين مؤلفاً من أهمها كتاب: (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) وهو كتاب يفيد الربان والبحارة في الوصول إلى البلد المطلوب دون ميل أو انحراف، كما تعرف به خطوط الطول والعرض، ومنها يمكن تحديد القبلة، وكتاب: (حواية الاختصار في أصول علم البحار) .. وغيرهما من الكتب المهمة. وكان شهاب الدين أحمد بن ماجد ذلك البحار العظيم كان يعلم أن المؤرخين والأجيال القادمة بعده سيعرفون قدره، وما قدمه للملاحة العربية من خدمات جليلة فأخذ يقول: فإن تجهلوا قدري حياي فإنما سيأتي رجال بعدكم يعرفوا قدري وقد اعترفت حكومة البرتغال بفضل مساعدة ابن ماجد لفاسكو دي جاما حتى وصل إلى الهند من بلدة (ماليندي بكينيا) على الساحل الإفريقي؛ فأقامت له هناك نصباً تذكاريّاً يخلد هذه المناسبة، كما يحكي عن بحارة أهل عدن، أنهم كانوا إذا أرادوا السفر، قرءوا الفتحة لابن ماجد؛ لأنه اخترع البوصلة المغناطيسية.

## شكيب أرسلان

وُلِدَ شكيب أرسلان في ليلة الاثنين التي توافقت أول ليلة من رمضان سنة ١٢٨٦هـ وسماه أبوه باسم شكيب، وهي تعني بالفارسية (الصابر) وهو ينتمي إلى أسرة عربية تعيش في قرية الشويفات التي تبعد عن بيروت قرابة عشرة أميال، ولما بلغ شكيب الخامسة من عمره أحضر له أبوه معلماً ليعلمه مبادئ القراءة والكتابة، ثم حفظ قدرًا من القرآن، ثم دخل مدرسة الأمريكان في بلدته الشويفات؛ فنال قسطاً من العلوم واللغة الإنجليزية، ثم التحق بمدرسة الحكمة في (بيروت) عام ١٢٩٧هـ / ١٨٧٩م وتلقى فيها دروس اللغة العربية على يد (الشيخ عبد الله البستاني) اللغوي المعروف.

ولم يكن شكيب أرسلان كغيره من الصبية، فقد كان يملك شعوراً فياضاً، وحساً مرهفًا، وعاطفة قوية، فبدأ يكتب الشعر وهو في هذه السن المبكرة، ثم رحل إلى (مصر) سنة ١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م والتقى بالشيخ (محمد عبده) والشيخ (علي يوسف) صاحب جريدة المؤيد، كما كانت له علاقات أدبية مع كبار الشعراء في مصر أمثال: أمير الشعراء (أحمد شوقي) و(البارودي) وغيرهما؛ فتأثر بهم، واستفاد منهم. نظر شكيب أرسلان حوله فوجد العالم الإسلامي مصاباً بداء التخلف والجهل، بينما تعيش البلاد الأوربية

ملها عيشة هائلة؛ فأخذ يقلب صفحات التاريخ، ويستنطق الماضي العظيم يوم أن كان المسلمون طليعة موكب الحضارة يأخذون بأيدي الأمم نحو التقدم والازدهار، ويفد إلى بلادهم طلاب العلم من كل مكان، يتعلمون منهم وينقلون عنهم، ثم يرجعون إلى بلادهم التي أصابها الجهل وعمها الظلام، فينشرون العلم الذي تعلموه على أيدي المسلمين، وضع شكيب أرسلان يده على جبهته، وأخذ يفكر ويسأل نفسه: ما هي الأسباب التي أدت إلى ضعف المسلمين؟ لماذا تأخروا وتقدم أهل أوروبا رغم أن الإسلام دين العلم والعمل؟! هل سر ضعف المسلمين وتأخرهم يرجع إلى ابتعادهم عن دين الله وعدم التزامهم بأوامره؟! كيف يمكن أن يلحق المسلمون بركب الحضارة مع المحافظة على دينهم الإسلامي الحنيف؟! أسرع (شكيب أرسلان) إلى قلمه وأوراقه، وأخذ يجيب عن كل هذه التساؤلات التي تحيره وتقلقه؛ فرأى أن المسلمين إذا أرادوا أن يصعدوا إلى أعلى درجات سلم المجد فالحل هو الجهاد بالمال والنفس، وأن خير وسيلة للوصول إلى المعرفة العلمية والدينية والأخلاقية هو الالتزام بما جاء في كتاب الله؛ القرآن الكريم، وإذا أراد المسلمون أن يتقدموا إلى الأمام، فعليهم أن يكفوا عن الكلام ويسارعوا إلى العمل. ورأى شكيب أرسلان أن العدو الأول للإسلام والمسلمين هو الجهل، وأن ارتفاع نسبة الأمية هي السبب في تأخر المسلمين، وعليهم أن يحاربوه بكل ما يملكون، وفي النهاية استطاع شكيب أرسلان أن يقدم للمسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي كتاباً من أعظم الكتب وهو (لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم) بأسلوب سهل ممتع؛ لكي يوقظ الأمة الإسلامية من سبات الجهل والتأخر. ولم يكن هذا الكتاب وحده الذي كتبه أمير البيان شكيب أرسلان بل كتب كتباً عديدة عن الإسلام والمسلمين تصل إلى خمسين كتاباً لا يزال بعضها غير مطبوع من أهمها كتاب (حاضر العالم الإسلامي) و(تاريخ غزوات العرب) و(الحلل السندسية في الحلة الأندلسية) و(عروة الاتحاد بين أهل الجهاد) .. وغيرها من الكتب والمقالات والدراسات العديدة. وسافر شكيب إلى أماكن عديدة، فرحل إلى (الأستانة) حيث التقى بالمصلح الكبير (جمال الدين الأفغاني) وتأثر بأفكاره، ثم سافر إلى فرنسا سنة ١٣١٠هـ / ١٨٩٢م، ثم إلى ليبيا حيث انضم إلى المجاهدين المسلمين الذين كانوا يحاربون الإيطاليين، وكتب من هناك إلى مختلف الجهات الإسلامية يبحث المسلمين على نجدة إخوانهم أبناء ليبيا، وحث أبناءها على البذل والفداء، وتعاون مع الشيخ محمد رشيد رضا وكتب أربعين افتتاحية في جريدة (المؤيد) حول هذه القضية، وسافر إلى المدينة المنورة سنة ١٩١٤م لينشئ مدرسة فيها، كما أنه قاد فرقة من المتطوعين ليحارب إنجلترا وحلفاءها في الحرب العالمية الأولى، وأسس جمعية (هيئة الشعائر الإسلامية) في ألمانيا سنة ١٩٢٤م، وأصدر جريدة (الأمة العربية) باللغة الفرنسية في (جنيف) ليدافع على صفحاتها عن قضايا أمته. وظل شكيب أرسلان يكتب عن أحوال المسلمين وقضاياهم ومشاكلهم حتى توفي عام ١٣٦٦هـ / ١٩٤٦م، فصمت اللسان الذي دافع طويلاً عن قضايا الإسلام والمسلمين شرقاً وغرباً بعد ما أدى ما عليه.

## عبد الرحمن الكواكبي

نشأ في سوريا، تنفس أول أنسام الحياة في حلب، ولفظ آخر أنفاسه في القاهرة، وفيما بين حلب والقاهرة، وغيرهما من بلاد المسلمين كانت له خطوات، ونظرات، ثم كان له من ذلك كله دعوات جريئة وصريحة إلى الإصلاح. ففي حلب تلك المدينة المعطاءة التي أخرجت المعري، وسيف الدولة وأبا فراس، والبحتري، وابن النديم، وعاش في ظلها المتنبي، والفارابي.. وغيرهم من القادة، والشعراء، والمفكرين وُلد عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي سنة ١٢٦٥هـ في أسرة شريفة تنتسب إلى الإمام علي - رضي الله عنه - ولما بلغ عبد الرحمن سن السادسة توفيت أمه، فذاق مرارة الحرمان مبكراً، فأرسله والده إلى خالته السيدة صفية بنت مسعود النقيب بأنطاكية، كانت تجيد القراءة والكتابة والخط، فأقام عندها ثلاث سنوات تعلم خلالها اللغة التركية والقراءة والكتابة. عاد الكواكبي بعدها إلى حلب، ليتولى والده تربيته، فأدخله والده المدرسة الكواكبية ليكون تحت إشرافه حيث كان مدرساً ومديراً لهذه المدرسة، فتعلم فيها مبادئ الدين واللغة العربية، ولما كان عبد الرحمن الكواكبي على معرفة تامة باللغة التركية، كان يقرأ الصحف التركية التي تصل إلى حلب بسهولة فاتسع تفكيره وازدادت معارفه، وفي الثانية والعشرين من عمره، عمل بالصحافة فأصبح محرراً في جريدة الفرات وهي الجريدة الرسمية التي كانت تصدرها الحكومة باللغتين العربية والتركية، وبعدها

د الكواكبي أن ينقل تجربته الصحفية إلى الساحة العربية فأنشأ جريدة عربية في حلب سماها (الشهباء) فأغلقها الأتراك، فأنشأ جريدة (الاعتدال) فكان مصيرها كالأولى. وشغل الكواكبي العديد من الوظائف، فكان رئيساً لقلم المحضرين في ولاية حلب، وعضواً فخرياً في لجنة امتحان المحامين، ورئيساً للجنة الأشغال العامة، كما عمل بالقضاء وقام بأعمال عمرانية وتجارية أكسبته خبرة بالناس وتجربة كبيرة بالحياة، وكان في كل أعماله يصطدم بنظام الدولة واستبداد الحكام وفساد الإدارة، وكان سلاحه التزاهة والاستقامة والعدل. وكان للكواكبي مكانة مرموقة في بلده يقصده أصحاب الحاجات لقضائها، ويلجأ إليه أرباب المشاكل لحلها، بل كان رجال الحكم يستشيرونه أحياناً فيبدي رأيه في جرأة وشجاعة، لا يقرُّ ظالماً على ظلمه ولا يسالم جائراً، لذلك حاربه ولاية حلب ورجال الدولة في الأستانة، فزوّرت عليه التهم فقدم للمحاكمة وهو بريء مما تُسب إليه، الأمر الذي جعله يهاجر سراً إلى مصر سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٩م لينشر فيها فصولاً من كتابه (طبائع الاستبداد) في جريدة (المؤيد). قام الكواكبي بزيارة العديد من الدول الإسلامية فطاف بسواحل إفريقيا الشمالية، وسواحل آسيا الغربية ودخل الجزيرة العربية، واتصل برؤساء قبائلها، كما نزل الهند، واستقر به المقام في مصر، وكان ينوي أن يتم رحلته إلى بلاد المغرب، ولكن المنية عاجلته سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م. ولم يكن يعرف الاستقرار أو راحة البال، فتراه في تلك البلاد التي يزورها يقابل الزعماء والرؤساء ويجتمع بأفراد الشعب ويدرس أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية، وما يشيع فيها من نواحي الضعف والفساد وما يدور فيها من عوامل القوة والنشاط، فجعل هذه الدراسات أساساً لدعوته الإصلاحية. سجل الكواكبي نتائج دراسته لأحوال المسلمين في زمانه في كتابين له هما: (طبائع الاستبداد) و(أم القرى) وكان الكواكبي يحاول دائماً أن يجمع شمل الأمة الإسلامية لتكون قوة هائلة ترهب المستبدين، وكان يرى أنه بالعلم وحده يمكن أن يعرف الناس أن الحرية أفضل من الحياة نفسها وأكرم، وأن الشرف أعز من المنصب والمال. كما كان يحارب البدع ويرى أنها مرض يجب مداواته، فيقول عن أصحاب البدع الذين شوهوا صورة الإسلام: (فمنهم الذين استبدلوا بالأصنام القبور، فبنوا عليها المساجد والمشاهد، وأرخوا عليها الستور، يطوفون حولها مُقْبِلِينَ مُسْتَلِمِينَ أركانها). وكان الكواكبي كريم الخلق حتى قيل عنه: إنه مؤدب اللسان، لا تؤخذ عليه هفوة، يزن الكلمة قبل أن ينطق بها وزناً دقيقاً، هادئ في حديثه، إذا قاطعه أحد سكت، وانتظر حتى يتم حديثه، ثم يصل ما انقطع من كلامه، نزيه النفس لا يحدده مطمع، ولا يغريه منصب، شجاع فيما يقول ويفعل، متواضع للبايسين والفقراء يقف دائماً بجانب الضعفاء حتى لقبوه بأبي الضعفاء، فكان شعاره:

أَنَا إِنْ عِشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ قُوَّتًا وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرًا  
فَعَلَامُ أَذِلُّ لِلنَّاسِ نَفْسِي وَعَلَامُ أَخَافُ زَيْدًا وَعُمَرَا  
هَمَّتِي هِمَّةُ الْكِبَارِ وَنَفْسِي نَفْسُ حُرٍّ تَرَى الْمَدْلَةَ كُفْرًا

وجاءت نهاية رائد الحرية والوعي الإسلامي في الشرق العربي؛ ففي مساء الخميس من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٠هـ الموافق ١٤ يونيو سنة ١٩٠٢م فارق عبد الرحمن الكواكبي الحياة؛ فأمر الخديوي عباس بدفنه على نفقته الخاصة، ورثاه الكتاب، والشعراء والمفكرون.

## جمال الدين الأفغاني

(إنني كصقر محلق يرى فضاء هذا العالم الفسيح ضيقاً لطيرانه!! وإنني لأتعجب منكم، إذ تريدون أن تحبسوني في هذا القفص الصغير). في قرية (أسعد آباد) إحدى القرى التابعة لكابل عاصمة (أفغانستان) حالياً، ولد (محمد جمال الدين بن السيد صفدر) سنة ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م، وينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وعرف بجمال الدين الأفغاني نسبة إلى بلده (أفغانستان). انتقل مع والده الذي كان يعمل مدرساً في (كابل) وهو في الثامنة من عمره، فلفت أنظار من حوله بذكائه الشديد، مما جعل والده يحفزه إلى التعلم قاتلاً له: (لقد آن لك أن تتعلم يا جمال). وأسرع جمال الدين يتلقى العلم في منزله حتى بلغ سن العاشرة، فحفظ القرآن الكريم، وعكف على دراسة اللغة العربية، وظهر حبه

سديد للمناقشة في المسائل الدينية، وقرأ في اللغة والأدب والتاريخ والتصوف والشريعة، كما برزت هوايته للرحلات والأسفار. سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م ألحقه والده بمدرسة (قزوين) التي كان يعمل بها، ومكث بها عامين، وفي تلك الفترة ظهر اهتمامه الكبير بدراسة العلوم، فكان يصعد إلى سطح المنزل يتأمل النجوم ويحاول دراستها!! وعندما انتشر مرض الطاعون بقزوين، حاول دراسة أجساد الموتى، رغبة منه في الوصول إلى أسرار المرض وأسبابه، فخاف والده عليه، فانتقل به إلى طهران أوائل سنة ١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩م.

وفي طهران سأل جمال الدين عن أكبر علمائها في ذلك الوقت، فقليل له: إنه (أقاسيد صادق) فتوجه مباشرة إلى مجلسه، فوجده جالساً بين طلابه يقرأ كتاباً عربياً، ويشرح إحدى المسائل العلمية، ولاحظ جمال الدين أنه قد شرحها شرحاً موجزاً، فطلب منه أن يعيد شرحها بصورة أكثر تفصيلاً حتى يتفهمها الجميع، فتعجب الشيخ من جرأته وفضوله، ولكن جمال الدين أجابه بأن طلب العلم لا فضول فيه، ثم قرأ جمال الدين المسألة وفسرها، فتحرك الشيخ من مكانه، وأقبل عليه وضمه إلى صدره وقبله، ثم أرسل إلى والده يستدعيه، وأمره أن يشتري لجمال عباءة وعمامة، ثم قام الشيخ بلف العمامة ووضعها بيده فوق رأس جمال الدين تكريماً له، واعتزازاً بعلمه. ثم ترك جمال الدين طهران، وسافر مع والده إلى النجف بالعراق في نفس العام، ومكث فيها أربع سنوات درس فيها العلوم الإسلامية وغيرها، فدرس التفسير والحديث والفلسفة والمنطق وعلم الكلام وأصول الفقه والرياضة والطب والتشريح والنجوم.. وغير ذلك من العلوم.

وفي الثامنة عشرة من عمره، سافر إلى الهند، ومكث بها سنة وبضعة أشهر درس خلالها العلوم الرياضية، ثم سافر إلى مكة المكرمة سنة ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م، فأدى فريضة الحج، ثم عاد إلى بلده أفغانستان مرة أخرى، وعمل بالحكومة، وكان عمره حينئذ ٢٧ عاماً ووصل إلى درجة كبير الوزراء في عهد الملك (محمد أعظم) الذي نال تأييد الأفغاني، ولكن الملك (محمد أعظم) خلع، وتولى أخوه (شير علي). ونظر جمال الدين في أمر نفسه فوجد أن الأفضل له أن يغادر البلاد وبالفعل سافر إلى الهند، وكان ذلك سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، وفي الهند استقبله الناس استقبالا حسناً، لكن الحكومة الهندية خافت من وجوده، فطلبت منه ألا يقيم في الهند طويلاً، ولا يجتمع بالعلماء وأفراد الشعب، حتى لا يشعل نار الثورة، وأجبروه على ترك الهند وقبل أن يغادرها قال لأهلها: (يا أهل الهند، لو كنتم وأنتم مئات الملايين من الهنود وقد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة، وخضتم البحر، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمي لجرتموها إلى القعر وعدتم إلى الهند أحراراً) فلما انتهى من كلامه تساقطت دموع الحاضرين، فصاح فيهم بصوت عال صيحة قال فيها: (اعلموا أن البكاء للنساء، لا حياة لقوم لا يستقبلون الموت في سبيل الاستقلال بتغر باسم).

وبعد إقامة لم تزد عن شهر واحد، توجه بعدها إلى مصر سنة ١٨٦٩م فأقام فيها مدة قصيرة لا تزيد عن أربعين يوماً، تردد خلالها على الأزهر منارة العلم، وجاءه الكثيرون يطلبون علمه، واشتهر (جمال الدين) وأصبحت له مكانة عالية بين العلماء جعلت السلطان العثماني (عبد العزيز) يدعوه إلى زيارة (الدولة العثمانية) فأجاب جمال الدعوة، وسافر إلى (استنبول) فرحب به السلطان خير ترحيب، وأكرمه رجال الدولة من العلماء والأدباء والأعيان.

ولم تمض ستة شهور حتى عينه السلطان عضواً في مجلس المعارف، لكن أعداءه شنوا عليه، مما جعله يغادر البلاد متوجهاً إلى مصر مرة أخرى، وكان ذلك سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٧١م، أي في زمن الخديوي إسماعيل، وفي مصر رأى ظلم الحكام وجورهم، ووجد نظام الحكم نظاماً استبدادياً لا تنفذ فيه إلا إرادة الحاكم، كما وجد الخرافات منتشرة في أماكن كثيرة من أرض مصر، فتذكر العهد الذي أخذه على نفسه، فأخذ يدعو الناس إلى الإسلام الصحيح، ويبصرهم بحقوقهم وواجباتهم، مبيناً لهم أن الشعب مصدر القوة، فقال لهم: (هبوا من غفلتكم، اصحوا من سكرتكم، انفضوا عنكم الغباوة وشقوا صدور المستبدين لكم كما تشقون أرضكم بمحاريثكم، عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء، وموتوا مأجورين شهداء).

وعندما وجد الفلاحين المصريين يُضربون بالكرباج، والضرائب تفرض عليهم بما لا يقدرُونَ عليه قال: (أنت أيها الفلاح.. يامن تشق الأرض لتستنبت فيها ما تسد به الرمح.. لماذا لا تشق قلب ظالمك؟! لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك؟!). وفي مصر، تأمر

بنيته أعداؤه من الإنجليز وبعض الجاحدين في الفكر فلم يتركوه يسير في طريق الإصلاح، فوشوا به عند الخديوي (توفيق) الذي بنفيه إلى الهند، وبقي في الهند ثلاث سنوات، ثم تركها إلى أوربا، فزار لندن، ثم انتقل إلى باريس، ومن هناك استدعى تلميذه (محمد عبده) ليحضر إليه، فأصدرا معاً جريدة (العروة الوثقى) التي كانت تدعو المسلمين إلى الوحدة الإسلامية، حتى إنه قام بتأسيس جبهة إسلامية عالمية أطلق عليها (أم القرى) كما نشر (جمال الدين الأفغاني) أفكاره السياسية التي كان يحارب فيها تدخل الدول الغربية في شئون الأمم الإسلامية.

وظل جمال الدين ينتقل في أوربا بين باريس ولندن، ويتصل بالعلماء والكتاب ورجال السياسة، إلى أن دعاه الشاه (ناصر الدين) إلى إيران فسافر إليها في ١٦ شعبان سنة ١٣٠٣هـ (٢٠ مايو سنة ١٨٨٦م) واستقبله الشاه في حفاوة بالغة، وجعله مستشاره الخاص في إصلاح شئون بلاده، والتف حولته الإيرانيون لأنهم وجدوا لديه علماً غزيراً وإماماً بشئون السياسة والحياة والعلوم الحديثة، فبلغ مكانة عالية مما جعل الشاه خاف من التفاف الناس حوله، وأحس (جمال الدين) بذلك فاستأذنه في السفر، فغادر إيران إلى روسيا ومكث بها أربع سنوات، والتقى بالقيصر الذي لم يسترح للقاء هذا المصلح الذي يهاجم الأباطرة والملوك، فطلب من حاشيته إبعاده من روسيا. ترك جمال الدين روسيا وأخذ يتجول في أوربا، فزار باريس ثم توجه إلى (ميونيخ) حيث التقى بالشاه ناصر الدين الذي طلب منه العودة إلى إيران، فعاد برفقته في سنة ١٣٠٥هـ/١٨٨٩م ليواصل الأمر المعروف، والنهي عن المنكر، ولكن الشاه عاد فغضب عليه وطرده شر طردة. وفي سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٢م ذهب (جمال الدين الأفغاني) إلى لندن مرة أخرى، وفي أثناء وجوده هناك أخذ يهاجم الشاه والاستبداد، فأرسل إليه السلطان (عبد الحميد) في الحضور إلى الأستانة، فقبل وسافر إليها حوالي سنة ١٣٠٩هـ/١٨٩٣م، فأكرمه السلطان، ثم ما لبث أن ساءت العلاقات بينهما بفعل الواشين.

لقد وهب جمال الدين الأفغاني نفسه وحياته في سبيل إيقاظ العالم الإسلامي، وتوحيد كلمة الإسلام والمسلمين، وإزالة الفوارق بينهم، وكان أول مسلم شعر بخطر السيطرة الغربية المنتشرة في الشرق الإسلامي، وما سيترتب ببلاد المسلمين من المصائب إذا استمروا خاضعين للدول الاستعمارية، فكان لا يمل من الكلام عما ينير العقل، ويظهر العقيدة، ويبصر الناس بمآلهم من حقوق وما عليهم من واجبات، ومن أجل ذلك قال كلمته المشهورة: (الشرق .. الشرق.. لقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه). ومن مؤلفاته: (تتمة البيان في تاريخ الأفغان)، و(الرد على الدهريين) و(القضاء والقدر).. وغير ذلك، مرض جمال الدين وهو في الأستانة وظهر في فمه مرض السرطان، فأجريت له عملية جراحية، لكنها لم تنجح، ثم ما لبث إلا أياماً حتى فاضت روحه في صبيحة يوم الثلاثاء ٩ من مارس سنة ١٨٩٧م، وظل قبره هناك في تركيا إلى أن نُقِلَ رفاته إلى أفغانستان سنة ١٩٤٤م.





أمراء

## سعد بن أبي وقاص ( الأسد في برائه )

أقلقت الأنباء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، عندما جاءته تترى بالهجمات الغادرة التي تشنها قوات الفرس على المسلمين.. وبمعركة الجسر التي ذهب ضحيتها في يوم واحد أربعة آلاف شهيد.. وبنقض أهل العراق عهودهم، والمواثيق التي كانت عليهم.. فقرر أن يذهب بنفسه ليقود جيوش المسلمين، في معركة فاصلة ضد الفرس.

وركب في نفر من أصحابه مستخلفا على المدينة علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه..

ولكنه لم يكد يمضي عن المدينة حتى رأى بعض أصحابه أن يعود، وينتدب لهذه المهمة واحدا غيره من أصحابه .. وتبني هذا الرأي عبد الرحمن بن عوف، معلنا أن المخاطرة بحياة أمير المؤمنين على هذا النحو والاسلام يعيش أيامه الفاصلة، عمل غير سديد..

وأمر عمر أن يجتمع المسلمون للشورى ونودي: \_الصلاة جامعة\_ واستدعي علي ابن أبي طالب، فانتقل مع بعض أهل المدينة الى حيث كان أمير المؤمنين وأصحابه.. وانتهى الرأي الى ما نادى به عبد الرحمن بن عوف، وقرر المجتمعون أن يعود عمر الى المدينة، وأن يختار للقاء الفرس قائدا آخر من المسلمين..

ونزل أمير المؤمنين على هذا الرأي، وعاد يسأل أصحابه:

فمن ترون أن نبعث الى العراق؟؟

وصمتوا قليلا يفكرون..

ثم صاح عبد الرحمن بن عوف: وجدته..

قال عمر: فمن هو..؟

قال عبد الرحمن: "الأسد في برائه.. سعد بن مالك الزهري" ..

وأيد المسلمون هذا الاختيار، وأرسل أمير المؤمنين الى سعد بن مالك الزهري "سعد بن أبي وقاص" وولاه اماراة العراق، وقيادة الجيش..

فمن هو الأسد في برائه..؟

من هذا الذي كان اذا قدم على الرسول وهو بين أصحابه حياه وداعبه قائلاً:

"هذا خالي.. فليربي امرؤ خاله.."

انه سعد بن أبي وقاص.. جده أهيب بن مناف، عم السيدة آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم..

ولعله يومئذ أعلن اسلامه مع الذين أعلنوه باقناع أبي بكر أيّاهم، وهم عثمان ابن عفان، والزبير ابن العوام، وعبد الرحمن بن عوف،

للحجة بن عبيد الله.

ومع هذا لا يمنع سبقه بالاسلام سرا..

وان لسعد بن أبي وقاص لأعجاب كثيرة يستطيع أن يباهي بها ويفخر..

بيد أنه لم يتغنّ من مزايه تلك، الا بشيئين عظيمين..

أولهما: أنه أول من رمى بسهم في سبيل الله، وأول من رمى أيضا..

وثانيهما: أنه الوحيد الذي افتداه الرسول بأبويه فقال له يوم أحد:

"ارم سعد فداك أبي وأمي.."

أجل كان دائما يتغنى بهاتين النعمتين الجزيلتين، ويلهج يشكر الله عليهما فيقول:

"والله اني لأؤل رجل من العرب رمى بسهم في سبيل الله."

ويقول علي ابن أبي طالب:

"ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفدي أحدا بأبويه الا سعدا، فاني سمعته يوم أحد يقول: ارم سعد.. فداك أبي وأمي.."

كان سعد يعدّ من أشجع فرسان العرب والمسلمين، وكان له سلاحان رحمه ودعاؤه..

إذا رمى في الحرب عدوّا أصابه.. وإذا دعا الله دعاء أجابه..

وكان، وأصحابه معه، يردّون ذلك الى دعاء الرسول له.. فذات يوم وقد رأى الرسول صلى الله عليه وسلم منه ما سرّه وقرّ عينه،

دعا له هذه الدعوة المأثورة..

"اللهم سدد رميته.. وأجب دعوته."

وهكذا عرف بين اخوانه وأصحابه بأن دعوته كالسيف القاطع، وعرف هو ذلك نفسه وأمره، فلم يكن يدعو على أحد الا مفوّضا

الى الله أمره.

من ذلك ما يرويه عامر بن سعد فيقول:

ان هذه الظاهرة، تنبئ أول ما تنبئ عن شفافية روحه، وصدق يقينه، وعمق اخلاصه.

وكذلك كان سعد، روحه حر.. ويقينه صلب.. واخلاصه عميق.. وكان دائب الاستعانة على دعم تقواه باللحمة الحلال، فهو

يرفض في اصرار عظيم كل درهم فيه اثاره من شبهة..

ولقد عاش سعد حتى صار من أغنياء المسلمين وأثريائهم، ويوم مات خلف وراءه ثروة غير قليلة.. ومع هذا فاذا كانت وفرة المال

وحالاه قلما يجتمعان، فقد اجتمعا بين يدي سعد.. اذ آتاه الله الكثير، الحلال، الطيب..

وقدرته على جمع المال من الحلال الخالص، يضاهيها، قدرته في انفاقه في سبيل الله..

في حجة الوداع، كان هناك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصابه المرض، وذهب الرسول يعودده، فسأله سعد قاتلا:

"يا رسول الله، اني ذو مال ولا يرثني الا ابنة، أفأصدّق بثلثي مالي..؟"

قال النبي: لا.

قلت: فبنصفه؟

قال النبي: لا.

قلت: فثلثه..؟

النبي: نعم، والثالث كثير.. انك ان تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وانك لن تنفق نفقة تبتغي وجه الله الا أجرت بها، حتى اللقمة تضعها في فم امرأتك.."

ولم يظل سعد أباً لبنت واحدة.. فقد رزق بعد هذا أبناء آخرين..

وكان سعد كثير البكاء من خشية الله.

وكان اذا استمع للرسول يعظهم، ويخطبهم، فاضت عيناه من الدمع حتى تكاد دموعه تملؤ حجره..

هذا هو الأسد في برائه، كما وصفه عبد الرحمن بن عوف..

وهذا هو الرجل الذي اختاره عمر ليوم القادسية العظيم..

كانت كل مزاياه تتألق أما بصيرة أمير المؤمنين وهو يختاره لأصعب مهمة تواجه الاسلام والمسلمين..

انه مستجاب الدعوة.. اذا سأل الله النصر أعطاه اياه..

زانه عف الطعمة.. عف اللسان.. عف الضمير..

وانه واحد من أهل الجنة.. كما تنبأ له الرسول..

وانه الفارس يوم بدر. والفارس يوم أحد.. والفارس في كل مشهد شهده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم..

أليس هو الأسد في برائه حقاً؟؟

اذن فليغرس أمير المؤمنين لواء القادسية في يمينه. وليرم به الفرس المجتمعين في أكثر من مائة ألف من المقاتلين المدربين. المدحجين

بأخطر ما كانت تعرفه الأرض يومئذ من عتاد وسلاح.. تقودهم أذكى عقول الحرب يومئذ، وأدهى دهاتها..

أجل الى هؤلاء في فيالقهم الرهيبة.. خرج سعد في ثلاثين ألف مقاتل لا غير.. في أيديهم رماح.. ولكن في قلوبهم ارادة الدين الجديد

بكل ما تمثله من ايمان وعنفوان، وشوق نادر وباهر الى الموت و الى الشهادة..

والتقى الجمعان.

ولكن لا.. لم يلتق الجمعان بعد..

وأن سعدا هناك ينتظر نصائح أمير المؤمنين عمر وتوجيهاته.. وها هو ذا كتاب عمر اليه يأمره فيه بالمبادرة الى القادسية، فانها باب

فارس ويلقي على قلبه كلمات نور وهدى:

"يا سعد بن وهيب..

لا يغرتك من الله، أن قيل: خال رسول الله وصاحبه، فان الله ليس بينه وبين أحد نسب الا بطاعته.. والناس شريفهم ووضيعهم في

ذات الله سوء.. الله بهم، وهم عباده.. يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة. فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله صلى

الله عليه وسلم منذ بعث الى أن فارقتنا عليه، فالزمه، فانه الأمر".

ثم يقول له:

"اكتب اليّ بجميع أحوالكم.. وكيف تزلون..؟

وأين يكون عدوكم منكم..

واجعلني بكتبك اليّ كأني أنظر اليكم.."

ويكتب سعد الى أمير المؤمنين فيصف له كل شيء حتى انه ليكاد يحدد له موقف كل جندي ومكانه.

ويترل سعد القادسية، ويتجمع الفرس جيشا وشعبا، كما لم يتجمعوا من قبل، ويتولى قيادة الفرس أشهر وأخطر قوادهم "رستم.."

يكتب سعد الى عمر، فيكتب اليه أمير المؤمنين:

"لا يكرهك ما تسمع منهم، ولا ما يأتونك به، واستعن بالله، وتوكل عليه، وابعث اليه رجالا من أهل النظر والرأي والجلد، يدعونه الى الله.. واكتب اليّ في كل يوم" ..

ويعود سعد فيكتب لأمير المؤمنين قائلا:

"ان رستم قد عسكر ب سابات وجرّ الخيول والفيلة وزحف علينا."

ويجيبه عمر مطمئنا مشيرا..

ان سعد الفارس الذكي المقدام، خال رسول الله، والسابق الى الاسلام، بطل المعارك والغزوات، والذي لا ينيو له سيف، ولا يزيغ منه رمح.. يقف على رأس جيشه في احدى معارك التاريخ الكبرى، ويقف وكأنه جندي عادي.. لا غرور القوة، ولا صلف الزعامة، يحملانه على الركون المفرط لثقلته بنفسه.. بل هو يلجأ الى أمير المؤمنين في المدينة وبينهما أبعاد وأبعاد، فيرسل له كل يوم كتابا، ويتبادل معه والمركة الكبرى على وشك النشوب، المشورة والرأي...

ذلك أن سعدا يعلم أن عمر في المدينة لا يفتي وحده، ولا يقرر بحجته .. بل يستشير الذين حوله من المسلمين ومن خيار أصحاب رسول الله.. وسعد لا يريد برغم كل ظروف الحرب، أن يحرم نفسه، ولا أن يحرم جيشه، من بركة الشورى وجدواها، لا سيما حين يكون بين أقطابها عمر الملهم العظيم..

وينفذ سعد وصية عمر، فيرسل الى رستم قائد الفرس نفرا من صحابه يدعونه الى الله والى الاسلام..

ويطول الحوار بينهم وبين قائد الفرس، وأخيرا ينهون الحديث معه اذ يقول قائلهم:

"ان الله اختارنا ليخرج بنا من يشاء من خلقه من الوثنية الى التوحيد... ومن ضيق الدنيا الى سعتها، ومن جور الحكام الى عدل الاسلام..

فمن قبل ذلك منا، قبلنا منه، ورجعنا عنه، ومن قاتلنا قاتلناه حتى نفضي الى وعد الله" ..

ويسأل رستم: وما وعد الله الذي وعدكم اياه...؟؟

فيجيبه الصحابي:

"الجنة لشهادتنا، والظفر لأحيائنا."

ويعود الوفد الى قائد المسلمين سعد، ليخبروه أنها الحرب..

وتمتلىء عينا سعد بالدموع..

لقد كان يود لو تأخرت المركة قليلا، أو تقدمت قليلا.. فيومئذ كان مرضه قد اشتد عليه وثقلت وطأته.. وملاّت الدماامل جسده

حتى ما كان يستطيع أن يجلس، فضلا أن يعلو صهوة جواده ويخوض عليه مركة بالغة الضراوة والقسوة..

فلو أن المركة جاءت قبل أن يمرض ويسقم، لو أنها استأخرت حتى يبلى ويشفى، اذن لأبلى فيها بلاءه العظيم.. أما الآن.. ولكن،

لا، فرسول الله صلى الله عليه وسلم علمهم ألا يقول أحدهم: لو. لأن لو هذه تعني العجز، والمؤمن القوي لا يعدم الحيلة، ولا يعجز أبدا..

عند هب الأسد في برائته ووقف في جيشه خطيبا، مستهلا خطابه بالآية الكريمة:

بسم الله الرحمن الرحيم..

ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون..



بعد فراغه من خطبته، صلى بالجيش صلاة الظهر، ثم استقبل جنوده مكباً أربعاً: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر..

ودوى الكل وأوب مع المكبرين، ومد ذراعه كالسهم النافذ مشيراً الى العدو، وصاح في جنوده: هيا على بركة الله.. وصعد وهو متحاملاً على نفسه وآلامه الى شرفة الدار التي كان يتزل بها ويتخذها مركزاً لقيادته.. وفي الشرفة جلس متكناً على صدره فوق وسادة. باب داره مفتوح.. وأقل هجوم من الفرس على الدار يسقطه في أيديهم حياً أو ميتاً.. ولكنه لا يهرب ولا يخاف..

دمامله تنبح وتترف، ولكنه عنها في شغل، فهو من الشرفة يكبر ويصيح.. ويصدر أوامره لهؤلاء: أن تقدّموا صوب الميمنة.. ولأولئك: أن سدوا ثغرات الميسرة.. أمامك يا مغيرة.. وراءهم يا جرير.. اضرب يا نعمان.. اهاجم يا أشعث.. وأنت يا قعقاع.. تقدّموا يا أصحاب محمد..

وكان صوته المفعم بقوة العزم والأمل، يجعل من كل جندي فرداً، جيشاً بأسره..

وتهاوى جنود الفرس كالذباب المترنح وتهاوت معهم الوثنية وعبادة النار..

وطارت فلولهم المهزومة بعد أن رأوا مصرع قائدهم وخيرة جنودهم، وطاردهم الجيش المسلم حتى هاونده.. ثم المدائن فدخلوها ليحملوا ديوان كسرى وتاجه، غنيمة وفيئاً..

وفي موقعة المدائن أبلى سعد بلاء عظيماً..

وكانت موقعة المدائن، بعد موقعة القادسية بقراءة عامين، جرت خلالها مناوشات مستمرة بين الفرس والمسلمين، حتى تجمعن كل

فلول الجيش الفارسي وبقاياها في المدائن نفسها، متأهبة لموقف أخير وفاصل..

وأدرك سعد أن الوقت سيكون بجانب أعدائه. فقرر أن يسلبهم هذه المزية.. ولكن أتى له ذلك وبينه وبين المدائن نهر دجلة في موسم فيضانه وجيشانه..

هنا موقف يثبت فيه سعد حقاً كما وصفه عبد الرحمن بن عوف الأسد في برائه..

ان ايمان سعد وتصميمه ليتألقان في وجه الخطر، ويتسوران المستحيل في استبسال عظيم..

وهكذا أصدر سعد أمره الى جيشه بعبور نهر دجلة.. وأمر بالبحث عن مخاضة في النهر تمكّن من عبور هذا النهر.. وأخيراً عثروا على مكان لا يخلو عبوره من المخاطر البالغة..

وقبل أن يبدأ الجيش عملية المرور فطن القائد سعد الى وجوب تأمين مكان الوصول على الضفة الأخرى التي يربط العدو حولها.. وعندئذ جهز كتيبتين..

الأولى: واسمها كتيبة الأهوال وأمر سعد عليها عاصم ابن عمرو والثانية: اسمها الكتيبة الخرساء وأمر عليها القعقاع ابن عمرو..

وكان على جنود هاتين الكتيبتين أن يخوضوا الأهوال لكي يفسحوا على الضفة الأخرى مكاناً آمناً للجيش العابر على أثرهم.. ولقد أدوا العمل بمهارة مذهلة..

ونجحت خطة سعد يومئذ نجاحاً يذهل له المؤرخون..

نجاحاً أذهل سعد بن أبي وقاص نفسه..

وأذهل صاحبه ورفيقه في المعركة سلمان الفارسي الذي أخذ يضرب كفا بكف دهشة وغبطة، ويقول:

"ان الاسلام جديد..

ذللّت والله لهم البحار، كما ذلّل لهم البر..

والذي نفس سلمان بيده ليخرجنّ منه أفواجا، كما دخلوه أفواجا.."

مد كان .. وكما اقتحموا نمر دجلة أفواجا، خرجوا منه أفواجا لم يخسروا جنديا واحدا، بل لم تضع منهم شكيمة فرس..

ولقد سقط من أحد المقاتلين قذحه، فعر عليه أن يكون الوحيد بين رفاقه الذي يضع منه شيء، فنادى في أصحابه ليعاونوه على

انتشاله، ودفعته موجة عالية الى حيث استطاع بعض العابرين التقاطه..

وتصف لنا احدى الروايات التاريخية، روعة المشهد وهم يعبرون دجلة، فتقول:

أمر سعد المسلمين أن يقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل .. ثم اقتحم يفرسه دجلة، واقتحم الناس وراءه، لم يتخلف عنه أحد، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملؤا ما بين الجانبين، ولم يعد وجه الماء يرى من أفواج الفرسان والمشاة، وجعل الناس يتحدثون وهم يسيرون على وجه الماء كأنهم يتحدثون على وجه الأرض؛ وذلك بسبب ما شعروا به من الطمأنينة والأمن، والثوق بأمر الله ونصره ووعيده وتأيدته..

ويوم ولى عمر سعدا امانة العراق، راح يبني للناس ويعمر.. كوّف الكوفة، وأرسى قواعد الاسلام في البلاد العريضة الواسعة.. وذات يوم شكاه أهل الكوفة لأمير المؤمنين.. لقد غلبهم طبعهم المتمرد، فرعموا زعمهم الضاحك، قالوا "ان سعدا لا يحسن يصلي.."

ويضحك سعد من ملء فاه، ويقول:

"والله اني لأصلي بهم صلاة رسول الله.. أطيل في الركعتين الأوليين، وأقصر في الآخرين.."

ويستدعيه عمر الى المدينة، فلا يغضب، بل يلبي ندائه من فوره..

وبعد حين يعتزم عمر ارجاعه الى الكوفة، فيجيب سعد ضاحكا:

"أأتمني أن أعود الى قوم يزعمون أني لا أحسن الصلاة؟؟"

ويؤثر البقاء في المدينة..

وحين اعتدي على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وأرضاه، اختار من بين أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام، ستة رجال،

ليكون اليهم أمر الخليفة الجديد قائلا انه اختار ستة مات رسول الله وهو عنهم راض.. وكان من بينهم سعد بن أبي وقاص.

بل يبدو من كلمات عمر الأخيرة، أنه لو كان مختارا خلافة واحدا من الصحابة لاختار سعدا..

فقد قال لأصحابه وهو يودعهم ويوصيهم:

"ان وليها سعد فذاك.."

وان وليه غيره فليستعن بسعد.."

ويمتد العمر بسعد .. وتجيء الفتنة الكبرى، فيعتزلها بل ويأمر أهله وأولاده ألا ينقلوا اليه شيئا من أخبارها..

وذات يوم تشرئب الأعناق نحوه، ويذهب اليه ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، ويقول له:

يا عم، ها هنا مائة ألف سيف يروك أحق الناس بهذا الأمر.

فيجيبه سعد :

"أريد من مائة ألف سيف، سيفا واحدا.. اذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئا، واذا ضربت به الكافر قطع.."

ويدرك ابن أخيه غرضه، ويتركه في عزله وسلامه..

وحين انتهى الأمر لمعاوية، واستقرت بيده مقاليد الحكم سأل سعدا:

مالك لم تقاتل معنا؟؟ فأجابه : " اني مررت بريح مظلمة، فقلت: أخ .. أخ.."

تخذت من راحلتي حتى انجلت عني..

فقل معاوية: ليس في كتاب الله أخ.. أخ.. ولكن قال الله تعالى:

وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، فأصلحوا بينهما، فان بغت احدهما على الأخرى، فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله. (وأنت لم تكن مع الباغية على العادلة، ولا مع العادلة على الباغية. أجابه سعد قائلاً:

"ما كنت لأقاتل رجلاً قال له رسول الله: أنت مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي."

وذات يوم من أيام الرابع والخمسين للهجرة، وقد جاوز سعد الثمانين، كان هناك في داره بالعقيق يتهيأ للقاء الله . ويروي لنا ولده لحظاته الأخيرة فيقول:

كان رأس أبي في حجري، وهو يقضي، فبكيت وقال: ما يبكيك يا بني..؟؟

ان الله لا يعذبني أبدا وأني من أهل الجنة..

ان صلابة إيمانه لا يوهنها حتى رهبة الموت وزلزاله.

ولقد بشره الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو مؤمن بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام أوثق إيمان.. واذن ففهم الخوف..؟

ان الله لا يعذبني أبدا، واني من أهل الجنة.

بيد أنه يريد أن يلقي الله وهو يحمل أروع وأجل تذكارات جمعه بدينه ووصله برسوله.. ومن ثم فقد أشار الى خزانته ففتوحها، ثم

أخرجوا منها رداء قديما قد بلي وأخلق، ثم أمر أهله أن يكفونوه فيه قائلا:

لقد لقيت المشركين فيه يوم بدر، ولقد ادخرته لهذا اليوم..

اجل، ان ذلك الثوب لم يعد مجرد ثوب.. انه العلم الذي يخفق فوق حياة مديدة شامخة عاشها صاحبها مؤمنا، صادقا شجاعا

وفوق أعناق الرجال حمل الى المدينة جثمان آخر المهاجرين وفاة، ليأخذ مكانه في سلام الى جوار ثلة طاهرة عظيمة من رفاقه الذين

سبقوه الى الله، ووجدت أجسامهم الكادحة مرفأ لها في تراب البقيع وثرأه.

وداعا يا سعد ..

وداعا يا بطل القادسية، وفتح المدائن، ومطفئ النار المعبودة في فارس الى الأبد..

## عبد الملك بن مروان

نظر إليه أبو هريرة -رضي الله عنه- وهو غلام، فقال: هذا يملك العرب!! في مدينة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولد (عبد

الملك بن مروان) في سنة ٢٤هـ في أول عام من خلافة (عثمان بن عفان) رضي الله عنه، حفظ القرآن الكريم، وسمع أحاديث رسول

الله -صلى الله عليه وسلم- من عمه عثمان بن عفان وأبي هريرة، وأم سلمة، ومعاوية، وابن عمر -رضي الله عنهم أجمعين-. وكثيراً

ما كان عبد الملك في طفولته المبكرة يسأل أباه وعمه ومن حوله من الصحابة عن سيرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيجيبونه

بما يثير دهشته، ويزيد من إعجابه بعظمة الإسلام، ولكنه وهو في العاشرة من عمره رأى مقتل خليفة المسلمين (عثمان بن عفان)

فترك ذلك أثراً حزيناً في نفسه، لكنه تعلم منه الدرس، وهو أن يتعامل مع المعتدين والمشاعين بالقوة والحزم.

ثم لازم الفقهاء والعلماء حتى صار فقيهاً، سئل ابن عمر -رضي الله عنه- ذات مرة في أمر من أمور الدين فقال: (إن لمروان ابناً فقيهاً

فسلوه) وقال الأعمش: كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب وعروة وقبيصة بن ذؤيب وعبد الملك بن مروان، وكان لا يترك

الصلاة في المسجد، حتى سمي حمامة المسجد لعبادته ومدامته على تلاوة القرآن. نال عبد الملك في حديثه إعجاب الجميع لتمسكه

بمبادئ الإسلام، يحكي أن معاوية جلس يوماً معه سعيد بن العاص -رضي الله عنه- فمرَّ بهما عبد الملك، فقال معاوية: لله در هذا

حتى ما أعظم مروءته؟ فقال سعيد: يا أمير المؤمنين إن هذا الفتى أخذ بخصال أربع وترك خصالاً ثلاثاً: أخذ بحسن الحديث إذا وحسن الاستماع إذا حدث، وحسن البشر إذا لقي، وخفة المتونة إذا خولف، وترك من القول ما يعتذر منه، وترك مخالطة اللئام من الناس، وترك مازحة من لا يوثق بعقله ولا مروءته).

وخرج عبد الملك من المدينة في ربيع الآخر سنة ٦٤هـ عند حدوث الفتنة واضطراب الأمر بالشام وظهور عبد الله بن الزبير بمكة والحجاز وإعلان نفسه خليفة للمسلمين، ولم تكد تمض ستة أشهر حتى تولى أبوه مروان الخلافة، لكنه لم يستمر سوى عشرة أشهر حتى توفي، فخلفه في رمضان من عام ٦٥هـ عبد الملك بن مروان وأقبل عليه كبراء بني أمية وأمراء الجنود ورؤساء القوم وكبار رجال الدولة فبايعوه.

وحين تولى عبد الملك خلفاً لأبيه لم يكن في يده غير الشام ومصر فقط، وهكذا كانت الأخطار تحيط بدولته من كل جانب في الداخل، فوجد الدولة الإسلامية منقسمة تسودها الفتن والاضطرابات، فهناك ابن الزبير في الحجاز، ودولة بني أمية في الشام، والخوارج الأزارقة بالأهواز، والخوارج (النجادات) بجزيرة العرب، والشيعية بالكوفة في العراق، وفي الخارج كانت الروم تكيد له، وتنتهز فرصة الانقسام لتغير على الحدود في الشمال والغرب، تهديدات من كل اتجاه، فأدرك (عبد الملك) أنه لابد من توحيد الجهود الإسلامية ضد الأعداء، وبدأ في تجهيز الجيوش، وأحسن معاملة قواده وحاشيته، يكرمهم، ويعطف عليهم، ويوزورهم إذا مرضوا، ويحضرهم مجالسه، ويعاملهم كأصدقاء، فكان ذلك من أكبر عوامل نجاحه وانتصاره. وبحلول عام ٧٤هـ اجتمعت كلمة الأمة بعد خلاف طويل، وانتهى النزاع حول الخلافة، حتى سمي هذا العام بعام الوحدة، وتمت البيعة لعبد الملك من الحجاز والعراق، كما تمت له من قبل في الشام ومصر، وجاءته أيضاً من خراسان، واستردت الدولة الإسلامية مكانتها وهيبتها وسيادتها على الأعداء، واتسعت حدودها بعد أن أضاف إليها عبد الملك أقاليم جديدة؛ حيث أرسل جنوده ففتحو بعض بلاد المغرب وتوغل فيها. واتبع عبد الملك سياسة الحزم والشدّة، فكان قوي الإرادة والشخصية؛ لذلك قالوا: (كان معاوية أحلم وعبد الملك أحزم) وقال أبو جعفر المنصور: كان عبد الملك أشدهم شكيمة وأمضاهم عزيمة، وكان عبد الملك حريصاً على نزاهة من يعملون في دولته.. بلغه ذات يوم أن أحد عماله قبل هدية، فأمر بإحضاره إليه، فلما حضر قال له: أقبلت هدية منذ وليتك؟ قال: يا أمير المؤمنين بلادك عامرة وخراجك موفورة، رعيتك على أفضل حال.. قال: أجب عما سألتك.. قال: نعم قد قبلت؛ فعزله عبد الملك. ولم يكن عبد الملك رجل سياسة فحسب، ولكنه كان أدبياً يحب الأدباء، ويعقد المجالس الأدبية، وينتقد ما يلقى عليه من الشعر انتقاداً يدل على ذوق أدبي رفيع، وقد أظهر عبد الملك براعة في إدارة شئون دولته وتنظيم أجهزتها مثلما أظهر براعة في إعادة الوحدة إلى الدولة الإسلامية، فاعتمد على أكثر الرجال في عصره مهارةً ومقدرةً وأعظمهم كفاءةً وخبرةً مثل الحجاج بن يوسف الثقفي وبشر بن مروان وعبد العزيز بن مروان وتفقد عبد الملك أحوال دولته بنفسه، وتابع أحوال عماله وولاته، وراقب سلوكهم، وأنجز أعمالاً إدارية ضخمة دفعت بالدولة الإسلامية أشواطاً على طريق التقدم.

فهو أول من ضرب الدنانير وكتب عليها القرآن، فكتب على أحد وجهي الدنانير (قل هو الله أحد) وكتب على الوجه الآخر: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق، ونقلت في أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية، وهو ما يُعرف في التاريخ بـ(حركة تعريب الدواوين). ورغم شدة وحزم عبد الملك فإنه كان رقيق المشاعر، يخشى الله ويتضرع إليه، خطب ذات مرة، فقال: (اللهم إن ذنوبي عظام، وهي صغار في جنب عفوك يا كريم فاغفرها لي) وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة قيل له: كيف تجددك؟ فقال: أجدي كما قال الله تعالى: {ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم} [الأنعام: ٩٤].

ومات عبد الملك سنة ٨٦ من الهجرة، وعمره ٦٠ سنة، وصلى عليه ابنه الوليد.

## عمر بن عبد العزيز

رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رؤيا، فقام من نومه يردد: مَنْ هذا الأشجُّ من بني أمية، ومِنْ ولد عمر يُسمّى عمر، يسير بسيرة عمر ويملا الأرض عدلاً.

وتحقت رؤيا أمير المؤمنين، ففي منطقة حلوان بمصر حيث يعيش وإلى مصر عبد العزيز بن مروان وزوجته ليلي بن عاصم بن عمر بن الخطاب وُلد عمر بن عبد العزيز سنة ٦١هـ، وعني والده بتربيته تربية صالحة، وعلمه القراءة والكتابة، لكن عمر رغب أن يغادر مصر إلى المدينة ليأخذ منها العلم، فاستجاب

عبد العزيز بن مروان لرغبة ولده وأرسله إلى واحد من كبار علماء المدينة وصالحها وهو (صالح بن كيسان). حفظ عمر بن عبد العزيز القرآن الكريم، وظهرت عليه علامات الورع وأمارات التقوى، حتى قال عنه معلّمه صالح بن كيسان: ما خَبَرْتُ أحداً -الله أعظم في صدره- من هذا الغلام، وقد فاجأته أمه ذات يوم وهو يبكي في حجرته، فسألته: ماذا حدث لك يا عمر؟ فأجاب: لا شيء يا أماه إنما ذكرت الموت، فبكت أمه. وكان معجباً إعجاباً شديداً بعبد الله بن عمر -رضي الله عنه- وكان دائماً يقول لأمه: تعرفين يا أماه لأكون مثل خالي عبد الله بن عمر، ولم تكن هذه الأشياء وحدها هي التي تُنبئ بأن هذا الطفل الصغير سيكون معلماً من أعلام الإسلام، بل كانت هناك علامات أخرى تؤكد ذلك، فقد دخل عمر بن العزيز إلى إصطبل أبيه، فضربه فرس فشجّه (أصابه في رأسه) فجعل أبوه يمسح الدم عنه، ويقول: إن كنت أشجّ بني أمية إنك إذن لسعيد. وكان عمر نحيف الجسم أبيض الوجه حسن اللحية، وتمضي الأيام والسنون ليصبح عمر بن عبد العزيز شاباً فتياً، يعيش عيشة هنيئة، يلبس أغلى الثياب، ويتعطر بأفضل العطور، ويركب أحسن الخيول وأمهرها، فقد ورث عمر عن أبيه الكثير من الأموال والمتاع والدواب، وبلغ إيراده السنوي ما يزيد على الأربعين ألف دينار، وزوّجه الخليفة عبد الملك بن مروان ابنته فاطمة، وكان عمر -رضي الله عنه- وقتها في سن العشرين من عمره، فازداد غنى وثراء. ولما بلغ عمر بن عبد العزيز الخامسة والعشرين، اختاره الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ليكون والياً على المدينة وحاكماً لها، ثم ولاه الحجاز كله، فنشر الأمن والعدل بين الناس، وراح يعمّر المساجد، بادئاً بالمسجد النبوي الشريف، فحفر الآبار، وشق الترع، فكانت ولايته على مدن الحجاز كلها خيراً وبركة، شعر فيها الناس بالأمن والطمأنينة. واتخذ عمر بن عبد العزيز مجلس شورى من عشرة من كبار فقهاء المدينة على رأسهم التابعي الجليل (سعيد بن المسيّب) فلم يقطع أمراً بدوّنهم، بل كان دائماً يطلب منهم النصح والمشورة، وذات مرة جمعهم، وقال لهم: إني دعوتكم لأمر تؤجرون فيه، ونكون فيه أعرافاً على الحق، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدّى أو بلغكم عن عامل (حاكم) ظلامة فأخرج بالله على من بلغه ذلك إلا أبلغني، فشكروهم ثم انصرفوا، وظل عمر بن عبد العزيز في ولاية المدينة ست سنوات إلى أن عزله الخليفة الوليد بن عبد الملك لأن الحجاج أفهمه أن عمر أصبح يشكل خطراً على سلطان بني أمية. ذهب عمر إلى الشام ومكث بها إلى أن مات الوليد بن عبد الملك، وتولى الخلافة بدلاً منه أخوه سليمان بن عبد الملك، وكان يحب عمر، ويعتبره أخاً وصديقاً ويأخذ بنصائحه، وذات يوم مرض الخليفة مرض الموت، وشعر بأن نهايته قد اقتربت، فشغله أمر الخلافة حيث إن أولاده كلهم صغار لا يصلحون لتولي أمور الخلافة، فشاور وزيره (رجاء بن حيوة) العالم الفقيه في هذا الأمر، فقال له: إن مما يحفظك في قبرك ويشفع لك في أخراك، أن تستخلف على المسلمين رجلاً صالحاً. قال سليمان: ومن عساه يكون؟

قال رجاء: عمر بن عبد العزيز. فقال سليمان: رضيت، والله لأعقدن لهم عقداً، لا يكون للشيطان فيه نصيب، ثم كتب العهد، وكلف (رجاء) بتنفيذه دون أن يعلم أحد بما فيه. مات سليمان، وأراد (رجاء بن حيوة) تنفيذ العهد لكن عمر كان لا يريد الخلافة، ولا يطمع فيها، ويعتبرها مسئولية كبيرة أمام الله، شعر عمر بن عبد العزيز بالقلق وبِعظم المسئولية، فقرر أن يذهب على الفور إلى المسجد حيث يتجمع المسلمون، وبعد أن صعد المنبر قال: لقد ابتليت بهذا الأمر على غير رأي مني فيه، وعلى غير مشورة من المسلمين، وإني أخلع بيعة من بايعني، فاختاروا لأنفسكم، لكن المسلمين الذين عرفوا عدله وزهده وخشيته من الله أصرّوا على أن يكون خليفتهم، وصاحوا في صوت واحد: بل إياك نختار يا أمير المؤمنين، فبكي عمر. وتولى الخلافة في يوم الجمعة، العاشر من صفر سنة ٩٩هـ، ويومها جلس حزيناَ مهموماً، وجاء إليه الشعراء يهنئونه بقصائدهم، فلم يسمح لهم، وقال لابنه: قل لهم {إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم} [يونس: ١٥]. دخلت عليه زوجته فاطمة وهو يبكي، فسألته عن سرّ بكائه، فقال: إني تَقَلَّدْتُ (توليت) من أمر أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- أسودها وأحمرها، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري والجهد،



بظلم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذوي العيال الكثيرة، والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطرافها، فعملت أن ربي سائلي عنهم يوم القيامة، فخشيت ألا تثبت لي حجة فبكيته.

وترك عمر زينة الحياة الدنيا، ورفض كل مظاهر الملك التي كانت لمن قبله من الخلفاء، وأقام في بيت متواضع بدون حرس ولا حجاب، ومنع نفسه التمتع بأمواله، وجعلها لفقراء المسلمين، وتنازل عن أملاكه التي ورثها عن أبيه، ورفض أن يأخذ راتباً من بيت المال، كما جرّد زوجته فاطمة بنت الخليفة عبد الملك بن مروان من حليها وجواهرها الثمينة، وطلب منها أن تعطيه بيت المال، فقال لها: اختاري.. إما أن تردي حليك إلى بيت المال، وإما أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وأنت ومعك هذه الجواهر في بيت واحد، فأنت تعلمين من أين أتى أبوك بتلك الجواهر، فقالت: بل اختارك يا أمير المؤمنين عليها وعلى أضعافها لو كانت لي، فأمر عمر بتلك الجواهر فوضعت في بيت المال.

وبلغه أن أحد أولاده اشترى خاتماً له فصّ بألف درهم، فكتب إليه يلومه، ويقول له: بعه وأشبع بثمانه ألف جائع، واشتر بدلاً منه خاتماً من حديد، واكتب عليه: رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه. ويحكى أن عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- كان يقسم تفاحاً للمسلمين، وبينما هو يفرقه ويقسمه على من يستحقه إذ أخذ ابن صغير له تفاحة، فقام عمر وأخذ التفاحة من فمه، فذهب الولد إلى أمه وهو يبكي، فلما علمت السبب، اشترت له تفاحاً، فلما رجع عمر شم رائحة التفاح، فقال لزوجته: يا فاطمة، هل أخذت شيئاً من تفاح المسلمين؟ فأخبرته بما حدث، فقال لها: والله لقد انتزعتها من ابني فكأنما انتزعتها من قلبي، لكني كرهت أن أضيع نفسي بسبب تفاحة من تفاح المسلمين!! وها هو ذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الذي تحت تصرفه وطوع أمره أموال الدولة وكنوزها، يقول لزوجته يوماً: تشتهي نفسي غسل لبنان، فأرسلت فاطمة إلى ابن معد يكرب، عامل (أمير) لبنان، وذكرت له أن أمير المؤمنين يشتهي غسل لبنان، فأرسل إليها بعسل كثير، فلما رآه عمر غضب، وقال لها: كأني بك يا فاطمة قد بعثت إلى ابن معد يكرب، فأرسل لك هذا العسل؟ ثم أخرج عمر العسل إلى السوق، فباعه، وأدخل ثمنه بيت المال، وبعث إلى عامله على لبنان يلومه، ويقول له: لو عدّدت لمثلها فلن تلي لي عملاً أبداً، ولا أنظر إلى وجهك. وكان عمر بن عبد العزيز حليماً عادلاً، خرج ذات ليلة إلى المسجد ومعه رجل من الحراس، فلما دخل عمر المسجد مرّ في الظلام برجل نائم، فأخطأ عمر وداس عليه، فرفع الرجل رأسه إليه وقال: أجبون أنت؟ فقال: لا، فتضايق الحارس وهمّ أن يضرب الرجل النائم فمنعه عمر، وقال له: إن الرجل لم يصنع شيئاً غير أنه سألني: أجبون أنت؟ فقلت: لا. وكان عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- رقيق المشاعر، رحيماً بالإنسان والحيوان، كتب ذات يوم إلى واليه في مصر قائلاً له: بلغني أن الحماليين في مصر يحملون فوق ظهور الإبل فوق ما تطيق، فإذا جاءك كتابي هذا، فامنع أن يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل. وقد حرص عمر الزاهد العادل التقى على ألا يقرب أموال المسلمين ولا يمد يده إليها، فهي أمانة في عنقه، سيحاسبه الله عليها يوم القيامة، فكان له مصباح يكتب عليه الأشياء التي تخصه، ومصباح لبيت المال يكتب عليه مصالح المسلمين لا يكتب على ضوئه لنفسه حرفاً.. وذات مرة سخنوا له الماء في المطبخ العام، فدفع درهمًا ثمنًا للحطب!! لقد كان همه الأول والأخير أن يعيش المسلمون في عزة وكرامة، ينعمون بالخير والأمن والأمان، كتب إلى أحد أمرائه يقول: لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، وكان يأمر عماله بسداد الديون عن المحتاجين، وتزويج من لا يقدر على الزواج، بل إن مناديه كان ينادي في كل يوم: أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟ حتى استطاع بفضل من الله أن يغنيهم جميعاً. خرج عمر راكباً ليعرف أخبار البلاد، فقابلته رجل من المدينة المنورة فسأله عن حال المدينة، فقال: إن الظالم فيها مهزوم، والمظلوم فيها ينصره الجميع، وإن الأغنياء كثيرون، والفقراء يأخذون حقوقهم من الأغنياء، ففرح عمر فرحاً شديداً وحمد الله، وهكذا رجل من ولد (زيد بن الخطّاب) يقول: (إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يرح حتى يرجع بماله، يبحث عمن يعطيه فما يجد، فيرجع بماله، قد أغنى الله الناس على يد عمر). طُلب منه أن يأمر بكسوة الكعبة، كما جرت العادة بذلك كل عام، فقال: إني رأيت أن أجعل ذلك (ثمن كسوة الكعبة) في أكباد جائعة، فإنه أولى بذلك من البيت، وبعد فترة حكمه التي دامت

مئة وعشرين شهراً، اشتد عليه المرض، فجاءه ابن عمه مسلمة بن عبد الملك، فقال له: يا أمير المؤمنين، ألا توصي لأولادك، وكثيرون، وقد أفقرتهم، ولم تترك لهم شيئاً؟ فقال عمر: وهل أملك شيئاً أوصي لهم به، أم تأمرني أن أعطيهم من مال المسلمين؟ والله لا أعطيهم حق أحد، وهم بين رجلين: إما أن يكونوا صالحين فالله يتولاهم، وإما غير صالحين فلا أدع لهم ما يستعينون به على معصية الله، وجمع أولاده، وأخذ ينظر إليهم، ويتحسس بيده ثيابهم الممزقة؛ حتى ملئت عيناه بالدموع، ثم قال: يا بني، إن أباكم خير بين أمرين: بين أن تستغنوا (أي تكونوا أغنياء) ويدخل أبوكم النار، وبين أن تفتقروا، ويدخل أبوكم الجنة، فاختار الجنة.. يا بني، حفظكم الله ورزقكم، وقد تركتُ أمركم إلى الله وهو يتولى الصالحين.

ثم قال لأهله: اخرجوا عني، فخرجوا، وجلس على الباب مسلمة بن عبد الملك وأخته فاطمة، فسمعاها يقول: مرحباً بهذه الوجوه التي ليست بوجوه إنس ولا جان، ثم قرأ: {تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين} [القصص: ٨٣]. ومات عمر بعد أن ضرب المثل الأعلى في العدل والزهد والورع... مات أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين!!

## هارون الرشيد

أتبكي يا أمير المؤمنين؟! تبكي وأنت الذي تصلي كل يوم مائة ركعة، وتتصدق من مالك الخاص بألف درهم في كل يوم؟! تبكي وأنت الذي عظمتم حرمة الإسلام، وبالغت في احترام العلماء والوعاظ، وجاهدت في سبيل الله؟! كان كثير البكاء على نفسه، تسيل دموعه كالسيل إذا وعظ، ولم يذكر له النبي صلى الله عليه وسلم إلا قال: صلى الله على سيدي. هناك في مدينة (الري) تلك المدينة القديمة التي تقع في الجنوب الشرقي من طهران ولِد هارون الرشيد بن المهدي بن جعفر المنصور في أواخر ذي الحجة سنة ثمان وأربعين ومائة، وكان أبوه (المهدي) في تلك الأيام أميراً على الري وخراسان من قبل الخليفة المنصور، ثم أصبح خليفة للمسلمين بعد وفاة أبيه المنصور. نشأ هارون تحيطه رعاية والده الذي دربه منذ حياته المبكرة على الحياة العسكرية، فجعله أميراً لحملة عسكرية كانت تسمى بالصوائف حيث كانت تخرج للجهاد في الصيف، والشواقي نسبة إلى الشتاء لتهديد العدو البيزنطي وتخويفاً له، وولاه المغرب كله، ثم عينه والده ولياً للعهد بعد أخيه الهادي.

تولي الرشيد خلافة المسلمين سنة ١٧٠هـ، وسنه خمسة وعشرين عاماً وأصبحت بغداد في عصره من أعظم مدن الدنيا، فريدة في حضارتها وعمارتها، وشمل بعدله القوي والضعيف والعاجز والمريض وذا الحاجة، وازدهرت فترة ولايته بوجود الكثير من أئمة العلم والعظام كالإمام مالك بن أنس، والليث بن سعد، والكسائي ومحمد بن الحسن من كبار أصحاب أبي حنيفة.

وكان يضرب به المثل في التواضع، يحكى أن أبي معاوية الضرير وهو من العلماء المحدثين قال: أكلت مع الرشيد ثم صبَّ على يدي الماء رجل لا أعرفه، فقال الرشيد: تدري من صب عليك؟ قلت: لا. قال: أنا، إجلالاً للعلم. وجاوزت خشيته من الله الحدود، فكان جسده يرتعد، ويسمع صوت بكائه إذا وعظه أحد من الناس، يحكى أنه جالس (أبا العتاهية) الشاعر، وكلف أحد جنوده بمراقبته، وإخباره بما يقول، فرآه الجاسوس يوماً وقد كتب على الحائط:

إلى ديان يوم الدين نمضي وعند الله يجتمع الخـصـوم  
فأخبر الجاسوس الرشيد بذلك، فبكي وأحضر أبا العتاهية، وطلب منه أن يسامحه، وأعطاه ألف دينار.

وقال الأصمعي: وضع الرشيد طعاماً، وزخرف مجالسه وزينها، وأحضر أبا العتاهية وقال له: صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا، فقال أبو العتاهية:

فعش ما بدا لك سالمًا في ظل شاهقة القصـور  
فقال الرشيد: أحسنت ثم ماذا؟ فقال:

معنى إليك بما اشتهيــــــــــــت لدى الروحاح وفي البكور

**فقال: حسن؟ ثم ماذا؟ فقال أبو العتاهية مندفعًا:**

## فإذا النفوس تقعقت في ظل حشر جنة الصـدور

فَهَذَا كِتَابُكَ تَعْلَمُ مَوْقِنًا مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرُورٍ

فبكى الرشيد، فزجر أحد الحاضرين أبا العتاهية لأن المقام مقام فرح وسرور، فقال الرشيد: دعه، فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيده منه. وكان كثير الغزو والحج يغزو سنة ويحج سنة، فإذا حج حجَّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج قام بالإنفاق على ثلاثمائة رجل ليؤدوا فريضة الحج، ورغم هذه الرقة والشفافية والزهد، كان شجاعاً لا يخاف في الله لومة لائم، غيوراً على دينه، صلباً كالحديد في وجه أعداء الله، ففي سنة سبع وثمانين ومائة (١٨٧هـ) نقض ملك الروم الهدنة التي كانت بين المسلمين وبين الملكة (ذيني) ملكة الروم، فكتب للرشيد كتاباً يقول فيه: (أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامت مقام الرخ (طائر ضخم خيالي) وأقامت نفسها مقام البندق (الطائر الصغير) فحملت إليك من أموالها أحمالاً لضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وإلا فالسيف بيني وبينك).

فلما قرأ الرشيد رسالته كتب إليه: (قد قرأت كتابك والجواب ما ترى لا ما تسمع) وسار إليه بجيش كبير حتى فتح مدينة (هرقل) وانتصر عليه انتصاراً عظيماً، وفي عهده لم يبق في الأسر مسلم، وظل طيلة حياته يحب الجهاد والفتوحات الإسلامية، فغزا الروم، وفتح هرقله، وبلغ جيشه أنقره، وسار الرشيد نحو خراسان ليغزوها، فوصل (طوس) فمرض بها ومات في ثالث جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة (١٩٣هـ).

مات هارون الرشيد، وود العلماء لو يفتدوه بأنفسهم، يقول الفضيل بن عياض: (ما من نفس تموت أشد على من موت أمير المؤمنين هارون الرشيد، ولوددت أن الله زاد من عمري في عمره) ويحكى أنه لما احتضر قال: اللهم انفعنا بالإحسان واغفر لنا الإساءة.. يا من لا يموت ارحم من يموت.

## المأمون بن الرشيد

اليوم يوم الخلفاء.. فقد مات خليفة، وتولى خليفة، وولد خليفة، أما الذي مات فهو الخليفة (موسى الهادي) وأما الذي تولى الخلافة فهو هارون الرشيد، أما الخليفة الذي ولد فهو المأمون، وكان هذا اليوم في سنة ١٧٠هـ. كان المأمون أول غلام يولد للرشيد، وللطفل الأول غالبًا في نفس والده قدر من الإعزاز والمحبة؛ لذلك ظل الرشيد يحب المأمون ويؤثره كل الإيثار، خاصة أنه فقد أمه (مراجل) التي ماتت بعد ولادته بأيام قليلة، فنشأ محرومًا من عطف الأم، وكان الرشيد معجبًا بذكاء ابنه وانصرافه إلى العلم، فحين دخل على المأمون وهو ينظر في كتاب، قال له: ما هذا؟ فأجاب المأمون: كتاب يشحذ الفكرة، ويحسن العشرة، فقال الرشيد: الحمد لله الذي رزقني من يرى بعين قلبه أكثر مما يرى بعين جسمه. وكان هارون الرشيد يفتخر دائمًا بمُخلِّق المأمون وشخصيته، يقول: (إني لأتعرّف في عبد الله المأمون حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزة نفس الهادي، ولو شاء أن أنسبه إلى الرابع لنسبته، يعني نفسه). تلقى المأمون العلم على خيرة علماء عصره، فتلقى علم العربية على يد الكسائي، أحد علماء الكوفة المشهورين في القراءات والنحو واللغة، وتلقى دروس الأدب على يد أبي محمد البيهقي وهو واحد من خيرة علماء عصره، ودرس المأمون الحديث حتى صار واحدًا من رواة، وسمع منه كثيرون ورووا عنه، وقد ساعدته على رواية الحديث ذاكرته القوية الحافظة التي كانت مضرب المثل، فيحكى أن الرشيد أراد الحج فدخل الكوفة وطلب الخدّثين (علماء الحديث) فلم يتخلف إلا عبد الله بن إدريس، وعيسى بن يونس، فبعث إليهما الأمين والمأمون، فحدثهما (ابن إدريس) بمائة حديث، فقال المأمون: يا عم أتأذن لي أن أعيدها من حفظي؟ فأعادها فعجب ابن إدريس من حفظه. وشب المأمون وكل اهتمامه كان بقراءة الفقه والتاريخ والأدب والفلسفة وغيرها من العلوم، ولما جاء الوقت لكي يختار الرشيد خليفة للمسلمين من بعده، كان في حيرة من أمره، فقد كان في قرارة نفسه يحب المأمون، ويتيق في قدرته على تحمل أعباء الحكم بعده، إلا أن رأيه استقر أخيرًا على أن يكون الأمين وليًا للعهد، ثم جعل المأمون وليًا للعهد بعد أخيه. وبعد موت هارون

سيد أخذ الأمين البيعة من الناس بالخلافة، ثم أرسل إلى المأمون يدعو للسمع والطاعة، فأعلن المأمون ولاءه وطاعته لأخيه، وزيره الفضل بن سهل وأكبر قواده طاهر بن الحسين أن يصبح خليفة للمسلمين. امتاز عصر المأمون بأنه كان غنياً بالعلماء الكبار في كل فروع المعرفة من أمثال الشافعي، وأحمد بن حنبل، وسفيان بن عيينة، والفرّاء، وغيرهم من كبار العلماء، وكان يحب العلم والعلماء، ويروي الأحاديث، ويهتم بالفلسفة، ويعمل على تشجيع العلماء والأدباء، فأرسل البعوث إلى القسطنطينية واليونان والهند وأنطاكية.. وغيرها من المدن للبحث عن مؤلفات علماء اليونان وترجمتها إلى اللغة العربية، وكان يسعى إلى إحضار العلماء الأجانب للاستفادة بعلمهم وخبرتهم، حتى أصبحت بغداد في عصره منارة للعلم. واهتم المأمون بالشعر اهتماماً كبيراً، فكان يعقد مجالس تُنشد فيها الأشعار، ولم يكن المأمون يحب الشعر فحسب، بل كان شاعراً رقيق المشاعر؛ ومن شعره في وصف الصديق المخلص:

إِنَّ أَخَاكَ الْحَقَّ مَنْ يَسْعَى مَعَكَ  
وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ  
وَمَنْ إِذَا صَرَفَ الزَّمَانَ صَدَعَكَ  
بَدَدَ شَمْلَ نَفْسِهِ لِيَنْفَعَكَ

واشتهر المأمون بكرمه الواسع، وكان يقول: سادة الناس في الدنيا الأسخياء، وكان حريصاً كل الحرص على قراءة كل الشكاوى والمظالم التي تصل إليه، يحققها بنفسه، وينصف المظلوم من الظالم.

تقدمت إليه امرأة تشكو ابنه العباس، فطلب من وزيره أحمد بن أبي خالد أن يأخذ بيد العباس ويجلسه مع المرأة مجلس الخصوم، وارتفع صوت المرأة وأخذ يعلو على كلام العباس، فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فاحفظي من صوتك، فقال المأمون: دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه، ثم قضى لها بحقها وأمر لها بنفقة. وعنف المأمون واحداً من رجال حاشيته ظلم رجلاً فارسياً، فقال له: والله لو ظلمت العباس ابني كنت أقل نكيراً عليك من أن تظلم ضعيفاً لا يجديني في كل وقت، وكان المأمون متسامحاً، يعفو عمن ظلمه أو ناله بسوء، حتى إنه يقول: أنا والله ألد العفو حتى أخاف أن لا أُؤَجَرَ عليه، ولو عرف الناس مقدار محبتي للعفو، لتقربوا إلى بالجرائم، ويقول أيضاً: وددت أن أهل الجرائم عرفوا رأيي في العفو ليذهب عنهم الخوف ويخلص السرور إلى قلوبهم، لكنه وإن كان متسامحاً في حق نفسه فإنه لم يكن يتهاون في حق الدين أو الدولة. وكان لينا مع الناس حليماً رقيقاً، يذكر عبد الله بن طاهر وهو واحد من رجاله المقربين قال: كنت عند المأمون فنادى بالخادم: يا غلام.. فلم يجبه أحد، ثم نادى ثانياً وصاح: يا غلام، فدخل غلام تركي وهو يقول: ما ينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب؟! كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام، إلى كم يا غلام؟ فنكس المأمون رأسه طويلاً فما شككت أن يأمرني بضرب عنقه، ثم نظر إليّ، وقال: يا عبد الله إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه، وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه، وإنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا. إلى جانب هذا الحلم الواسع كان المأمون جامعاً لكثير من الفضائل؛ من ذلك تواضعه الشديد لكل من يعرفه، ولقد كان قاضيه (يحيى بن أكثم) في ضيافته، فقام الخليفة المأمون بإحضار ماء له، فاندھش يحيى من ذلك، فكيف يأتي له أمير المؤمنين بالماء ويخدمه وهو جالس في مكانه؟! فلما رأى المأمون علامات الاستفهام على وجه يحيى قال له: سيد القوم خادمهم. وعُرف المأمون بذكائه وكثرة علمه، فقد جاءته امرأة، وقالت له: مات أخي، وترك ستمائة (٦٠٠) دينار، فأعطوني ديناراً واحداً، وقالوا: هذا ميراثك من أخيك، ففكر المأمون وقال: أخوك ترك أربع بنات، قالت: نعم.. قال: لهن أربعمائة (٤٠٠) دينار (ثلث الميراث) قالت: نعم، قال: ترك أمّاً، فلها مائة (١٠٠) دينار (سدس الميراث) وزوجة لها خمسة وسبعون (٧٥) ديناراً (ثمن الميراث).. بالله ألك اثنا عشر (١٢) أخاً؟ قالت: نعم.. قال: لكل واحد ديناران، ولك دينار. وكان المأمون رجاعاً إلى الحق، فقد أمر أن ينادي بإباحة نكاح المنعة، فدخل عليه يحيى بن أكثم، فذكر له حديث علي - رضي الله عنه - بتحريمها، فلما علم صحة الحديث، رجع إلى الحق وأمر من ينادي بتحريمها، وقامت في عهده عدة حروب، فقضى على بعض الثورات، كما جاهد الروم وحاربهم،

استمرت خلافة المأمون عشرين سنة من سنة ١٩٨هـ إلى سنة ٢١٨هـ. لما أحس بدنو أجله قال: يا من لا يزول ملكه ارحم قد زال ملكه، يا من لا يموت ارحم من يموت. ومات المأمون بعد حياة حافلة بالخير والعطاء، وهو في الثامنة والأربعين من عمره في مدينة (طرطوس) سنة ٢١٨هـ.

## المعتصم بالله

بلغه أن ملك الروم الظالم خرج وأغار على بلاد الإسلام، وأن امرأة مسلمة صاحت وهي في أيدي جند الروم: (وامعتصماه!!) فأجابها على الفور وهو جالس على سرير ملكه (لييك لبيك!!) وجهاز جيشاً عظيماً ليثأر لكرامة امرأة مسلمة أهاها أعداء الله!! هو الخليفة أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد، الذي عرف بالمعتصم بالله، ولد سنة ١٨٠هـ، وكان يقال له المثنى؛ لأنه ثامن الخلفاء من بني العباس ولأنه استمر في ملكه ثمانين سنين وفتح ثمانية فتوح، وأسر ثمانية ملوك. كان المعتصم شجاعاً، كتب إليه ملك الروم يهدده، فأمر أن يقرءوا له رسالته، فلما قرأها أمر برميها، وقال للكاتب اكتب: (أما بعد.. فقد قرأت كتابك، وسمعت خطابك والجواب ما ترى لا ما تسمع، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) وكانت له فتوحات وغزوات كثيرة في سبيل الله، قيل: إنه لما أراد غزو (عمورية) زعم المنجمون أنه لن ينتصر، وطلبوا منه ألا يخرج، ولكنه خرج وانتصر بإرادة الله.

وكان المعتصم كريم الخلق، متواضعاً، يحكي عنه أنه خرج مع أصحابه في يوم ممطر، وتفرق عنه أصحابه، فبينما هو يسير إذ رأى شيخاً معه حمار عليه حمل شوك، وقد وقع الحمار وسقط الحمل، والشيخ قائم ينتظر من يمر به فيساعده، فزول المعتصم عن دابته، وخلص الحمار عن الوحل، ورفع عليه حملة وانتظر أصحابه حتى جاءوا، وأمرهم أن يسيروا مع الشيخ ليعينوه. كما كان المعتصم سخياً، فلقد روى أحمد بن أبي داود: تصدق المعتصم على يدي، ووهب ما قيمته ألف ألف درهم، وفي عهده كثر العمران، وبنيت القصور وارتفع البنيان، وقد مرض المعتصم فأخذ يقول: ذهبت الحيلة، فليس حيلة، ولقي ربه في سنة ٢٢٧هـ بعد حياة حافلة بالأعمال النافعة للمسلمين.

## الأمير المجاهد عقبة بن نافع فاتح بلاد المغرب

لقد أيد الله عز وجل دينه بنوعية خاصة من الرجال، اصطفاهم المولى جل وعلا، واختارهم من بين خلقه لنيل شرف المهمة الجليلة، هؤلاء الرجال الأبطال تغلغل الإيمان في قلوبهم، وارتقت نفوسهم إلى أعلى عليين من أجل نصرته الدين، فلم يبق لهم همّة ولا هدف ولا غاية في الحياة إلا لخدمة الإسلام ونشره بين الناس، أنهم رجال آثاروا مرضات الله عز وجل بدعوة الناس للإسلام على متاع الحياة الدنيا، فودعوا الراحة والدعة والسكون وهجروا الفراش والسلامة وتركوا الديار والأهل والأحباب، وصارت ظهور الخيل مساكنهم، وآلات الجهاد عيالهم، وإخوان الجهاد رفقاءهم، فلا عجب إذا أن تنتهي حياتهم في آخر بقاع الدنيا، فهذا يموت في بلاد الصين وهذا في أذغال أفريقيا وذاك في أحراش الهند، وكلهم راض بهذه الحياة وهذه النهاية، طالما توجت حياته بأسمى ما يريد: الشهادة في سبيل الله، وهذه قصة واحد من أئمة هؤلاء الأبطال.

### \*عقبة بن نافع\*

\*هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري، ولد قبل الهجرة بسنة، وكان أبوه قد أسلم قديماً، لذلك فقد ولد عقبة ونشأ في بيئة إسلامية خالصة، وهو صحابي بالمولد، لأنه ولد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهو يمت بصلة قرابة للصحابي الجليل 'عمرو بن العاص' من ناحية الأم، وقيل أنهما ابني خالة.

\*ولقد برز اسم 'عقبة بن نافع' مبكراً على ساحة أحداث حركة الفتح الإسلامي التي بدأت تتسع بقوة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث اشترك هو وأبوه 'نافع' في الجيش الذي توجه لفتح مصر بقيادة 'عمرو بن العاص' رضي الله عنه، ولقد توسم فيه 'عمرو' أنه سيكون له شأن كبير ودور في حركة الفتح الإسلامي على الجبهة الغربية، لذلك أسند إليه مهمة صعبة وهي قيادة دورية استطلاعية لدراسة إمكانية فتح الشمال الأفريقي، ومعلوم عند العسكريين أن سلاح الاستطلاع هو أخطر وأهم



راح في أى جيش، لأنه هو الذى يحدد طريقة الهجوم بين الشجاعة والقوة والذكاء الشديد وحسن التصرف في المواقف الصعبة وكلها خصال توفرت في 'عقبة' وأدركها 'عمرو' فيه، لذلك عندما عاد 'عمرو' إلى مصر بعد فتح تونس، جعل 'عقبة بن نافع' والياً عليها على الرغم من وجود العديد من القادة الأكفاء والصحابه الكبار، مما يدل على نجابة هذا البطل الشاب .

\* أرسل 'عمرو بن العاص' والى مصر البطل الشاب 'عقبة بن نافع' إلى بلاد النوبة لفتحها، فلاقى هناك مقاومة شرسة من النوبيين، ولكنه مهد السبيل أمام من جاء بعده لفتح البلاد، ثم أسند إليه

'عمرو' مهمة في غاية الخطورة، وهي تأمين الحدود الغربية والجنوبية لمصر ضد هجمات الروم وحلفائهم البربر، فقاد 'عقبة' كتيبة قتالية على أعلى مستوى قتالي للتصدى لأى هجوم مباغت على المسلمين وتعاقت عدة ولاء على مصر بعد 'عمرو بن العاص' منهم عبد الله بن أبي السرح ومحمد بن أبي بكر ومعاوية بن حديج وغيرهم، كلهم أقر 'عقبة بن نافع' في منصبه كقائد لحامية 'برقة' .

عقبة قائد الفتح الشمالى

\* ظل 'عقبة' في منصبه الخطير كقائد للحامية الإسلامية 'برقة' خلال عهدي عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب رضى الله عنهما، ونأى بنفسه عن أحداث الفتنة التي وقعت بين المسلمين، وجعل شغله الشاغل الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام بين قبائل البربر ورد عادية الروم، فلما استقرت الأمور وأصبح معاوية رضى الله عنه خليفة للمسلمين، أصبح 'معاوية بن حديج' والياً على مصر، وكان أول قرار أخذه هو إرسال عقبة بن نافع إلى الشمال الأفريقي لبدية حملة جهادية قوية وجديدة لمواصلة الفتح الإسلامى الذى توقفت حركته أثناء الفتنة وذلك سنة ٤٩ هجرية .

\* كانت هناك عدة بلاد قد خلعت طاعة المسلمين بعد إشتعال الفتنة بين المسلمين، منها 'ودان' و'أفريقية' و'جرمة' و'قصور خاوار'، فانطلق الأسد العنيف عقبة ورجاله الأشداء على هذه القرى الغادر أهلها وأدهم أشد تأديب، فقطع أذن ملك 'ودان' وأصبح ملك 'قصور كوار' حتى لا تسول لهم أنفسهم محاربة المسلمين مرة أخرى [مع العلم أن هذا الأمر لا يجوز شرعاً لأنه ميثاق ولكن عقبة اجتهد في تأديبهم بما يردعهم عن المعاودة للخلاف] .

\* بعد أن طهر عقبة المنطقة الممتدة من حدود مصر الغربية إلى بلاد أفريقية 'تونس' من الأعداء والمخالفين، أقدم عقبة على التغلغل في الصحراء بقوات قليلة وخفيفة لشن حرب عصابات خاطفة في أرض الصحراء الواسعة ضد القوات الرومية النظامية الكبيرة التي لا تستطيع مجاراة المسلمين في حرب الصاعقة الصحراوية، واستطاع عقبة وجنوده أن يطهروا منطقة الشمال الأفريقي من الحاميات الرومية المختلفة ومن جيوب المقاومة البربرية المتناثرة .

تأسيس مدينة القيروان

\* لم يكن عقبة بن نافع قائداً عسكرياً محضاً فقط، بل كان صاحب عقلية مبدعة وفكر استراتيجى فذ وهو يصح أن يطلق عليه خبير بشئون المغرب والشمال الأفريقي، ومن خلال حملاته الجهادية المستمرة على الشمال الأفريقي، أدرك أهمية بناء مدينة إسلامية في هذه البقاع وذلك لعدة أسباب من أهمها :-

١. تثبيت أقدام المسلمين والدعوة الإسلامية هناك وذلك أن عقبة قد لاحظ أمراً هاماً أن أهل الشمال الأفريقي إذا جاءهم المسلمون يظهرون الإسلام وإذا انصرفوا عنهم رجعوا مرة أخرى إلى الكفر، فكان بناء مدينة إسلامية خير علاج لهذه الظاهرة الناجمة عن غياب قاعدة إسلامية ثابتة للإسلام لنشر الهدى والنور وسط ظلمات البربر .
  ٢. ضرورة تكوين قاعدة حربية ثابتة في مواجهة التهديدات الرومية المتوقعة بعد فتح الشمال الأفريقي .
  ٣. أن تكون هذه المدينة دار عزة ومنعة للمسلمين الفاتحين، ذلك لأنهم تفرقوا في البلاد كحاميات على المدن المفتوحة، وهذا التفرق قد يورث الضعف والوهن مع مرور الوقت خاصة لو دهم عدو كبير العدد هذه البلاد.
- لهذه الأسباب وغيرها قرر 'عقبة بن نافع' بناء مدينة القيروان في القرن الشمالى الإفريقية في مكان تتوافر فيه شروط الأمن الدعوى والحركى للمسلمين بحيث تكون دار عزة ومنعة وقاعدة حربية أمامية في القتال ومنارة دعوية علمية لنشر الإسلام، وانطبقت كل

سروط المطلوب توافرها في منطقة أحراش مليئة بالوحوش والحيات، فقال له رجاله [إنك أمرتنا بالبناء في شعاب وغياض لا نرى ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الأرض]، وكان في عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمعهم وقال إني داع فأمنوا، وبالفعل دعا الله عز وجل طويلاً والصحابة والناس يأمنون، ثم قال عقبة مخاطباً سكان الوادي [أيتها الحيات والسباع، نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فارتحلوا عنا فإننا نازلون، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه] فحدثت بعدها كرامة هائلة حيث خرجت السباع من الأحراش تحمل أشبالها والذئب يحمل جروه، والحيات تحمل أولادها، في مشهد لا يرى مثله في التاريخ فنأى عقبة في الناس [كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا] وهكذا يصل الإيمان والثقة بالله عز وجل لهذا المستوى الفائق من اليقين بنصرة الله عز وجل وتأييده ومدده، فهذا هو البطل الجاهد يصل به الإيمان والكرامة لشئ يتكلم مع الحيوانات البهائم التي لا تعقل ولا تفهم، فيطيعونه ويسمعون أوامره، وهكذا يصبح الكون كله ومن فيه مسخراً لخدمة المجاهدين وغايتهم السامية.

\* استمر بناء مدينة القيروان قرابة الخمس سنوات، حتى أصبحت القيروان درة المغرب وشيد 'عقبة' بها جامعاً كبيراً أصبح منارة العلم وقبلة طلاب العلم والشريعة من كل مكان، وملتقى للدعاة والعلماء والمجاهدين، وأصبح جامع القيروان أول جامعة إسلامية على مستوى العالم وذلك قبل الأزهر بعدة قرون

### المجاهد المخلص

\* بعدما إنتهى عقبة بن نافع من بناء القيروان ومسجدها الجامع، جاءه الأمر الخليفة بالتنحي عن ولاية إفريقية، وتولية رجل من جنود عقبة اسمه 'أبو المهاجر دينار' وهو رجل مشهور بالكفاءة وحسن القيادة، فما كان رد فعل القائد المظفر الذي فتح معظم الشمال الأفريقي وحقق بطولات فائقة عندما جاءه خبر العزل؟ هل تمرد؟ هل امتنع أو حتى تذر؟ كلا والله إنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فلا المناصب تبهرهم ولا الدنيا تفتنهم ولا الأحقاد تعرف إلى قلوبهم طريقاً، إنهم خالصين مخلصين لا يريدون إلا وجه الله عز وجل، امثّل عقبة فوراً للأمر وانتظم في سلك الجندية .

\* استطاع أبو المهاجر القائد الجديد أن يحقق عدة مكاسب إستراتيجية في الشمال الأفريقي على حساب التواجد الرومي بهذه المناطق، واستطاع أيضاً، يستميل زعيم قبائل البربر 'كسيلة بن لزم' وكان كسيلة شديد التشير على قومه، قوى الشخصية، محبوباً في قومه، مطاعاً منهم، وكان نصرانياً متمسكاً بدينه وكان نجاح أبي المهاجر في إقناعه بالإسلام مكسباً كبيراً للإسلام والمسلمين، ولكن القائد المنك عقبة صاحب النظرة الثاقبة الخبيرة بطوائف البربر، لم يطمئن لإسلام 'كسيلة' خاصة وأنه قد أسلم بعد وقوعه في أسر المسلمين وبعدها ذاق حر سيوفهم، وقد صدق هذا الخلدس فيما بعد كما سنعلم .

### عودة الأسد

\* لم يمض كثيراً من الوقت حتى عاد الأسد الضاري عقبة بن نافع إلى قيادة الجهاد ببلاد المغرب وانتقل أبو المهاجر في صفوف الجنود مجاهداً مخلصاً، وهكذا نرى خير الأمة ينتقل الواحد منهم من الرئاسة إلى عامة الجند بمنتهى اليسر والسهولة، بلا مشاكل أو اعتراض، وبلا أحقاد وأضغان، وذلك لأن الكل يبتغي مرضات الله ولا يريد شيئاً من عرض الدنيا الزائل .

\* قرر عقبة بن نافع استئناف مسيرة الفتح الإسلامي من حيث انتهى أبو المهاجر، وكانت مدينة 'طنجة' هي آخر محطات الفتح أيام أبي المهاجر، وهنا أشار أبو المهاجر على عقبة ألا يدخل مدينة طنجة لأن 'كسيلة' زعيم البربر قد أسلم/ ولكن عقبة كان يشك في نوايا وصحة إسلام كسيلة، فقرر الانطلاق لمواصلة الجهاد مروراً بطنجة وما حولها، خاصة وأن للروم حاميات كثيرة في المغرب الأوسط .

### الإعصار المدمر

\* انطلق عقبة وجنوده من مدينة القيروان، لا يقف لهم أحد ولا يدافعهم أي جيش، فالجميع يفرون من أمامهم، وكلما اجتمع العدو في مكان، انقض عقبة ورجاله عليهم كالصاعقة المحرقة ففتح مدينة 'باغاية' ثم نزل على مدينة 'تلمسان' وهي من أكبر المدن في

رب الأوسط وبها جيش ضخم من الروم وكفار البربر، وهناك دارت معركة شديدة استبسل فيها الروم والبربر في القتال و... يوماً عصياً على المسلمين، حتى أنزل الله عز وجل نصره على المؤمنين، واضطر الأعداء للتراجع حتى منطقة 'الزاب' \*سأل عقبة عن أعظم مدينة في الزاب فقبل له 'أربة' وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية عامرة، ففتحها عقبة، والروم يفرون من أمامه كالفران المدعورة، ورحل عقبة بعدها إلى مدينة 'ناهرت' فأرسلت الحامية الرومية استغاثة لقبائل البربر الوثنية فانضموا إليهم فقام عقبة في جيشه خطيباً بارعاً بعبارات فائقة تلخص رسالة المجاهد في سبيل الله فقال [أيها الناس إن أشرفكم وخياركم الذين رضى الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه، بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان على قتال من كفر بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرفكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم في دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضا وإعزازاً لدينه، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى، وربكم لا يسلمكم فاقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل قد جعل بأسه على القوم الجرمين ] وبهذه الكلمات الموجزة استثار عقبة حمية رجاله، وأعطى درساً بليغاً للأجيال من بعده عن حقيقة دعوة المجاهد .

\*التقى المسلمون بأعدائهم وقاتلوهم قتالاً شديداً وكانت نتيجته معروفة بعدما وصلت معنويات المسلمين لقمم الجبال، وانتصر المسلمون كما هي عادتهم، وسار عقبة حتى نزل على 'طنجة' فلقبه أحد قادة الروم واسمه 'جوليان' فخضع لعقبة ودخل له الجزية، فسأله عقبة عن مسألة فتح الأندلس فقال له 'جوليان' أترك كفار البربر خلفك وترمى بنفسك في بحوكة الهلاك مع الفرنج ؟ فقال عقبة وأين كفار البربر ؟ فقال في بلاد السوس وهم أهل نجدة وبأس فقال عقبة وما دينهم ؟ قال ليس لهم دين فهم على الجوسية . فتوجه إليهم عقبة كالإعصار الكاسح الذي يدمر كل شيء ياذن الله واخترق هذه البلاد كلها هازماً لكل قبائل البربر حتى وصل بخيله إلى المحيط الأطلسي فخرق عقبة بفرسه ماء المحيط ثم قال بقلب المؤمن الصادق الغيور الذي بذل واستفرغ كل جهده وحياته لخدمة الإسلام [يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك، اللهم اشهد إنى قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد دونك ]

\*\* وبهذه النفوس الصادقة والقلوب المؤمنة والعزائم الفائقة انتشر الإسلام في ربوع الأرض

### استشهاد البطل

حقق عقبة غايته من حركة الفتح الإسلامي بالشمال الإفريقي، فلقد أخضع قبائل البربر وأوقع بها بأساً شديداً حتى وصل إلى أقصى بلاد المغرب واقتحم المحيط بفرسه، وبعدها قرر عقبة العودة إلى القيروان فلما وصل إلى طنجة أذن لمن معه من الصحابة أن يتفرقوا ويقدموا القيروان أفواجا ثقة منه بما نال من عدوه، ومال عقبة مع ثلاثمائة من أصحابه إلى مدينة 'تهوذة' فلما رآه الروم في قلة من أصحابه طمعوا فيه، وأغلقوا باب الصحن وشتموه وهو يدعوهم إلى الإسلام وعندها أظهر 'كسيلة' مكنون صدره الذي كان منطوياً على الكفر والغدر والحسد، واستغل قلة جند عقبة واتفق مع الروم على الغدر بعقبة وأرسل إلى إخوانه البربر الوثنيين وجمع جموعاً كثيرة للهجوم على عقبة ومن معه

\*كان أبو المهاجر في ركب عقبة ولكن عقبة قد غضب منه فقيده، فلما رأى أبو مهاجر هجوم كسيلة ومن معه أنشد أبيات أبي محجن الثقفي المشهورة

كفى حزناً أن ترتدى الخيل بالقنا \*\*\*\* وأترك مشدوداً على وثاقها

إذا قمت عناني الحديد وأغلقت \*\*\*\*\* مصارع دوني قد تصم المناديا

ففك عقبة وثاقه وقال له [الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين وأنا أعنتم الشهادة] فقال أبو المهاجر [وأنا أيضاً أريد الشهادة] وكسر عقبة والمسلمين أجفان سيوفهم واقتتلوا مع البربر حتى استشهد عقبة وكل من معه في أرض الزاب بتهوذة وذلك سنة ٦٣ هجرية .

\*كان عقبة بن نافع رضى الله عنه مثلاً في العبادة والأخلاق والورع والشجاعة والحزم والعقلية العسكرية ارسراتيجية الفذة، والقدرة الفائقة على القيادة بورع وإيمان وتقوى وتوكل تام على الله عز وجل فأحبه رجاله وأحبه أمراء المؤمنين، وكان مستجاب

دعوة، ميمون النقية، مظفر الراية، فلم يهزم في معركة قط، طبق في حروبه أحدث الأساليب العسكرية والجديدة في تكتيكات القتال مثل مبدأ المباغنة وتحشيد القوات وإقامة الحاميات وتأمين خطوط المواصلات واستخدام سلاح الاستطلاع، ونستطيع أن نقول بمنتهى الحيادية أن البطل عقبة بن نافع قد حقق أعمالاً عسكرية باهرة بلغت حد الروعة والكمال وأنجز في وقت قليل ما لا يصدق عقل عند دراسته من الناحية العسكرية البحتة، وترك باستشهاده أثراً كبيراً في نفوس البربر وأصبح من يومها يلقب بسيدى عقبة .  
المصادر

١. تاريخ الرسل والملوك. ٢. الكامل في التاريخ. ٣. البداية والنهاية. ٤. سير أعلام النبلاء. ٥. تاريخ الخلفاء.
٦. أطلس تاريخ الإسلام. ٧. قادة فتح بلاد المغرب العربي. ٨. فتوح البلدان.

## طارق بن زياد

يا خيول (طارق) جاوزي الموانع والسدود، وتخطي البحار والأنهار، لا تتراجعني ولا تترددني، ستصمت أصوات الأجراس، وترتفع أصوات المآذن، ليذكر اسم الله في أرض كان يسودها الظلم والطغيان، وتسود مبادئ العدل والحق والحرية، فانطلقني على بركة الله!! ولد (طارق بن زياد) وفتح عينيه على الحياة ليجد المسلمين يجاهدون في سبيل الله، ويضحون بأموالهم وأنفسهم لنصرة دينه، وينتقلون من نصر إلى نصر، وأصبح الطفل الصغير شاباً فتياً، فوهب نفسه لخدمة الإسلام، ولم يتردد لحظة في القيام بأي عمل من شأنه أن يرفع رايته، وتدرج في المناصب حتى أصبح أميراً لمدينة (طنجة) وقائداً لجيوش المسلمين، وعامة جنوده كانوا من البربر الذين تميزوا بالشجاعة والإقدام. كان (طارق بن زياد) يحلم بذلك اليوم الذي ينتشر فيه الإسلام في كل أرجاء الدنيا، ويتمنى بينه وبين نفسه أن يشارك في تحقيق هذا الأمر العظيم، وجاءت الفرصة، فقد علم (موسى بن نصير) والي إفريقية بضعف الأندلس وملوكها، فأرسل إلى الخليفة الأموي (الوليد بن عبد الملك) يستأذنه في فتحها، فأذن له الخليفة بشرط ألا يعرض المسلمين للهلاك دون فائدة، وأن يحترس من أعدائه، فرح (موسى بن نصير) فرحاً شديداً وجهاز الجيش، ولم يجد خيراً من (طارق بن زياد) لقيادته. وبمجرد أن تولى طارق بن زياد أمور القيادة أرسل بعض الجواسيس لمعرفة أخبار هذه البلاد، فعادوا ليخبروه بضعفها وتنازع أمرائها على السلطة، وأعد (طارق) الخطة لفتح الأندلس وبعد أن اطمأن على الإعداد الجيد لجيشه، عبر بجنوده البحر حتى وصلوا إلى الشاطئ، وانطلق طارق كالحصان الجامح يفتح هذه البلاد، يساعده في ذلك بعض الثائرين على الملك (ردريك) ملك القوط، ولما علم هذا الملك بتزول العرب المسلمين إلى الأندلس - وكان مشغولاً بثورة قامت ضده - جمع أعداداً هائلة من الجنود استعداداً لملاقاة المسلمين. ولما رأى طارق هذه الأعداد الكبيرة، طلب الإمداد من موسى بن نصير والي إفريقية فأرسل إليه اثني عشر ألفاً من الجنود، والتقي الجيشان؛ جيش طارق بن زياد، وجيش ردريك في معركة حامية عرفت باسم (وادي البرباط) أو معركة (شدونة) استطاع طارق أن ينتصر عليهم، ويقتل ملكهم ردريك بعد أن استمرت المعركة من ٢٨ رمضان إلى ٥ شوال سنة ٩٢ هـ. وسعد المسلمون بهذا النصر العظيم، وتوافدوا إلى بلاد الأندلس التي سمعوا عن اعتدال جوها، وخيراتها التي لا تعد ولا تحصى، ولم يكتف القائد العظيم طارق بن زياد بهذا الانتصار العظيم، بل واصل فتوحاته حتى استطاع في صيف هذه السنة (٩٢ هـ) أن يفتح أكثر من نصف الأندلس. وتلقى طارق أوامر من موسى بن نصير بالتوقف عن الفتح خشية محاصرة جيوش الأعداء لهم، وقطع الإمداد عنهم، وحتى لا يكونوا صيداً سهلاً في أيديهم، وبعدها جهز (موسى بن نصير) جيشاً كبيراً عبر به إلى الأندلس؛ ففتح مدينة (إشبيلية) التي كانت خلف ظهر المسلمين، والتقى بقائد جيشه (طارق بن زياد) عند مدينة (طليطلة) وانطلق الاثنان لفتح باقي مدن الأندلس. وظل جيش المسلمين يحقق الانتصارات وينتقل من فتح إلى فتح، حتى وصلت رسالة إلى القائدين موسى، وطارق من خليفة المسلمين (الوليد بن عبد الملك) تأمرهما بالعودة إلى دمشق، خوفاً من انتشار جيش المسلمين في مناطق مجهولة وغير آمنة، وصل القائدان المنتصران إلى دمشق قبل وفاة (الوليد بن عبد الملك) بأربعين يوماً في موكب مهيب، أمامهما الأسرى والغنائم، والجنود يرفعون شارات النصر، وظل طارق على



يهد مخلصاً لدين الله حتى لقي ربه بعد أن كتب اسمه في صفحات التاريخ بحروف من نور.

## موسى بن نصير

(وإيم الله لا أريد هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها، ويذل أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها، أو يحكم الله لي، وهو خير الحاكمين).. ما أروع كلامك أيها القائد العظيم. في خلافة (عمر بن الخطاب) -رضي الله عنه- ولد (موسى بن نصير) سنة ١٩هـ / ٦٤٠م في قرية من قرى الخليل في شمال فلسطين تسمى (كفر متری) فتعلم الكتابة، وحفظ القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، ونظم الشعر، ولما كان والده (نصير) قائداً لحرس معاوية بن أبي سفيان ومن كبار معاونيه؛ تهيأت الفرصة لـ(موسى) لأن يكون قريباً من كبار قادة الفتح، وأصحاب الرأي والسياسة، ويرى عن قرب ما يحدث في دار الخلافة .

وشب موسى وهو يشاهد جيوش المسلمين تجاهد في سبيل الله، لنشر الدين الإسلامي في ربوع الأرض، ورأى والده وهو يستعد لإحدى الحروب، وقد لبس خوذته، وتقلد سيفه، فنظر إليه وأطال النظر، وتمنى أن يكون مثل أبيه يجاهد في سبيل الله ويرفع راية الإسلام، وجاءت اللحظة الموعودة لينال موسى قيادة بعض الحملات البحرية التي وجهها معاوية لإعادة غزو (قبرص) التي سبق أن فتحها معاوية في سنة ٢٧هـ؛ فنجح في غزوها، وبنى هناك حصوناً، ثم تولى إدارتها، وفي سنة ٥٣هـ (٦٧٣م)، كان موسى أحد القادة الذين خرجوا لغزو جزيرة (رودس) التي انتصر المسلمون فيها. وتمر الأيام والسنون ويتولى مروان بن الحكم الخلافة، ويتحين موسى بن نصير الفرصة ليحقق أحلامه وطموحاته، ففي سنة ٦٥هـ / ٦٨٤م أمر مروان بتجهيز الجيش للسير به نحو مصر، وزحف الجند مسرعين بقيادة ابنه (عبد العزيز) وصديقه (موسى بن نصير) ووصل الجيش إلى مصر، واستطاع مروان أن يضمها تحت لواء المروانيين الأمويين، ثم غادرها إلى دمشق بعد أن عين ابنه (عبد العزيز) والياً، وجعل موسى بن نصير وزيراً له. وعاش موسى مع عبد العزيز بن مروان في مصر، فكان موضع سره، ووزيره الأول، يساعده في حكم مصر، حتى ازدادت خبرة موسى في شئون السياسة والحكم، ومات مروان، وتولى الخلافة بدلاً منه ابنه (عبد الملك) وكان عبد العزيز بن مروان يشيد بشجاعة موسى وإخلاصه أمام الخليفة مما جعله يخص موسى بالحفاوة والتكريم. وفي يوم من الأيام حمل البريد رسالة من الخليفة إلى أخيه عبد العزيز والي مصر يخبره فيها بأنه قد عين أخاه بشر بن مروان والياً على البصرة، وجعل موسى بن نصير وزيراً يساعده على إدارة الولاية ورئيساً لديوان العراق، ومكن الله لموسى، وثبت أركان وزارته، فلم يمض وقت طويل، حتى عين الخليفة أخاه بشراً على الكوفة، وبذلك ترك لموسى بن نصير ولاية البصرة ليدير شئونها وحده بوعي وبصيرة، ثم عينه صديقه عبد العزيز بن مروان والياً على شمال إفريقية بدلاً من حسان بن النعمان الذي غضب عليه عبد العزيز. وتمكن موسى في زمن قصير من تجهيز جيش إسلامي قوي قادر على النصر، وسار برجاله، ووقف بينهم خطيباً، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: إنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة فليحمد الله، وليحضر على مثلها، ومن رأى مني سيئة فليذكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون.. ثم انطلق موسى بجيشه نحو المغرب حيث ترعزع الأمن هناك برحيل الأمير السابق حسان بن النعمان وقيام البربر بالعديد من الغارات على المسلمين. واستطاع موسى أن يهزم قبائل البربر التي خرجت عن طاعة المسلمين، ولما وصل إلى مدينة القيروان، صلى بالجند صلاة شكر لله على النصر، ثم صعد المنبر وخطب قائلاً: (وإيم الله لا أريد هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها، ويذل أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين) وانتشرت جيوش (موسى بن نصير) في شرق المغرب وشماله فتفتح كل ما يصادفها من الحصون المنيعه، حتى أخضع القبائل التي لم تكن قد خضعت بعد للمسلمين. وتطلع موسى إلى فتح (طنجة) التي كانت تحت سيادة الأمير الرومي (بوليان) فانطلق من قاعدته في القيروان بجيش كبير تحت قيادة طارق بن زياد حتى وصل إلى (طنجة) فحاصرها حصاراً طويلاً وشديداً حتى فتحها، وأقام للمسلمين مئداً جديدة فيها، وأسلم أهلها، وبعث موسى لصديقه عبد العزيز يشره بالفتح، وأن خمس الغنائم قد بلغ ثلاثين ألفاً، وجاءت الرسل إلى الخليفة في دمشق تزفُّ إليه خبر النصر، وفرح فرحاً شديداً لانتصارات موسى، وكافأه على انتصاراته، ولم يكتفِ موسى بهذه الانتصارات، بل أخذ يجهز أسطولاً بحرياً، وأمر في الحال ببناء ترسانة بحرية في تونس، فجاء بصانعي المراكب، وأمرهم بإقامة مائة مركب. وبعد أن تمَّ له إنشاء السفن أمر جنوده بأن يركبوا السفن وعلى رأسهم ابنه عبد



، ثم أمره بفتح جزيرة (صقلية) وسار عبد الله بن موسى بجند الحق حتى وصل إلى الجزيرة فدخلها، وأخذ منها غنائم كثيرة، وصل نصيب الجندي مائة دينار من الذهب، وكان عدد الجنود المسلمين ما بين التسعمائة إلى الألف، ثم عاد عبد الله بن موسى من غزواته سالمًا غانمًا، وبعث موسى قائده (عياش بن أخيل) على مراكب أهل إفريقية، ففتح جزيرة صقلية للمرة الثانية، واستولى على مدينة من مدنها تسمى (سرقوسة) وعاد منتصرًا. وفي سنة ٨٩هـ بعث موسى بن نصير (عبد الله بن فرة) لغزو (سردينيا) ففتحها، وفي العام نفسه، جهز موسى ولده عبد الله، بما يحتاجه من جند وعتاد، ثم سار في البحر، ففتح جزيرتي (ميورقة) و(منورقة) وهما جزيرتان في البحر بين صقلية والشاطئ الأندلسي.

وبدأ موسى بن نصير ينشر دين الله في المدن المفتوحة، ونجح في ذلك نجاحًا كبيرًا، وحكم بين أهل هذه البلاد بالعدل، لا يفرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، فأحبوا الإسلام، واستجابوا لدعوة الحق، ودخلوا في دين الله أفواجًا، وتحولوا من الشرك والكفر إلى الإسلام والتوحيد بفضل الله أولاً، ثم بجهود موسى وبطولاته. ولما ضمن موسى ولاء أهل المغرب واستمساكهم بدعوة الإسلام، أخذ يعد العدة لغزو جديد، وبينما هو يفكر في هذا الأمر إذ جاءه رسول من قبل طارق بن زياد يخبره بأن يوليان حاكم (سبته) عرض عليه أن يتقدم لغزو أسبانيا، وأنه على استعداد لمعاونة العرب في ذلك، وتقديم السفن اللازمة لنقل الجنود المسلمين، وبعث موسى إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستشير، فردَّ عليه الخليفة بقوله: (خضها أولاً بالسرايا يعني بقلعة من الجنود حتى ترى وتختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال). فأرسل موسى رجلاً من البربر يسمى (طريف بن مالك) في مائة فارس وأربعمائة رجل، وركب هو وجنوده البحر في أربعة مراكب حتى نزل ساحل الأندلس فأصاب سبيًا كثيرًا ومالاً وفيرًا، ثم رجع إلى المغرب غانمًا سالمًا، وفي شهر رجب من عام ٩٢هـ جهز موسى جيشًا خليطًا من العرب والبربر تعداده سبعة آلاف جندي بقيادة طارق بن زياد، وانطلق طارق بالجيش إلى أن وصل سبته، وهناك خطط لعبور المضيق، وفي اليوم الخامس من شهر رجب سنة ٩٢هـ (إبريل ٧١٠م) وبفضل الله كانت آخر دفعة من الجنود بقيادة طارق تعبر المضيق الذي حمل اسم طارق بن زياد منذ ذلك الوقت. ونزل طارق -قائد جيش موسى بن نصير- أرض الأندلس، وبعد عدة معارك فتح الجزيرة الخضراء، وعلم الإمبراطور (لذريق) بتزول المسلمين في أسبانيا من (بتشو) حاكم إحدى المقاطعات الجنوبية الذي بعث إليه يقول: أيها الملك، إنه قد نزل بأرضنا قوم لا ندري أمن السماء أم من الأرض، فالنجدة.. النجدة، والعودة على عجل. وزحف لذريق بجيش كبير ليووقف المسلمين عن الزحف، فأرسل طارق إلى موسى مستنجدًا، فأمدّه بخمسة آلاف من المسلمين على رأسهم طريف بن مالك وأكثرهم من الفرسان فأصبح تعداد جيش المسلمين اثني عشر ألفًا، وكان اللقاء الحاسم بين جيش المسلمين بقيادة طارق بن زياد، وجيش لإمبراطور لذريق يوم الأحد ٢٨ من شهر رمضان المبارك عام ٩٢هـ، واستمرت المعركة حوالي سبعة أيام، انتهت بانتصار المسلمين بفضل الله في معركة عرفت باسم معركة (شدونة) أو معركة (وادي البرباط). واصل طارق بن زياد فتوحاته في الأندلس، وخشي موسى بن نصير من توغله في أراضيها، فعبر إليه على رأس حملة كبيرة وأخذ القائدان يتمان فتح ما بقي من مدن الأندلس، وظل موسى يجاهد في سبيل الله حتى أصبحت الأندلس في قبضة المسلمين، وبعد أن انتهى موسى من فتوحاته ألحَّ عليه (مغيث الرومي) رسول الخليفة بالعودة إلى دار الخلافة في دمشق، فاستجاب له موسى، وبدأ يستعد لمغادرة الأندلس، وواصل موسى السير، حتى وصل إلى دمشق فاستقبله الوليد وأحسن استقباله، وتحامل على نفسه -وهو مريض- وجلس على المنبر لمشاهدة الغنائم وموكب الأسرى، فدهش الخليفة لما رأى وسجد لله شكرًا، ثم دعا موسى بن نصير وصبَّ عليه من العطر ثلاث مرات، وأنعم عليه بالجوائز. ولم يمضِ أربعون يومًا على ذلك حتى مات الوليد بن عبد الملك، وتولى الخلافة أخوه سليمان بن عبد الملك ومن يومها بدأت متاعب موسى بن نصير، فقد أراد سليمان أن يعاقب موسى بن نصير لخلاف بينهما فأمر به أن يظل واقفًا في حرِّ الشمس المتوهجة، وكان قد بلغ الثمانين من عمره، فلما أصابه حر الشمس وأتعبه الوقوف سقط مغشيًا عليه، وبعدها اندفع موسى يقول في شجاعة مخلوطة بالأسى للخليفة سليمان بن عبد الملك: (أما والله يا أمير المؤمنين ما هذا بلائي ولا قدر جزائي). وعاش موسى في دمشق وهو راض عما نزل به من قضاء الله، وندم سليمان على ما فعله في حق موسى، وكان يقول: ما ندمت على شيء ندمي على ما فعلته بموسى، وأراد سليمان أن

متر عن ذنبه، فاصطحب موسى بن نصير معه إلى الحج في سنة ٩٩هـ، لكنه لفظ أنفاسه الأخيرة في أثناء الرحلة، وفرح شيخ المجاهدين ببقاء ربه بعدما قضى أعواماً رفع فيها راية الجهاد.. فسلاماً عليك يا شيخ المجاهدين.

## أسد بن الفرات

في (حرّان) من ديار بكر، ولد أبو عبد الله الحراني، أسد بن الفرات سنة ١٤٤هـ / ٧٦١م، ثم قدم القيروان وهو ابن سنتين مع أبيه الذي كان من أعيان الجند في جيش (محمد بن الأشعث الخزاعي) والي إفريقية من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور. تلقى (أسد) دراسته الأولى بالقيروان، ثم رحل مع أبيه إلى تونس فأقام بها تسع سنين لزم خلالها الفقيه المعروف (علي بن زياد) وتعلم منه وتفقه عليه، ولم يكتف بذلك، بل أراد أن يستزيد من العلم فقرر الرحيل إلى المدينة المنورة سنة ١٧٢هـ / ٧٨٨م، لينهل من علم الإمام مالك عدة سنين تعلم فيها الكثير، وبعدها قرر الرحيل إلى العراق، فدخل على الإمام مالك مودعاً وشاكراً، وسأله أن يوصيه، فقال له: (أوصيك بتقوى الله، والقرآن، والنصيحة للناس). ورحل (أسد) إلى العراق حيث الإمام محمد بن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة، فلزمه، فكان يحضر دروسه العامة، ثم أحب أن يكون له درس خاص يغرف فيه ما استطاع من علم الإمام محمد ليحمله إلى بلاده، فأخذه الإمام محمد إلى بيته، وأعطاه غرفة كان يسهر معه فيها الليل كله، ويضع أمام التلميذ قدح ماء، فإذا نعس نضح وجهه ليصحو، فكان (أسد) أول من جمع بين مذهب الإمام مالك ومذهب أبي حنيفة، ولم يكتفِ أسد بن الفرات بذلك العلم، بل رحل إلى مصر حيث يوجد بها عالمان من تلاميذ الإمام مالك هما (أشهب بن عبد العزيز) و(ابن القاسم) وهناك جمع ما أخذه من ابن القاسم من مسائل، وأفاض عليها من ذهنه وجعلها في رسالة مدونة سُميت بـ (الأسديّة).

ثم قدم ابن الفرات إلى (القيروان) عاصمة المغرب سنة ١٨١هـ بعد غيبة امتدت نحو عشرين سنة صام نهارها وأحيا ليلها بالعلم والدرس فيها، ولم ينفق لحظة في راحة ولا لعب، ولم يصحب فيها إلا الأئمة والعلماء، حتى قارب الخمسين، فجلس للتدريس والإفتاء، وكان من تلاميذه (سحنون بن سعيد) و(معمّر بن منصور) و(سليمان بن عمر) ثم تقلد القضاء مع (أبي محرز) فكان أبو محرز فيه ليئاً، وأما أسد فكان شديداً في الحق، و متمكناً من علمي الحديث والفقه.

وكان مع توسعه في علمه فارساً شجاعاً مقداماً، فقد طلب أسد بن الفرات أن يكون مع المجاهدين في الحرب ضد الروم في جزيرة صقلية فأبى الأمير خوفاً عليه، فألح أسد في طلبه وقال: (وجدتم من يسير لكم المراكب من النوتية (الملاحين) وما أحوجكم إلى من يسيرها لكم بالكتاب والسنة).

وكان يريد أن يكون جندياً متطوعاً لا يريد الإمارة، فلما أعطيتها تألم وقال للأمير: أَبْعَدَ القضاء والنظر في الحلال والحرام تعزلي وتولياني الإمارة؟! فقال: ما عزلتك عن القضاء، ولكن أضفت إليك الإمارة فأنت قاضٍ وأمير، وكان أول من جمع له المنصبان، واجتمع الناس لوداع الجيش والأمير أسد بن الفرات، فقال أسد للناس في وداعهم: (والله يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا جد ولاية قط، وما رأى أحد من أسلافي مثل هذا قط، وما بلغته إلا بالعلم، فعليكم بالعلم، أتعبوا فيه أذهانكم، وكدوا به أجسادكم تبلغوا به الدنيا والآخرة). وزحف الجيش إلى جزيرة صقلية سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م، وخرج لهم صاحب صقلية في مائة ألف وخمسين ألفاً، قال رجل: رأيت أسداً وبيده اللواء يقرأ سورة (يس) ثم حمل بالجيش حملة عنيفة على صاحب صقلية، حتى سقط أسد بن الفرات شهيداً سنة ٢١٣هـ / ٨٢٨م، وهو يحمل راية النصر ولم يعرف له قبر.

## يوسف بن تاشفين

في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، في أقصى بلاد المغرب العربي، التفت جماعة من الناس حول عالم فقيه يدعى (عبد الله بن ياسين) وكان هدفهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر تعاليم الإسلام، أطلق عليهم المثلثون لأنهم كانوا يتلثمون ولا يكشفون وجوههم، وهي عادة لهم كانوا يتوراثونها جيلاً بعد جيل، وحين قتل عبد الله بن ياسين سنة ٤٦١هـ / ١٠٦٨م في حرب جرت مع (برغواطة) قام مقامه أبو بكر بن عمر الذي عين ابن عمه يوسف بن تاشفين أميراً على المثلثين، لانشغاله بقتال عبدة

صنام في جنوب المغرب، والقضاء على فتنهم.

وكان يوسف بن تاشفين يتمتع بصفات جعلته محبوباً؛ فهو شهيم، حازم، شجاع علاوة على قدرته على القيادة والزعامة، ومهابة الناس له، مما جعل الناس تلتف حوله، وتساعدته في العمليات العسكرية، ونشر تعاليم الإسلام في المغرب الأقصى، وبناء دولة المرابطين، ولما عاد أبو بكر بن عمر بعد قضائه على الفتنة وجد يوسف بن تاشفين يتمتع بمكانة عالية بين جنده ورعيته، فتنزل له رسمياً عن السلطة وخلع نفسه وأقام مكانه ابن عمه يوسف. اتخذ ابن تاشفين مدينة (مراكش) التي أنشأها عاصمة للملكة سنة ٤٦٥هـ لتكون نقطة الانطلاق لتوحيد وتجميع قبائل المغرب الأقصى تحت سيطرته، وبناء دولة قوية، كما أنشأ أسطولاً بحرياً، ساعده على ضم المناطق المطلة على مضيق جبل طارق مما سهل ضم المغرب الأوسط، وأقام ابن تاشفين علاقات سياسية مع جيرانه من أمراء المغرب والمشرق، كما أحاط نفسه بمجموعة من الأتباع ينظمون أمور الدولة، فأعطى دولته طابع الملك.

وفي ذلك الوقت كانت الأندلس تعاني من التفكك تحت حكم ملوك الطوائف الذين كانوا يواجهون خطر غزوات المسيحيين، وسيطرة ملوكهم وتعسفهم في مطالبة الولاة المسلمين بما لا طاقة لهم به، وكان يوسف يفكر في حال المسلمين في بلاد الأندلس وما يفعله النصارى بهم ويتجه إلى الله تعالى مستخيراً إياه يتلمس منه النصر، وكان إذا أجبر على الكلام قال: أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر إلا أنا.

واستنجد أمراء الأندلس بابن تاشفين لينقذهم من النصارى وكان على رأس من استنجد به (المعتمد بن عباد) أمير إشبيلية، فأعد ابن تاشفين جيشه وقبل أن يعبر البحر نحو الأندلس بسط يديه بالدعاء نحو السماء قائلاً: اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا أي (اجتياز البحر) هذا خيراً للمسلمين، فسهل علينا جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه. والتقي بجيش النصارى بقيادة ألفونسو السادس في موقعة (الزلاقة)

سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م وانتصر جيش ابن تاشفين انتصاراً هائلاً، وبعدها وحّد المغرب والأندلس تحت قيادته الخاصة، ورأى شيوخ المرابطين ما يقوم به يوسف من أعمال عظيمة فاجتمعوا عليه وقالوا له: أنت خليفة الله في المغرب وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير، بل ندعوك بأمير المؤمنين، فقال لهم: حاشا لله أن أتسمى بهذا الاسم، إنما يتسمى به الخلفاء، وأنا رجل الخليفة العباسي، والقائم بدعوته في بلاد المغرب، فقالوا له: لا بد من اسم تمتاز به، فقال لهم: يكون (أمير المسلمين).

وبعد انتهاء موقعة الزلاقة بايعه من شهداها معه من ملوك الأندلس وأمرائها أميراً على المسلمين، وكانوا ثلاثة عشر ملكاً، واستطاع يوسف بن تاشفين أن يوقف زحف جيوش النصارى، وأن يعيد ما استولوا عليه من الأندلس، وقد امتدت دولته فشملت الأندلس والمغرب الأقصى، وازدهرت البلاد في عصره، وضرب السكة (أي العملة) ونقش ديناره: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتحت ذلك: أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وكتب في الدائرة: (ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) وكتب على الوجه الآخر من الدينار: الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسي، وفي الدائرة تاريخ ضرب الدينار وموضع سكه. وكان ابن تاشفين كثير العفو، مقرباً للعلماء، وكان إذا وعظه أحدهم خضع عند استماع الموعظة، ولأن قلبه لها، وظهر ذلك عليه، ولما بلغ الإمام أبا حامد الغزالي ما عليه ابن تاشفين من الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم، عزم على التوجه إليه فوصل الإسكندرية، وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه، وعندما وصله خبر وفاة ابن تاشفين رجع عن ذلك العزم، ففي سنة ٤٩٨هـ أصيب يوسف بن تاشفين بمرض أدى إلى وفاته ودفن في مدينة مراكش. وقال عنه المستشرق يوسف أشباخ: (يوسف.. أحد أولئك الرجال الأفاض الذين يلوح أن القدر قد اصطفاهم لتغيير وجهة سير الحوادث في التاريخ، فقد بثَّ بما استحدث من نظم وأساليب روحاً قوية في القبائل والشعوب التي يحكمها، وقد فاضت هذه الروح إلى تحقيق العجائب).. رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم للإسلام والمسلمين.

## أمير المجاهدين قتيبة بن مسلم فاتح الصين الأعظم

سحر الشخصية الجهادية

هو البطل المغوار والقائد العظيم ميمون النقيبة وكبير مجاهدى الدولة الأموية بلا منازع وناشر الإسلام فى أقصى ربيع الأرض ناحية الشرق وصاحب الراية التى لا تتجاوز آى فاتح بعده مكانها، ومدخل الإسلام إلى بلاد الصين، صاحب الشخصية الجهادية الساحرة التى بهرت كل من رآه، وأسرت نفس كل من سمع أخباره، من أسلم على يديه الآلاف من الكفرة حباً فيه وفى جهاده وشجاعته الذى انتصر على كل أعدائه، وحطم معابد الشرك والأوثان، ولم يفر أو يهزم فى معركة قط، صاحب الراية المباركة على الإسلام والمسلمين الأمير أبو حفص 'قتيبة بن مسلم بن عمر بن حصين بن ربيعة الباهلى' الذى أثبت بكل قوة ويقين كيف يكون الإنسان عصامياً وليس عظامياً، وأن وضاعة الأصل لا تؤثر بحال على صاحبها طالما كان صاحب همة وعزيمة وإيمان راسخ، ذلك لأن قبيلة 'باهلة' التى ينتمى إليها بطلنا العظيم، كانت من القبائل المرزولة والوضيعة عند العرب قبل الإسلام، يدلنا على ذلك الحديث الصحيح عندما سأل الأشعث بن قيس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال 'يا رسول الله أتتكافأ دماؤنا؟ قال نعم، لو قتلنا رجلاً من باهلة لقتلناك' والرسول صلى الله عليه وسلم لا يهزأ أو يصخر من باهلة بهذا الحديث ولكن يضرب له المثل بأقرب المعانى والأفكار المتبادرة عن الشرف والوضاعة، فالإسلام جاء فألقى كل هذه الأوهام والعصبية القبلية المقيتة وجعل ميزان التفاضل بين الخلق التقى والعمل الصالح لا الأهل أو النسب، وبفضل الله ورسوله ودينه ظهرت أمثال شخصية هذا العملاق الجهادى، الذى لولا الإسلام لم يكن له ذكر ولا ظهور ولا أثر ولد قتيبة بن مسلم سنة ٤٨ هجرية بأرض العراق، وكان أبوه 'مسلم بن عمرو' من أصحاب 'مصعب بن الزبير' والى العراق من قبل أخيه أمير المؤمنين 'عبد الله بن الزبير'، وقتل معه فى حربه ضد 'عبد الملك بن كروان' سنة ٧٢ هجرية، وقد نشأ 'قتيبة' على ظهور الخيل رقيقاً لل سيف والرمح، محباً للجهاد، وكانت منطقة العراق مشهورة بكثرة الفتن والثورات، لذلك عمل كل ولاية العراق على شغل أهلها بالجهاد فى سبيل الله لاستغلال طاقاتهم الثورية فى خدمة الإسلام ونشر الدعوة، لذلك كانت أرض العراق هى قاعدة الانطلاق للحملات الجهادية على الجبهة الشرقية للدولة الإسلامية، وقد اشترك 'قتيبة' فى هذه الحملات منذ شبابه المبكر، وأبدى شجاعة فائقة وموهبة قيادية فذة، لفتت إليه الأنظار خاصة من القائد العظيم 'المهلب بن أبى صفرة' وكان خبيراً فى معرفة الأبطال ومعادن الرجال ففرس فيه أنه سيكون من أعظم أبطال الإسلام، فأوصى به لوالى العراق الشهير 'الحجاج بن يوسف الثقفى' الذى كان يحب الأبطال والشجعان، فانتدبه لبعض المهام ليختبره بما ويعلم مدى صحة ترشيح 'المهلب' له، وهل سيصلح للمهمة العظيمة التى سيؤهلها إليها بعد ذلك أم لا؟

### رحلة المجد الجهادى

بدأت رحلة المجد الجهادى لهذا القائد الفذ منذ ٨٦ هجرية، وذلك عندما ولاه 'الحجاج بن يوسف الثقفى' ولاية 'خراسان' وهو إقليم شاسع مترامى الأطراف، لم يكن المسلمون قد واصلوا الفتح بعده، وكان 'المهلب بن أبى صفرة' والياً على خراسان من عام ٧٨ حتى ٨٦ هجرية، وقد رأى 'الحجاج' أن يدفع بدماء شابة جديدة فى قيادة المجاهدين هناك، فلم يجد أفضل من 'قتيبة بن مسلم' لهذه المهمة .

سار 'قتيبة بن مسلم' على نفس الخطة التى سار عليها آل المهلب، وهى خطة الضربات السريعة القوية المتلاحقة على الأعداء، فلا يترك لهم وقت للتجمع أو التخطيط لرد الهجوم على المسلمين، ولكنه امتاز عن آل المهلب بأنه كان يضع لكل حملة خطة ثابتة لها هدف ووجهة محددة، ثم يوجه كل قوته للوصول إلى هدفه، غير عابىء بالمصاعب أو الأهوال التى ستواجهه، معتمداً على بسالته النادرة وروح القيادة التى امتاز بها وإيمانه العميق بالإسلام .

### استراتيجية الفتح الإسلامى

من ضمن الأباطيل التى يروجها المستشرقون على سيرة الجهاد الإسلامى فى الصدر الأول هو عدم وجود استراتيجية واضحة للفتوحات الإسلامية، يقول المستشرق 'أنتونى نتنج' وهو يجزم بباطله [ والحملات بعيدة جداً على أن تكون نتيجة لتدبير مقصود هادىء، إذ يبدو أنها بدأت كغارات قصد منها أن توجد مخارج جديدة للروح الحربية التى كانت تسود القبائل، والتى خطر عليها أن تشتبك فى معارك أخوية ] وهذه شبهة واهية وباطل يرده أحداث التاريخ، ووقائع الفتوحات الإسلامية، وما قام به الأمير 'قتيبة بن مسلم' من تقسيم حملاته الجهادية خير دليل على بطلان هذه الآراء والشبهات .



م 'قتيبة بن مسلم' بتقسيم أعماله لأربع مراحل، حقق في كل واحدة منها فتح ناحية واسعة فتحاً نهائياً ثبت فيه أقدام المسلمين

للأبد :- وهي كالآتي :-

المرحلة الأولى --> قام فيها 'قتيبة' بحملته على 'طخارستان السفلى' فاستعادها وثبت أقدام المسلمين وذلك سنة ٨٦ هجرية، وطخارستان السفلى هي الآن جزء من أفغانستان وباكستان .

المرحلة الثانية --> قاد فيها حملته الكبرى على بخارى فيما بين سنتي ٨٧ - ٩٠ هجرية وخلالها أتم فتح بخارى وما حولها من القرى والحصون، وكانت أهم مدن بلاد ما وراء النهر وأكثفها سكاناً وأمنعها حصوناً .

المرحلة الثالثة --> وقد استمرت من سنة ٩١ - ٩٣ هجرية، وفيها تمكن 'قتيبة' من نشر الإسلام وتثبيته في وادي نهر جيحون كله، وأتم فتح إقليم 'سجستان' في إيران الآن، وإقليم خوارزم 'يوجد الآن بين دول إيران وباكستان وأفغانستان'، ووصلت فتوحاته إلى مدينة 'سمرقند' في قلب آسيا وضمها إلى دولة الإسلام نهائياً .

المرحلة الرابعة --> وامتدت من سنة ٩٤ - ٩٦ هجرية، وفيها أتم 'قتيبة' فتح حوض نهر سيحون بما فيه من مدن، ثم دخل أرض الصين وأوغل فيها ووصل مدينة 'كاشغر' وجعلها قاعدة إسلامية وكان هذا آخر ما وصلت إليه جيوش الإسلام في آسيا شرقاً ولم يصل أحد من المسلمين أبعد من ذلك قط .

### الأمير 'قتيبة' وقبائل الأتراك

عندما قام المسلمون الأوائل بحركة الفتح الإسلامي في شرق المعمورة كان هناك نوعان من الأجناس البشرية، القبائل الساسانية أو الفارسية والقبائل التركية، وكان نهر 'المرغاب' هو الحد الفاصل بين هؤلاء وهؤلاء، وقد تم إدخال القبائل الفارسية في الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، أما القبائل التركية فقد كانت أكبر عدداً وأوسع انتشاراً منهم الأتراك الغزية والأتراك القراخطاي والأتراك القوقازيين والأتراك الأيجور والأتراك البلغار والأتراك المغول .

ونستطيع أن نقول أن الأمير 'قتيبة بن مسلم' هو صاحب الفضل الأول بعد الله عز وجل في إدخال الأتراك شرقي نهر المرغاب وفي بلاد ما وراء النهر في الإسلام، فقد سحرت شخصيته الجهادية الأتراك فدخلوا في دين الله أفواجاً حباً في بطولات وشجاعة هذا البطل الجسور الذي رأى فيه الأتراك الرمز الحقيقي للفضيلة والشجاعة والرجولة، ومعاني الإسلام النقية المتجسدة في شخصه، وكان دخول هؤلاء في دين الإسلام من أكبر الفتوحات والانتصارات التي حققها المسلمون وكان لهم أعظم الأدوار في نشر الدعوة في قارة آسيا كلها، فكان من قبائل الأتراك الغزية مثلاً السلاجقة العظام والعثمانيون الأبطال والأوزبك الشجعان والماليك قادة العالم وهؤلاء أدوا خدمات جليلة لا تنسى في خدمة الإسلام، ومن الأتراك القوقازيين ظهر أبطال داغستان والشيشان، ومن الأتراك الهياطلة ظهر الغزنويون والغوريون فاتحو الهند الكبار وهكذا كان ذلك كله على يد من ألقى البذرة الأولى 'قتيبة بن مسلم' .

### خصال الأسد الجسور

لقد كانت شخصية 'قتيبة بن مسلم' مثلاً حياً وتجسيدا حقيقياً لقيم الإسلام وتعاليمه، وجمع من الصفات والخصال التي رشحته لأن يكون عملاق الجهاد الإسلامي في هذه الفترة من الزمان حتى أن مجرد ذكر اسمه كان يلقي الرعب في قلوب أعدائه، والطاعة الكاملة والمهابة الشديدة في نفوس أتباعه، ومواقفة البطولية، وأيام جهاده خير دليل على ذلك .

أولاً: غيرته على الإسلام والمسلمين

عندما فتح 'قتيبة' مدينة 'بيكند' وكانت تابعة 'لبخارى'، صالحه أهل المدينة فجعل عليهم والياً من المسلمين وترك بها مجموعة من المسلمين لتعليم الناس الإسلام، فلما رحل عنهم نقضوا العهد وقتلوا والي المسلم وجدعوا أنوف من كان بالمدينة من المسلمين ومثلوا بجثثهم، فلما وصلت الأخبار إلى قتيبة وكان محاصراً لمدينة أخرى، ترك حصارها وعاد مسرعاً إلى 'بيكند' وحاصرها شهراً وهدم سورها فحاول أهل المدينة الصلح من جديد ولكنه أبى، فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، وأصر على فتحها بالسيف حتى تم له ذلك، فقتل المقاتلين وسبى الذرية وغنم الأموال، ليرتدع الكفار والخارجون عن مثلها فلا يعودوا لنقض ذمة المسلمين وعهدهم، وليعلموا أن قطرة دم واحدة من مسلم أعز وأعلى من كفار الأرض جميعاً، ومن المواقف الرائعة في هذا الفتح التأديبي، أن الذي ألب



الى المسلمين وحرص أهل المدينة على نقض عهدهم، رجل كافر من أهل المدينة أعور العين، وقد وقع هذا الرجل أسيراً بيد المسلمين، فقال لقتيبة [أنا أفتدى نفسي بخمسة آلاف ثوب حريرى قيمتها ألف ألف] فأشار أمراء الجيش على قتيبة أن يقبل ذلك منه، فقال 'قتيبة' [لا والله لا أروع بك مسلماً مرة أخرى] ثم أمر به فضربت عنقه، وهذا يوضح مدى غيرة الأسد 'قتيبة' على دماء الإسلام والمسلمين وحرصه الشديد على أرواحهم وتأديبه القوى لمن يتعدى على حرماهم، كما أرسل برسالة واضحة بأن المسلم لا يبغي بجهاده وقتاله سوى وجه الله عز وجل ونصرة الدين، ولا يريد من الدنيا مالاً ولا متاعاً لأنه وبمتهى البساطة قد أثر الآخرة على الأولى، واشترى الجنة بالدنيا .

ثانياً: خبرته بالرجال

كان الأسد أبو حفص 'قتيبة بن مسلم' من نوعية القادة الذين لا يسع اى جندى يعمل تحت رايته إلا أن يطيعه، ولا يسع آى خليفة أو والى إلا أن يجعله قائداً على الجيوش، فهو قائد بالفطرة يعرف كيف يوجه رجاله نحو تنفيذ أشق المهام التى يستحيل على غيرهم تنفيذها، فهو خبير بقيادة الرجال وتوجيه النفوس والطبائع البشرية، فلقد علم أن المسلمين يقاتلون وهم بعيدون عن أرضهم وعبائهم وتشاق قلوبهم لديارهم وأهلهم، فاستأذن 'الحجاج بن يوسف' والى العراق فى أن يوزع أموال الغنائم على المجاهدين حتى تقوى قلوبهم ونفوسهم على القتال ضد عدوهم الكافر، فوافق الحجاج على ذلك، حتى كثرت الأموال فى أيدي المجاهدين وصاروا قوة عظيمة لا تقهر بأرض ما وراء النهر .

كانت خبرته بالرجال تمتد إلى أعدائه، فيعرف كيف يحاربهم ومتى يهادنهم ومتى يشتد عليهم ؟ وهكذا لا يستطيع أن يخدعه أحد أبداً، ولقد حاول أهل 'بيكند' أن يخدعوه بواسطة عميل مزدوج كان يعمل لحساب 'قتيبة' أولاً ثم استمالوه أهل البلد ليفك الحصار عنهم، وكان اسم هذا العميل 'تندر' فحاول خداع 'قتيبة' وإيهامه بأن 'الحجاج' والى العراق قد عزل من منصبه وأن الأسلم أن يفك الحصار ويعود مسرعاً للعراق، ففطن 'قتيبة' للخدعة وقتل العميل الجاسوس، ثم اشتد فى حصار البلد حتى فتحها بإذن الله . وكان 'قتيبة' يعرف كيف يختار رجاله، ويعرف كيف يشجعهم ويحمسهم فى القتال، خاصة فى المواقف الصعبة، ففى أثناء فتح 'بخارى' اشتد الكفار فى القتال ضد المسلمين حتى انهزمت بعض قبائل العرب مثل 'الأزد' ، فانتدب 'قتيبة' قبيلة بنى تميم المهمة فى غاية الصعوبة وهى الأصطدام مع معسكر الكفار الكبير المطل على نهر المدينة وكان المسلمون قد أحجموا على هذه المهمة المستحيلة، فأحسن 'قتيبة' الاختيار عندما اختار بنى تميم لأنهم أشجع العرب فى قتال الأتراك، ثم نادى فى باقى جيشه [من جاء برأس كافر فله مائة دينار] فاشتد الناس فى قتال الكفار حتى فتحت المدينة وكافأ 'قتيبة' بنى تميم أعظم مكافأة على شجاعتهم وبطولتهم فى القتال . فلا عجب أن تأسر شخصيته قلوب الكفار قبل المسلمين ويدخل الأتراك فى دين الله أفواجاً بل يقاتلوا بنى جلدتهم مع قتيبة والمسلمين .

ثالثاً :- إيمانه بالله وتوكله عليه

\*كانت دولة بنى أمية معنية طول مدتها بشأن الجهاد فى سبيل الله ونشر الإسلام شرقاً وغرباً، فلم يأتى عليها مدة إلا وراية الجهاد مرفوعة وخفاقة لذلك فقد كان خلفاء بنى أمية معينين باختيار القادة الأكفاء الموصوفين بالديانة والشجاعة، كان 'قتيبة' واحد من هؤلاء الذين تغلغل الإيمان بالله عز وجل فى قلوبهم وتوكلوا عليه بالكلية، وهذا يتضح من إقدامه على القتال ضد جيوش الكفار وإقتحام مدنها وقلاعهم على الرغم من التفاوت الكبير والضخم بين القوتين، ذلك لأنه كان متوكل على الله عز وجل وحده، معتمداً عليه لا على قوة أو متاع ، حتى أن ملك الصين وكان من أكبر من ملوك الدنيا يخاف منه ويؤثر مهادنته ويرسل إليه بتراب بلاده وأربعة من أولاده وهدايا مهولة من أجل أن يبر قسم قتيبة أن يطاء أرض الصين ويفتحها، فأى عز هذا ؟؟ وأى قوة إيمانية تلك ؟؟ التى تزهز عروش ملوك الأرض .

\*ومن مواقفه الإيمانية الرائعة التى كانت سبباً لإسلام الكثير من قبائل الأتراك أنه لما فتح مدينة 'سمرقند' وكانت قاعدة ملك الأتراك الهياطلة، اشترط 'قتيبة' على أهل سمرقند شرطين :-

رُحما : أن يبني في المدينة مسجداً لله عز وجل ويضع فيه منبراً ويصلي فيه ويخطب على المنبر .

ثانيها : أن يحطم أصنام المدينة ومعابدها ، وبالفعل نفذ الشرطان .

\* فلما أخذ الأصنام والأوثان ألقيت بعضها فوق بعض حتى صارت مثل الجبل الكبير، ثم أمر بإحراقها، فتصارخ أهل المدينة وبكوا، ثم قالوا له [ إن فيها أصناماً قديمة من أحرقها هلك في الحال ] فقال القائد المؤمن 'قتيبة' [ أنا أحرقها بيدي فكيدي جميعاً ثم لا تنظرون ] ثم قام إليها وهو يكبر الله عز وجل وألقى فيها النار حتى احترقت كلها .

رابعاً : - صبره وشدته في المواقف العصبية

القائد الحقيقي هو الذي يستطيع أن يصبر في الشدائد بل ويتخذ القرار الصائب وسط سحائب الشدة والمخاطر، ولقد تعرض الأمير 'قتيبة' لعدة مواقف عصبية صمد أمامها كالطور العظيم، وأظهر شجاعة وثباتاً لا يعلم مثله إلا من الصحابة رضوان الله عليهم، من هذه المواقف أنه بعد أن فتح مدينة 'بخارى' فر منها ملكها 'وردان شاه' وراسل ملوك الترك الكفرة الذين كانوا من قبل صالحوا 'قتيبة' فأجابوه ونقضوا الصلح مع 'قتيبة' واتفقوا عليه وحشدوا أعداداً هائلة من الكفار، وأقبلوا في جيوش جرارة في تحالف وثني على أهل الإيمان، ووصلت الأخبار للأمير 'قتيبة' فأعد جنوده البواسل بعدما حرضهم وشجعهم على الجهاد والشهادة، فكشر الأسد عن أنيابه ووثب هو وجنوده على جيوش الكفار في معركة رهيبة، أبدى فيها المسلمون شجاعة نادرة وبسالة هائلة، فانتصروا على القوم الكافرين وقتل منهم عشرات الآلاف، وحتى يردع الكافرين عن مثلها، صلبهم على مسافة أربعة فرسخ في نظام واحد، الرجل بجوار الرجل، وذلك في كل اتجاه من الجهات الأربعة، فلم يبق للكافرين بعدها قائمة .

وبالجملة كان هذا البطل من أعظم الفاتحين في الإسلام وصاحب شخصية آسرة، كانت سبباً في إسلام أمم بأكملها من الأتراك، وكان علم الجهاد المقدم في الشرق حتى أدخل الإسلام لأرض الصين النائية، ولا يعلم أحد بعده قد وصل برياياته إلى ما وصل إليه من بلاد كاشغر بالصين، فرحمه الله رحمة واسعة وغفر له زلته التي راح ضحيتها، ويكفي لنعرف مدى شدة هيبة 'قتيبة' في نفوس أعدائه، شهادة أحد ملوك الأتراك وهو 'الأصيهند' عندما سأل عن قتيبة بن مسلم ويزيد بن المهلب وهو من ولى العراق بعده أيهما كان أعظم عندهم وأهيب؟؟ فقال [ لو كان قتيبة بأقصى حجر في الغرب مكبلاً ويزيد معنا في بلادنا وال علينا لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم من يزيد ]

#### المصادر

- ١- تاريخ الرسل والملوك ٢- الكامل في التاريخ ٣- البداية والنهاية ٤- المنتظم ٥- فتوح البلدان ٦- محاضرات في تاريخ الدولة الأموية ٧- تاريخ الخلفاء

### القائد الفتى 'محمد بن القاسم' فاتح بلاد السند

: إن سيرة هذا البطل الذي سوف نتكلم عنه هذه المرة، هي مصدر فخر وعز وإستعلاء للأمة الإسلامية والدين الإسلامي، الأمة التي كان من أبنائها مثل هذا البطل الذي قاد الجيوش الجرارة وولى الأقاليم الكبيرة وفتح المدن العريقة وأدخل الإسلام إلى بلاد السند والهند وأباد ملوك الكفر وحطم الأوثان والمعابد الشركية، قام بذلك كله وهو فتى في ريعان شبابه ولم يبلغ العشرين، فحري بكل أب مسلم أن يربي أبنائه على سيرة أمثال هذا البطل الذي ينبغي أن يكون قدوة للشباب الذين تاهت عقولهم في أودية الدنيا ولم يعد أمامهم مثل هذا البطل القدوة .

من هو محمد بن القاسم ؟

اسمه بالكامل محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي، ولد سنة ٧٢ هجرية بأرض العراق وكان أبوه القاسم بن محمد مما جاء لأرض العراق عند الحرب بين ابن الزبير رضى الله عنه وعبد الملك بن مروان، فأقام بها وهو ابن عم الوالى الشهير والمشير للجدل بشدة الحجاج بن يوسف الثقفي، وهذا الرجل رغم مساويه الكثيرة والشناعات العظيمة التي أثرت عنه، إلا أنه محباً

جهاد مهتماً بتدبير الجيوش ونشر الإسلام، وكانت له عين فاحصة في إختيار الأبطال ومعرفتهم وبخبرته الواسعة بشئون الجهاد وقعت عينه على ابن عمه الصغير 'محمد بن القاسم' فبدأ في تقريبه وإسناد بعض المهام الصغيرة من أجل إختبار مدى عزمه وكفاءته وترقى في إختباراته له حتى أبان الصغير عن همة عالية وكفاءة قيادية منقطعة النظير .

بيئة الأبطال :

كانت دولة بنى أمية معنية أشد الاعتناء بنشر الإسلام في ربوع المعمورة، لذلك كان سوق الجهاد قائمة في بنى أمية ليس لهم شغل إلا ذلك، فعلت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها وبرها وبحرها وقد أذلوا الكفر وأهله، وامتألت قلوب المشركين من المسلمين رعباً فلا يتوجه المسلمون إلى بلد إلا أخذوه، ولم تنكسر لهم راية أو يدبل عليهم عدو أو يخرج من أيديهم بلد فتحوه، وفي ظل هذه البيئة الجهادية ظهر بطلنا المقدام محمد بن القاسم .

المسلمون وبلاد السند :

كانت بلاد السند [باكستان الآن] هدفاً لحركة الفتح الإسلامى المباركة أيام الخليفة الراشد 'عمر بن الخطاب' رضى الله عنه، فلقد أرسل عامله على البحرين 'عثمان بن أبي العاص' جيشاً بقيادة أخيه 'الحكم' إلى ساحل الهند عند مدينة 'تانة' وذلك سنة ١٥ هجرية ثم إلى مدينة 'بروص' ثم إلى 'خور الديبل' وحقق خالهما عدة إنتصارات ولكن الخليفة خاف من مواصلة الغزو خوفاً على المسلمين من بعد الديار، وكان ذلك أيضاً رأى أمير المؤمنين 'عثمان' رضى الله عنه، فلما تولى 'على بن أبي طالب' رضى الله عنه الخلافة أرسل الحارثة بن مرة العبدى إلى السند فأغار على أطرافها وظفر منها وظل بها حتى استشهد في عهد 'معاوية' رضى الله عنه سنة ٤٢ هجرية .

حدث تطور كبير في غزو السند أيام 'معاوية بن أبي سفيان' حيث أمر القائد الشهير المهلب بن أبي صفرة بغزو السند ثم غزاها عبد الله بن سوار العبدى ثم سنان بن سلمة الهذلى ففتح 'مكران' ومصرها وأسكنها العرب وهذا أول جزء من غربي البنجاب يدخل في دولة الإسلام، وبعد ذلك فصل المسلمون بين بلاد الهند وبلاد السند، فلما تولى الحجاج الثقفى جعل من أولوياته فتح هذا الثغر العظيم خاصة بعد قتل عامله 'محمد بن هارون النمري' في قتاله مع ملك السند 'داهر' وقد رأى أن هذا الفتح لن يتم إلا بجيش قوى على رأسه قائد شجاع لا يبالى بجيوش 'داهر' الضخمة ولا يستوحش من بعد المسافة وطول الطريق إلى السند، وبعد بحث وتقلب نظر في قائمة القادة الأبطال، وقع الإختيار على بطلنا 'محمد بن القاسم' وكان وقتها في السابعة عشر من العمر، وكان ذلك سنة ٨٩ هجرية حيث بدأت فصول المجد والبطولة في حياة هذا القائد الصغير .

معالم البطولة :

عندما تولى 'محمد بن القاسم' قيادة الحملة الجهادية المتجه إلى بلاد السند اشترط على 'الحجاج بن يوسف الثقفى' عدة شروط تبرهن على مدى الكفاءة القيادية والقتالية لمحمد بن القاسم منها :

١. أن يكون الجيش كامل التجهيز والإعداد والمؤن حتى لا تتوقف سيرة الفتح، فأمدته الحجاج بجيش يقدر بستة آلاف مقاتل مجهزين بكل شيء حتى المسال والإبر والخيوط .

٢. أن يرافق الجيش البرى أسطول بحرى ليكون المهجوم مزدوجاً وفي إتجاهين، ووافق الحجاج .

٣. أن يواصل الجهاد والسير حتى ينتهى من فتح بلاد السند كلها، ووافق الحجاج .

رحلة الفتح المبارك :

كان لمحمد بن القاسم في رحلته للفتح المبارك هدفان الأقرب الانتقام من 'داهر' ملك السند الوثنى الذى قتل المسلمين بأرضه وآخرهم 'محمد هارون النمري'، والأبعد فتح بلاد السند وما ورائها من بلاد الهند ونشر الإسلام في هذه الربوع الشاسعة . تحرك محمد بن القاسم بجيشه القوى إلى 'مكران' فأقام بها عدة أيام يستجمع قوته بعد سير طويل وذلك لفتح مدينة 'الديبل' أحصن مدن السند، وفي الطريق إليها فتح مدينة 'قزبور' و'أرمانيل' ثم واصل السير حتى نزل على مدينة 'الديبل' وذلك يوم جمعة ووافاه

سطول بآلات الحصار ومنها المنجنيق الكبير المشهور باسم 'العروس' وكان يلزمه ٥٠٠ رجل لتشغيله، وضرب 'محمد بن الهيثم' حصاراً شديداً على المدينة الحصينة، واستمات الكفار الهندوس في الدفاع عن مدينتهم وفكر 'محمد بن القاسم' في فكرة عبقرية لفتح المدينة تعتمد في الأساس على خبرته بنفسية الأعداء وطبيعة تفكيرهم، فلقد كان في المدينة معبد ضخم لصنم معروف عندهم على قمته سارية خشبية طويلة جداً في نهايتها راية حمراء كبيرة إذا هبت الرياح تحركت هذه الراية كأنها كالمروحة الدائرة، وهي مقدسة عندهم، فأمر 'محمد بن القاسم' بتوجيه قذائف المنجنيق إلى هذه السارية حتى كسرهما، وهو يعلم بتشائم الهندوس من ذلك، وبالفعل مع إنقيار السارية إنهارت معنويات الكفار واقتحم المسلمون المدينة، وفتحوها بعدمعركة طاحنة وبني 'محمد بن القاسم' بها مسجداً واستقدم أربعة آلاف من المسلمين وأسكنهم في المدينة للتأكيد على إسلام هذه المدينة وطمس الهوية الوثنية عنها .

يوم الإنتقام :

بعد فتح مدينة 'الدبيل' أحصن مدن السند، واصل محمد بن القاسم سيره، فكان لا يمر على مدينة إلا فتحها وهدم معابد الوثنية والبوذية بها وأقام شعائر الإسلام وأسكنها المسلمون وبني المساجد حتى غير خريطة البلاد تماماً وصبغها بصبغة إسلامية تامة .

استطاع محمد بن القاسم أن ييهز الهندوس بشخصيته القوية الحازمة وقد تعجبوا من شجاعته وحسن قيادته لجيش كبير وهو دون الثامنة عشر، وبالفعل أسلم عدد كبير من الزط وهم من بدو الهنود وانضم منهم أربعة آلاف رجل يقاتلون مع محمد بن القاسم وكان لهم أثر كبير في القتال خبرتهم بالبلاد ومعرفتهم للغة الهنود .

كانت الأخبار قد وصلت إلى ملك الهند الوثني 'داهر' فاستعد للقاء المسلمين بجيوش كبيرة مع سلاح المدرعات الشهير وهم الفيلة، وقد داخله الكبر والعجب لضخامة جيوشه واستخف بالمسلمين لقتلهم، ولكنه فوجيء بالإعصار الإسلامي يعبر نهر 'مهران' الفاصل بينه وبين المسلمين، ويجد 'داهر' الذي كان على ظهر فيل كبير نفسه وجهاً لوجه مع محمد بن القاسم وجنوده، ويقتل الفريقان قتالاً مهولاً لم تشهد مثله أرض السند من قبل ويرى 'داهر' جنوده صرعى من حوله تتخطفهم سيوف المسلمين، فتزل من على ظهر فيله المنيع ويقاتل بنفسه حتى يأتيه قدره المحتوم ويقتله المسلمون وينشد قاتله هذه الأبيات : —

الخيال تشهد يوم داهر والقنا \*\*\*\*\* ومحمد بن القاسم بن محمد

إني فرجت الجمع غير معرد \*\*\*\*\* حتى علوت عظيمهم بمهند

فتركته تحت العجاج مجندلاً \*\*\*\*\* متعفر الخدين غير موسد

وبمقتله أدرك المسلمون ثأرهم وانفتحت أمام بلاد السند على مصراعيها وقد قامت امرأة 'داهر' بحرق نفسها هي وجواربها ووقعت 'صيتا' ابنة داهر في الأسر .

بعد مقتل 'داهر' واصل محمد بن القاسم سيره ليحقق الهدف الأكبر والأبعد كما قلنا بعد أن أنتقم من عدو الإسلام 'داهر' ففتح مدينة 'راور' ثم 'رهاناباذ' ثم استسلم إقليم 'ساوندري' وأعلنوا إسلامهم ثم 'سمند' ثم فتح محمد بن القاسم مدينة 'الملتان' وذلك بعد قتال عنيف إذ كانت معقل البوذية بالسند وغنم منها أموالاً طائلة حملت كلها إلى الحجاج وقدرت بمائة وعشرين مليون درهم، ومع الغنائم رأس الطاغية 'داهر' وكانت الحملة قد تكلفت ستين مليون درهم فقال الحجاج كلمته الشهيرة [شفينا غيظنا وأدركنا ثأرنا وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس 'داهر' .

دوهر بعد داهر :

بعد ان نجح محمد بن القاسم في القضاء على ملك السند الكبير 'داهر' برز ملك آخر كان بمثابة الذراع اليميني لداهر واسمه دوهر وكان ملكاً على إقليم 'الكيرج' وهي أقصى بلاد السند على حدود بلاد الهند، فاستعد دوهر للقاء المسلمين وغره الشيطان بأنه سيحقق ما لم يحققه 'داهر' واصطدم مع المسلمين فتزل به من حر سيوفهم ما لم يطيق فحاول الفرار ولكن ولات حين فرار أدركته سيوف المسلمين فقتل كما قتل الذي من قبله والتحق رأسه برأس من سبقه وقال فيه قاتله أيضاً : —

نحن قتلنا داهراً ودوهر \*\*\*\*\* والخيال تروى منسراً فمنسراً

هذه الفترة مات الحجاج والى العراق الشهير وابن عم محمد بن القاسم، ولكن هذا لم يرد عزم محمد بن القاسم عن موصله حيث أصبح الطريق مفتوحاً إلى بلاد الهند وبالفعل بدأ محمد بن القاسم في فتح مدن الهند فبدأ بمدينة 'سرس' فدخل أهلها في طاعة المسلمين وكانوا بحارة مهرة استفاد منهم المسلمون، وبدأ للجميع أن محمد بن القاسم لن يرجع حتى يفتح بلاد الهند أيضاً ولكن حدث تطور مأساوى سريع في حياة محمد بن القاسم .

مأساة بطل عظيم :

بدأت فصول هذه المأساة والحنة العظيمة التي تعرض لها بطلنا العظيم الصغير، عندما توفي الخليفة الوليد بن عبد الملك وذلك سنة ٩٦ هجرية وتولى مكانه أخوه سليمان بن عبد الملك وكان شديد الكره للحجاج بسبب جرائم الحجاج وسفكه لدماء الكثيرين لأقل شبهة، فلما تولى الخلافة قام بتعيين واحد من أشد خصوم الحجاج وهو 'صالح بن عبد الرحمن' أميراً على العراق فقام هذا الرجل بعزل كل رجال الحجاج من مناصبهم ومنهم بالقطع محمد بن القاسم أمير السند وفاتحها وعين مكانه 'يزيد بن أبي كبشة السكسكى' ولما وصل نبأ العزل ل محمد بن القاسم حاول البعض إقناعه بالعصيان والانفراد بهذه البلاد البعيدة عن مركز الخلافة، خاصة وأن جنوده يحبونه وكذلك من أسلم من أهل السند والهند، وسبق أن ثار بهذه البلاد ثائران من العرب هما محمد ومعاوية ابنا الحارث العلافى ولكن وجود 'داهر' حال دون انفرادهما بهذه البلاد، وحاولوا إقناعه بأنه مظلوم ولا ذنب له وتخوفه من صالح بن عبد الرحمن، ولكن محمد بن القاسم كان من الطراز النادر للقادة الذين يعملون لخدمة الإسلام ولا يريدون من الدنيا شيئاً فلا مناصب تهمه ولا دنيا تغريه، وخاف من عاقبة الخروج على الخلافة وما سيؤدى إلى تفرق الأمة وتمزق المسلمين وسفك الدماء بين المسلمين في فتنة الخروج، ووافق على قرار العزل مع قدرته على المقاومة والانفراد، وأنشد في ذلك قوله :—

ولو كنت أجمعت الفرار لو طئت \*\*\*\*\* إناث أعدت للو غى وذكور

وما دخلت خيل السكاسك أرضنا \*\* ولا كان من عك على أمير

وهكذا توقفت سيرة فتح الهند بعزل هذا البطل ولكن الذى حدث بعد ذلك كان أشد إيلاماً ومأساوية .

مر بنا من قبل أن 'صيتا' ابنة 'داهر' قد وقعت في الأسر بعد مقتل أبيها وانتقلت من العز والملك والغنى والسيطرة إلى أن قتل أبوها وانتحرت أمها وضاع ملكها وصارت مملوكة بعد أن كانت ملكة، فامتلاء قلبها غيظاً وحنقاً وبغضاً على البطل الشاب محمد بن القاسم فلما عزل محمد بن القاسم من منصبه وعلمت أن أيامه قد ولت أرادت أن تدرك ثأرها وتشفى غليلها فتقدمت للوالى الجديد 'يزيد بن أبي كبشة' بشكوى ادعت فيها أن محمد بن القاسم قد اغتصبها بالقوة بعد وقوعها في الأسر وهى تهمته عظيمة وفرية دينية من وثنية مشركة على بطل عظيم .

ولان التهمة كبيرة قرر الوالى الجديد القبض على محمد بن القاسم وإرساله إلى والى العراق 'صالح بن عبد الرحمن' للتحقيق، وبالفعل حمل محمد بن القاسم مقيداً بالأغلال إلى العراق فأنشد قائلاً بيته المشهور الذى صار بعد ذلك مثلاً سائراً ويعبر عن صدق إخلاص هذا الرجل ومدى حزنه على توقيفه عن الجهاد في سبيل الله، قال :—

أضاعوني وأى فتى أضاعوا \*\*\*\*\* ليوم كربة وسداد ثغر

وكان مشهد خروج محمد بن القاسم مكبولاً شديد الأثر على أهل السند، فلقد اصطفوا لوداعه وهم يبكون على فراقه وما صار إليه، والعجب العجائب أن الله عز وجل قد أظهر آية سريعة وباهرة لبراءة البطل العظيم، حيث لم يمض على خليفته في ولاية السند 'يزيد بن أبي كبشة' سوى سبعة عشر يوماً ثم مات فجأة .

وقد فرح كفار السند لخروج محمد بن القاسم وتنفسوا الصعداء وخلعوا الطاعة وعادوا للكفر وهما يأخراج المسلمين، كل ذلك لأن الساحة قد غاب عنها أسدها وأشدها .

النهاية الحزينة :



كان الى العراق الجديد 'صالح بن عبد الرحمن' شديد الكراهية والبغضاء للحجاج الثقفى، ذلك لأن الحجاج قد قتل آدم أخا  
وكان يرى رأى الخوارج، فأراد صالح أن يدرك ثأره من الحجاج وذلك بالانتقام من أقربائه وهذا هو عين التعصب والظلم والجور  
وهو ما كان يفعله الحجاج أيضا مع خصومه، فإن الله عز وجل قال {ولا تزر وازرة وزر أخرى} .

قام صالح بن عبد الرحمن بحبس محمد بن القاسم في سجن مدينة واسط الذى طالما زج فيه الحجاج خصومه لأدنى شبهة وبنفس  
آلات التعذيب أمر صالح بتعذيب محمد بن القاسم حتى يعترف هل ارتكب هذه الجناية الشنيعة التى افترقها الوثنية 'صيتا' عليه،  
ومحمد بن القاسم يقسم أنه برىء ويصر على ذلك، وينشد أشعاراً مؤثرة يقول فيها :—

فلئن ثويت بواسط وبأرضها \*\*\*\*\* رهن الحديد مكبلاً مغلولاً

فلرب قنية فارس قد رعتها \*\*\*\*\* ولرب قرن قد تركت قتيلاً

ويظل محمد بن القاسم صامداً تحت التعذيب مستمسكاً ببراءته وطهارته من هذه الفرية الخفيفة ولا ذنب له سوى فتوحاته العظيمة  
وقهره لملوك الكفر، ولكونه ابن عم طاغية أخذت عشيرته بجريته، حتى جاءت اللحظة الحزينة التى مات فيها مظلوماً شهيداً إن شاء  
الله وتنطفئ شمعاً لو قدر لها البقاء لصارت شمساً محرقة لأعداء الإسلام ولفتح المسلمون الهند التى تأخر فتحها بعد ذلك بعدة قرون .  
وقد مدحه شعراء زمانه ورثوه وبكوا عليه فهذا حمزة بن بيض الحنفى يقول :

إن المروءة والسماحة والندى \*\*\*\*\* محمد بن القاسم بن محمد

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة \*\*\* يا قرب ذلك سودداً من مولد

فرحمه الله رحمة واسعة وعوض شبابيه الغض الطرى بالفردوس الأعلى، والأمر العجيب حقاً أن 'صيتا' ابنة داهر لما علمت بوفاة  
محمد بن القاسم تحت التعذيب بكت وتحرك ضميرها وذهبت لوالى العراق واعترفت بجريمتها فرفع أمرها للخليفة سليمان بن عبد  
الملك، فأمر بقتلها جزاء وفاقاً وقصاصاً بهذا البطل العظيم .

وهكذا ينصر الله عز وجل أوليائه وجنوده ولو بعد حين ويظهر براءتهم للعالمين حتى لا تبقى فى صدور أى من الناس شىء عنهم .

المراجع :

تاريخ الطبرى / الكامل فى التاريخ / البداية و النهاية / المنتظم

تاريخ الخلفاء / محاضرات الدولة الأموية / فتوح البلدان / أطلس تاريخ الإسلام / التاريخ الإسلامى / سير أعلام النبلاء / وفيات  
الأعيان / شذرات الذهب / العبر فى خبر من غبر .

## أبطال سقطوا من الذاكرة... السلطان بايزيد الصاعقة

لا تزال صفحات التاريخ وأحداثه الكثيرة والمتشابهة إلى حد كبير توضح لنا طبيعة العداوة ضد الإسلام والمسلمين، وتوضح لنا  
أطراف معادلة الصراع الأبدى بين الحق والباطل، وأنه ليس بالضرورة أن يكون الباطل مستعلناً بالكفر، رافعاً لشعار الإلحاد  
والكفر، فقد يكون من جند الباطل من يتسمى بأسماء المسلمين ويتزى بزيتهم ويدعى شرف الانتساب لهذا الدين القويم، وهذا النوع  
من الأعداء أشد خطراً وضرراً على الإسلام والمسلمين، لإنخداع الكثيرين به وبنواياه.

وأكثر الناس تجسيداً لهذا النوع هم الروافض الذين كانوا وما زالوا فى الخندق المقابل للإسلام، وعداوتهم وعمالتهم جلبت على  
الإسلام والمسلمين الكثير من الويلات والنكبات، فلقد تخصص الروافض ومن سار على دربهم فى التحالف مع أعداء الإسلام على مر  
العصور فقديمًا تحالفوا مع التتار وأدخلهم حاضرة الخلافة 'بغداد' لإزالة الخلافة الإسلامية، وحديثاً تحالفوا مع الشيطان الأكبر !  
أمريكا وأدخلوها أفغانستان والعراق، وما بين القديم والحديث الكثير من الأخبار والحوادث التى تدل على مدى كراهية هؤلاء  
الروافض للمسلمين عموماً وأهل السنة خصوصاً، وبطلنا فى هذه المرة قائد عظيم كان له أعظم الآثار والفتوحات على الجبهة

وروية مما جعل الروافض تحترق قلوبهم ناراً على هذا البطل الشجاع ويتآمرون عليه لإزاحته عن هدفه العظيم وهو نشر الإسلام بأوروبا، مما يوضح خالص وطبيعة العلاقة المتينة بين الروافض وأى وكل عدو للإسلام على مر العصور .

### صاعقة الإسلام

\* كانت الدولة العثمانية منذ قيامها سنة ٦٩٩ هجرية ذات طابع جهادى محض، فالهدف الذى قامت من أجله هو فتح القسطنطينية والوسيلة لبلوغ هذا الهدف ليس قطعاً بالمفاوضات وموائد السلام ! إنما بالجهاد فى سبيل الله، لذلك كان سلاطين هذه الدولة الجهادية على نفس المستوى الأخلاقى والدينى والإيمان لهذا الهدف فكلهم محب للجهاد، عميق الإيمان، فى غاية الشجاعة والهمة والعزم الأكيد. \* وفى ظل هذا الهدف وفى أحضان تلك الخصال العظيمة وُلد بطلنا الجسور 'بايزيد' سنة ٧٦١ هجرية فهو 'بايزيد بن مراد الأول بن أورخان بن عثمان' فهو السلطان الرابع للدولة العثمانية ولطيب المنبت وعراقه المحض وأصاله التربية جاء بطلنا 'بايزيد' ترجمة حقيقية لهذه الأمور فقد كان شهماً كريماً شديداً التمسك بالإسلام، فى غاية الشجاعة والحماسة للجهاد فى سبيل الله غير انه أمتاز عن سبقوه بسرعة الحركة وقوة الانقضاض على أعدائه حتى لقب بالصاعقة أو 'يلدرم' باللغة التركية، وكان مجرد ذكر اسمه 'يلدرم' يوقع الرعب فى نفوس الأوروبيين عموماً وأهل القسطنطينية خصوصاً .

\* تولى 'بايزيد' الحكم بعد استشهاد أبيه البطل العظيم 'مراد الأول' فى معركة 'كوسوفو' سنة ٧٩١ هجرية، وكانت هذه الولاية بداية خير وبشارة للمسلمين الذين تألموا بشدة لإغتيال بطلهم 'مراد الأول' ونذير حزن وغم شديدين على أعداء الإسلام الذين ظنوا أنهم أصابوا الإسلام فى مقتل يوم أن قتلوا 'مراد الأول' ولكنهم لا يعلموا أن المسلمين حالهم كما قال الشاعر كلما مضى مناسيد قام آخر ٠٠٠٠٠ قزول بما قال الكرام فحول

### الهدف الأول

\* كانت منطقة الأناضول أو آسيا الصغرى دائماً هى منطقة الإنطلاق لأى سلطان جديد، ذلك لأن هذه المنطقة منقسمة على نفسها لعدة إمارات صغيرة يحكمها أمراء متغلبون على رقاب المسلمين فيها وقد سعى السلطان 'مراد الأول' لتوحيد الأناضول بعدة وسائل، ولم يكده ينجح فى ذلك حتى انفرط العقد مرة أخرى، ثار هؤلاء الأمراء على العثمانيين وسبوا لهم الكثير من المتاعب، وكانت ثورتهم المتكررة سبباً لصرف جهود العثمانيين عن حرب أوروبا، مما جعل الأوروبيين يلتقطون أنفسهم ويشكلوا تحالفات صليبية متكررة لمحاربة العثمانيين .

\* فى سنة ٧٩٣ هجرية استطاع 'بايزيد' أن يضم إمارات 'منتشا' و'آيدين' و'صاروخان' دون قتال بناءً على رغبة سكان هذه الإمارات، وقد لجأ حكام هذه الإمارات إلى إمارة 'اسفنديار' كما تنازل له أمير 'القرمان' 'علاء الدين' عن جزء من أملاكه بدلاً من ضياعها كلها، وقد أشتهر 'علاء الدين' هذا بالغدر والخيانة وأخبار جرائمه أيام السلطان 'مراد الأول' مشهورة، لذلك فلم يكن مستغرباً على هذا الرجل أن يثور مرة أخرى أيام 'بايزيد' مستغلاً إنشغاله بالجهاد فى أوروبا حيث قام 'علاء الدين' بالهجوم على الحاميات العثمانية وأسر كبار قادة العثمانيين واسترد بعض الأراضى، فعاد 'بايزيد' بسرعه المعهودة وانقض كالصاعقة على 'علاء الدين' وفرق شمله وضم إمارة 'القرمان' كلها للدولة العثمانية وتبعته إمارة 'سيواس' و'توقات' ثم شق 'بايزيد' طريقه إلى إمارة 'اسفنديار' التى تحولت للملجأ للأمراء الفارين، وطلب 'بايزيد' من أمير 'اسفنديار' تسليم هؤلاء الثوار فأبى فانقض عليه 'بايزيد' وضم بلاده إليه، والتجأ الأمير ومن معه إلى طاغية العصر 'تيمورلنك' وسيكون لذلك أثر شديد فيما بعد .

### الصاعقة تضرب أوروبا

\* بعدما فرغ 'بايزيد' من ترتيب الشأن الداخلى والقضاء على ثورات الأناضول، اتجه إلى ناحية أوروبا وبدأ أولى خطواته الجهادية هناك بإقامة حلف ودى مع 'الصرب' وربما يستغرب القارىء من هذه الخالفة ذلك لأن الصرب كانوا من اشد الناس عداوة للمسلمين وحتى الآن كذلك، ولأنهم كانوا السبب فى قيام تحالف بلقانى صليبي ضد المسلمين، بل إن السلطان 'مراد الأول' والد 'بايزيد' قد قتل فى حربه ضدهم، وكل هذه الأسباب كافية لمنع التحالف معهم، ولكن 'بايزيد' الصاعقة كان له وجهة نظر ذكية، وهى أن الحلف مع الصرب يجعلهم بمنزلة الحاجز القوى بين الدولة العثمانية وإمبراطورية الجر التى كانت وقتها أقوى الممالك

وروية وتلعب بحامية الصليب، وكانت علائق انجر والصرب متوترة، فاستغل بايزيد ذلك للتفرغ إلى الغرب والوسط الأوروبي القسطنطينية وهذا من فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد الذي يحتاجه الحاكم المسلم على الدوام، ولا يفهم من هذا الفقه إباحة ما حرمة الله عز وجل أو الإخلال بعقيدة الولاء والبراء، إنما هو من جنس المعاهدات المؤقتة التي تخدم هدفاً معيناً لفترة معينة، أي أنها لا تبطل شريعة الجهاد في سبيل الله أبداً وهي تشبه جنس معاهدة الحديبية وغيرها .

\* كان 'بايزيد' يهدف من مخالفته للصرب غاية هامة إلا وهي التفرغ للوسط الأوروبي والقسطنطينية لذلك فقد قام بتوجيه ضربة خاطفة إلى 'بلغاريا' وفتحها سنة ٧٩٧ هجرية وأصبحت 'بلغاريا' من وقتها إمارة تابعة للدولة العثمانية، مما جعل أوروبا ترتجف رعباً تحت الصاعقة الإسلامية التي فتحت البلاد الواحدة تلو الأخرى .

### أيام العزة

\* بلغت عزة المسلمين أيام السلطان 'بايزيد' مبلغاً عظيماً ذكرت الناس بأيام الصحابة رضوان الله عليهم ومن سار على دربهم من سلف الأمة والقادة العظام، وبلغت هذه العزة والعظمة مبلغها عندما فرض 'بايزيد' الصاعقة على إمبراطور بيزنطة 'مانويل' عدة شروط منها :-

١. إنشاء محكمة إسلامية وتعيين قضاة مسلمين بها للفصل في شئون الرعية المسلمة بها .
  ٢. بناء مسجد كبير بها والدعاء فيه للخليفة العباسي بمصر ثم السلطان 'بايزيد' وذلك يوم الجمعة .
  ٣. تخصيص ٧٠٠ منزل داخل المدينة للجالية المسلمة بها .
  ٤. التنازل عن نصف حي 'غلطة' لوضع حامية عثمانية، قوامها ستة آلاف جندي .
  ٥. زيادة الجزية المفروضة على الدولة البيزنطية .
  ٦. فرض رسوم جديدة على مزارع الكروم والخضروات الواقعة خارج المدينة .
- والناظر لهذه الشروط يجدها في غاية الذلة والهانة لإمبراطور بيزنطة 'مانويل' ولكن لعلمه بضعف موقفه وقوة المسلمين قبل هذه الشروط، ودوت تكبيرات الآذان في جنبات القسطنطينية .

### التحالف الصليبي ومعركة نيكوبولس

\* كان سقوط بلغاريا وقبول 'مانويل' للشروط السابقة بمثابة جرس الإنذار القوي لكل الأوروبيين خاصة ملك انجر 'سيجسموند' والبابا 'بونيفاس' التاسع، فاتفق عزم الرجلين على تكوين حلف صليبي جديد لمواجهة الصواعق العثمانية المرسله، واجتهد 'سيجسموند' في تضخيم حجم هذا الحلف وتدويله، باشتراك أكبر قدر ممكن من الجنسيات المختلفة، وبالفعل جاء الحلف ضخماً يضم مائة وعشرين ألف مقاتل من مختلف الجنسيات 'ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإسكتلندا وسويسرا وإيطاليا ويقود الحلف 'سيجسموند' ملك انجر. \* تحركت الحملة الصليبية الجواررة سنة ٨٠٠ هجرية، ولكن بوادر الوهن والفشل قد ظهرت على الحملة مبكراً، ذلك لأن 'سيجسموند' قائد الحملة كان مغروراً أحققاً لا يستمع لنصيحة أحد من باقي قواد الحملة وحدث خلاف شديد على استراتيجية القتال، 'فسيجسموند' يؤثر الانتظار حتى تأتي القوات العثمانية، وباقي القواد يرون المبادرة بالهجوم، وبالفعل لم يستمعوا لرأى 'سيجسموند' وانحدروا مع نهر الدانوب حتى وصلوا إلى مدينة 'نيكوبولس' في شمال البلقان .

\* لم يكد الصليبيون يدخلون المدينة حتى ظهر 'بايزيد' الصاعقة ومعه مائة ألف مقاتل كأنما الأرض قد انشقت عنهم، وكان ظهوره كفيلاً بإدخال الرعب والهول في قلوب الصليبيين فوقعت عليهم هزيمة مدوية حتى أن 'سيجسموند' الذي وقف قبل المعركة يقول في تيه وغرور { لو انقضت علينا السماء من عليائها لأمسكناها بحرابنا } يهرب مثل الفأر الذعور ويلقى بنفسه في مركب صغير ويترك خلفه حملته الفاشلة تذوق ويلات هزيمة مروعة .

### كلمات من ذهب

\* أسفرت معركة نيكوبولس عن نصر عظيم للمسلمين كان له أعظم الأثر في العالم الإسلامي بأسره، ووقعت بشارة الفتح في كل مكان مسلم، وارسل 'بايزيد' إلى كبار حكام العالم الإسلامي يبشرهم بالفتح وبالعديد من أسرى النصارى كهدايا وسبايا لهؤلاء

حكام باعتبارهم دليلاً مادياً على روعة النصر وأرسل 'بايزيد' إلى الخليفة العباسي بالقاهرة يطلب منه الإقرار على لقب 'سلف الروم' الذى اتخذه 'بايزيد' دليلاً على مواصلة الجهاد ضد أوروبا حتى يفتحها كلها، ووافق الخليفة على ذلك، وانساح كثير من المسلمين إلى بلاد الأناضول حيث الدولة العثمانية القوية المظفرة .

\* وقد وقع فى أسر 'بايزيد' فى هذه المعركة الكثير من القادة والأمراء النصارى من بينهم الكونت 'دى نيفر' الذى أقسم بأغلظ الأيمان ألا يعود لغاربة العثمانيين فإذا بالقائد المسلم المعتز بدينه، العارف بقدر هدفه وسبب وجوده يقول له بكلمات من ذهب { إنى أجيز لك ألا تحفظ هذا اليمين فأنت فى حل من الرجوع إلى محاربتى، إذ لا شئ أحب إلى من محاربة جميع مسيحي أوروبا والانتصار عليهم } ثم قال كلمته الشهيرة التى أفرغت كل نصارى أوروبا بل العالم بأسره، قال { سأفتح إيطاليا إن شاء الله، وسأطعم حصانى هذا الشعير فى مذبح القديس بطرس بروما } أى أن عزمه وهدفه لن يتوقف عند القسطنطينية فقط فأين المسلمون الآن من هذه العزة والعزيمة ؟

\* بعد معركة 'نيكوبولس' الكبيرة، والانتصار الرائع الذى حققه 'بايزيد' على التحالف الصليبي ثبت العثمانيون أقدامهم فى منطقة البلقان، وخضعت الشعوب السلاقية للسلطة الإسلامية، ودخلت البوسنة وبلغاريا فى حدود الدولة العثمانية، وقام السلطان 'بايزيد' بمعاقبة حكام شبه جزيرة المورة 'اليونان الآن' الذين قدموا مساعدة عسكرية للتحالف الصليبي، وبث 'بايزيد' السرايا العثمانية فى وسط أوروبا لملاحقة فلول الصليبيين ومنعهم من التجمع مرة أخرى .

\* وبعد هذه الاجراءات الحربية التى مهدت السبيل للهدف الأول والأسمى لدى الدولة العثمانية يمم 'بايزيد' وجهه إلى القسطنطينية، وكان إمبراطورها 'مانويل' قد ساعد الحملة الصليبية ضد المسلمين، فقرّر 'بايزيد' محاصرة المدينة وعدم الانصراف عنها حتى يفتحها، وبالفعل نزل بساحتها وضرب عليها حصاراً مرهقاً محكماً وضغط عليها بكل قوة حتى أشرفت المدينة على السقوط، ولكن تحدث مفاجأة لم تكن فى الحسبان جعلت 'بايزيد' يفك الحصار ويعود مسرعاً إلى الأناضول، ولكن لماذا ؟

### تيمور لنك الرافضى

\* كان القرن الثامن الهجرى إيذاناً بظهور قوة إسلامية جديدة فى عدة مناطق مختلفة من العالم حيث ظهرت الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى، ودولة المماليك فى مصر والشام والحجاز وقوة التتار المسلمين فى بلاد ما وراء النهر، وكانت القوة الأخيرة يقودها رجل ينتمى للإسلام فقط بالاسم وهو الطاغية الجرم 'تيمور لنك' الذى ذكر الناس بمجازر ومذابح المغول عندما اكتسحوا العالم الإسلامى فى أوائل القرن السابع الهجرى، فقد نشأ 'تيمور لنك' على المذهب الرافضى، وتشرب منذ صغره على كراهية أهل السنة، فجاءت كل حروبه وغزواته الشريفة ضد المسلمين ولم يذق ويلاته سواهم وما فتت جيوشه سوى بلادهم، وصار إلوبة فى يد أعداء الإسلام يوجهونه لقتال المسلمين أينما شاءوا ووقت ما شاءوا، وقد استطاع 'تيمور لنك' أن يوسع أملاكه حتى شملت المنطقة الشاسعة من 'دهلى' بالهند حتى دمشق بالشام ومن بحر أرال فى الشمال حتى الخليج العربى بالجنوب، ودمر عدة ممالك إسلامية قوية وظاهرة مثل مملكة دهلى المسلمة ومملكة مغول الشمال الإسلامية ومملكة مغول العراق، وتقمص شخصية سلفه 'جنكيز خان' فى الرغبة الجارحة فى سفك الدماء والسيطرة على العالم، وذلك كله تحت شعار رافضى معروف وهو استعادة حق آل البيت المغمصوب !

\* كان من الطبيعى جداً لرجل يمثل هذه الخصال والعقائد الضالة والحق الشديد على المسلمين أن يفتعل صداماً مع الدولة العثمانية القوية، فلقد أكلت الغيرة قلبه من سطوع نجم 'بايزيد' بعد معركة 'نيكوبولس' وحصار القسطنطينية، واغتتاظ من ثناء الناس على العثمانيين فى كل مكان وكانت الذرائع التى تذرّع بها 'تيمور لنك' فى حملتها واهية لا ترقى لحجم الدمار والمأساة التى سيسببها للإسلام والمسلمين .

### مقتل بايزيد وانهيار الدولة العثمانية

\* كان 'بايزيد' كما قلنا من قبل رجلاً شديداً الحماسة والشجاعة، سريع الحركة والانقضاض فى ميادين القتال، يتحرك فى معاركه الحربية على عدة محاور وفى مختلف الاتجاهات بنفس السرعة والحماسة، وهى خصال حميدة جميلة ولكنها قد تقود فى بعض الأحيان للعجلة والتسرع ومن ثم الهزيمة، فلقد دخلت جيوشه فى معارك كثيرة وتحركت فى جهات مختلفة وبصورة شبه مستمرة مما أورث

وده التعب والضجر والشوق للأهل والوطن، وهذا ما لم يعلمه 'بايزيد' ويقدره عندما استدرجه الطاغية الجرم 'تيمورلنك' لد عند سهل أنقره .

\* تقدم تيمورلنك بجيوشه التي يقدر عددها بثمانمائة ألف مقاتل واحتل 'سيواس' وأباد حاميتها التي كان يقودها 'أرطغرل بن بايزيد' وقتله شر قتلة، ففك 'بايزيد' حصاره على القسطنطينية وعاد بمنتهى السرعة بجيشه المتعب من طول الحصار وكان يقدر بمائة وعشرين ألف مقاتل أغلبهم منهكين من مواصلة القتال ثم الحصار، وكانت سرعة 'بايزيد' هذه المرة نقمة عليه فلم يحسن إختيار المكان ولا الإعداد للقاء جيش جرار مهول مثل جيش تيمورلنك، ثم جاءت الطامة بفرار الجنود التتار الذين كانوا مع جيش 'بايزيد' وجنود الإمارات الأناضولية المفتوحة حديثاً وانضمامهم لجيش تيمورلنك الذي كان يضم أمراء هذه الإمارات والذين قد سبق وأن فروا إلى تيمورلنك عند سقوط هذه الإمارات، فوقعت الهزيمة على 'بايزيد' ووقع هو في الأسر . \* لقد كان تيمورلنك من أحبب الناس وأشهرهم فقد عمد على إذلال 'بايزيد' وهو أسير حتى قيل أنه وضعه في قفص وطاف به البلاد وبعض المؤرخين يكذب هذه الرواية وأن كانت غير مستغربة على هذا الرجل الطاغية الذي أعتاد أن يذل أسراه وأخباره مشهورة في ذلك، وكان لوقوع بايزيد في الأسر أثر شديد على نفسية هذا البطل الشجاع المملؤ بالحماسة والحساسية الإيمانية، فقتله الهم والحزن على ما صار إليه وعلى ما أصاب الدولة العثمانية من التفكك مرة أخرى، وصار يذبل شيئاً فشيئاً حتى مات رحمه الله في أسره سنة ٨٠٥ هجرية وفرح لموته كل نصارى أوروبا وكل عدو للإسلام في العالم .

#### المصادر

١. الدولة العثمانية في التاريخ الحديث .
٢. تاريخ الدولة العلية .
٣. الدولة العثمانية المفترى عليها .
٤. عوامل نهوض وسقوط الدولة العثمانية .
٥. أطلس تاريخ الإسلام .
٦. موسوعة التاريخ الإسلامى .
٧. شذرات الذهب .
٨. الضوء اللامع .

## محمد الفاتح وفتح القسطنطينية

بقلم الدكتور علي محمد الصلابي

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لنفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش ) (روه الإمام أحمد في مسنده).

### السلطان محمد الفاتح

هو السلطان محمد الثاني ٤٣١هـ - ١٤٨١م ، يعتبر السلطان العثماني السابع في سلسلة آل عثمان يلقب بالفاتح وأبي الخيرات . حكم ما يقرب من ثلاثين عاماً كانت خيراً وعزة للمسلمين [١] . تولى حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده في ١٦ محرم عام ٨٥٥هـ الموافق ١٨ فبراير عام ١٤٥١م وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة ولقد امتاز السلطان محمد الفاتح بشخصية فذة جمعت بين



قوة والعدل كما أنه فاق أقرانه منذ حدوثه في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لعصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته في الإدارة وميادين القتال حتى أنه اشتهر أخيراً في التاريخ بلقب محمد الفاتح، لفتح القسطنطينية. وقد انتهج المنهج الذي سار عليه والده وأجداده في الفتوحات ولقد برز بعد توليه السلطة في الدولة العثمانية بقيامه بإعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة، واهتم كثيراً بالأمر المالي فعمل على تحديد موارد الدولة وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ أو الترف. وكذلك ركز على تطوير كتائب الجيش وأعاد تنظيمها ووضع سجلات خاصة بالجند، وزاد من مرتباتهم وأمدتهم بأسلحة المتوفرة في ذلك العصر. وعمل على تطوير إدارة الأقاليم وأقر بعض الولاة السابقين في أقاليمهم وعزل من ظهر منه تقصيراً أو إهمال وطور البلاط السلطاني وأمدهم بالخبرات الإدارية والعسكرية الجيدة مما ساهم في استقرار الدولة والتقدم إلى الإمام وبعد أن قطع أشواطاً مثمرة في الإصلاح الداخلي تطلع إلى المناطق المسيحية في أوروبا لفتحها ونشر الإسلام فيها، ولقد ساعدته عوامل عدة في تحقيق أهدافه، منها الضعف الذي وصلت إليه الإمبراطورية البيزنطية بسبب المنازعات مع الدول الأوروبية الأخرى، وكذلك بسبب الخلافات الداخلية التي عمت جميع مناطقها ومدنها ولم يكنف السلطان محمد بذلك بل انه عمل بمجد من أجل أن يتوج انتصاراته بفتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، والمقل الاستراتيجي الهام للتحركات الصليبية ضد العالم الإسلامي لفترة طويلة من الزمن، والتي طالما اعتزت بها الإمبراطورية البيزنطية بصورة خاصة والمسيحية بصورة عامة، وجعلها عاصمة للدولة العثمانية وتحقيق ما عجز عن تحقيقه أسلافه من قادة الجيوش الإسلامية [٢].

### أولاً: فتح القسطنطينية

تعد القسطنطينية من أهم المدن العالمية، وقد أسست في عام ٣٣٠ م على يد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول [٣]، وقد كان لها موقع عالمي فريد حتى قيل عنها: " لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها " [٤]، ومنذ تأسيسها فقد اتخذها البيزنطيون عاصمة لهم وهي من أكبر المدن في العالم وأهمها [٥] عندما دخل المسلمون في جهاد مع الدولة البيزنطية كان لهذه المدينة مكانتها الخاصة من ذلك الصراع، ولذلك فقد بشر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بفتحها في عدة مواقف، من ذلك: ما حدث أثناء غزوة الخندق [٦]، ولهذا فقد تنافس خلفاء المسلمين وقادتهم على فتحها عبر العصور المختلفة طمعاً في أن يتحقق فيهم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: لتفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش [٧].

لذلك فقد امتدت إليها يد القوات المسلمة المجاهدة منذ أيام معاوية بن أبي سفيان في أولى الحملات الإسلامية عليها سنة ٤٤ هـ ولم تنجح هذه الحملة، وقد تكررت حملات أخرى في عهده حظيت بنفس النتيجة.

كما قامت الدولة الأموية بمحاولة أخرى لفتح القسطنطينية وتعد هذه الحملة أقوى الحملات الأموية عليها، وهي تلك الحملة التي تمت في أيام سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ [٨].

واستمرت المحاولة لفتح القسطنطينية حيث شهد العصر العباسي الأول حملات جهادية مكثفة ضد الدولة البيزنطية، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى القسطنطينية نفسها وتهددها مع أنها هزتها وأثرت على الأحداث داخلها، وبخاصة تلك الحملة التي تمت في أيام هارون الرشيد [٩] سنة ١٩٠ هـ.

وقد قامت فيما بعد عدة دويلات إسلامية في آسيا الصغرى كان من أهمها دولة السلاجقة، التي امتدت سلطتها إلى آسيا الصغرى. كما أن زعيمها ألب أرسلان ٤٥٥ - ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢ م استطاع أن يهزم إمبراطور الروم ديمونوس في معركة ملاذ

د عام ٤٦٤هـ / ١٠٧٠م ثم أسره وضربه وسجنه وبعد مدة أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع جزية سنوية للسلطان السلجوقي وهذا يمثل خضوع جزء كبير من امبراطورية الروم للدولة الإسلامية السلجوقية وبعد ضعف دولة السلاجقة الكبرى ظهرت عدة دول سلجوقية كان منها دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى والتي استطاعت مد سلطتها إلى سواحل بحر إيجه غربا وإضعاف الامبراطورية الرومانية.

وفي مطلع القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي خلف العثمانيون سلاجقة الروم [١٠] وتجددت المحاولات الإسلامية لفتح القسطنطينية وكانت البداية حين جرت محاولة لفتحها في أيام السلطان بايزيد " الصاعقة " الذي تمكنت قواته من محاصرتها بقوة سنة ٧٩٦هـ - ١٣٩٣م [١١] ، وأخذ السلطان يفاوض الإمبراطور البيزنطي لتسليم المدينة سلماً إلى المسلمين، ولكنه أخذ يراوغ ويماطل ويحاول طلب المساعدات الأوروبية لصد الهجوم الإسلامي عن القسطنطينية، وفي الوقت نفسه وصلت جيوش المغول يقودها تيمورلنك إلى داخل الأراضي العثمانية وأخذت تعيث فسادا، فاضطر السلطان بايزيد لسحب قواته وفك الحصار عن القسطنطينية لمواجهة المغول بنفسه ومعه بقية القوات العثمانية، حيث دارت بين الطرفين معركة أنقرة الشهيرة، والتي أسر فيها بايزيد الصاعقة ثم مات بعد ذلك في الأسر سنة ١٤٠٢م [١٢] وكان نتيجة ذلك ان تفككت الدولة العثمانية مؤقتا، وتوقف التفكير في فتح القسطنطينية إلى حين.

وما أن استقرت الأحوال في الدولة حتى عادت روح الجهاد من جديد ، ففي أيام السلطان مراد الثاني الذي تولى الحكم في الفترة ٨٢٤هـ - ٨٦٣هـ / ١٤٢١ - ١٤٥١م جرت عدة محاولات لفتح القسطنطينية وتمكنت جيوش العثمانيين في أيامه من محاصرتها أكثر من مرة ، وكان الإمبراطور البيزنطي في أثناء تلك المحاولات يعمل على إيقاع الفتنة في صفوف العثمانيين بدعم الخارجين على السلطان [١٣] ، وبهذه الطريقة نجح في إشغاله في هدفه الذي حرص عليه ، فلم يتمكن العثمانيون من تحقيق ما كانوا يطمحون إليه إلا في زمن ابنه محمد الفاتح فيما بعد .

كان محمد الفاتح يمارس الأعمال السلطانية في حياة أبيه ومنذ تلك الفترة وهو يعيش صراع الدولة البيزنطية في الظروف المختلفة، كما كان على اطلاع تام بالمحاولات العثمانية السابقة لفتح القسطنطينية، بل ويعلم بما سبقها من محاولات متكررة في العصور الإسلامية المختلفة، وبالتالي فمنذ أن ولى السلطنة العثمانية سنة ٨٥٥هـ الموافق ١٤٥١م [١٤] كان يتطلع إلى فتح القسطنطينية ويفكر في فتحها ولقد ساهمت تربية العلماء على تنشئته على حب الإسلام والإيمان والعمل بالقرآن وسنة سيد الأنام ولذلك نشأ على حب الالتزام بالشريعة الإسلامية، واتصف بالتقى والورع، ومحبا للعلم والعلماء ومشجعا على نشر العلوم ويعود تدينه الرفيع للتربية الإسلامية الرشيدة التي تلقها منذ الصغر ، بتوجيهات من والده ، وجهود الشخصيات العلمية القوية التي أشرفت على تربيته، وصفاء أولئك الأساتذة الكبار وعزوفهم عن الدنيا وابتعادهم عن الغرور ومجاهدتهم لأنفسهم ، ممن أشرفوا على رعايته [١٥].

لقد تأثر محمد الفاتح بالعلماء الربانيين منذ طفولته ومن أخصهم العالم الرباني "أحمد بن إسماعيل الكوراني" مشهودا له بالفضيلة التامة، وكان مدرسه في عهد السلطان "مراد الثاني" والد "الفاتح". وفي ذلك الوقت كان محمد الثاني -الفاتح- ، أميراً في بلدة "مغنيسيا" وقد أرسل إليه والده عددا من المعلمين ولم يمثل أمرهم ، ولم يقرأ شيئا ، حتى أنه لم يختم القرآن الكريم ، فطلب السلطان المذكور ، رجلا له مهابة وحدة ، فذكروا له المولى "الكوراني" ، فجعله معلما لولده وأعطاه قضييا يضربه بذلك إذا خالف أمره . فذهب إليه، فدخل عليه والقضيب بيده، فقال: أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري، فضحك السلطان محمد خان من

ب الكلام، فضربه المولى الكوراني في ذلك المجلس ضرباً شديداً، حتى خاف منه السلطان محمد خان، وختم القرآن في مدة يسيرة". [١٦].

هذه التربية الإسلامية الصادقة، وهؤلاء المربون الأفاضل، ممن كان منهم بالأخص هذا العالم الفاضل، ممن يمزق الأمر السلطاني إذا وجد به مخالفة للشرع أو لا ينحني للسلطان، ويخاطبه باسم، ويصافحه ولا يقبل يده، بل السلطان يقبل يده. من الطبيعي أن يتخرج من بين جنباؤها أناس عظماء كمحمد الفاتح، وأن يكون مسلماً مؤمناً ملتزماً بمحدود الشريعة، مقيد بالأوامر والنواهي معظماً لها ومدافعاً عن إجراءات تطبيقها على نفسه أولاً ثم على رعيته، تقياً صالحاً يطلب الدعاء من العلماء العاملين الصالحين [١٧].

وبرز دور الشيخ آق شمس الدين في تكوين شخصية محمد الفاتح وبث فيه منذ صغره أمرين هما:

١ - مضاعفة حركة الجهاد العثمانية.

٢ - الإيحاء دوماً لخمده منذ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوي: (لنفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش [١٨] لذلك كان الفاتح يطمع أن ينطبق عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المذكور) [١٩].

ثانياً: الإعداد للفتح:

بذل السلطان محمد الثاني جهوده المختلفة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية، وبذل في ذلك جهوداً كبيرة في تقوية الجيش العثماني بالقوى البشرية حتى وصل تعدادده إلى قرابة ربع مليون مجاهد [٢٠] وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول في تلك الفترة، كما عني عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأسلحة التي تؤهلهم للعملية الجهادية المنتظرة كما أعتنى الفاتح بإعدادهم إعداداً معنوياً قوياً وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء الرسول صلى الله عليه وسلم على الجيش الذي يفتح القسطنطينية وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك، مما أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير في تقوية عزائم الجنود وربطهم بالجهاد الحقيقي وفق أوامر الله.

وقد اعتنى السلطان بإقامة قلعة روملي حصار في الجانب الأوروبي على مضيق البسفور في أضيق نقطة منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر الآسيوي، وقد حاول الإمبراطور البيزنطي ثي السلطان الفاتح عن بناء القلعة مقابل التزامات مالية تعهد به إلا أن الفاتح أصر على البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع، حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة، وصل ارتفاعها إلى ٨٢ متراً وأصبحت القلعتان متقابلتين ولا يفصل بينهما سوى ٦٦٠ م تتحكمان في عبور السفن من شرقي البسفور إلى غربيه وتستطيع نيران مدافعهما منع أي سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها مثل مملكة طرابزون وغيرها من الأماكن التي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة [٢١].

أ- اهتمام السلطان بجمع الأسلحة اللازمة:

اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية، ومن أهمها المدافع التي أخذت اهتماماً خاصاً منه حيث أحضر مهندساً مجرباً يدعى أوربان كان بارعاً في صناعة المدافع فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية، وقد تمكن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السلطاني المشهور، والذي ذكر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها [٢٢].

ويضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثماني حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية، تلك المدينة البحرية التي لا يكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة وقد ذكر أن السفن التي أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمئة سفينة [٢٣].

### ج- عقد معاهدات:

كما عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد، فعقد معاهدة مع إمارة غلطة المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بينهما مضيق القرن الذهبي، كما عقد معاهدات مع الجند والبندقية وهما من الإمارات الأوروبية المجاورة، ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة في الدفاع عن القسطنطينية [٢٤] مشاركة لبني عقيدتهم من النصارى متناسين عهودهم وموآثيقهم مع المسلمين.

في هذه الأثناء التي كان السلطان يعد العدة فيها للفتح استمات الإمبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره [٢٥] ولكن السلطان كان عازماً على تنفيذ مخططه ولم تنه هذه الأمور عن هدفه، ولما رأى الإمبراطور البيزنطي شدة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوروبية وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي، في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينهما عداوة شديدة وقد أضطر الإمبراطور لجمالة البابا بأن يتقرب إليه ويظهر له استعدادده للعمل على توحيد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لتصبح خاضعة له، في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك، وقد قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنطينية، خطب في كنيسة آيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن توحيد الكنيستين، مما أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة، وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الإمبراطوري الكاثوليكي المشترك، حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس: إنني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمامة الترك على أن أشاهد القبة اللاتينية [٢٦].

### ثانياً: الهجوم:

كان القسطنطينية محاطة بالمياه البحرية في ثلاث جهات، مضيق البسفور، وبحر مرمرة، والقرن الذهبي الذي كان محمياً بسلسلة ضخمة جداً تتحكم في دخول السفن إليه، بالإضافة إلى ذلك فإن خطين من الأسوار كانت تحيط بها من الناحية البرية من شاطئ بحر مرمرة إلى القرن الذهبي، يتخللها نهر ليكوس، وكان بين السورين فضاء يبلغ عرضه ٦٠ قدماً ويرتفع السور الداخلي منها ٤٠ قدماً وعليه أبراج يصل ارتفاعها إلى ٦٠ قدماً، وأما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة خمس وعشرين قدماً وعليه أبراج موزعة مليئة بالجند [٢٧]، وبالتالي فإن المدينة من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصيناً، لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون إضافة إلى التحصينات الطبيعية، وبالتالي فإنه يصعب اختراقها، ولذلك فقد استعصت على عشرات محاولات العسكرية لاقتحامها ومنها إحدى عشرة محاولة إسلامية سابقة كان السلطان الفاتح يكمل استعدادات القسطنطينية ويعرف أخبارها ويجهز الخرائط اللازمة لحصارها، كما كان يقوم بنفسه بزيارات استطلاعية يشاهد فيها استحکامات القسطنطينية وأسوارها [٢٨]، وقد عمل السلطان على تهديد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية لكي تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينية، وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينية، في مدة شهرين حيث تمت حمايتها بقسم الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية في يوم الخميس ٢٦ ربيع الأول ٨٥٧هـ الموافق ٦ أبريل ١٤٥٣ م، فجمع الجند وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألف جندي، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة، وذكرهم فيها بالتضحية

سدد القتال عند اللقاء، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحت على ذلك، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عز للإسلام والمسلمين ، وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء [٢٩].

وكان العلماء ميثوثين في صفوف الجيش مقاتلين ومجاهدين معهم مما أثر في رفع معنوياتهم حتى كان كل جندي ينتظر القتال بفارغ الصبر ليؤدي ما عليه من واجب [٣٠].

وفي اليوم التالي قام السلطان بتوزيع جيشه البري أمام الأسوار الخارجية للمدينة، مشكلاً ثلاثة أقسام رئيسية تمكنت من إحكام الحصار البري حول مختلف الجهات، كما أقام الفاتح جيوشاً احتياطية خلف الجيوش الرئيسية، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع السلطاني العملاق الذي أقيم أمام باب طب قاي ، كما وضع فرقاً للمراقبة في مختلف المواقع المرتفعة والقريبة من المدينة، وفي نفس الوقت انتشرت السفن العثمانية في المياه المحيطة بالمدينة، إلا أنها لم تستطع الوصول الى القرن الذهبي بسبب وجود السلسلة الضخمة التي منعت أي سفينة من دخوله بل وتدمر كل سفينة تحاول الدنو والاقتراب، واستطاع الاسطول العثماني أن تستولي على جزر الامراء في بحر مرمره [٣١].

وحاول البيزنطيون أن يبذلوا قصارى جهدهم للدفاع عن القسطنطينية ووزعوا الجنود على الأسوار، واحكموا التحصينات وأحكم الجيش العثماني قبضته على المدينة، ولم يخلوا الامر من وقوع قتال بين العثمانيين المهاجمين والبيزنطيين المدافعين منذ الايام الأولى للحصار، وفتحت أبواب الشهادة وفاز عدد كبير من العثمانيين بما خصوصاً من الأفراد الموكلين بالاقتراب من الابواب.

وكانت المدفعية العثمانية تطلق مدافعها من مواقع مختلفة نحو المدينة ، وكان لقتالها ولصوتها الرهيب دور كبير في إيقاع الرعب في قلوب البيزنطيين وقد تمكنت من تحطيم بعض الأسوار حول المدينة، ولكن المدافعين كانوا سرعان ما يعيدون بناء الأسوار وترميمها.

ولم تنقطع المساعدات المسيحية من أوروبا ووصلت إمدادات من جنوة مكونة من خمس سفن وكان يقودها القائد الجنوبي جوستينيان يرافقه سبعمائة مقاتل متطوع من دول أوروية متعددة واستطاعت سفنهم أن تصل الى العاصمة البيزنطية العتيقة بعد مواجهة بحرية مع السفن العثمانية المحاصرة للمدينة وكان لوصول هذه القوة أثر كبير في رفع معنويات البيزنطيين، وقد عين قائدها جوستيان قائداً للقوات المدافعة عن المدينة [٣٢].

وقد حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلسلة الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الإسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن الأوروبية والبيزنطية ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية وارتفعت الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة [٣٣].

ولم يكل القس ورجال الدين النصارى، فكانوا يطوفون بشوارع المدينة، وأماكن التحصين ويجرضون المسيحيين على الثبات والصبر، ويشجعون الناس على الذهاب الى الكنائس ودعاء المسيح والسيدة العذراء أن يخلصوا المدينة، وأخذ الامبراطور قسطنطين يتردد بنفسه على كنيسة أيا صوفيا لهذا الهدف [٣٤].

### ثالثاً: مفاوضات بين محمد الفاتح وقسطنطين:

استبسل العثمانيون المهاجمون على المدينة وعلى رأسهم محمد الفاتح وصمد البيزنطيون بقيادة قسطنطين صموداً بطولياً في الدفاع وحاول الإمبراطور البيزنطي أن يخلص مدينته وشعبه بكل ما يستطيع من حيلة، فقدم عروضاً مختلفة للسلطان ليغريه بالانسحاب



بل الأموال أو الطاعة، أو غير ذلك من العروض التي قدمها ، ولكن الفاتح رحمه الله يرد بالمقابل طالباً تسليم المدينة تسليماً [٣٦] ، وأنه في هذه الحالة لن يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذى ، وكان مضمون الرسالة: فليسلم لي إمبراطورك مدينة القسطنطينية وأقسم بأن جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه وماله وعرضه ومن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام ومن شاء رحل عنها حيث اراد في أمن وسلام أيضاً [٣٦] .

كان الحصار لايزال ناقصاً ببقاء مضيق القرن الذهبي في ايدي البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإن الهجوم العثماني كان مستمراً دون هوادة حيث أظهر جنود الانكشارية شجاعة فائقة، وبسالة نادرة، فكانوا يقدمون على الموت دون خوف في أعقاب كل قصف مدفعي، وفي يوم ١٨ أبريل [٣٧] تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطية عند وادي ليكوس في الجزء الغربي من الأسوار ، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بكل بسالة محاولين اقتحام المدينة من الثغرة، كما حاولوا اقتحام الأسوار الأخرى بالسلام التي ألقوها عليها، ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة جستينان استماتوا في الدفاع عن الثغرة والأسوار، واشتد القتال بين الطرفين ، وكانت الثغرة ضعيفة وكثرة السهام والنبال والمقذوفات على الجنود المسلمين، ومع ضيق المكان وشدة مقاومة الأعداء وحلول الظلام أصدر الفاتح أوامره للمهاجمين بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب في قلوب أعدائهم متحينين فرصة أخرى للهجوم [٣٨] .

وفي اليوم نفسه حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبي بتحطيم السلسلة الحاجزة عنه، ولكن السفن البيزنطية والأوروبية المشتركة، إضافة الى الفرق الدفاعية المتمركزة خلف السلسلة الضخمة من المدافعين عن مدخل الخليج، استطاعوا جميعاً من صد السفن الاسلامية وتدمير بعضها، فاضطرت بقية السفن الى العودة بعد أن فشلت في تحقيق مهمتها [٣٩] .

#### رابعاً: عزل قائد الأسطول العثماني وشجاعة محمد الفاتح:

بعد هذه المعركة بيومين وقعت معركة أخرى بين البحرية العثمانية وبعض السفن الأوروبية التي حاولت الوصول الى الخليج، حيث بذلت السفن الإسلامية جهوداً كبيرة لمنعها ، وأشرف الفاتح بنفسه على المعركة من على الساحل وكان قد أرسل إلى قائد الأسطول وقال له: إما أن تستولي على هذه السفن وإما أن تغرقها، وإذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حياً [٤٠] لكن السفن الأوروبية نجحت في الوصول إلى هدفها ولم تتمكن السفن العثمانية من منعها، رغم الجهود العظيمة المبذولة لذلك وبالتالي غضب السلطان محمد الفاتح غضباً شديداً فعزل قائد الاسطول [٤١] بعد ما رجع إلى مقر قيادته واستدعاه وعنف محمد الفاتح قائد الاسطول بالطله أوغلي وعنفه واتهمه بالجبن، وتأثر بالطة أوغلي لهذا وقال : إني استقبل الموت بجان ثابت، ولكن يؤلمي أن أموت وأنا متهم بمثل هذه التهمة. لقد قاتلت انا ورجالي بكل ماكان في وسعنا من حيلة وقوة، ورفع طرف عمامته عن عينه المصابة [٤٢] .

أدرك محمد الفاتح عند ذلك أن الرجل قد أعذر، فتركه ينصرف واكتفى بعزله من منصبه، وجعل مكانه حمزة باشا [٤٣] .

لقد ذكرت كتب التاريخ أن السلطان محمد الفاتح كان يراقب هذه المعارك البحرية وهو على جواده وقد اندفع نحو البحر حتى غاص حصانه الى صدره وكانت السفن المتقاتلة على مرمى حجر منه فأخذ يصيح لبطله أوغلي بأعلى صوته: يا قبطان! يا قبطان! ويلوح له بيده، وضاعف العثمانيون جهودهم في الهجوم دون أن يؤثر في السفن تأثيراً لئياً [٤٤] .

كانت الهزائم البحرية للأسطول العثماني دور كبير في محاولة بعض مستشاري السلطان وعلى رأسهم الوزير خليل باشا اقتناعه بالعدول عن الاستيلاء على القسطنطينية والرضا بمصالحة أهلها دون السيطرة عليها وبالتالي رفع الحصار عنها، ولكن السلطان أصر على محاولة الفتح واستمر في قصف دفاعات المدينة بالمدافع من كل جانب ، وفي الوقت نفسه كان يفكر بجدية في إدخال السفن الإسلامية إلى القرن الذهبي ، خصوصاً وأن الأسوار من ناحية القرن الذهبي متهاوية، وبالتالي سيضطر البيزنطيون إلى سحب بعض

أتم المدافعة عن الاسوار الغربية من المدينة وبهذا التفريق للقوات المدافعة ستتهيا فرصة أكبر في الهجوم على تلك الأسوار بعد ينقص عدد المدافعين عنها [٤٥].

#### خامساً: عبقرية حربية فذة:

لاحظت للسلطان فكرة بارعة وهي نقل السفن من مرساها في بشكطاش إلى القرن الذهبي، وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين الميناءين مبتعداً عن حي غلطة خوفاً على سفنه من الجنوبيين، وقد كانت المسافة بين الميناء نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضاً ميسورة سهلة ولكنها كانت وهاذاً وتلاًلاً غير ممهدة.

جمع محمد الفاتح أركان حربه وعرض عليهم فكرته، وحدد لهم مكان معركته القادمة، فتلقى منهم كل تشجيع، وأعربوا عن إعجابهم بها.

بدأ تنفيذ الخطة، وأمر السلطان محمد الثاني فمهدت الأرض وسويت في ساعات قليلة وأتى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق المهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، وكان أصعب جزء من المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة، الا أنه بصفة عامة كانت السفن العثمانية صغيرة الحجم خفيفة الوزن [٤٦].

وجرت السفن من البسفور إلى البر حيث سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزيت مسافة ثلاثة أميال، حتى وصلت إلى نقطة آمنة فأنزلت في القرن الذهبي، وتمكن العثمانيون في تلك الليلة من سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من العدو، بطريقة لم يسبق إليها السلطان الفاتح قبل ذلك، وقد كان يشرف بنفسه على العملية التي جرت في الليل بعيداً عن أنظار العدو ومراقبته [٤٧].

كان هذا العمل عظيماً بالنسبة للعصر الذي حدث فيه بل معجزة من المعجزات، تجلّى فيه سرعة التفكير وسرعة التنفيذ، مما يدل على عقلية العثمانيين الممتازة، ومهارتهم الفائقة وهمتهم العظيمة. لقد دهش الروم دهشة كبرى عندما علموا بها، فما كان أحد يستطيع تصديق ماتم. لكن الواقع المشاهد جعلهم يدعون لهذه الخطة الباهرة.

ولقد كان منظر هذه السفن بأشرعتها المرفوعة تسير وسط الحقول كما لو كانت تمخر عباب البحر من أعجب المناظر وأكثرها إثارة ودهشة. ويرجع الفضل في ذلك إلى الله سبحانه وتعالى ثم إلى همة السلطان وذكاءه المفرط، وعقليته الجبارة، وإلى مقدرة المهندسين العثمانيين، وتوفر الأيدي العاملة التي قامت بتنفيذ ذلك المشروع الضخم بحماس ونشاط.

وقد تم كل ذلك في ليلة واحدة واستيقظ أهل المدينة البائسة صباح يوم ٢٢ أبريل على تكبيرات العثمانيين المدوية، وهتافهم المتصاعدة، وأناشيدهم الإيمانية العالية [٤٨]، في القرن الذهبي، وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين [٤٩]، ولقد عبر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال: ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحر وتعب سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الأسكندر الأكبر [٥٠].

ظهر اليأس في أهل القسطنطينية وكثرت الإشاعات والتنبؤات بينهم، وانتشرت شائعة تقول: ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفن تمخر اليابسة [٥١] وكان لوجود السفن الإسلامية في القرن الذهبي دور كبير في إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن المدينة

بين اضطروا لسحب قوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار الأخرى لكي يتولوا الدفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبي. أما كانت أضعف الأسوار ، ولكنها في السابق تحميها المياه، مما أوقع الخلل في الدفاع عن الأسوار الأخرى [٥٢].

وقد حاول الإمبراطور البيزنطي تنظيم أكثر من عملية لتدمير الأسطول العثماني في القرن الذهبي إلا أن محاولته المستميتة كان العثمانيون لها بالمرصاد حيث أفلحوا كل الخطط والحاولات.

واستمر العثمانيون في ذلك نقاط دفاع المدينة وأسوارها بالمدايع، وحاولوا تسلق أسوارها، وفي الوقت نفسه انشغل المدافعون عن المدينة في بناء وترميم مايتهدم من أسوار مدينتهم ورد المحاولات المكثفة لتسليق الأسوار مع استمرار الحصار عليهم مما زاد في مشقتهم وتعبهم وإرهاقهم وشغل ليلهم مع نهارهم وأصابهم اليأس [٥٣].

كما وضع العثمانيون مدافع خاصة على الهضاب المجاورة للبسفور والقرن الذهبي، مهمتها تدمير السفن البيزنطية والمتعاونة معها في القرن الذهبي والبسفور والمياه المجاورة مما عرقل حركة سفن الأعداء وأصابها بالشلل تماماً [٥٤].

#### سادساً: اجتماع بين الملك قسطنطين ومعاونه:

عقد الملك قسطنطين ومعاونه ومستشاريه ورجال النصرانية في المدينة اجتماعاً، فأشاروا عليه بالخروج بنفسه من المدينة والتوجه لطلب النجدة من الأمم المسيحية، والدول الأوروبية، ولعل تأتي الجيوش النصرانية، فيضطر محمد الفاتح لرفع الحصار عن مدينتهم، ولكنه رفض هذا الرأي وأصر على أن يقاوم الى آخر لحظة ولا يترك شعبه في المدينة حتى يكون مصيره ومصيرهم واحداً، وأنه يعتبر هذا واجبه المقدس وأمرهم أن لا ينصحوه بالخروج أبداً وأكتفى بإرسال وفود تمثله الى مختلف أنحاء أوروبا لطلب المساعدة [٥٥] ورجعت تلك الوفود تجر خلفها أذيال الحيرة وكانت الأجهزة الاستخباراتية للدولة العثمانية قد اخترقت القسطنطينية وما حولها بحيث أصبحت القيادة العثمانية على علم تام بما يدور حولها.

#### سابعاً: الحرب النفسية العثمانية:

ضاعف السلطان محمد الثاني الهجوم على الاسوار وجعله مركزاً وعنيفاً، ضمن خطة أعدها بنفسه أيضاً لإضعاف العدو، وكررت القوات العثمانية عملية الهجوم على الأسوار ومحاولة تسليقها مرات عديدة بصورة بطولية بلغت غاية عظيمة من الشجاعة والتضحية والتفاني، وكان أكثر ما يربع جنود الامبراطور قسطنطين صيحاتهم وهي تشق عنان السماء وتقول: الله أكبر الله أكبر فتزل عليهم كالصواعق المدمرة [٥٦].

وشرع السلطان محمد الفاتح في نصب المدافع القوية على الهضاب الواقعة خلف غلطة، وبدأت هذه المدافع في دفع قذائفها الكثيفة نحو الميناء وأصابت احدى القذائف سفينة تجارية فأغرقتها في الحال، فخافت السفن الأخرى واضطرت للفرار، واتخذت من أسوار غلطة ملجأ لها، وظل الهجوم العثماني البري في موجات خاطفة وسريعة هجمة تلوى الأخرى وكان السلطان محمد الفاتح يوالي الهجمات وإطلاق القذائف في البر والبحر دون انقطاع ليلاً ونهاراً من أجل إهلاك قوى المحاصرين، وعدم تمكينهم من أن ينالوا أي قسط من راحة وهدوء بال، وهكذا أصبحت عزائمهم ضعيفة ونفوسهم مرهقة كليله، وأعصابهم متوترة مجهودة تنور لأي سبب، واصبح كل واحد من الجنود ينظر الى صاحبه ويلاحظ على وجهه علامات الذل والهزيمة والفشل، وشرعوا يتحدثون علناً عن طرق النجاة والإفلات بأرواحهم وما يتوقعونه من العثمانيين اذا ما اقتحموا عليهم مدينتهم.

اضطر الامبراطور قسطنطين الى عقد مؤتمر ثاني، اقترح فيه احد القادة مباغنة العثمانيين بهجوم شديد عنيف لفتح ثغرة توصلهم بالعالم الخارجي وبينما هم في مجلسهم يتدارسون هذا الاقتراح، قطع عليهم أحد الجنود اجتماعهم وأعلمهم بأن العثمانيين شنوا هجوماً شديداً مكثفاً على وادي ليكونس، فترك قسطنطين الاجتماع ووثب على فرسه، واستدعى الجند الاحتياطي ودفع بهم الى مكان القتال، واستمر القتال الى آخر الليل حتى انسحب العثمانيون [٥٧].

وكان السلطان محمد -رحمه الله- يفاجئ عدوه من حين لآخر بفن جديد من فنون القتال والحصار، وحرب الأعصاب وبأساليب جديدة وطرق حديثة مبتكرة غير معروفة للعدو [٥٨].

ففي المراحل المتقدمة من الحصار لجأ العثمانيون الى طريقة عجيبة في محاولة دخول المدينة حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من مناطق مختلفة الى داخل المدينة وسمع سكانها ضربات شديدة تحت الأرض أخذت تقترب من داخل المدينة بالتدريج، فأسرع الامبراطور بنفسه ومعه قواده ومستشاروه الى ناحية الصوت وأدركوا أن العثمانيين يقومون بحفر أنفاق تحت الأرض، للوصول الى داخل المدينة، فقرر المدافعون الإعداد لمواجهة بحفر أنفاق مماثلة مقابل أنفاق المهاجمين لمواجهة دون أن يعلموا، حتى إذا وصل العثمانيون الى الأنفاق التي أعدت لهم ظنوا أنهم وصلوا الى سرايب خاصة وسرية تؤدي الى داخل المدينة ففروا بهذا، ولكن الفرحة لم تطل إذ فاجأهم الروم، فصبوا عليهم ألسنة النيران والنفط المحترق والمواد الملتهبة، فأختنق كثير منهم واحترق قسم آخر وعاد الناجون منهم أدراجهم من حيث أتوا [٥٩].

لكن هذا الفشل لم يفت في عضد العثمانيين، فعادوا حفر إنفاق أخرى، وفي مواضع مختلفة، من المنطقة الممتدة بين أكرى فبو وشاطئ القرن الذهبي وكانت مكاناً ملائماً للقيام بمثل هذا العمل، وظلوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار وقد أصاب أهل القسطنطينية من جراء ذلك خوف عظيم وفرع لا يوصف حتى صاروا يتوهمون أن أصوات أقدامهم وهم يمشون ان هي أصوات خفية لحفر يقوم به العثمانيون، وكثيراً ما كان يخيل لهم إن الأرض ستتشق ويخرج منها الجند العثمانيون ويملئون المدينة، فكانوا يتلفتون بمنة ويسرة، ويشيرون هنا وهناك في فرع ويقولون: هذا تركي، ...، هذا تركي ويجرون هرباً من أشباح يحسبونها انها تطارهم، وكثيراً ما كان يحدث أن تتناقل العامة الإشاعة فتصبح كأنها حقيقة واقعة رآها احدهم بعيني رأسه وهكذا داخل سكان القسطنطينية فرع شديد أذهب وعيهم، حتى لكأنهم سكارى وماهم بسكارى، فريق يجري، وفريق يتأمل السماء، ومجموعة تتفحص الأرض، والبعض ينظر في وجوه البعض الآخر في عصبية زائدة وفشل ذريع.

ولم يكن عمل العثمانيين هذا سهلاً، فان هذه الإنفاق التي حفروها قد أودت بحياة كثير منهم، فماتوا اختناقاً واحترقاً في باطن الأرض، كما وقع الكثير منهم في بعض هذه المحاولات في أسر الروم، فقطعت رؤوسهم وقذف بها إلى معسكر العثمانيين [٦٠].

### مفاجأة عسكرية عثمانية:

لجأ العثمانيون إلى أسلوب جديد في محاولة الاقتحام وذلك بأن صنعوا قلعة خشبية ضخمة شامخة متحركة تتكون من ثلاثة أدوار، وبارتفاع أعلى من الأسوار، وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها النيران، وأعدت تلك القلعة بالرجال في كل دور من أدوارها، وكان الذين في الدور العلوي من الرماة يقذفون بالنبال كل من يطل برأسه من فوق الأسوار، وقد وقع الرعب في قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف العثمانيون بهذه القلعة واقتربوا بها من الأسوار عند باب رومانوس، فاتجه الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ليتابع صد تلك القلعة ودفعها عن الأسوار، وقد تمكن العثمانيون من لصقها بالأسوار ودار بين من فيها وبين النصارى عند الأسوار قتل شديد واستطاع بعض المسلمين من في القلعة تسليق الأسوار ونجحوا في ذلك، وقد ظن قسطنطين أن الهزيمة حلت

، إلا أن المدافعين كنفوا من قذف القلعة بالنيران حتى أثرت فيها وتمكنت منها النيران فاحترقت، ووقعت على الأبراج البيزنط المجاورة لها فقتلت من فيها من المدافعين، وامتلاء الخندق المجاور لها بالحجارة والتراب [٦١].

ولم ييأس العثمانيون من المحاولة بل قال الفاتح وكان يشرف بنفسه على مواقع: غداً نصنع أربعاً أخرى [٦٢].

زاد الحصار وقوي واشتد حتى أرهق من بداخل المدينة من البيزنطيين، فعقد زعماء المدينة اجتماعاً ٢٤ مايو داخل قصر الإمبراطور وبحضوره شخصياً، وقد لاح في الأفق بوادر يأس المجتمعين من إنقاذ المدينة حيث اقترح بعضهم على الإمبراطور الخروج بنفسه قبل سقوط المدينة لكي يحاول جمع المساعدات والنجدات لإنقاذها أو استعادتها بعد السقوط، ولكن الإمبراطور رفض ذلك مرة أخرى وأصر على البقاء داخل المدينة والاستمرار في قيادة شعبه وخرج لتفقد الأسوار والتحصينات.

وأخذت الاضاعات تهيمن على المدينة وتضعف من مقاومة المدافعين عنها، وكان من أقواها عليهم ما حدث في يوم ١٦ جمادى الأولى الموافق ٢٥ مايو، حيث حمل أهل المدينة تمثالاً للسيدة مريم العذراء بزعمهم، وأخذوا يتجولون به في ضواحي المدينة، يدعونه ويتضرعون الى العذراء أن تنصرهم على أعدائهم، وفجأة سقط التمثال من أيديهم وتحطم، فرأوا في ذلك شؤم ونذير بالخطر، وتأثر سكان المدينة وخصوصاً المدافعين عنها، وحدث في اليوم التالي ٢٦ مايو هطول أمطار غزيرة مصحوبة ببعض الصواعق، ونزلت إحدى الصواعق على كنيسة آيا صوفيا، فتشأم البطريق ، وذهب الى الإمبراطور وأخبره أن الله تخلى عنهم وأن المدينة ستسقط في يد المجاهدين العثمانيين، فتأثر الإمبراطور حتى أغشى عليه [٦٣].

وكانت المدفعية العثمانية لا تنفك عن عملها في ذلك الأسوار والتحصينات، وتقدمت أجزاء كثيرة من السور والأبراج وامتلات الخنادق بالأنقاض، التي يئس المدافعون من إزالتها وأصبحت إمكانية اقتحام المدينة واردة في أي لحظة، إلا أن اختيار موقع الاقتحام لم يحدد بعد [٦٤].

### ثامناً: المفاوضات الأخيرة بين محمد الفاتح وقسطنطين:

أيقن محمد الفاتح أن المدينة على وشك السقوط، ومع ذلك حاول أن يكون دخولها بسلام؛ فكتب إلى الإمبراطور رسالة دعاه فيه الى تسليم المدينة دون إراقة دماء، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة الى حيث يشاؤون بأمان [٦٥]، وأن تحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذى ويكونوا بالخيار في البقاء في المدينة أو الرحيل عنها، ولما وصلت الرسالة إلى الإمبراطور جمع المستشارين وعرض عليهم الأمر ، فمال بعضهم الى التسليم وأصر آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت، فمال الإمبراطور الى رأي القائلين بالقتال حتى آخر لحظة، فرد الإمبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها: إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس في حياته فإما أن يحفظ عرشه او يدفن تحت أسوارها [٦٦]، فلما وصلت الرسالة إلى الفاتح قال: حسناً عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش او يكون لي فيها قبر [٦٧].

وعمد السلطان بعد اليأس من تسليم المدينة صلحاً الى تكثيف الهجوم وخصوصاً القصف المدفعي على المدينة، حتى أن المدفع السلطاني الضخم انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل المشتغلين له وعلى رأسهم المهندس المجري أوربان الذي تولى الإشراف على تصميم المدفع، ومع ذلك فقد وجه السلطان بإجراء عمليات التبريد للمدافع بزيت الزيتون، وقد نجح الفنيون في ذلك ، وواصلت المدافع قصفها للمدينة مرة أخرى، بل تمكنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة الى ضربها للأسوار والقلاع [٦٨].



## سعاً: السلطان محمد الفاتح يعقد اجتماع لمجلس الشورى:

عقد السلطان محمد الفاتح اجتماعاً ضم مستشاريه وكبار قواده بالإضافة إلى الشيوخ والعلماء، وقد طلب الفاتح من المجتمعين الإدلاء بآرائهم بكل صراحة دون تردد، فأشار بعضهم بالانسحاب ومنهم الوزير خليل باشا الذي دعا إلى الانسحاب وعدم إراقة الدماء والتحذير من غضب أوروبا النصرانية فيما لو استولى المسلمون على المدينة، إلى غير ذلك من المبررات التي طرحها، وكان متهماً بمواطنة البيزنطيين ومحاولة التخذيل عنهم [٦٩]، وقد قام بعض الحضور بتشجيع السلطان على مواصلة الهجوم على المدينة حتى الفتح واستهان بأوروبا وقواتها، كما أشار إلى تحمس الجند لإتمام الفتح، وما في التراجع من تحطيم لمعنوياتهم الجهادية، وكان من هؤلاء أحد القواد الشجعان ويدعى زوغنوش باشا وهو من أصل ألباني كان نصرانياً فأسلم حيث هون من شأن القوات الأوروبية على السلطان [٧٠].

وذكرت كتب التاريخ موقف زوغنوش باشا فقالت: ما أن سأله السلطان الفاتح عن رأيه حتى استوفز في قعدته وصاح في لغة تركية تشوبها لكنة أرناؤوطية: حاشا وكلا أيها السلطان، أنا لا أقبل أبداً مقالته خليل باشا، فما أتينا هنا إلا لنموت لا لنرجع. وأحدث هذا الاستهلال وقعاً عميقاً في نفوس الحاضرين، وخيم السكون على المجلس لحظة ثم واصل زوغنوش باشا كلامه فقال: إن خليل باشا أراد بما قاله أن يحمد فيكم نار الحمية ويقتل الشجاعة ولكنه لن ييؤ إلا بالخيبة والخسران. إن جيش الاسكندر الكبير الذي قام من اليونان وزحف إلى الهند وقهر نصف آسيا الكبيرة الواسعة لم يكن أكبر من جيشنا فإن كان ذلك الجيش استطاع أن يستولي على تلك الأراضي العظيمة الواسعة أفلا يستطيع جيشنا أن يتخطى هذه الكومة من الأحجار المتراكمة، وقد أعلن خليل باشا أن دول الغرب ستزحف إلينا وتنتقم ولكن مالدول الغربية هذه؟ وهل هي الدول اللاتينية التي شغلها ماينها من خصام وتنافس، هل هي دول البحر المتوسط التي لا تقدر على شيء غير القرصنة واللصوصية؟ ولو أن تلك الدول أرادت نصرة بيزنطة لفعلت وأرسلت إليها الجند والسفن، ولنفرض أن أهل الغرب بعد فتحنا القسطنطينية هبوا إلى الحرب وقاتلونا فهل سنقف منهم مكتوفي الأيدي بغير حراك، أو ليس لنا جيش يدافع عن كرامتنا وشرفنا؟

يا صاحب السلطنة، أما وقد سالتني رأيي فأعلنها كلمة صريحة، يجب أن تكون قلوبنا كالصخر، ويجب أن نواصل الحرب دون أن يظهر علينا أقل ضعف أو خور، لقد بدأنا أمراً فواجب علينا أن نتمه، ويجب أن نزيد هجمتنا قوة وشدة ونفتح ثغرات جديدة وننقض على العدو بشجاعة. لا أعرف شيئاً غير هذا، ولا أستطيع أن أقول شيئاً غير هذا .... [٧١].

وبدأت على وجه الفاتح أمارات البشر والانشراح لسماع هذا القول، والنفت إلى القائد طرخان يسأله رأيه فأجاب على الفور: إن زوغنوش باشا قد أصاب فيما قال وأنا على رأيه ياسلطاني. ثم سأل الشيخ آق شمس الدين والمولى الكوراني عن رأيهما. وكان الفاتح يثق بهما كل الثقة فأجابا أنهما على رأي زوغنوش باشا وقالوا: يجب الاستمرار في الحرب، وبالغاية الصمدانية سيكون لنا النصر والظفر [٧٢].

وسرت الحمية والحماس في جميع الحاضرين وابتهج السلطان الفاتح واستبشر بدعاء الشيخين بالنصر والظفر ولم يملك نفسه من القول: من كان من اجدادي في مثل قوتي [٧٣]؟

لقد أيد العلماء الرأي القائل بمواصلة الجهاد كما فرح السلطان حيث كان يعبر عن رأيه ورغبته في مواصلة الهجوم حتى الفتح، وانتهى الاجتماع بتعليمات من السلطان أن الهجوم العام والتعليمات بافتحام المدينة باتت وشيكة وسيأمر بها فور ظهور الفرصة المناسبة وأن على الجنود الاستعداد لذلك [٧٤].

أشراً : محمد الفاتح يوجه تعليماته ويتابع جنوده بنفسه:

في يوم الاحد ١٨ جمادى الأولى ٢٧ من مايو وجه السلطان محمد الفاتح الجنود إلى الخشوع وتطهير النفوس والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة وعموم الطاعات والتذلل والدعاء بين يديه ، لعل الله أن يسر لهم الفتح ، وانتشر هذا الأمر بين عامة المسلمين ، كما قام الفاتح بنفسه ذلك اليوم بتفقد أسوار المدينة ومعرفة آخر أحوالها ، وما وصلت إليه وأوضاع المدافعين عنها في النقاط المختلفة ، وحدد مواقع معينة يتم فيها تركيز القصف العثماني ، تفقد فيها أحوالهم وحنثهم على الجِد والتضحية في قتال الأعداء ، كما بعث إلى آل غلطة التي وقفت على الحياد مؤكداً عليهم عدم التدخل فيما سيحدث ضامناً لهم الوفاء بعهده معهم ، وأنه سيعوضهم عن كل ما يخسرونه من جراء ما يحدث. وفي مساء اليوم نفسه أوقد العثمانيون نارا كثيفة حول معسكرهم وتعالى صيحاتهم وأصواتهم بالنهليل والتكبير [٧٥] ، حتى خيل للروم أن النار قد اندلعت في معسكر العثمانيين ، فإذا بهم يكتشفون أن العثمانيين يحتفلون بالنصر مقدماً ، مما أوقع الرعب في قلوب الروم ، وفي اليوم التالي ٢٨ مايو كانت الاستعدادات العثمانية على أشدها والمدافع ترمي البيزنط بنيرانها ، والسلطان يدور بنفسه على المواقع العسكرية المختلفة متفقداً وموجهاً ومذكراً بالإخلاص والدعاء والتضحية والجهاد [٧٦].

وكان الفاتح كلما مر بجمع من جنده خطبهم وأثار فيهم الحمية والحماس ، وأبان لهم أنهم بفتح القسطنطينية سينالون الشرف العظيم والمجد الخالد ، والثواب الجزيل من الله تعالى وستسد دسائس هذه المدينة التي طالما مالأت عليهم الأعداء والمتآمرين وسيكون لأول جندي ينصب راية الإسلام [٧٧] على سور القسطنطينية الجزاء الأوفى والإقطاعات الواسعة.

وكان علماء المسلمين وشيوخهم يتجولون بين الجنود ويقرأون على المجاهدين آيات الجهاد والقتال وسورة الأنفال ، ويذكروهم بفضل الشهادة في سبيل الله وبالشهداء السابقين حول القسطنطينية وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصاري ويقولون للمجاهدين : لقد نزل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عند هجرته إلى المدينة في دار أبي أيوب الأنصاري ، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ونزل هنا ، وكان هذا القول يلهب الجند ويبعث في نفوسهم أشد الحماس والحمية [٧٨].

وبعد أن عاد الفاتح إلى خيمته ودعا إليه كبار رجال جيشه أصدر إليهم التعليمات الأخيرة ، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية: "إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً ، أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً وشرفاً ، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شربعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم ، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسهوا بأذى ، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون . . . [٧٩].

وفي هذا الوقت كان الإمبراطور البيزنطي يجمع الناس في المدينة لإقامة ابتهاج عام دعا فيه الرجال والنساء والصبيان للدعاء والتضرع والبكاء في الكنائس على طريقة النصارى لعله أن يستجاب لهم فتتجوز المدينة من هذا الحصار ، وقد خطب فيهم الإمبراطور خطبة بليغة كانت آخر خطبة خطبها ، حديث أكد عليهم بالدفاع عن المدينة حتى لو مات هو ، والاستماتة في حماية النصرانية أمام المسلمين العثمانيين ، وكانت خطبة رائعة كما يقول المؤرخون أبكت الجميع من الحاضرين ، كما صلى الإمبراطور ومن معه من النصارى الصلاة الأخيرة في كنيسة آياصوفيا أقدس الكنائس عندهم [٨٠] ثم قصد الإمبراطور قصره يزوره الزيارة الأخيرة فودع جميع من فيه واستصفحهم وكان مشهداً مؤثراً وقد كتب مؤرخو النصارى عن هذا المشهد ، فقال من حضره ، لو أن شخصاً قلبه من خشب أو صخر لفاضت عيناه بالدموع لهذا المنظر [٨١].

وتوجه قسطنطين نحو صورة يزعمون أنها صورة المسيح معلقة في أحد الغرف فركع تحتها وهمهم بعض الدعوات ثم نهض ولبس المغفر على رأسه وخرج من القصر عند نحو منتصف الليل مع زميله ورفيقه وأمينه المؤرخ فرانتزس ثم قاما برحلة تفقدية لقوات النصارى

دافعة ولا حظوا حركة الجيش العثماني النشطة المتوثبة للهجوم البري والبحري . وقيل ذلك الليل بقليل رذت السماء رذا خف كائما كانت ترش الأرض رشا فخرج السلطان الفاتح من خيمته ورفع بصره إلى السماء وقال: لقد أولانا الله رحمته وعنايته فأنزل هذا المطر المبارك في أوانه فإنه سيذهب بالغبار ويسهل لنا الحركة [٨٢].

### الحادي عشر: "فتح من الله ونصر قريب"

عند الساعة الواحدة صباحا من يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو ١٤٣٥م بدأ الهجوم العام على المدينة بعد أن أصدرت الأوامر للمجاهدين الذين علت أسواقهم بالتكبير وانطلقوا نحو الأسوار ، وخاف البيزنطيون خوفا عظيما ، وشرعوا في دق نواقيس الكنائس والتجأ إليها كثير من النصارى وكان الهجوم النهائي متزامنا برياً وبحرياً في وقت واحد حسب خطة دقيقة أعدت بإحكام ، وكان المجاهدون يرغبون في الشهادة ولذلك تقدموا بكل شجاعة وتضحية وإقدام نحو الأعداء ونال الكثير من المجاهدين الشهادة ، وكان الهجوم موزعا على كثير من المناطق ، ولكنه مركز بالدرجة الأولى في منطقة وادي ليكوس ، بقيادة السلطان محمد الفاتح نفسه ، وكانت الكتائب الأولى من العثمانيين تخطر الأسوار والنصارى بوابل من القذائف والسهم محاولين شل حركة المدافعين ، ومع استبسال البيزنطيين وشجاعة العثمانيين كان الضحايا من الطرفين يسقطون بأعداد كبيرة [٨٣]، وبعد أن انهكت الفرقة الأولى الهجومية كان السلطان قد أعد فرقة أخرى فسحب الأولى ووجه الفرقة الثانية ، وكان المدافعون قد أصابهم الإعياء ، وتمكنت الفرقة الجديدة ، من الوصول إلى الأسوار وأقاموا عليها منات السلام في محاولة جادة للإقتحام ، ولكن النصارى استطاعوا قلب السلام واستمرت تلك المحاولات المستمية من المهاجمين ، والبيزنطيون يبذلون قصارى جهودهم للتصدي لمحاولات التسلق ، وبعد ساعتين من تلك المحاولات أصدر الفاتح أوامره للجنود لأخذ قسط من الراحة ، بعد أن أرهقوا المدافعين في تلك المنطقة ، وفي الوقت نفسه أصدر أمرا إلى قسم ثالث من المهاجمين بالهجوم على الأسوار من نفس المنطقة وفوجئ المدافعون بتلك الموجة الجديدة بعد أن ظنوا أن الأمر قد هدأ وكانوا ، قد أرهقوا ، في الوقت الذي كان المهاجمون دماء جديدة معدة ومستريحة وفي رغبة شديدة لأخذ نصيبهم من القتال [٨٤] كما كان القتال يجري على قدم وساق في المنطقة البحرية مما شتت قوات المدافعين وأشغلهم في أكثر من جبهة في وقت واحد، ومع بزوغ نور الصباح أصبح المهاجمون يستطيعون أن يحددوا مواقع العدو بدقة أكثر ، وشرعوا في مضاعفة جهودهم في الهجوم وكان المسلمون في حماسة شديدة وحريصين على إنجاح الهجوم ، ومع ذلك أصدر السلطان محمد الأوامر إلى جنوده بالانسحاب لكي يتيحوا الفرصة للمدافع لتقوم بعملها مرة أخرى حيث أمطرت الأسوار والمدافع عنها بوابل من القذائف ، وابتعثهم بعد سهرهم طوال الليل ، وبعد أن هدأت المدفعية جاء قسم جديد من شجعان الإنكشارية يقودهم السلطان نفسه تغطيهم نبال وسهام المهاجمين التي لا تتفك عن محاولة منع المدافعين عنها وأظهر جنود الإنكشارية شجاعة فائقة وبسالة نادرة في الهجوم واستطاع ثلاثون منهم تسلق السور أمام دهشة الأعداء ، ورغم استشهاد مجموعة منهم بمن فيهم قائدهم فقد تمكنوا من تمهيد الطريق لدخول المدينة عند طوب قاي ورفعوا الأعلام العثمانية [٨٥].

مما زاد في حماس بقية الجيش للاقتحام كما فتوا في عضد الأعداء ، وفي نفس الوقت أصيب قائد المدافعين جستنيان بجراح بليغة دفعته إلى الانسحاب من ساحة المعركة [٨٦] مما أثر في بقية المدافعين ، وقد تولى الإمبراطور قسطنطين قيادة المدافعين بنفسه محل جستنيان الذي ركب أحد السفن فارا من أرض المعركة ، وقد بذل الإمبراطور جهودا كبيرة في تثبيت المدافعين الذين دب اليأس في قلوبهم من جدوى المقاومة ، في الوقت الذي كان فيه الهجوم بقيادة السلطان شخصياً على أشده، محاولاً استغلال ضعف الروح المعنوية لدى المدافعين.

وقد واصل العثمانيون هجومهم في ناحية أخرى من المدينة حتى تمكنوا من اقتحام الأسوار والاستيلاء على بعض الأبراج والقضاء على المدافعين في باب أدرنة ورفعت الاعلام العثمانية عليها، وتدقق الجنود العثمانيون نحو المدينة من تلك المنطقة، ولما رأى قسطنطين

سلام العثمانية ترفرف على الأبراج الشمالية للمدينة، أيقن بعدم جدوى الدفاع وخلع ملابسه حتى لا يعرف ، ونزل عن حصنه وقاتل حتى قتل في ساحة المعركة [٨٧].

وكان لانتشار خبر موته دور كبير في زيادة حماس المجاهدين العثمانيين وسقوط عزائم النصارى المدافعين وتمكنت الجيوش العثمانية من دخول المدينة من مناطق مختلفة وفر المدافعون بعد انتهاء قيادتهم، وهكذا تمكن المسلمون من الاستيلاء على المدينة وكان الفاتح رحمه الله مع جنده في تلك اللحظات يشاركونهم فرحة النصر، ولذة الفوز بالغلبة على الأعداء من فوق صهوة جواده وكان قواده يهنئونه وهو يقول : الحمد لله ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبي الفخر والشكر [٨٨].

كانت هناك بعض الجيوب الدفاعية داخل المدينة التي تسببت في استشهاد عدد من المجاهدين ، وقد هرب أغلب أهل المدينة الى الكنائس ولم يأت ظهيرة ذلك اليوم الثلاثاء ٢٠ جمادي الأولى ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ من مايو ١٤٥٣م، إلا والسلطان الفاتح في وسط المدينة يحف به جنده وقواده وهم يرددون : ما شاء الله ، فالنفت إليهم وقال : لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية الذي أخبر عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهنأهم بالنصر وهماهم عن القتل، وأمرهم بالرفق بالناس والإحسان إليهم ، ثم ترجل عن فرسه وسجد لله على الأرض شكراً وحمداً وتواضعاً لله تعالى [٨٩].

## الثاني عشر: معاملة محمد الفاتح للنصارى المغلوبين:

توجه محمد الفاتح الى كنيسة آيا صوفيا وقد اجتمع فيها خلق كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها خوفاً عظيماً، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنيتهم والعودة الى بيوتهم بأمان، فأطمأن الناس وكان بعض الرهبان محتبئين في سرايب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة الى مسجد وأن يعد لهذا الأمر حتى تقام بها أول جمعة قادمة، وقد أخذ العمال يعدون لهذا الأمر ، فأزالوا الصليبان والتماثيل وطمسوا الصور بطبقة من الجير وعملوا منبراً للخطيب، وقد يجوز تحويل الكنيسة الى المسجد لأن البلد فتحت عنوة والعنوة لها حكمها في الشريعة الاسلامية.

وقد اعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينيين الذين لهم حق الحكم في القضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع [٩٠].

لقد حاول المؤرخ الإنجليزي ادوارد شيردكريسي في كتابه "تاريخ العثمانيين الاتراك أن يشوه صورته الفتح العثماني للقسطنطينية ووصف السلطان محمد الفاتح بصفات قبيحة حقداً منه وبغضاً للفتح الإسلامي المجيد [٩١] وسارت الموسوعة الأمريكية المطبوعة في عام ١٩٨٠م في حمأة الحقد الصليبي ضد الإسلام ، فزعمت أن السلطان محمد قام باسترقاق غالبية نصارى القسطنطينية، وساقهم الى اسواق الرقيق في مدينة ادرنة حيث تم بيعهم هناك [٩٢].

إن الحقيقة التاريخية الناصعة تقول أن السلطان محمد الفاتح عامل أهل القسطنطينية معاملة رحيمة وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم، واقتدى عدداً كبيراً من الأسرى من ماله الخاص وخاصة أمراء اليونان، ورجال الدين ، واجتمع مع الاساقفة وهدأ من روعهم ، وطمأنهم الى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد فانتهجوا أجنادبوس برطيركا، وتوجه هذا بعد انتخابه في موكب حافل من الاساقفة الى مقر السلطان، فاستقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة وأكرمه أيما تكريم، وتناول معه الطعام وتحدث معه في موضوعات شتى، دينية وسياسية واجتماعية وخرج البطريرك من لقاء السلطان، وقد تغيرت فكرته تماماً على السلاطين العثمانيين وعن الأتراك، بل والمسلمين عامة، وشعر انه أمام سلطان مثقف صاحب رسالة وعقيدة

ية راسخة وانسانية رفيعة، ورجولة مكتملة ، ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثراً ودهشة من بطريقهم، فقد كانوا يتصورون أن العام لابد لاحقهم، فلم تمض أيام قليلة حتى كان الناس يستأنفون حياتهم المدنية العادية في اطمئنان وسلام[٩٣].

كان العثمانيون حريصون على الالتزام بقواعد الاسلام، ولذلك كان العدل بين الناس من أهم الأمور التي حرصوا عليها، وكانت معاملتهم للنصارى خالية من أي شكل من أشكال التعصب والظلم ، ولم يخطر ببال العثمانيين أن يضطهدوا النصارى بسبب دينهم[٩٤].

إن ملل النصارى تحت الحكم العثماني تحصلت على كافة حقوقها الدينية ، وأصبح لكل ملة رئيس ديني لا يخاطب غير حكومة السلطان ذاتها مباشرة، ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة وأماكن للعبادة والأديرة، كما أنه كان لا يتدخل أحد في ماليتها وكانت تطلق لهم الحرية في تكلم اللغة التي يريدونها[٩٥].

إن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما أظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية إلا بدافع إلتزامه الصادق بالإسلام العظيم، وتأسياً بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، ثم بخلفائه الراشدين من بعده، الذين أمتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم[٩٦].

### الفاتح المعنوي للقسطنطينية

#### الشيخ آق شمس الدين

هو محمد بن حمزة الدمشقي الرومي ارتحل مع والده الى الروم، وطلب فنون العلوم وتبحر فيها وأصبح علم من أعلام الحضارة الإسلامية في عهدها العثماني.

وهو معلم الفاتح ومربيه يتصل نسبه بالخليفة الراشد أبي بكر الصديق ؑ، كان مولوده في دمشق عم ٧٩٢هـ — ١٣٨٩م حفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره، ودرس في أماسيا ثم في حلب ثم في انقره وتوفي عام ١٤٥٩هـ.

درّس الشيخ آق شمس الدين الأمير محمد الفاتح العلوم الأساسية في ذلك الزمن وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والعلوم الإسلامية واللغات العربية ، والفارسية والتركية وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب وكان الشيخ آق ضمن العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولى إمارة مغنيسا ليتدرب على ادارة الولاية، وأصول الحكم .

واستطاع الشيخ آق شمس الدين أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوي: لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش[٩٧].

وعندما أصبح الأمير محمد سلطاناً على الدولة العثمانية، وكان شاباً صغير السن وجهه شيخه فوراً الى التحرك بجيوشه لتحقيق الحديث النبوي فحاصر العثمانيون القسطنطينية براً وبحراً. ودارت الحرب العنيفة ٥٤ يوماً.

وعندما حقق البيزنطيون انتصاراً مؤقتاً وابتهج الشعب البيزنطي بدخول أربع سفن ارسلها البابا إليهم وارتفعت روحهم المعنوية اجتمع الأمراء والوزراء العثمانيون وقابلوا السلطان محمد الفاتح وقالوا له : إنك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر الى هذا الحصار جرياً وراء كلام أحد المشايخ -يقصدون آق شمس الدين- فهلكت الجنود وفسد كثير من العتاد ثم زاد الأمر على هذا بأن



ن من بلاد الأفرنج للكافرين داخل القلعة، ولم يعد هناك أمل في هذا الفتح... [٩٨]. فأرسل السلطان محمد وزيره ولي الدين باشا الى الشيخ آق شمس الدين في خيمته يسأله الحل فأجاب الشيخ: لابد من أن يمن الله بالفتح [٩٩].

ولم يقتنع السلطان بهذا الجواب، فأرسل وزيره مرة أخرى ليطلب من الشيخ أن يوضح له أكثر، فكتب هذه الرسالة الى تلميذه محمد الفاتح يقول فيها: هو المعزّ الناصر ... إن حادث تلك السفن قد أحدث في القلوب التكسير والملامة وأحدث في الكفار الفرح والشماتة. إن القضية الثابتة هي : إن العبد يدبر والله يقدر والحكم لله... ولقد لجأنا الى الله وتلونا القرآن الكريم وماهي إلا سنة من النوم بعد إلا وقد حدثت أطفاف الله تعالى فظهرت من البشارات ما لم يحدث مثلها من قبل [١٠٠].

أحدث هذا الخطاب راحة وطمأنينة في الأمراء والجنود. وعلى الفور قرر مجلس الحرب العثماني الاستمرار في الحرب لفتح القسطنطينية، ثم توجه السلطان محمد الى خيمة الشيخ شمس الدين فقبل يده، وقال : علمني ياسيدي دعاء أدعو الله به ليوفقني ، فعلمه الشيخ دعاءً، وخرج السلطان من خيمة شيخه ليأمر بالهجوم العام [١٠١].

اراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة ومنع حراس الخيمة رسول السلطان من الدخول وغضب محمد الفاتح وذهب بنفسه الى خيمة الشيخ ليستدعيه، فمنع الحراس السلطان من دخول الخيمة بناءً على أمر الشيخ، فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة في جانب من جوانبها ونظر الى الداخل فإذا شيخه ساجداً لله في سجدة طويلة وعمامته متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجده والدموع تنحدر على خديه، فقد كان يناجي ربه ويدعوه بأنزال النصر ويسأله الفتح القريب [١٠٢].

وعاد السلطان محمد الفاتح عقب ذلك الى مقر قيادته ونظر الى الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود الى القسطنطينية [١٠٣].

ففرح السلطان بذلك وقال ليس فرحي لفتح المدينة إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمي [١٠٤].

وقد ذكر الشوكاني في البدر الطالع أن الشيخ شمس الدين ظهرت بركته وظهر فضله وأنه حدد للسلطان الفاتح اليوم الذي تفتح فيه القسطنطينية على يديه [١٠٥].

وعندما تدفقت الجيوش العثمانية الى المدينة بقوة وحماس، تقدم الشيخ الى السلطان الفاتح ليذكره بشريعة الله في الحرب وبحقوق الأمم المفتوحة كما هي في الشريعة الاسلامية [١٠٦].

وبعد أن أكرم السلطان محمد الفاتح جنود الفتح بالهدايا والعطايا وعمل لهم مأدبة حافلة استمرت ثلاثة أيام اقيمت خلالها الزينات والمهرجانات، وكان السلطان يقوم بخدمة جنوده بنفسه متمثلاً بالقول السائد سيد القوم خادهمهم. ثم نهض ذلك الشيخ العالم الورع آق شمس الدين وخطبهم، فقال: يا جنود الاسلام. اعلموا واذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في شأنكم: لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش [١٠٧]. ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويغفر لنا. ألا لاتسرفوا في ما أصبتم من أموال الغنيمة ولا تبذروا وأنفقوها في البر والخير لأهل هذه المدينة، واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه وأحبوه. ثم التفت الى الفاتح وقال له : ياسلطاني ، لقد أصبحت قرة عين آل عثمان فكن على الدوام مجاهداً في سبيل الله. ثم صاح مكبراً بالله في صوت جهوري جليد [١٠٨].

مد اهتدى الشيخ آق شمس الدين بعد فتح القسطنطينية الى قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري بموضع قريب من سور القسطنطينية [١٠٩].

وكان الشيخ آق شمس الدين أول من ألقى خطبة الجمعة في مسجد آيا صوفيا [١١٠].

### الشيخ شمس الدين يخشى على السلطان من الغرور:

كان السلطان محمد الفاتح يحب شيخه شمس الدين حباً عظيماً، وكانت له مكانة كبيرة في نفسه وقد بين السلطان لمن حوله -بعد الفتح- : إنكم ترونني فرحاً . فرحي ليس فقط لفتح هذه القلعة إن فرحي يتمثل في وجود شيخ عزيز الجانب، في عهدي، هو مؤدي الشيخ آق شمس الدين.

وعبر الشيخ عن تقيبه لشيخه في حديث له مع وزيره محمود باشا. قال السلطان الفاتح: إن احترامي للشيخ آق شمس الدين، احترام غير اختياري . إنني أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرهبة [١١١].

ذكر صاحب البدر الطالع أن :... ثم بعد يوم جاء السلطان الى خيمة صاحب الترجمة - أي آق شمس الدين - وهو مضطجع فلم يقم له فقبل السلطان يده وقال له جئت لك حاجة قال: وماهي؟ قال: ان ادخل الخلوة عندك فأبزم عليه السلطان مراراً وهو يقول: لا. فغضب السلطان وقال أنه يأتي إليك واحد من الاتراك فتدخله الخلوة بكلمة واحدة وأنا تأتي عليّ فقال الشيخ: إنك اذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختل أمورها فيمقت الله علينا ذلك والغرض من الخلوة تحصيل العدالة فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر له شيئاً من النصائح ثم ارسل إليه ألف دينار فلم يقبل ولما خرج السلطان محمد خان قال لبعض من معه: ما قام الشيخ لي. فقال له: لعله شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسر مثله للسلطين العظام فاراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو.... [١١٢].

هكذا كان هذا العالم الجليل الذي حرص على تربية محمد الفاتح على معاني الإيمان والاسلام والإحسان ولم يكن هذا الشيخ متبحراً في علوم الدين والتزكية فقط بل كان عالماً في النبات والطب والصيدلة، وكان مشهوراً في عصره بالعلوم الدنيوية وبحوثه في علم النبات ومدى مناسبتها للعلاج من الأمراض. وبلغت شهرته في ذلك أن أصبح مثلاً بين الناس يقول: إن النبات ليحدث آق شمس الدين [١١٣].

وقال الشوكاني عنه: ... وصار مع كونه طبيياً للقلوب طبيياً للأبدان فإنه اشتهر أن الشجرة كانت تناديه وتقول: أنا شفاء من المرض الفلاني ثم اشتهرت بركته وظهر فضله... [١١٤].

وكان الشيخ يهتم بالأمراض البدنية قدر عنايته بالأمراض النفسية.

واهتم الشيخ آق شمس الدين اهتماماً خاصاً بالأمراض المعدية، فقد كانت هذه الامراض في عصره تسبب في موت الآلاف، وألف في ذلك كتاباً بالتركية بعنوان "مادة الحياة" قال فيه: من الخطأ تصور أن الأمراض تظهر على الاشخاص تلقائياً، فالأمراض تنتقل من شخص الى آخر بطريق العدوى. هذه العدوى صغيرة ودقيقة الى درجة عدم القدرة على رؤيتها بالعين المجردة. لكن هذا يحدث بواسطة بذور حية [١١٥].

بذلك وضع الشيخ آق شمس الدين تعريف الميكروب في القرن الخامس عشر الميلادي. وهو أول من فعل ذلك ، ولم يكن الميكروسكوب قد خرج بعد. وبعد أربعة قرون من حياة الشيخ آق شمس الدين جاء الكيميائي والبيولوجي الفرنسي لويس باستير ليقوم بأبحاثه وليصل الى نفس النتيجة.

وأهتم الشيخ آق شمس الدين أيضاً بالسرطان وكتب عنه وفي الطب ألف الشيخ كتابين هما: مادة الحياة ، وكتاب الطب ، وهما باللغة التركية والعثمانية. وللشيخ باللغة العربية سبع كتب، هي : حل المشكلات، الرسالة النورية ، مقالات الأولياء، رسالة في ذكر الله، تلخيص المتائن، دفع المتائن، رسالة في شرح حاجي بايرام ولي[١١٦].

وفاته:

عاد الشيخ الى موطنه كونيوك بعد أن أحسس بالحاجة الى ذلك رغم إصرار السلطان على بقاءه في استنبول ومات عام ٨٦٣هـ/١٤٥٩م فعليه من الله الرحمة والمغفرة والرضوان[١١٧].

وهكذا سنة الله في خلقه لايخرج قائد رباني ، وفاتح مغوار إلا كان حوله مجموعة من العلماء الربانيين يساهمون في تعليمه وتربيته وترشيده والأمثلة في ذلك كثيرة وقد ذكرنا دور عبدالله بن ياسين مع يحيى بن ابراهيم في دولة المرابطين، والقاضي الفاضل مع صلاح الدين في الدولة الأيوبية ، وهذا آق شمس الدين مع محمد الفاتح في الدولة العثمانية فرحة الله على الجميع وتقبل الله جهودهم وأعمالهم وأعلى ذكرهم في المصلحين.

### أثر فتح القسطنطينية على العالم الأوروبي والإسلامي

كانت القسطنطينية قبل فتحها عقبة كبيرة في وجه انتشار الإسلام في أوروبا ولذلك فإن سقوطها يعني فتح الاسلام لدخول أوروبا بقوة وسلام لمعتنقيه أكثر من ذي قبل ، ويعتبر فتح القسطنطينية من أهم أحداث التاريخ العالمي، وخصوصاً تاريخ أوروبا وعلاقتها بالإسلام حتى عده المؤرخون الأوروبيون ومن تابعهم نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة[١١٨].

وقد قام السلطان بعد ذلك على ترتيب مختلف الأمور في المدينة، وإعادة تحصينها، واتخذها عاصمة للدولة العثمانية وأطلق عليها لقب اسلام بول أي مدينة الاسلام[١١٩].

لقد تأثر الغرب النصراني بنبأ هذا الفتح، وانتاب النصارى شعور بالفزع والالام والخزي ، وتجسم لهم خطر جيوش الاسلام القادمة من استنبول ، وبذل الشعراء والادباء ما في وسعهم لتأجيج نار الحقد وبراكين الغضب في نفوس النصارى ضد المسلمين ، وعقد الامراء والملوك اجتماعات طويلة ومستمرة وتنادى النصارى الى نبذ الخلافات والحزازات وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثراً بنبأ سقوط القسطنطينية، وعمل جهده وصرف وقته في توحيد الدول الايطالية وتشجيعها على قتال المسلمين، وترأس مؤتمراً عقد في روما أعلنت فيه الدول المشتركة عن عزمها على التعاون فيما بينها وتوجيه جميع جهودها وقوتها ضد العدو المشترك. وأوشك هذا الحلف أن يتم إلا أن الموت عاجل البابا بسبب الصدمة العنيفة الناشئة عن سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين والتي تسببت في همه وحزنه فمات كمداً في ٢٥ مارس سنة ١٤٥٥م[١٢٠].

وتحمس الأمير فيليب الطيب دوق بورجونديا والتهب حماساً وحمية واستنفر ملوك النصارى الى قتال المسلمين وحذ حذوه البارونات والفرسان والمتحمسون والمتعصبون للنصرانية، وتحولت فكرة قتال المسلمين الى عقيدة مقدسة تدفعهم لغزو بلادهم ، وتزعمت البابوية في روما حروب النصارى ضد المسلمين وكان السلطان محمد الفاتح بالمرصاد لكل تحركات النصارى، وخطط ونفذ مارآه

سبباً لتقوية دولته وتدمير أعدائه، واضطر النصارى الذين كانوا يجاورون السلطان محمد أو يتأخون حدوده ففي آماسيا، وبلاد المورة ، طرايزون وغيرهم أن يكتموا شعورهم الحقيقي، فتظاهروا بالفرح وبعثوا وفودهم الى السلطان في أدرنة لتهنئته على انتصاره العظيم [١٢١].

وحاول البابا بيوس الثاني بكل ما أوتي من مقدرة خطابية ، وحنكة سياسية، تأجيج الحقد الصليبي في نفوس النصارى شعوباً وملوكاً، قادة وجنوداً واستعدت بعض الدول لتحقيق فكرة البابا الهادفة للقضاء على العثمانيين ولما حان وقت النفي اعتذرت دول أوروبا بسبب متاعبها الداخلية، فلقد انهكت حرب المائة عام انكلتر وفرنسا، كما أن بريطانيا كانت منهمكة في مشاغلها الدستورية وحروبها الأهلية، وأما أسبانيا فهي مشغولة بالقضاء على مسلمي الأندلس وأما الجمهوريات الإيطالية فكانت تهم بتوطيد علاقاتها بالدولة العثمانية مكرهه وحباً في المال ، فكانت تهم بعلاقتها مع الدولة العثمانية.

وانتهى مشروع الحملة الصليبية بموت زعيمها البابا واصبحت النجر والبندقية تواجه الدولة العثمانية لوحدهما؛ أما البندقية فعقدت معاهدة صداقة وحسن جوار مع العثمانيين رعاية لمصالحها وأما النجر فقد انهزمت أمام الجيوش العثمانية واستطاع العثمانيون أن يضموا الى دولتهم بلاد الصرب، واليونان والافلاق والقرم والجزر الرئيسية في الأرخيل. وقد تم ذلك في فترة قصيرة ، حيث داهمهم السلطان الفاتح، وشتت شملهم ، واخذهم أخذاً عظيماً [١٢٢].

وحاول البابا بيوس الثاني بكل ما أوتي من مهارة وقدرة سياسية تركيز جهوده في ناحيتين اثنتين : حاول أولاً أن يقنع الاتراك باعتناق الدين النصارى، ولم يقد بارسال بعثات تبشيرية لذلك الغرض وانما اقتصر على ارسال خطاب الى السلطان محمد الفاتح يطلب منه أن يعضد النصرانية، كما عضدها قبله قسطنطين وكلفيس ووعدته بأنه سيكفر عنه خطايه ان هو اعتنق النصرانية مخلصاً، ووعدته بمنحه بركته واحتضانه ومنحه صكاً بدخول الجنة. ولما فشل البابا في خطته هذه لجأ الى الخطة الثانية خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة، وكانت نتائج هذه الخطة الثانية قد بدأ فشلها مسبقاً بهزيمة الجيوش الصليبية والقضاء على الحملة التي قادها هونياد المجري [١٢٣].

وأما آثار هذا الفتح المبين في المشرق الاسلامي - فنقول لقد عم الفرح والابتهاج المسلمين في ربوع آسيا وأفريقيا فقد كان هذا الفتح حلم الأجداد وأمل الاجيال ، ولقد تطلعت له طويلاً وهاقد تحقق وارسل السلطان محمد الفاتح رسائل الى حكام الديار الاسلامية في مصر والحجاز وبلاد فارس والهند وغيرها؛ يخبرهم بهذا النصر الاسلامي العظيم- وأذيعت أنباء الانتصار من فوق المنابر، وأقيمت صلوات الشكر، وزينت المنازل والحوانيت وعلقت على الجدران والحوائط والأعلام والأقمشة المزركشة بألوانها المختلفة [١٢٤].

يقول ابن إياس صاحب كتاب بدائع الزهور في هذه الواقعة : فلما بلغ ذلك ، ووصل وفد الفاتح، دقت البشائر بالقلعة، ونودي في القاهرة بالزينة، ثم أن السلطان عين برسباي أمير آخور ثاني رسولاً الى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح [١٢٥].

وندع المؤرخ أبا احاسن بن تغري بردي يصف شعور الناس وحالهم في القاهرة عندما وصل إليها وفد الفاتح ومعهم الهدايا واسيران من عظماء الروم، قال : قلت والله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم وجاء القاصد المذكور ومعه اسيران من عظماء اسطنبول وطلع بهما الى السلطان سلطان مصر إينال وهما من أهل القسطنطينية وهي الكنيسة العظيمة باسطنبول فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم ودقت البشائر لذلك وزينت القاهرة بسبب ذلك أياماً ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران الى القلعة في يوم

بنين خامس وعشرين شوال بعد أن اجتار القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة. وقد احتفلت الناس بزيئة الحوانيت والأمن وأمعنوا في ذلك الى الغاية وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل.. [١٢٦].

وهذا الذي ذكره ابن تغري بردي من وصف احتفال الناس وأفراحهم في القاهرة بفتح القسطنطينية ما هو إلا صورة لنظائر لها قامت في البلاد الإسلامية الأخرى. وقد بعث السلطان محمد الفاتح برسائل الفتح إلى سلطان مصر وشاه ايران وشريف مكة وأمير القرمات، كما بعث بمثل هذه الرسائل إلى الأمراء المسيحيين المجاورين له في المورة والأفلاق وانجر والبوسنة وصربيا وألبانيا وإلى جميع أطراف مملكته [١٢٧].

[١] انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٢٥٣.

[٢] انظر: قيام الدولة العثمانية ، ص ٤٣.

[٣] انظر: اوروبا في العصور الوسطى، سعيد عاشور، ص ٢٩.

[٤] فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح، د. محمد مصطفى، ص ٣٦-٤٦.

[٥] المجتمع المدني الجهاد ضد المشركين، د. أكرم ضياء العمري، ص ١١٥.

[٦] احمد في مسنده ٣٣٥/٤.

[٧] المصدر السابق نفسه ٣٣٥/٤.

[٨] ابن خلدون العبر ٧٠/٣ ، تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣١٥.

[٩] خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٤٥٨، تاريخ الطبري ٦٩/١٠، ابن الأثير الكامل ١٨٦/٦، ١٨٥.

[١٠] قيام الدولة العثمانية، ص ٤٦.

[١١] تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص ١٨.

[١٢] انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور ، د. عبدالعزيز العمري، ص ٣٥٨.

[١٣] انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص ٣٥٨.

[١٤] المصدر السابق نفسه، ص ٣٥٩.

[١٥] انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د. علي حسون، ص ٤٢.

[١٦] كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، ص ٥٢ نقلاً عن تاريخ الدولة العثمانية، ص ٤٣.



[١٧] انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د.علي حسون، ص ٤٣.

[١٨] رواه احمد في مسنده ٣٣٥/٤.

[١٩] انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص ٣٥٩.

[٢٠] انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك، ص ١٦١.

[٢١] انظر: سلاطين آل عثمان، ص ٢٦.

[٢٢] انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص ٣٦١.

[٢٣] انظر: محمد الفاتح ، ص ٩٠، سالم الرشيدى .

[٢٤] انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص ٥٨.

[٢٥] انظر: فتح القسطنطينية، محمد صفوت، ص ٦٩.

[٢٦] انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص ٨٩.

[٢٧] انظر: سلاطين آل عثمان، ص ٢؛ محمد الفاتح، ص ٩٦.

[٢٨] انظر: محمد الفاتح، سالم الرشيدى، ص ٨٢؛ فتح القسطنطينية محمد صفوت، ص ٥٧.

[٢٩] انظر: سلاطين آل عثمان، ص ٢٥، ٢٤.

[٣٠] انظر: الفتوحات الاسلامية عبر العصور، ص ٣٦٤.

[٣١] انظر: محمد الفاتح ، ص ٩٨؛ العثمانيون والبلقان، ص ٨٩.

[٣٢] انظر: العثمانيون والبلقاء، د.علي حسون، ص ٩٢.

[٣٣] انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص ١٢٠.

[٣٤] انظر: محمد الفاتح للرشيدى، ص ١٠٠.

[٣٥] انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ٥٨.

[٣٦] محمد الفاتح، عبدالسلام فهمي ، ص ٩٢.

[٣٧] انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص ٣٦٧.

[٣٨] انظر: محمد الفاتح ، عبدالسلام فهمي، ص١٢٣.

[٣٩] انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٦٨.

[٤٠] انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص١٠١.

[٤١] انظر: مواقف حاسمة، محمد عبدالله عنان، ص١٨٠.

[٤٢] انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص١٠٣.

[٤٣] المصدر السابق نفسه، ص١٠٣.

[٤٤] انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص١٠٣.

[٤٥] انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٦٩.

[٤٦] انظر: السلطان محمد الفاتح، عبدالسلام فهمي، ص١٠٠.

[٤٧] الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٧٠.

[٤٨] انظر: السلطان محمد الفاتح، عبدالسلام فهمي، ص١٠٢.

[٤٩] انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٧٠.

[٥٠] تاريخ الدولة العثمانية ، يلماز أوزنتونا، ص١٣٥.

[٥١] انظر: محمد الفاتح، ص١٠٦.

[٥٢] انظر: محمد الفاتح، ص١٠٦.

[٥٣] انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور ، ص٣٧١.

[٥٤] المصدر السابق نفسه، ص٣٧١.

[٥٥] انظر: محمد الفاتح، ص١١٦.

[٥٦] المصدر السابق نفسه، ص١٠٦.

[٥٧] انظر: السلطان محمد الفاتح، ص١٠٨.

[٥٨] المصدر السابق نفسه، ص١٠٨.

[٥٩] انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص ٣٧٢.

[٦٠] انظر: السلطان محمد الفاتح، ص ١١٠.

[٦١] انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص ١٤٤.

[٦٢] انظر: السلطان محمد الفاتح، ص ١٢٢.

[٦٣] انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص ١١٨.

[٦٤] انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص ٣٧٥.

[٦٥] انظر: محمد الفاتح للرشيدي ، ص ١١٩.

[٦٦] محمد الفاتح ، عبدالسلام فهمي ، ص ١١٦.

[٦٧] الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص ٣٧٦.

[٦٨] المصدر السابق، ص ٣٧٦.

[٦٩] انظر: فتح القسطنطينية ، محمد صفوت، ص ١٠٣.

[٧٠] انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص ٣٧٧.

[٧١] انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص ١٢٢.

[٧٢] انظر: محمد الفاتح، ص ١٢٢.

[٧٣] انظر: محمد الفاتح، ص ١٢٢.

[٧٤] انظر: تاريخ الدولة العلية ، محمد فريد، ص ١٦٤.

[٧٥] انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف، ص ٦٠.

[٧٦] انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص ٣٧٨.

[٧٧] انظر: محمد الفاتح ، ص ١٢٥.

[٧٨] انظر: محمد الفاتح، ص ١٢٦.

[٧٩] المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٦.

[٨٠] المصدر السابق، ص ١٢٩.

[٨١] محمد الفاتح ، ص ١٢٩.

[٨٢] المصدر السابق نفسه ، ص ١٣٠.

[٨٣] الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص ٣٨٠.

[٨٤] المصدر السابق نفسه، ص

[٨٥] انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور ، ص ٣٨٢.

[٨٦] محمد الفاتح ، ص ١٣٧.

[٨٧] انظر: محمد الفاتح، ص ١٣٩.

[٨٨] المصدر السابق نفسه، ص ١٣١.

[٨٩] الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص ٣٨٣.

[٩٠] المصدر السابق نفسه، ص ٣٨٤.

[٩١] انظر: جوانب مضيئة ، ص ٢٦٥.

[٩٢] المصدر السابق نفسه، ص ٢٦٧.

[٩٣] انظر: السلطان محمد الفاتح، ص ١٣٥، ١٣٤.

[٩٤] انظر: جوانب مضيئة ، ص ٢٧٤.

[٩٥] المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٣.

[٩٦] المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٧.

[٩٧] سبق تخريج الحديث.

[٩٨] انظر: البطولة والفداء عند الصوفية، أسعد الخطيب، ص ١٤٦.

[٩٩] انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٣٧٣.

[١٠٠] العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص ٣٧٣.

[١٠١] المصدر السابق نفسه، ص ٣٧٣.

[١٠٢] العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٣٧٤.

[١٠٣] المصدر السابق نفسه، ص ٣٧٤.

[١٠٤] انظر: البدر الطالع ١٦٧/٢.

[١٠٥] المصدر السابق نفسه ٢/١٦٦.

[١٠٦] انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٣٧٤.

[١٠٧] سبق تخريج الحديث [١٠٨] انظر: محمد الفاتح، ص ١٤٩.

[١٠٩] المصدر السابق نفسه، ص ١٤٩.

[١١٠] انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٣٧٤.

[١١١] العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٣٧٥.

[١١٢] البدر الطالع ١٦٧/٢.

[١١٣] العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٣٧٥.

[١١٤] البدر الطالع ١٦٦/٢.

[١١٥] العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٣٧٦.

[١١٦] العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٣٧٦.

[١١٧] المصدر السابق نفسه، ص ٣٧٦.

[١١٨] انظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزيونا، ص ٣٨٤.

[١١٩] انظر: تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك، ص ١٦٤.

[١٢٠] انظر: السلطان محمد الفاتح، ص ١٣٦، ١٣٧.

[١٢١] المصدر السابق نفسه، ص ١٤٠.

[١٢٢] انظر: السلطان محمد الفاتح، ص ١٤٠.



[١٢١] انظر: السلطان محمد الفاتح، ص ١٤١.

[١٢٤] المصدر السابق نفسه، ص ١٤٢.

[١٢٥] المصدر السابق نفسه، ص ١٤٢.

[١٢٦] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧١/١٦.

[١٢٧] انظر: محمد الفاتح، ص ١٤٢.

## أبطال سقطوا من الذاكرة. السلطان مراد الأول .. بطل كوسوفا وقاهر الصرب

عندما قام أعداء الإسلام 'الصرب' الملقين بخنازير أوروبا بحرهم الشعواء على المسلمين بالبوسنة، تعجب الناس في كل مكان حتى في أوروبا نفسها ومن الأعداء مثلهم من بشاعة المجازر التي اقترفها هؤلاء الخنازير في حق المسلمين، ومدى القسوة والشراسة والتنكيل الذي فعلوه بالمسلمين حيث لم يتركوا صغيراً ولا كبيراً ولا رجلاً ولا امرأة، والصور المروعة للتمثيل بالجثث وما فعل بالمسلمين ما زال لطمه قوية على وجه أوروبا التي تدعى ليل نهار رعاية حقوق الإنسان والدفاع عن الحريات، ولما سأل الصرب عن ذلك قالوا إننا ننتقم مما أصابنا في معركة كوسوفا على يد المسلمين، فما هذه المعركة؟ ومن هو بطلها الذي ظل كابوساً يقلق مضاجعهم حتى يثاروا من إخوانه بعد أكثر من ستمائة سنة. هو البطل الذي لا يعرفه معظم المسلمين الآن وهو ما سنتحدث عنه.

### السلطان مراد الأول

\* كانت منطقة آسيا الصغرى أو الأناضول من البقاع الهامة والخطيرة في نفس الوقت من العالم القديم حيث كانت تربط بين العالم الإسلامي والدولة البيزنطية العدو التقليدي والقديم للدولة الإسلامية، وكانت منطقة الأناضول منقسمة لعدة إمارات في أغلبها ضعيف ومتفرق ولربما متحارب مع الجيران، وحالها أشبه ما يكون بحال دولة الطوائف بالأندلس، فقيض الله عز وجل للأناضول الدولة العثمانية التي ستوحد هذه الإمارات المتفرقة وذلك ابتداءً من قيام الدولة العثمانية سنة ٦٩٩ هجرية \* كان أول من قاد الدولة العثمانية هو 'عثمان بن أرطغرل' الذي حكمها من سنة ٦٩٩ هجرية حتى سنة ٧٢٦ هجرية، ومن بعده 'أورخان الأول' الذي حكمها من سنة ٧٢٦ هجرية حتى سنة ٧٦١ هجرية، وخلال هذه الفترة إهتم القانندان بشييت أركان الدولة الناشئة اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وإدارياً لذلك كان حجم الدولة العثمانية مازال صغيراً ولم تحقق شيئاً من أهدافها المعلنة وذلك لمراعاة سنة التدرج في قيام الدول والمجتمعات القوية التي سيناها بعد ذلك أعظم المهام الجسام. \* استلم السلطان 'مراد الأول' قيادة الدولة العثمانية سنة ٧٦١ هجرية وحجمها ومساحتها خمسة وتسعين ألف كيلو متر مربع ولم يكن للدولة العثمانية أى قواعد بأوروبا ماعدا ميناء 'غاليبولي' ولم تكن أية إمارة أناضولية انضمت للدولة العثمانية سوى إمارة 'قره سي'، لذلك كان على السلطان 'مراد الأول' العمل على جهتين الأولى توحيد الأناضول الذي يعتبر ثغر الإسلام والثانية أوروبا النصرانية حيث الدولة البيزنطية والهدف المنشود الذي قامت من أجله الدولة العثمانية هو 'فتح القسطنطينية'.

### الضربة الخاطفة

\* من أول عام تسلم فيه 'مراد لأول' القيادة عمل على إيجاد نقطة استراتيجية للعثمانيين بأوروبا وبالفعل استولى على مدينة 'أدرنة' البلقانية سنة ٧٦٢ هجرية في ضربة خاطفة للدولة البيزنطية لأن هذه المدينة كانت من أهم المدن بعد العاصمة القسطنطينية،

وراً اتخذ مراد الأول قراراً استراتيجياً في غاية الذكاء والحكمة السياسية والعسكرية حيث جعل هذه المدينة 'أدرنة' عاصمة للدولة العثمانية وذلك من أجل الاستفادة من موقع 'أدرنة' الاستراتيجي ودفاعاتها الحصينة في نقل الحرب إلى قلب الجبهة الأوروبية وظلت 'أدرنة' عاصمة الدولة العثمانية حتى فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ هجرية.

\* وكان لنقل الوجود الإسلامي إلى الجبهة الأوروبية أثر شديد ورنه كبيرة عند نصارى أوروبا ، وسرعان ما سقطت عدة مدن 'فلبه' 'كلمجينا' 'وردار' وبالتالي صارت القسطنطينية محاطة بالدولة العثمانية من كل مكان في الجبهة الأوروبية .

## السلطان مراد وتوحيد الأناضول

\* كان الهدف المعلن الذي قامت من أجله الدولة العثمانية هو فتح القسطنطينية ونشر الإسلام بأوروبا ، لذلك كانت كل تحركات سلاطين هذه الدولة من أجل تحقيق هذا الهدف ، فلما اعتلى 'مراد الأول' سدة الحكم العثماني جعل أولى مهامه توحيد الأناضول أي الجبهة الداخلية وقاعدة الإنطلاق الأولى للتمكين والظفر على أوروبا واتبع 'مراد الأول' سياسة حكيمة من أجل هذا التوحيد ، حيث عمل على مصاهرة ومعاهدة أمراء الأناضول من أجل الضم السلمي لمقاطعتهم .

\* اصطدم 'مراد الأول' بعدو لدود اسمه 'علاء الدين' وكان أمير القرماني الذي وقف سداً منيعاً أمام محاولات 'مراد التوحيدية' واستنهض هذا الأمير باقي أمراء الأناضول من أجل محاربة 'مراد الأول' فاضطر 'مراد' لئن يقاتلهم مع كراهيته لهذا القتال لكونه ضد مسلمين ولكنهم للأسف كانوا عقبة كؤوداً في طريق التمكين والفتح الإسلامي ، وأنا لصف متفرق ومختلف أن يتمكن أو ينتصر .

\* استطاع 'مراد الأول' أن يحشد جيشاً قوياً لمنازلة أمراء الأناضول الراضين للوحدة ، وهزم 'مراد' 'علاء الدين' ودخل مدينة أنقرة عاصمة 'القرمان' ،

وعفا 'مراد الأول' عن عدوه 'علاء الدين' وحاول استماليته بأن تزوج من ابنته ليضمن أمن شره ومكره ولكن هذه المصاهرة لم تطفئ نار الحقد في قلب علاء الدين ، فتآمر مرة أخرى مع بعض الأمراء المستقلين في الأناضول وشنوا حرباً قوية ضد 'مراد الأول' ولكنه انتصر عليهم مرة أخرى في معركة 'سهل قونية' ووقع 'علاء الدين' في الأسر وعفا 'مراد الأول' عنه مرة أخرى ، وقام 'مراد' بتزويج ابنه 'يزيد' من ابنة أمير كرميان فقدم الأب مدينة 'كوتاهية' لابنته فضمت إلى الدولة العثمانية ، ثم ألزم أمير دويلة الحميد بالتنازل عن أملاكه للدولة العثمانية .

وهكذا نرى كما استهلك 'مراد الأول' من الوقت والجهد والمال من أجل توحيد الصف المسلم ، ولو أن أمراء الأناضول كانوا على نفس المستوى الإيماني والأخلاقي والشعور بالمسؤولية تجاه قضية دعوة الإسلام ونشرها لسارعوا بالإنضمام تحت لوائه في حربه ضد أوروبا ، ولكن الأطماع والأهواء وحب الرياسة والدنيا دائماً ما تكون صخرة صلبة تنحطم عليها آمال وأحلام المخلصين من هذه الأمة .

وبعد هذا الجهد الجهد استطاع 'مراد الأول' أن يوحد الصف الداخلي استعداداً للهدف الحقيقي والجهاد الأكبر على الجبهة الأوروبية .

## الفتوحات الأوروبية

\* بعدما وحد 'مراد الأول' الجبهة الداخلية للمسلمين ، يمم 'مراد' وجهه إلى الجبهة الأصلية حيث أوروبا والدولة البيزنطية، وبعد الضربة الخاطفة التي قام بها 'مراد بالاستيلاء على مدينة 'أدرنة' البلقانية وحوّلها إلى عاصمة للدولة العثمانية لجعلها قاعدة الانطلاق على أوروبا، قام 'مراد' بضربات سريعة وخاطفة في منطقة البلقان، فاستولى على مدينة 'فلبه' 'كلمجينا' و'وردار' وكان هذا السقوط نذير خطر لدى الدولة البيزنطية التي أصبحت عاصمتها القسطنطينية محاطة بالعثمانيين من كل اتجاه .

أدخلت هذه الضربات السريعة والحظافة الرعب في قلوب نصارى أوروبا فجددوا العزم على إعادة شعار الحملات الصليبية توقفت منذ قرن وزيادة من الزمان، وأرسل أمراء أوروبا المجاورين للدولة العثمانية رسائل استغاثة وطلب شرعية لقتالهم ضد المسلمين من بابا روما، بل ذهب إمبراطور القسطنطينية 'يوحنا باليوج' لأبعد من ذلك حيث ذهب بنفسه إلى البابا ورُكع أمامه وقبل يديه ورجليه وبللها بالدموع وطلب منه إعلان الحرب الصليبية المقدسة ضد المسلمين، هذا على الرغم من الخلاف المذهبي العميق بين الطرفين فهذا أرثوذكسى وذلك كاثوليكي، والعداوة بينهما قديمة وشديدة ولكنهما على الإسلام والمسلمين يداً واحدة، فوافق البابا على طلب إمبراطور القسطنطينية شريطة أن تخضع الكنيسة الشرقية 'الأرثوذكسية' للكنيسة الغربية 'الكاثوليكية' واضطر 'يوحنا باليوج' للقبول لهذا الشرط المذل .

## عاقبة التهور

\* أدى إعلان البابا 'أوربان الخامس' الحرب الصليبية على المسلمين العثمانيين لاشتعال الحمية والحماس في قلوب ملوك شرق أوروبا والمجاورين للدولة العثمانية، هذا الحماس جعل ملك 'المجر' الحاقق 'أوروك الخامس' بالاتحاد مع أمراء من الصرب والبوسنة ورومانيا، يقرر الهجوم على الدولة العثمانية دون انتظار لما سوف يرسله البابا من إمدادات، ليكون له قصب السبق ونيل الشرف في الانتصار على الدولة العثمانية واستغل فرصة إنشغال السلطان 'مراد الأول' في قمع بعض الحركات الداخلية في منطقة الأناضول وهجم بجيش يقدر بستين ألف مقاتل على مدينة 'تشيرمن' عند نهر 'مارتيزا' .

\* كان قائد الحامية العثمانية في المدينة بطلاً مشهوراً في صفوف العثمانيين اسمه 'الاشاهين' وكان صاحب دهاء وخبرة عسكرية كبيرة وشديد الثبات والتمرس في قتال الأوروبيين، فاستطاع هو وجنوده البواسل ان يتزلوا بالتحالف الصليبي هزيمة ساحقة رغم الفارق الكبير بين الجيشين، وغرق أمراء الصرب عند فرارهم من المعركة في نهر 'مارتيزا' ونجا ملك المجر الصليبي 'أوروك الخامس' بشق الأنفس، وعاد إلى بلده يجر أذيال الخيبة ويضم نية المعاودة إذا سنحت له الأقدار .

## مراد المرعب

\* كان إنتصار العثمانيين على التحالف الصليبي الذي قاده ملك المجر 'أوروك' كابوساً يقلق مضاجع نصارى أوروبا عموماً وملوك وأمراء البلقان خصوصاً، وكان الكابوس يزداد سوءاً عليهم لأن أحد قادة الجيش العثماني هو الذي انتصر عليهم وليس السلطان مراد نفسه، مما ألقى الرعب في قلب 'أوروك الخامس' وجعله يحجم عن أدنى مشاركة في القتال ضد العثمانيين خشية أن يقتل هو نفسه هذه المرة .

\* عندما رأى أمراء البلقان إحجام 'أوروك' عن معاودة القتال ضد المسلمين، اتفق رجالان على تولي زمام المباراة ضد العثمانيين، وهما ملك الصرب 'لازار بليانوفيتش' وأمير البلغار 'سيسمان' وقد جمعتهما الحقد والكراهية والعداوة المتجذرة ضد المسلمين عموماً والعثمانيين خصوصاً، وجمعهما أيضاً الخوف من ضياع ملكهم وبلادهم .

\* أعد الرجلان جيشاً كبيراً لقتال العثمانيين في منطقة جنوب البلقان، بعد مناوشات خفيفة مع الحميات العثمانية بالبلقان أدرك الصليبيون مدى ضعفهم مقارنة بالأسود العثمانيين، فاضطروا إلى قبول الخزي والصغار ودفَعوا الجزية للسلطان 'مراد الأول'، وحتى يأمن 'سيسمان' جانب العثمانيين قدم ابنته الأثيرة زوجة للسلطان 'مراد الأول'، وبالفعل تزوجها 'مراد' مما يوضح مدى الرعب الذي دخل في قلوب نصارى أوروبا من ناحية 'مراد الأول' .

\* نتيجة لتأخر الصرب والبلغار في دفع الجزية السنوية، اندفعت الجيوش العثمانية لتأديب المتمردين وقامت بفتح بعض المدن الصربية في جنوبي 'يوغوسلافيا' اليوم، ثم قامت بفتح مدينة 'صوفيا' سنة ٧٨٤ هجرية بعد حصار دام ثلاث سنوات، ثم فتحت مدينة 'سالونيك' المقدونية وهي تقع الآن في اليونان، وهكذا نرى الرد العثماني القوي والرادع للخارجين والمتمردين .

استحق السلطان 'مراد الأول' بحق لقب مرعب أوروبا وكابوسها الأول بعدما بلغت درجة الرعب من سطوة وقوة 'مراد' درجة جعلت إمبراطور 'بيزنطة' 'يوحنا باليوج' يقوم بقتل ولده 'اندرونيكوس' خوفاً من بطش 'مراد الأول' ذلك لأن 'اندرونيكوس' تحالف مع بعض الخارجين على 'مراد الأول'

## بين المطرقة والسندان

\* في عز الانتصارات التي يجني المسلمون ثمارهم على الجبهة الأوروبية، وقعت عدة حوادث خطيرة على الجبهة الداخلية للدولة العثمانية، ذلك أن الأمير 'علاء الدين القرماني' الذي ذاق مرارة الهزيمة من 'مراد الأول' عدة مرات وكل مرة يعفو عنه ويصفح، كان مازال يقتات على أحقاد ضغائه ضد العثمانيين حتى امتلأ قلبه بالسواد وانعقد على التمرد والثورة مرة أخرى رغم العفو والصفح والمصاهرة من جانب 'مراد الأول'، واستغل 'علاء الدين' انشغال العثمانيين بالجهاد على الجبهة الأوروبية، وشن عدة هجمات قوية بالاشتراك مع أمراء مقاطعات 'منتشا، إيدين، صاروخان' وحقق عدة مكاسب محدودة .

\* عاد مراد الأول مسرعاً للأناضول للقضاء على هذه الفتنة الناشئة قبل أن يستفحل أمرها وتهدد الكيان العثماني كله، وهذا من فقه الحاكم بترتيب الأولويات، ذلك لأن ترك هؤلاء المتمردين بالداخل يعصف بالدولة العثمانية وهيبتها أمام عدوها الخارجي وكلما كان الصف المسلم ملتحمًا ومتماسكًا كلما كان أقوى وأجدر على منازلة عدوه الخارجي .

\* استغل الصليبيون بدورهم هذه الحادثة الخطيرة وانشغال 'مراد الأول' بحرب الأناضول، وقرروا إعداد تحالف صليبي جديد لاسترداد ما استولى عليه العثمانيون بالبلقان، فتحالف الصرب والبلغار والبوسنيون، وأعدوا جيشاً كثيفاً، واستطاعوا تحقيق عدة مكاسب محدودة على الحامية العثمانية في جنوب الصرب، وهكذا أصبح العثمانيون بين المطرقة والسندان .

## مراد الأول بطل كوسوفا

\* كان الموقف عصياً والأحوال مضطربة، وكان لابد من إتخاذ موقف حازم وحاسم، لا يقدم على فعله إلا رجلاً من طراز بطلنا المغوار 'مراد الأول' الذي قرر وبسرعة العمل على جبهتين وفتح عدة محاور قتالية ضد اعداء الإسلام من الطرفين، ونظراً لخبرة القادة العثمانيين في قتال الأوروبيين فلقد أرسل 'مراد' بعض قاداته المغاوير لقتال التحالف الصليبي بالبلقان، واتجه هو بنفسه لقتال 'علاء الدين' ومتمردى الأناضول، ذلك لأن جنوده كانوا يكرهون قتال المسلمين بالأناضول، فكان حتمًا عليه أن يقود الجيش بنفسه ليقنع جنوده بعدالة قتالهم وشرعيته ضد الخارجين والمفرقين لوحدة الصف المسلم .

\* كانت الانتصارات الصغيرة التي حققها التحالف الصليبي بالبلقان دافعاً ومشجعاً لأمير البلغار 'سيسمان' لئن ينقض عهده مع المسلمين ويحاول الهجوم على حدود الدولة العثمانية نفسها، ولكنه فوجيء بما ليس له طاقة من الجيوش العثمانية الجرارة التي داهمته كالإعصار الهادر، ففر كالفار المذعور ناحية الشمال، واعتصم بمدينة 'نيكوبلس' في شمال بلغاريا، ولاحقته الجيوش العثمانية وضربت على المدينة حصاراً محكمًا، حاول هو فكه عدة مرات ولكنه فشل وفي النهاية وقع أسيراً بيد المسلمين وكان الواجب على 'مراد الأول' أن يقتله جزاءاً لخيانته ولكنه كعادته عفا عنه بعدما أخذ نصف بلاده وضمها للدولة العثمانية .

\* لم يكن عفو 'مراد الأول' عن 'سيسمان' إلا لعلمه أنه أحق ومجرد أداة في يد الخرس الأول والحقيقي ضد المسلمين، ونعني به رأس الأفعى الصليبية 'لازار' ملك الصرب، وكان هذا الحاقد قد أعد جيشاً قوياً وأسرع به لنجدة 'سيسمان' المحاصر بمدينة 'نيكوبلس' ولكنه وصل متأخراً بعدما وقع 'سيسمان' أسيراً، فانسحب بجيوشه ناحية الغرب بسرعة ليدخل بلاده ويحتمي بحصونه قبلما يصل إليه العثمانيون .

\* في هذه الفترة كان 'مراد الأول' قد انتهى من حروب الأناضول وتحول مسرعاً إلى الجبهة الأوروبية واشترك في حصار مدينة نيكوبلس ، لذلك بعدما فرغ من تأديب 'سيسمان' وتقليم أظافره أسرع بجيوشه لإدراك 'لازار' قبل دخول بلاده ، وبالفعل أدركه

تَمَانِيُون عند سهل 'فوس أوه' أو كوسوفا الآن، ودارت حرب عنيفة بين الجيشين على غيظ وحنق من كلاهما للآخر، وصبر المسلمون صبراً بليغاً حتى أنزل الله عز وجل نصره على المسلمين وقتل الكلب الخبيث 'لازار' بسبب ما فعله من شناعات ومذابح للأسرى المسلمين وكانت هذه المعركة في ١٥ شعبان سنة ٧٩١ هجرية.

## استشهاد مراد الأول

\* بعد الانتصار الساحق الذي حققه المسلمون على الصرب الملاعين، قام السلطان مراد الأول بتفقد ساحة المعركة ليتعرف على أحوال جنوده وهكذا يكون القائد الحكيم، ويدور بنفسه بين صفوف الشهداء وهو يترحم عليهم ويدعو للجرحى بالشفاء، وفي أثناء ذلك قام جندي صربي خسيس اسمه 'مليكو فتيش' وكان قد تظاهر بالموت ليفلت من سيوف المسلمين، وأسرع نحو السلطان متظاهراً برغبته في الإسلام ومحاذة السلطان وتمكن الحراس من القبض عليه، ولكن السلطان 'مراد الأول' أشار للحرس بان يطلقوه لينال ثواب إسلام الرجل على يديه، فلما اقترب هذا الكلب الصربي من السلطان تظاهر بأنه يريد تقبيل يد السلطان وبمنتهى الغدر والخسة أخرج هذا الكافر من كفه خنجراً مسموماً وطعن به السلطان 'مراد الأول' طعنة قاتلة، وانقض الحراس على الكلب فمزقوه بسيوفهم، ولكن ذلك لم يفد شيئاً فقد استشهد 'مراد الأول' رحمه الله في نفس يوم المعركة ١٥ شعبان ٧٩١ هجرية وكان عمره وقتها ٦٥ عاماً.

\* وما يدل على مكانة هذا البطل العظيم وفضله وإيمانه العميق بالله عز وجل أنه قد طلب الشهادة من الله عز وجل ليلة المعركة وكأنه قد شعر قبل هذه المعركة أنها ستكون الأخيرة في سلسلة معاركه الطويلة والتي بلغت سبعاً وثلاثين معركة كلها لأعلاء كلمة الله عز وجل ونشر دعوة التوحيد في بلاد أوروبا لذلك تكللت كلها بالنصر والظفر، وكان من دعائه ليلة المعركة 'يا الله يا رحيم يا رب السموات يا من تتقبل الدعاء لا تخزني يا رحمن يا رحيم، استجب دعاء عبدك الفقير هذه المرة، أرسل السماء علينا مدراراً وبدد سحب الظلام، فترى عدونا، وما نحن سوى عبيدك المذنبين، إنك الوهاب ونحن فقراؤك، أفديك روحى فتقبل رجائى ولا تجعل المسلمين ييؤء بهم الخذلان أمام العدو، يا إلهى إننى أقسم بعزتك وجلالك أننى لا أبغى من جهادى هذا الدنيا الفانية ولكننى أبغى رضاك، ولا شئ غير رضاك يا إلهى إننى أقسم بعزتك وجلالك أننى فى سبيلك فزودنى تشريفاً بالموت فى سبيلك. فاستجاب الله عز وجل له وختم حياته الجهادية الطويلة بأعلى وأثنى ما يرتجيه أى مجاهد فى سبيل الله وفاز بالدرة المشودة ونال أعلى المقامات، وانضم لطابور القادة الشهداء الذين قادوا الجيوش وسألوا الله الشهادة مثل 'أنس بن النصر' 'البراء بن مالك' 'النعمان بن مقرن' رضى الله عنهم أجمعين.

## شهادة الأعداء

أذا أطرى المسلمون على بطل من أبطالهم أو زعيم من زعمائهم فهذا أمر طبيعى ومتوقع وقد يظن البعض أن فيه مزيد مبالغة ومحابة بدافع الدين والعصية، ولكن أن يثنى أعداء الإسلام على بطل من المسلمين طالما ذاقوا على يديه مرارة الهزيمة، فإن هذا هو قمة الفضل وتمام المكانة وهذا ما حدث بالفعل مع السلطان 'مراد الأول' وسمع شهادات الأعداء.

\* قال المؤرخ البيزنطى 'هالكو ندبلاس' عن 'مراد الأول': 'قام مراد بأعمال هامة كثيرة ودخل ٣٧ معركة سواء فى الأناضول أو فى البلقان، وخرج منها جميعاً ظافراً، وكان يعامل رعيته معاملة شفوقة دون النظر لفوارق العرق والدين.

\* وقال المؤرخ الفرنسى 'كرينارد': 'كان مراد واحداً من أكبر رجالات آل عثمان وإذا قومناه تقويماً شخصياً، نجده فى مستوى أعلى من كل حكام أوروبا فى عهده'.

المصادر:

١. تاريخ الدولة العثمانية د: على حسون



٢. تاريخ الدولة العلية محمد فريد وجدى
٣. الدولة العثمانية المفترى عليها د: عبد العزيز الشناوى
٤. عوامل نهوض وسقوط الدولة العثمانية د: على الصلابي
٥. أطلس تاريخ الإسلام حسين مؤنس
٦. التاريخ الإسلامى محمود شاكر
٧. شذارات الذهب ابن العماد الحنيلي
٨. أيام الإسلام شريف عبد العزيز

## أبطال سقطوا من الذاكرة. الزعيم المورسكي مولاي عبد الله محمد - فارس الأندلس الأخير

: قامت دولة الإسلام في الأندلس منذ سنة ٩٢ هجرية وظلت قائمة وصامدة تنقلب من طور لآخر ومن حال ل حال بين قوة وضعف ووحدة وتفرق وعزة وذلة حتى تكاثرت عليها الخطوب وأحاط بها الأعداء من كل مكان فسقطت بعد عمر مديد وحكم فريد سنة ٨٩٧ هجرية أي أنها ظلت قائمة حية طيلة ثماني قرون، وهى بذلك تعتبر أطول دول الإسلام عمراً، وكان حادث سقوطها مدوياً آلم كل المسلمين على وجه الأرض، حتى أن سلطان مصر المملوكي وقتها 'الأشرف قايتباي' قد هدد فرناندو وإيسابيل ملكي إسبانيا النصرانية بأن يقتل كل النصارى الموجودين بمصر واليمن والشام إذا أساءوا لمسلمي الأندلس بل إن حادثة سقوط غرناطة آخر معقل الإسلام بالأندلس لتسامي حادثة سقوط بغداد وسقوط بيت المقدس في يد الصليبيين تارة وفي يد اليهود تارة أخرى، بالجملة كان حادث السقوط من أشهر وأخطر أحداث القرن التاسع الهجري ولكنه لم يكن الفصل الأخير في حياة المسلمين بالأندلس، حيث جاءت بعد ذلك أحداث وفصول أشد مأساوية وأكثر إيلاماً، وبرز خلال تلك الفترة الجهولة تماماً لجمهور المسلمين العديد من الأبطال والفرسان الذين حاولوا استعادة الملك القديم، وصاحبنا هذا هو فارس الأندلس الأخير .

### محاكم التفتيش

لم تكن الدموع التي ذرفها الأمير أبو عبد الله محمد وهو يسلم مفاتيح قصور الحمراء بغرناطة للملكي إسبانيا النصرانية 'فرناندو' و'إيسابيل'، هي الدموع الأخيرة في بلاد الأندلس، إذ أعقبها الكثير والكثير من الدموع والدماء، فرغم العهود والأيمان المغلظة التي قطعها 'فرناندو' على نفسه ووقع عليها في وثيقة استلام غرناطة الشهيرة، إلا أن الله عز وجل الذي هو أصدق قیلا قال في محكم التنزيل 'لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ..' وقال 'إن يتفقوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا أيديهم وألسنتهم بالسوء ..' فأبت على فرناندو صليبيته أن يفي للمسلمين بشيء من العهود والمواثيق، وكانت هذه الوثيقة ستارا للغدر والخيانة وشنيع ما سيقترف بالمسلمين في الأندلس.

عهد الملك الصليبي 'فرناندو' إلى الكاردينال 'خنيس' مطران طليطلة ورأس الكنيسة الإسبانية مهمة تنصير مسلمي الأندلس، وكان هذا الرجل من أشد أهل الأرض قاطبة عداوة للإسلام والمسلمين، بل إن البغضاء المشحونة في قلبه كانت مضرباً للأمثال لعصور طويلة، فأنشأ هذا الرجل ما يسمى بديوان التحقيق أو عرف تاريخياً بمحاكم التفتيش وذلك سنة ٩٠٥ هجرية، فكان أول عمل لهذه المحاكم أن جمعت كل المصاحف وكتب العلم والفقه والحديث وأحرقت في ميدان عام كخطوة أولى لتنصير المسلمين بقطع الصلة عن تراثهم وعلومهم الشرعية.

بدأت حملة تنصير المسلمين بعد ذلك بتحويل المساجد إلى كنائس ثم جمع من بقى من الفقهاء وأهل العلم وتم إجبارهم على التنصير، فوافق البعض مكرهاً وأبى الباقون فقتلوا شر قتلة، وكان التمثيل بجثث القتلى جرس إنذار لباقي المسلمين إما التنصير وإما الموت

بقتل والتككيل وسلب الأموال والممتلكات وكانت عملية التنصير مركزة على إقليم غرناطة ومنه انتقلت حتى التنصير إلى باقي الأندلس حيث كان هناك الكثير من المسلمين تحت حكم النصارى خاصة في الوسط والشرق. هب المسلمون بما بقى عندهم من حمية وغيره على الدين للدفاع عن هويتهم وعقيدتهم، فاندلعت الثورة في عدة أماكن من غرناطة وغيرها، واعتزم المسلمون الموت في سبيل دينهم، ولكنهم كانوا عزلاً بلا سلاح ولا عتاد، فقمع الصليبيون الثورات بمنتهى الشدة فقتل الرجال وسبب النساء وقضى بالموت على مناطق بأسرها ماعدا الأطفال الذين دون الحادية عشرة حيث تم تنصيرهم، وبعد قمع الثورة بمنتهى العنف والقسوة، أصدر 'فرناندو' منشوراً بوجوب اعتناق المسلمين للنصرانية، وذلك سنة ٩٠٦ هجرية ومن يومها ظهر ما يعرف في تاريخ الأندلس المفقود باسم 'المورييسكيين' وهي كلمة إسبانية معناها المسلمين الأصاغر أو العرب المنتصرين، ومحتهم تفوق الخيال وما لاقوه وعانوه من إسبانيا الصليبية لا يحظر على بال.

## المورييسكيون

ظهرت في بلاد الأندلس المفقود طائفة المورييسكيين وهم المسلمون الذين اضطروا للبقاء وأجبروا على إظهار النصرانية وترك الإسلام، وهذه الطائفة رغم البطش والتككيل الشديد الذي تم بها لتجبر على التنصر، إلا إنها ظلت مستمسكة بدينها في السر، فالمسلمون يصلون سراً في بيوتهم، ويحافظون على شعائرتهم قدر استطاعتهم وذلك وسط بحر متلاطم من الاضطهاد والتككيل والشك والريبة.

كانت العداوة الصليبية المستقرة في قلوب الأسبان تجاه مسلمي الأندلس أكبر من مسألة الدين أو غيرها، فقد كانت هناك رغبة جامحة عند قساوسة ورهبان أسبانيا لاستئصال الأمة الأندلسية، فظل المورييسكيون موضع ريب وشك من جانب الكاردينال اللعنة 'خنيس' وديوان التحقيق، فعمل 'خنيس' على الزج بآلاف المورييسكيين إلى محاكم التفتيش حيث آلات التعذيب والتككيل التي تقشعر لها الأبدان ويشيب منها الولدان وذلك للتأكد من صدق تنصرهم وخالص ارتدادهم عن الإسلام، وكانت أدنى إشارة أو علامة تصدر من المورييسكيين وتدل على حنينهم للإسلام كفيلة بإهدار دمائهم وحرقتهم وهم أحياء، واستمرت إسبانيا الصليبية في سياسة الاضطهاد والقمع والتككيل بالمورييسكيين، وبلغت المأساة مداها بعدما أصدر 'شارل الخامس' قراراً بمنع سفر المورييسكيين خارج إسبانيا باعتبارهم نصارى ومن يخالف يقتل وتصادر أملاكه وعندها اندلعت الصدور اخترقه بثورة كبيرة في بلاد الأندلس.

## الثورة الشاملة

كان تولى الإمبراطور 'فليب الثاني' عرش إسبانيا بداية حملة اضطهاد غير مسبوقة للمورييسكيين الذين كانوا موضع شك دائم من قبل الكنيسة ورهبانها الذين كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم أن المورييسكيين ما زالوا على الإسلام في سويداء قلوبهم، وكان 'فليب الثاني' ملكاً شديد التعصب، كثير التأثر بنفوذ الأحرار، فأصدر حزمة من القرارات جاءت بمثابة الضربة القاتلة لبقايا الأمة الأندلسية وذلك بتجريدتها من مقوماتها القومية الأخيرة بتحريم استخدام اللغة العربية والملابس العربية، وعندها قامت الثورة الشاملة وكان مركز الثورة في منطقة جبل 'الشارات' واندلع لهيب الثورة منها في أنحاء الأندلس ودوت صيحة الحرب القديمة وأعلن المورييسكيون استقلالهم، واستعدوا لخوض معركة الحياة أو الموت، واختار الثوار أميراً لهم اسمه 'محمد بن أمية' يرجع أصله إلى بني أمية الخلفاء كإشارة على استعادة الخلافة ودولة الإسلام في الأندلس مرة أخرى.

حقق المورييسكيون عدة انتصارات متتالية، اهتزت لها عروش النصرانية في أسبانيا وأوروبا، فأعدت أسبانيا حملة عسكرية ضخمة يقودها أمهر قادتهم هو 'الدون خوان'، وجاء المجاهدون المسلمون من المغرب العربي وانضمت فرقة عسكرية عثمانية للثوار جاءتهم من تونس، وكان الأسبان يقتلون من يقع في أسرهم ويمثلون بجثثهم أبشع تمثيل حتى الأطفال والنساء لم يسلموا من أفعالهم، وزاد ذلك الثوار يقيناً بحتمية الاستمرار في الثورة والقتال حتى الموت، وقويت العزائم وتقاطر المجاهدون المغاربة على الأندلس، وهنا

دبت أيدي الغدر والخيانة في الظلام لتغتال حلم الأندلسيين بمكيدة شريرة ويقتل الأمير 'محمد بن أمية' قبل أن يحقق هدفه المنه

## القائد الجديد

بعد اغتيال 'محمد بن أمية' لم تكن هذه الثورة لتقف أو تنتهي بموت زعيمها، فاختار الثوار أميراً جديداً هو ابن عم القتل واسمه 'مولاي عبد الله محمد'، وكان أكثر فطنة وروية وتدبراً فحمل الجميع على احترامه ونظم جيش الثوار وجعله على الطراز الدولي ويفوق في تنظيمه الجيش الصليبي الأسباني واستطاع 'مولاي عبد الله' أن يستولي على عدة مدن هامة مثل مدينة 'أرجبة' التي كانت مفتاح غرناطة والتي كان سقوطها شرارة اندلاع ثورة المورييسكيين وذيوع شهرة 'مولاي عبد الله محمد'.

حشدت إسبانيا أعداداً ضخمة من مقاتليها يقودهم 'الدون خوان'، فحاصر هذا الجيش الجرار الثوار في بلدة 'جليرا' وكان مع الثوار فرقة من الجنود العثمانيين، ودارت رحى معركة في منتهى الشراسة أبدى فيها المسلمون بسالة رائعة، ولكن المدينة سقطت في النهاية ودخلها الأسبان دخول الصواري المفترسة وارتكبوا مذبحاً مروعة شنيعة لم يتركوا فيها صغيراً ولا كبيراً ولا طفلاً ولا امرأة، وحاول 'الدون خوان' مطاردة فلول الثوار ولكنه وقع في كمين للثوار في شعب الجبال عند مدينة 'بسطة' وأوقع الثوار هزيمة فادحة بالصليبيين الأسبان، جعلت الحكومة الأسبانية تفكر في مصالحة الثوار المسلمين.

## السلام الفاشل

عرضت الحكومة الصليبية الإسبانية على المسلمين الثائرين معاهدة سلام لإنهاء القتال، فبعث 'الدون جوان' إلى أحد الثائرين واسمه 'الحبقي' وقد نحت فيه إسبانيا الصليبية بعض المؤهلات التي ترشحه للتفاوض وقبول شروطها المجحفة في السلام، وكانت شروط المعاهدة تتضمن وقف انتفاضة المسلمين فوراً وفي سبيل ذلك يصدر وعد ملكي بالعفو عن جميع المورييسكيين الذين يقدمون خضوعهم في ظرف عشرين يوماً من إعلانه ولهم أن يقدموا تظلمهم وشكاواهم مع الوعد بالبحث فيها ودراستها..!

وكل من رفض العفو والخضوع للسلطة الصليبية سيقتل ما عدا النساء والأطفال دون الرابعة عشرة والسبب بالقطع معروف النساء سبايا والأطفال ينصرون.

كانت شروط السلام الصليبي المعروض على المورييسكيين كفيفة بأن يرفض الأمير مولاي عبد الله محمد هذه المعاهدة الجائرة التي لا تعطي المسلمين شيئاً وليس لها سوى هدف واحد وهو إيقاف ثورة المسلمين فقط لا غير، وأيقن المسلمون أن الأسبان الصليبيين لا عهد لهم ولا ذمة، فانقلب النصارى يفتكون بكل المسلمين في أنحاء أسبانيا سواءً من اشترك في الثورة أم لم يشترك، واشتبك الدون خوان مع قوات مولاي عبد الله في عدة معارك ولكنها غير حاسمة، وفي نفس الوقت أبقى الأسبان على خط التفاوض مع الزعيم 'الحبقي' الذي رأى فيه النصارى السبيل لشق صف الثوار المسلمين.

سار مجرى القتال في غير صالح المسلمين لانعدام التكافؤ بين الطرفين خلا الإيمان بالله عز وجل، ورأى مولاي عبد الله أن أتباعه يسقطون من حوله تباعاً وتجهماً الموقف والقوة الغاشمة تحتاج كل شيء، فبدأ يفكر في الصلح والسلام ولكن بغير الشروط السابقة، وتدخل بعض زعماء الأسبان ممن له عقل وتدبير لإجراء الصلح، ولكن 'الحبقي' استبق الجميع وشق صف الثورة وخرج عن طاعة مولاي عبد الله ومن معه، وذهب بسرية من فرسانه إلى معسكر الصليبيين وقدم الخضوع والذلة إلى قائدهم 'الدون خوان'.

كانت هذه الخطوة الذليلة من 'الحبقي' محل سخط كل المسلمين وخاصة زعيمهم مولاي عبد الله، فلقد لمح أن 'الحبقي' يروج بمنتهى القوة لهذا السلام الذي هو خضوع وذلة بالكلية للصليبيين، وأن الصف المسلم يتصدع بمحاولات 'الحبقي' وأراجيفه، خاصة بعدما لمح المسلمون نية الصليبيين في نفيهم بالكلية عن الأندلس، وهذا يجعل الهدف والداعي الذي قامت من أجله الثورة في الأصل هباءً منثوراً وكيف سيعيدون دولة الإسلام في الأندلس مرة أخرى إذا طردوا من أوطانهم، لهذه الأسباب كلها قرر مجلس قيادة الثورة إعدام 'الحبقي' الذي ظهر منه ما يدل على عمالته وولائه للصليبيين.

أعلن مولاي عبد الله أن الثورة لن تتوقف وأن المورييسكيين سيجاهدون حتى الموت وأن حلمهم بإعادة دولة الإسلام في الأندلس لم يمت في قلوبهم، وأنه يؤثر أن يموت مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه مما بذلوا له من وعود معسولة وأمانى كاذبة

وكان لهذا الموقف الشجاع من مولاي عبد الله فعل السحر في نفوس المسلمين في جميع أنحاء أسبانيا، فاندلعت الثورة كالنار في الهشيم، وقابل الأسبان ذلك بمنتهى القسوة والشدة بل والحقد الجنوني، حيث مضوا في القتل والتخريب لكل ما هو مسلم، وهدموا القرى والضياع والحقول حتى لا يبقى للثوار متوى أو مصدر للقوت. كانت لهذه القسوة المفزعة أثر كبير على نفوس المورييسكيين حيث فر كثير منهم من البلاد كلها إلى إخوانهم المسلمين في إفريقيا، وفي ٢٨ أكتوبر سنة ١٥٧٠ أصدر فليبي الثاني قراراً بنفي المورييسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد الأخرى بأسبانيا، ويوزعون على سائر الولايات الإسبانية بل مصادرة أملاكهم وأموالهم، ووقع تنفيذ القرار في مشهد يندى له جبين البشرية من الخزي حيث السفك والنهب والاعتصاب، وسيق مسلمو غرناطة كالمقطوع لمسافات طويلة حيث الجوع والعطش والمرض ثم وضعوا بعد ذلك فيما يشبه المعسكرات الجماعية حيث بقوا رهن المتابعة والرقابة الدائمة، وعين لهم مشرفاً خاصاً يتولى شئونهم ووضعت لهم جملة من القيود من يخالف أداها يقتل شر قتلة.

### الخيانة ونهاية البطل

بعد هذه الوحشية منقطعة النظر وبعد سلسلة من المذابح والجازر البشرية المروعة في حق مسلمي الأندلس وبعد فرار الكثير من المورييسكيين إلى إفريقيا وبعد نفي بقيتهم داخل أسبانيا لم يبق أمام الأسبان سوى آخر فرسان الأندلس مولاي عبد الله وجيشه الصغير الذي ظل مقاوماً للصليبيين معتصماً بأعماق الجبال، رافضاً للصالح أو المهادنة أو الخضوع لسلطة الصليب مهما كانت التضحيات، وهو في هذه الأثناء يقوم بحرب عصابات ضد الحاميات الأسبانية المنتشرة بغرناطة وأوقعت هذه الحرب خسائر فادحة بالأسبان، ولكنها أيضاً أنهكت قوة جيش مولاي عبد الله الصغير.

ولأن هذا العصر وتلك الأيام كانت توصف بالخيانة والعمالة وحب الدنيا وكراهية الموت والخوف على النفس والمال والعيال، فلقد استطاع أعداء الإسلام أن يستقطبوا ويجندوا أحد ضباط مولاي عبد الله محمد ويغروه بالأموال والمنح والوعود والعفو الشامل إذا استطاع أن يسلمهم مولاي عبد الله محمد حياً أو ميتاً، وكان الإغراء قوياً ومثيراً والنفوس ضعيفة، فدبر هذا الضابط الخائن خطته لاغتيال آخر أبطال الأندلس، وفي ذات يوم هجم الخائن مع بعض من أغواهم على البطل مولاي عبد الله الذي قاومهم قدر استطاعته ولكنه وبعد معركة غير متكافئة سقط شهيداً، فقام الخونة بفعلة شنيعة حيث ألقوا جثته من فوق الصخور لكي يراها الجميع ويعلم أسيادهم الأسبان بنجاح مخطط الغدر والخيانة، وهكذا تدفع الأمة من جديد ثمن خيانة بعض أبنائها وتفقد ولداً باراً وبطلاً عظيماً قام بنصرتها والدفاع عن عرضها وحاول استعادة مجدها ولكنه وللأسف الشديد زمن الخيانة والعمالة!

### هكذا يفعلون في أبطالنا

إن ميراث الحقد والعداوة الدفين في قلوب أعداء الإسلام ضد كل ما هو مسلم ليدعو كل صادق وغيور لأن يكون على استعداد دائم للمعركة التي يخطط لها أعداء الإسلام، والصدام الوشيك بين الحق والباطل، وما فعله الأسبان بجثة البطل الشهيد مولاي عبد الله يدل على مدى الحقد العمى المشتعل في قلوب أعداء الإسلام، حيث قام الأسبان بحمل الجثة إلى غرناطة وهناك استقبلوها في حفل ضخم حضره الكبار والصغار الرجال والنساء، ورتبوا موكباً أركبت فيه الجثة مسندة إلى بغل وعليها ثياب كاملة كأنه إنسان حي

من ورائها أفواج كثيرة من المورييسكيين الذين سلموا عقب اغتيال زعيمهم، ثم حلت الجثة إلى النطع وأجرى فيها حكم الإعدام ففقط رأسها ثم جرت في شوارع غرناطة مبالغة في التمثيل والتنكيل ومزقت أربعاً وأحرقت بعد ذلك في الميدان الكبير ووضع الرأس في قفص من الحديد، رفع فوق سارية في خاصة المدينة تجاه جبال البشرات معقل الثورة ومنشأها، وهكذا يفعلون في أبطالنا.

#### المصادر

١. محنة العرب في الأندلس 'أسعد حومد'
٢. الأندلسيون وهجراتهم 'محمد رزوق'
٣. التنصير القسري لمسلمي الأندلس 'محمد عبده حتامله'
٤. دولة الإسلام في الأندلس 'محمد عبد الله عنان'
٥. التاريخ الإسلامي 'محمد شاكر'

## أبطال سقطوا من الذاكرة : الأسدالباسل : ألب أرسلان - محطم الإمبراطورية البيزنطية

فلقد خاضت الأمة الإسلامية معارك كثيرة ومهولة مع عدوين كلاهما يرفع راية الصليب ويحارب باسمها وتحتها : العدو الأول الفرنجة أو نصارى غرب أوروبا الذين شنوا الحملات الصليبية الشهيرة في أواخر القرن الخامس الهجري '٤٨٩' هجرية على الشام ومصر بدافع وتحريض مباشر من كرسي البابوية كبير الكاثوليك ولقد استمرت هذه الحملات قرابة القرنين من الزمان ومثلت ذروة الصراع بين الإسلام والنصرانية والشرق والغرب في منتصف العصور الوسطى، أما العدو الثاني : فهم الروم أو الرمان البيزنطيون أو نصارى شرق أوروبا والبلقان حيث الإمبراطورية البيزنطية القديمة العريقة حامية وراعية المذهب الأرثوذكسي، وكانت هذه الإمبراطورية الرومانية قد بسطت نفوذها على الشام والجزيرة الفراتية والأناضول ومصر وليبيا وتونس قبل ظهور الإسلام، وهذه الإمبراطورية هي أو عدو من خارج الجزيرة العربية يصطدم مع المسلمين وكان اللقاء مبكراً جداً في معركة مؤتة سنة '٨' هجرية وظل الصراع قائماً بعدها ضد هذه الإمبراطورية وخاض المسلمون معارك رائعة ضدها وحققوا انتصارات عالمية عليها في مؤتة سنة ٨ هجرية ثم تبوك سنة ٩ هجرية ثم اليرموك سنة ١٣ هجرية وحرر المسلمون الشام والجزيرة ومصر وليبيا وتونس من الرومان في عهد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ولكن ظلت هذه الإمبراطورية قائمة حتى جاء بطلنا الباسل 'ألب أرسلان' فنالت على يديه الهزيمة العالمية التي غيرت مجرى التاريخ وأعادت ترتيب القوى العالمية وتحطمت الإمبراطورية البيزنطية وظلت تترنح بعد ضربة بطلنا الهمام 'ألب أرسلان' حتى خرجت من الساحة الدولية ولم يعد لها أثر ولا قوة.

### القوة الجديدة وسنة الاستبدال

إن الله عز وجل سنناً لا تبدل ولا تتخلف بإذن الله، وفقه هذه السنن من الأمور الهامة في حياة المسلمين أفراداً وأماً، لأن هذه السنن من أهم دعائم بقاء الأمم واستمرارها وتمكنها وظهورها، وهذه السنن لا تعرف جوراً ولا محاباة، فهي جارية على خلق الله جميعاً



منهم وكافرهم، فأما أمة أو جماعة أو أفراد استوفوا شروطها وعملوا بمقتضاياتها جرت عليهم السنن وجوداً وعدمًا، سالباً وإيجاباً.

ومن أعظم هذه السنن سنة الاستبدال التي جعلها الله عز وجل لحفظ دينه ونصرة شريعته.

وعمل هذه السنة يقتضى أنه إذا لم يقم الجيل المسلم القائم بأعباء الدين والواجب المناط به تجاه الدعوة والأمة، فإن الله عز وجل يستبدل هذا الجيل ويأتي بالجيل القادر على حمل مسئولية الدين والأمة، وهذا ظاهر صراحة في قوله عز وجل [وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم] سورة 'محمد' الآية '38' ، وقد عملت هذه السنة في دولة الخلافة العباسية التي بلغت مبلغاً بعيداً في الضعف والتفكك وتسلبت الغير عليها وقد واجهت التحدي الأكبر لوجودها وشرعيتها عندما ظهرت الدولة الفاطمية الباطنية الشيعية والتي استولت على مصر والشام والحجاز واليمن، وأصبح العالم الإسلامي مهياً لظهور القوة الجديدة التي ستعيد لأمة الإسلام قوتها وشبابها، وكانت هذه القوة الجديدة : قوة السلاجقة وهي قبائل تركية ظهرت منذ أوائل القرن الخامس الهجري في سهول التركستان، وظلت في تقدم وتوسع وانتشار خاصة عندما آلت قيادة هذه القبائل للسلطان 'طغرل بك' الذي وسع نطاق نفوذ السلاجقة وأعلن ولائه الكامل للخليفة العباسي ولأهل السنة عموماً واتسعت دولة السلاجقة لتشمل خراسان وإيران وبلاد ما وراء النهر كلها.

كان لظهور هذه القوة الجديدة أثر بعيد على الساحة العالمية خاصة عند القوى المعادية للإسلام وهي ممثلة في الإمبراطورية البيزنطية الصليبية والدولة الفاطمية الشيعية، فكلاهما لا يرغب في قوة جديدة للمسلمين، وبالفعل وقع الصدام بين السلاجقة والبيزنطيين عدة مرات ولكن كانت معركة 'أرزن' على حدود أرمينية سنة ٤٥٠ هجرية وفيها انتصر السلاجقة انتصاراً عظيماً ثبت وضع ومكانة السلاجقة على الساحة الدولية وخريطة القوى العالمية.

واستمر 'طغرل بك' في جهاده ونصرته للخلافة العباسية والمسلمين حتى توفاه الله عز وجل سنة 455 هجرية وتولى السلطنة بعده بطلنا الجسور ألب أرسلان.

### الأسد الباسل

هو السلطان الكبير والملك العادل، عضد الدولة، أبو شجاع ألب أرسلان محمد بن جفرى بك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق التركمان، ومعنى ألب أرسلان بالتركية الأسد الباسل وكان حقاً منذ شبابه وقبل ولايته أسد باسلاً شجاعاً يستعين به عمه 'طغرل بك' في المهام الصعبة والجسيمة وكان في منزلة القائد العام للجيش السلجوقية وهو دون الثلاثين من العمر وقد كلفه عمه 'طغرل بك' بأهم منصب في الدولة السلجوقية ألا وهو منصب حاكم إقليم خراسان المضطرب، فأبدى كفاءة وحزم وعزم شديد في مواجهة التحديات والصعوبات الكثيرة خاصة وأن دولة السلاجقة كانت مازالت بعد في مراحلها الأولى رغم قوتها وشبابها.

لم يكد ألب أرسلان يستلم منصب السلطان حتى دبت خلافات طارئة داخل البيت السلجوقي، حيث ثار عليه بعض أقربائه منهم أخوه سليمان وعمه 'قتلمش' واضطر ألب أرسلان مكرها أن يقاتل الخارجين عليه، وقد نصره الله عز وجل على خصومه على الرغم ما إن عمه قتلتمش قد حاربه بتسعين ألفاً، في حين ألب أرسلان كان في اثني عشر ألفاً فقط، ولما علم ألب أرسلان نبأ مقتل عمه في المعركة بكى بشدة وتأسف على نهايته.

بعد ذلك انشغل ألب أرسلان في القضاء على بعض الثورات الداخلية التي قام بها بعض حكام الأقاليم فلقد ثار حاكم إقليم 'كرمان' وغيره، وعانى أيضاً ألب أرسلان من غارات القبائل التركمانية التي لا تنضوي تحت راية أحد وتعيش على السلب والنهب .

**استراتيجية القيادة الناجحة**

لقد ورث السلطان ألب أرسلان إمبراطورية عظيمة واسعة الأرجاء تمتد من سهول التركستان إلى ضفاف دجلة، بها الكثير من المدن الكبار والأقاليم الواسعة والشعوب المتباينة، لذلك فلقد كانت مسألة قيادة هذه الإمبراطورية في غاية الصعوبة وتحتاج لاستراتيجية حكيمة وقيادة قديرة، وهذا ما اتبعه الأسد الباسل 'ألب أرسلان' وذلك بإتباع الخطوات الآتية :-

#### أولاً :- استخدام الرجال الأكفاء

وكان ذلك حجر الزاوية في نجاح استراتيجية القيادة عند ألب أرسلان، فلقد استخدم ألب أرسلان في منصب الوزارة وهو أهم منصب في الدولة رجلاً قديراً كان سبب سعادة الدولة السلجوقية وهو الوزير العظيم 'نظام الملك' الذي جمع بين العلم والورع والحنكة السياسية والمقدرة القيادية وحب العلماء والصالحين والزهاد، ولقد استمر نظام الملك وزيراً طوال حكم ألب أرسلان وولده 'ملك شاه' من بعده أي استمر من سنة ٤٥٥ هجرية — ٤٨٥ هجرية، وهذا يؤكد على مدى أهمية البطانة الصالحة والرجال الأكفاء في المناصب الحساسة، فكم من وزيراً وقائد أضاع أمته أما بجهالة أو عمالة أو طمع في الدنيا، وكم عانت الأمة الإسلامية من رجال وسد إليهم الأمر وهم من غير أهلهم، فضاعوا وأضاعوا وضلوا وأضلوا.

#### ثانياً :- تأليف الخصوم

عندما ظهرت القبائل السلجوقية اصطدمت بقوة مع الدولة السبكتيكية التي كانت تسيطر وقتها على خراسان وسهولها التركستان والسند، ودارت بين السلاجقة ومحمود بن سبكتكين ثم ولده مسعود معارك كثيرة وطاحنة استمرت قرابة الخمسين سنة في صراع بدا للعيان أنه لن ينتهي أبداً، حتى جاء الأسد الباسل إلى السلطة وقرر حسم هذا الصراع الطويل ليتفرغ إلى مهمته الأصلية: فتح القسطنطينية وفتح مصر، واستطاع ألب أرسلان أن يتألف خصمه اللدود الدولة السبكتيكية بأيسر السبل بأن صاهر سلطانها على ابنته فزوجها لابنه 'إياز'، ثم صاهر سلطان الدولة الخانية [بلاد ما وراء نهر جيحون] على ابنته أيضاً، فزوجها لابنه الآخر 'تكش'

كذا استطاع ألب أرسلان أن يؤلف خصومه وألد أعدائه وجعلهم أقرباء وأهله وهذا من قمة الذكاء الاستراتيجي للقائد

كانت أيضا القبائل التركمانية من أشد خصوم السلاجقة رغم الاتفاق العرقي بين الطرفين فالسلاجقة أصلاً من التركمان، ولكن هذه القبائل الموجودة في منطقة الأناضول أو آسيا الصغرى كانت تعيش على السلب والنهب والإغارة على المسلمين والرومان على حد سواء، فقرر ألب أرسلان استغلال هذه الطاقة الهجومية عند هذه القبائل في الإغارة على الدولة البيزنطية وحدها دون المسلمين، وهو ما نجح فيه ألب أرسلان باقتدار، حتى أصبحت هذه القبائل هي أكبر تهديد يواجه الدولة البيزنطية وعنصر قلق دائم لها خاصة في منطقة 'أرمينية'.

### ثالثاً:- إتباع أسباب البقاء

إن للبقاء أسباباً وللاستمرار عوامل ومعطيات من تناولها وعمل بها تم له البقاء والصمود حتى حين، وهذا ما أدركه السلطان ألب أرسلان جيداً، فسار في رعيته سيرة حسنة صالحة ضمنت له رضا الناس عنه، فقد كان ألب أرسلان كريماً، رحيماً، شفوفاً على الرعية، رقيقاً على الفقراء باراً بأهله وأصحابه ومماليكه، كثير الدعاء بدوام النعم عليه، كثير الصدقات، لم يعرف في زمانه جنانية ولا مصادرة، فلا يأخذ من أموال الرعية إلا ما حل للدولة من خراج وزكاة، له سياسة عظيمة مع ولاته وعماله، فلقد كتب إليه بعض الوشاة في وزيره 'نظام الملك' فاستدعاه ثم قال له {خذ إن كان هذا صحيحاً، فهذب أخلاقك وأصلح أحوالك وإن كذبوا فاغفر لهم زلتهم}، كما كان ألب أرسلان شديد الحرص على حفظ مال الرعية فلقد بلغه يوماً أن أحد مماليكه قد أخذ إزاراً لأحد الناس ظلماً، فأمر بصلبه حتى يرتدع باقي المماليك عن الظلم، وهكذا نرى هذا القائد الحكيم قد أدرك بفطرته القيادية أسباب البقاء فسار على طريقها واتبعها خير إتباع.

### بين المطرقة والسندان

كما قلنا من قبل كانت الدولة السلجوقية الكبيرة تقع بين عدوين كبيرين كلاهما يترصد بهذه القوة الجديدة، العدو الأول الإمبراطورية البيزنطية عريقة العداء مع المسلمين، والعدو الثاني الدولة العبيدية الخبيثة في مصر، وكان ألب أرسلان في الحقيقة يريد أن يفتح مصر أولاً وذلك لعدة اعتبارات : منها تخليص العالم الإسلامي من حالة الفوضى القيادية في ظل وجود خلافتين كلاهما يدعى الأحقية والشرعية، ومنها القضاء على منبع تصدير الشرور والضلالات والاعتقالات في الأمة الإسلامية.

ومن أجل التفرغ لفتح مصر والشام كان لابد على الأسد الباسل ألب أرسلان أن يؤمن حدوده مع الأقاليم الأرمينية والجنوبية التابعة للدولة البيزنطية والمتاخمة لبلاده، وكان كما ذكرنا آنفاً قد استعان بقبائل التركمان ووجه طاقاتهم القتالية لصالح المسلمين،

داروا على هذه الحدود وقاموا بدورهم في إضعاف القوى الدفاعية للدولة البيزنطية، ولكن هذه الغارات المقطعة لم تصرف الأسد ألب أرسلان لئن يسدد ضربة موجعة للدولة البيزنطية تشغل بها حيناً من الدهر ريشما يقوم هو بمشروعه الكبير في فتح الشام ومصر وإسقاط الدولة العبيدية الخبيثة.

### ضربة الأسد

هذه الضربة قام بها الأسد الباسل 'ألب أرسلان' بعد انتهائه مباشرة من خلافاته الطارئة مع عمه 'قتلمش' حيث توغل بجيوشه إلى قلب الأناضول قاصداً مدينة قيصرية الغنية التي فتحها ألب أرسلان في ربيع الثاني سنة ٤٥٦ هجرية وغنم منها غنائم عظيمة، ثم توجه بعدها إلى أذربيجان ثم إلى أرمينية وبلاد الكرج 'جورجيا الآن' في جيش ضخّم قسمه إلى جزأين، جزء يقوده ولده وولى عهده 'ملكشاة' ووزيره الشهير 'نظام الملك' واتجه ناحية القواعد الجبلية، والجزء الآخر يقوده ألب أرسلان نفسه وتوجه إلى مدينة 'آني' عاصمة أرمينية البيزنطية واجتمع مع الجزء الأول من الجيش على حصار المدينة العريقة لعدة شهور حتى فتحها في أواخر سنة ٤٥٦ هجرية، وبذلك سيطر السلاجقة على أرمينية التي كانت بمثابة الحصن المنيع لبيزنطة من الشرق، وتلقت الدولة البيزنطية ضربة موجعة من الأسد الباسل جعلتها تعيد ترتيب أوراقها وتفكر في تغيير قياداتها وأسلوب معاركها وهذا ما سيظهر أثره في معركة ملازكرد.

### العودة إلى الهدف الأول

بعد نجاح ألب أرسلان في فتح أرمينية البيزنطية والكرج قرر الأسد العودة إلى الهدف الأول وهو فتح الشام ومصر، فتوجه إلى شمال الشام الذي كان به العديد من أمراء المسلمين المواليين للدولة البيزنطية وأيضاً مواليين للدولة الفاطمية، وهاجم ألب أرسلان القلاع البيزنطية في الرها وأنطاكية وقيسارية، وأخضع بني شداد في حران وبني عقيل في الموصل وكان ولاؤهم للفاطميين، ثم عبر نهر الفرات واتجه إلى مدينة حلب ومنها إلى نفوذه كي يحمي ظهره من الخطر الشيعي حيث كان أميرها محمود بن صالح شيعياً فاطمياً.

### الصحوّة

في هذه الفترة الذهبية للدولة الإسلامية والتي كان فيها الأسد الباسل ناشراً رايات الجهاد على عدة جبهات، كانت الدولة البيزنطية تضطرم بروح انتقامية عارمة وتبحث عن القيادة القادرة على رد عادية السلاجقة والقبائل التركمانية التي أنهكت القوى الدفاعية للإمبراطورية العجوز ولقد وجدت الدولة البيزنطية ضالتها في القائد العسكري الشاب 'رومانوس ديوجين' الذي لمع نجمه بعد عدة انتصارات حققها في القتال ضد البوشناق في بلغاريا فانعقدت عليه الآمال وحطت عنده الرحال خاصة بعد ثلاثة انتصارات متتالية على بعض أمراء المسلمين في الفترة ما بين سنة ٤٦١ هجرية — ٤٦٣ هجرية، فتربع إمبراطوراً على بيزنطة وتلقب برومانوس

ابع وأخذ في التحضير لعمل عسكري ضخم ضد المسلمين ينهي بها وجودهم في منطقة آسيا الصغرى والجزيرة وشمال الشام.

وبالفعل بعد عدة شهور من توليه العرش البيزنطي بدأ العمل في سد المنافذ التي استخدمها السلاجقة في التدفق على أراضي

الإمبراطورية، كما سعى إلى احتلال بعض المواقع الإستراتيجية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية، وشن ثلاث حملات ضد إمارة حلب

في الشام ثم الجزيرة فاستولى خلالها على مدينة 'منبج' ثم قام في الثالثة بالهجوم على أرمينية الإسلامية، فاستولى على كثير من

الحصون وشحنها بالمقاتلين واستعد لمعركة حاسمة لم يكن يدرى أنها بالفعل ستكون حاسمة وللأبد ولكن عليه لا له.

### معركة ملازكرد

حشد 'رومانوس' كل ما استطاع من القوى اللازمة لتحطيم الأمة الإسلامية، واستعان بالفرق الفرنجية من غرب أوروبا كمرتزقة

في جيشه واستعان أيضا بالقبائل الروسية وكانت حديثة عهد بالنصرانية وانضم إليه كثير من الأرمن والجورجيين وتضخم جيشه حتى

وصل لأكثر من ثلاثمائة ألف مقاتل وفي نيته قلع الأمة الإسلامية من أساسها ومحو الإسلام كدين والمسلمين كأمة.

وصلت الأنباء للسلطان ألب أرسلان وهو في مدينة 'خوى' من أعمال أذربيجان فقرر رغم قلة جيشه الزحف باتجاه الجيش العملاق

لوقف تقدمه بأرض الإسلام، في حين واصل رومانوس زحفه حتى وصل إلى مدينة ملازكرد [وتنطق أيضا منازجرد ومنازكرد] وهي

بلدة حصينة تقع على فرع نهر 'مرادسو' بقلب الأناضول وهذه المدينة مازالت موجودة حتى الآن بتركيا.

انطلق الأسد الباسل بمنتهى السرعة مستغلاً خفة حركته لقلة جيشه وذلك لنجدة المدينة المحاصرة وجاءت أول بشارات النصر عندما

التقت قوات الاستطلاع المسلمة بطلائع الروم وكانوا من القبائل الروسية فانتصر المسلمون ووقع قائد الروم الروسي 'بازيلكوس'

في الأسر.

ورغم هذا الانتصار المشجع إلا إن ألب أرسلان الذي كان يقدر مدى الفارق الكبير بين الجيشين أرسل إلى رومانوس يطلب الهدنة

ولكن هذا الطلب جعل رومانوس يغتر بكبرته وتفوقه في العدد والعدة ورد على طلب السلطان بالهدنة بأن قال بلا هدنة إلا في

الري [والري هي عاصمة الدولة السلجوقية ولم يعلم رومانوس أنه بذلك قد كتب نهايته ونهاية دولته البائسة.

### الأسد بطل ملازكرد

لما وصل هذا الرد المستفز للأسد الباسل 'ألب أرسلان' حميت عزيمته واشتعلت الغيرة على الإسلام في قلبه واستوثق الإيمان في نفسه

وتأكد من صحة عزم هذا الصليبي على إبادة الأمة الإسلامية وقرر التصدي له وحده وبمن معه من جنود، على الرغم من التفاوت

الشاسع بين الجيشين فالروم البيزنطيون وحلفاؤهم أكثر من ثلاثمائة ألف، والمسلمين في خمسة عشر ألف فقط لا غير.

كان ألب أرسلان مؤمناً صادقاً غيوراً يعلم أن الله عز وجل سوف ينصره لأنه على الحق وعدوه على الباطل، وكان من عادة هذا



سلطان الصالح أن يصطحب معه في غزواته وحملاته الجهادية العديد من العلماء والفقهاء والزهاد كقيادة روحية ومرجعية دينية

وكان معه في هذه المرة الفقيه الكبير [أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري] الذي قال لألب أرسلان هذه العبارة الرائعة [إنك

تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح فالحقهم يوم الجمعة

بعد الزوال في الساعة التي يكون الخطباء فيها على المنابر فيأثم يدعون للمجاهدين بالنصر. ]

وبالفعل استجاب الأسد الباسل لهذه النصيحة الغالية التي تشرح بأوجز العبارات أسباب الانتصار المادية والمعنوية، فالمجاهدين يحتاجون

تماماً للدعاء مثلما يحتاجون إلى السيف والرمح، وفي يوم الجمعة ٧ ذي القعدة ٤٦٣ هجرية — ٢٦ أغسطس 1071 ميلادية

قام ألب أرسلان وصلى بالناس وبكى خشوعاً وتأثراً ودعا الله عز وجل طويلاً ومرغ وجهه في التراب تذلاً بين يدي الله واستغاث

به، ثم لبس كفنّه وتحنط وعقد ذنب فرسه بيديه ثم قال للجنود {من أراد منكم أن يرجع فليرجع فإنه لا سلطان هاهنا إلا الله} ثم

امتطى جواده ونادى بأعلى صوته في أرض المعركة {إن هزمت فإني لا أرجع أبداً فإن ساحة الحرب تغدو قبري} وبهذا المشهد الذي

ينفطر له أقسى القلوب وتحشع أمامه أشقى النفوس استطاع 'ألب أرسلان' أن يحول ١٥ ألف جندي إلى ١٥ ألف أسد كاسر

ضاري.

وعند الزوال اصطدم الجيشان وألب أرسلان على رأس جيشه يصول ويجول كالأسد المصور ودارت معركة طاحنة في منتهي العنف

حاول البيزنطيون حسم المعركة مبكراً مستغلين كثرتهم العددية الضخمة، ولكن ثبات المسلمين أذهلهم وأنساهم كل المعارك التي

خاضوها من قبل حتى أصيب الروم بالتعب والإرهاق وذلك عند غروب الشمس، فحاول 'رومانوس' الانسحاب إلى الخلف قليلاً

للراحة ومواصلة القتال في اليوم التالي، وعندها انتهز الأسد الباسل الفرصة وشد بكامل جيشه على الرومان حتى أحدث بصفوفهم

المنسحبة ثغرة، أنسال منها سلاح الفرسان الإسلامي إلى قلب الجيش البيزنطي وأمطروهم بوابل من السهام المميته فوقعت مقتلة

عظيمة وانكشفت صفوف البيزنطيين وركبوا بعضهم بعضاً وفرت الفرق الفرنجية المرتزقة من أرض المعركة ووقع في الأسر أعداد

كبيرة منهم الإمبراطور 'رومانوس' نفسه.

**بين الأسد وفريسته**

في صباح اليوم التالي للمعركة أخذ القيصر الإمبراطور 'رومانوس' الأسير، وكان أول قيصر يقع في أسر المسلمين، إلى معسكر ألب

أرسلان أو عرين الأسد، ووقف الفريسة بين يدي الأسد، ومن الطبيعي جداً بل لا أكون متجاوزاً إذا قلت أنه يجب على الأسد ألا

يترك فريسته تغفل منه دون عقاب ولا بد أن يبطش بها بما يليق بجرم هذه الفريسة التي سول لها شيطانها أن تنتهك حرمة الأسد،

ولكن الأسد الذي جمع بين الشجاعة والبسالة والإيمان واليقين أضاف إلى كل هذه الخصال العظيمة فضيلة العفو والصفح عند

فبعد أن أناب ألب أرسلان رومانوس على جرائمه وضربه بيده ثلاث مقارع ووضع قدمه على هامة 'رومانوس' تحقيراً وإذلالاً له وجعله يقبل الأرض باتجاه بغداد حيث الخليفة العباسي لإظهار عز الإسلام وأهله ، قام بالعفو عن رومانوس نظير دفع فدية كبيرة وفك أسر كل الأسرى المسلمين في سائر بلاد الروم وإلزامه بالقسم بأغلظ الأيمان على عدم العودة مرة أخرى لقتال المسلمين.

### الآثار الخطيرة لملازكرد

كانت الضربة الموجهة التي وجهها الأسد ألب أرسلان للإمبراطورية البيزنطية من أشد ما نالته هذه الدولة العريقة وكانت نذير السقوط الوشيك، فلقد فقدت الإمبراطورية لقب حامية الصليب وفتحت هذه المعركة الطريق لتدفق المسلمين في منطقة آسيا الصغرى وأقام السلاجقة دولة بالأناضول عرفت باسم سلطنة سلاجقة الروم، حيث إن ألب أرسلان بعد المعركة قام بعد المعركة بتعيين ابن عمه 'سليمان بن قتلмыш' حاكماً على الأراضي المفتوحة بالأناضول [لاحظ أنه قد جعل سليمان بن قتلмыш حاكماً رغم أن أباه قتلмыш قد خرج عليه من قبل وقاتله، وذلك لتأليف بني عمومته وربما كنوع من راحة الضمير. ]

كما كانت هذه المعركة من أهم الأسباب الدافعة لتحريك الحملات الصليبية من غرب أوروبا بعدما ضعفت شرق أوروبا أو الدولة البيزنطية، ووصل الأمر لئن يذهب قيصر القسطنطينية 'ميخائيل السابع' والذي توج على العرش بعد وقوع 'رومانوس' في الأسر إلى 'روما' مستنجداً بابا روما كبير الكاثوليك راکعاً على ركبتيه، باكياً بين يديه طالباً من شن حرباً صليبية من ناحية الغرب على المسلمين.

### مصرع الأسد

إن المرء ليعجب حقاً من خواتيم أبطال الإسلام وعظمائهم الذين خاضوا غمار الكثير من المعارك وطلبوا الموت من كل مظانه وتعرضوا له في جميع مواطنه ووقفوا له في كل سبيل طلباً للشهادة، ثم يأتيهم حمام الموت غدرًا بيد عميل أو خائن أو طامع أو حاسد أو مأجور وهذا ما حدث للأسد الباسل وهو في ريعان شبابه '١٤ سنة' وهو في قمة ظفوره وتمكنه وعلو شأنه حتى حاز بحق لقب سلطان العالم وسلطان الدنيا والدين.

وذلك عندما قام أحد الخارجين عليه واسمه 'يوسف الخوارزمي' بطعنه بالسكين والسلطان يعاتبه على جرائم ارتكبها هذا الجرم الخارجي، لتنتهي هكذا في لحظة حياة هذا الأسد بطعنة غادر مجرم، ليهلل لموته كل أعداء الإسلام شرقاً وغرباً وتلتقط الدولة الفاطمية أنفاسها ويهدأ روعها بعدما أوشكت على السقوط والتهادي تحت ضربات الأسد ولقد قتل الأسد ألب أرسلان في ١٠ ربيع الأول سنة ٤٦٥ هجرية، وبمصرعه ظهرت الأطماع والشور ورفع أعداء الإسلام رؤوسهم، وكما قال الحكيم [إنما ضغت

مالب عندما غاب الأسد. ]

المراجع والمصادر :-

\*الكامل في التاريخ

\*البداية والنهاية

\*المنتظم في التاريخ

\*النجوم الزاهرة

\*تاريخ دول آل سلجوق

\*العبر في خبر من غير

\*سير أعلام النبلاء

وفيات الأعيان

\*شذرات الذهب

\*أيام الإسلام

\*التاريخ الإسلامي

\*أطلس تاريخ الإسلام.

## أبطال سقطوا من الذاكرة.الأمير الغازي عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية

إن الأمور الحتمية القدرية التي قضاه الله عز وجل والتي يغفل عنها معظم المسلمين ويجهلها تماماً أعداء الإسلام أن الله عز وجل قد حفظ أمة الإسلام من الزوال بالكلية واستجاب لدعوة نبيه صلى الله عليه وسلم في ألا يسلط عليها عدو من سواها يستأصل شأفتها، فأمة الإسلام قد تضعف وقد تمرض مرضاً شديداً ويدب الوهن في كل أعضائها ولكنها لا تموت ولا تخلو الأرض أبداً إلى قيام الساعة من الجماعة المؤمنة الموحدة، فهي لا تنقرض وتزول مثلما حدث مع دول أخرى كبيرة مثل دولة الإغريق أو الرومان أو الفرس، وكلما سقط للمسلمين في بلد دولة قام لهم في بلد آخر دولة، وكلما اضطهدوا واستضعفوا في بقعة قوا وتجمعوا في بقعة أخرى، ومهما كانت الضغوط والابتلاءات على المسلمين فإن جذوة الإيمان تظل حية متقدة في قلوبهم ومن لا يصدق ينظر إلى مسلمي روسيا وما عانوه لعهود طويلة من نكال واضطهاد، ولما سقطت إمبراطورية الكفر فخص المسلمون من تحت الركام في أيديهم مصحفهم وفي قلوبهم هداية الإسلام، وفي نفس العام الذي سقطت فيه الخلافة العباسية العريقة تحت ضربات الجحافل المغولية سنة ٦٥٦ هجرية، ولد رجل وسط غمار هذه الأحداث الرهيبة، قدر له أن يكون منشأ دولة تنوب عن أمة الإسلام في التصدي لأعدائها لقرون

بعدة، ودولة ستعيد مجد الخلافة الإسلامية ودولة ستنتشر الإسلام في قلب أوروبا ويتحقق على يديها موعود النبي صلى الله عليه وسلم بفتح عقر دار النصرانية 'القسطنطينية'، ونعني بها الدولة العثمانية التي تنتسب لبطنا هذا الذي نؤرخ له .

## أصل الدولة العثمانية

يرجع أصل الدولة العثمانية إلى الجنس التركي أو التركماني، وكلاهما واحد فالتركمان هو نحت لكلمتين هما 'ترك' و'إيمان' وكانت علامة على من يؤمن من قبائل الترك بالإسلام حيث كانت الوثنية منتشرة فيهم قبل الإسلام، وينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية كانت عند بداية القرن السابع الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي تستوطن شمال العراق في إقليم كردستان، وتعيش على رعي الدواب، ولكن هذه القبيلة تحت الضغط المغولي الوحشي اضطرت للهجرة إلى بلاد الأناضول وذلك سنة ٦١٧ هجرية، واستقرت هذه القبيلة في مدينة 'أخلاط' وكانت من أملاك الأيوبيين، فلم يستقر بهم الحال بالمدينة فواصلوا الهجرة باتجاه الشمال الغربي حيث كانت دولة سلاجقة الروم وزعيمها علاء الدين السلجوقي.

كان دخول العشيرة التركمانية وزعيمها 'أرطغرل بن سليمان' إلى أرض سلاجقة الروم أشبه ما يكون بالملاحم الأسطورية وقصص التراث الشعبي المشوقة؛ ذلك لأن 'أرطغرل' وقبيلته عند دخولهم لأرض سلاجقة الروم وجد قتالاً شرساً تدور رحاه بين المسلمين والبيزنطيين وكانت الكفة قد أوشكت للميل ناحية البيزنطيين، وهنا تقدم أرطغرل ورجال قبيلته لنجدة إخوانهم في الدين من الهزيمة، وكان هذا التقدم سبباً لانتصار المسلمين على النصاري، وقدر 'علاء الدين' هذه الفعلة لأرطغرل وعشيرته وأعطاهم قطعة كبيرة من الأرض في الحدود الغربية على الحدود مع الدولة البيزنطية ليسكنوا فيها وأقام معهم حلف مودة وأخوة وجهاد ضد الدولة البيزنطية.

## الأمير عثمان

ولد عثمان بن أرطغرل سنة ٦٥٦ هجرية أي في نفس العام الذي سقطت فيه دولة الخلافة العباسية، أي أن عثمان ولد في أجواء مضطربة والأمة الإسلامية في حالة ضعف واضطهاد وتسلط من أعدائها، فتفتحت عيني الصبي الصغير على مآسي المسلمين وزوال هيبتهم وضياح خلافتهم، وتفتحت أيضاً على عدو صليبي عنيد مرابط على ثغور قبيلته، فنشأ 'عثمان' محباً للجهاد، مشحوناً بالإيمان، تشتعل بداخله رغبة عارمة في استعادة أمجاد المسلمين والانتقام من أعداء الإسلام.

كانت القبيلة التركمانية التي هي معدن العثمانيين وأصلهم بحكم موقعها الجديد الجاور للبيزنطيين قبيلة جهادية معنية بأمور الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام، مما جعلها قبيلة مؤمنة يطغى عليها سميت الإيمان والحياة النقية فلا مجال للترف ولا وقت للهو واللعب بل حلقة مستمرة من الجهاد ضد أعداء الإسلام، لذلك نجد أن 'عثمان' كان ملازماً لأبيه أرطغرل في جهاده ضد الصليبيين، وأيضاً ملازماً لأحد علماء الدين الصالحين الورعين واسمه الشيخ 'إده بالي' القرماني، يتعلم على يديه ويبيت عنده الليالي، وكانت ابنة الشيخ صالحة وجميلة فأراد 'عثمان' أن يتزوجها فرفض الشيخ في بادئ الأمر ولكنه عاد ووافق بعدما قص عليه 'عثمان' هذه الرؤيا العجيبة، فلقد نام عثمان عنده يوماً فرأى في منامه {كأن قمراً خرج من حضن الشيخ ودخل حضنه عند ذلك نبتت شجرة عظيمة من ظهره ارتفعت أغصانها إلى عنان السماء تحتها جبال عظيمة تتفجر منها الأنهار ثم تحولت أوراق الشجرة إلى سيوف مشرعة ناحية القسطنطينية} فاستبشر الشيخ 'إده بالي' بهذه الرؤيا ووافق على تزويجه من ابنته، وبشر عثمان بأنه وذريته سيرثون الأرض ويحكمون العالم.

## انهيار مملكة سلاجقة الروم

كانت مملكة سلاجقة الروم قد تكونت بعد المعركة الخالدة 'ملازكرد' سنة ٤٦٣ هجرية والتي انتصر فيها السلاجقة بقيادة 'ألب أرسلان' على جيحافل البيزنطيين يقودهم الإمبراطور 'رومانوس ديوجين' وقد فتحت هذه المعركة الطريق أمام السلاجقة المسلمين

سباح في منطقة الأناضول، وعين السلطان 'ملكشاه بن ألب أرسلان' أحد أقاربه وهو 'سليمان بن قنلمش' واليا على الأناضول أو آسيا الصغرى لمواصلة التوسع في أرض الروم واستمرت هذه المملكة أكثر من قرنين من الزمان وتعاقب عليها أربعة عشر حاكماً من سلالة 'سليمان بن قنلمش' حتى ظهر المغول في ساحة الأحداث.

بعدما اسقط التتار الخلافة العباسية واصلوا حملتهم البربرية لإبادة الإسلام وأهله، فاتهموا ناحية الشام التي سقطت سريعاً في أيديهم ولكن الله عز وجل الذي حفظ الإسلام وأهله من سنة الاستئصال قبض المماليك وقائدهم سيف الدين قطز ليوقفوا الاكتساح التتاري وابتصروا عليهم في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هجرية، وبعدها حول التتار وجهتهم إلى منطقة الأناضول حيث مملكة سلاجقة الروم والتي قد دب الضعف والتفرق بين أمرائها مما جعلها لا تصمد أمام ضربات التتار وخاف بعض أمرائها وتحالفوا مع التتار ضد إخوانهم المسلمين واستعانوا بالكافرين على المؤمنين، مما جعل الظاهر بيبرس يسير إلى بلاد سلاجقة الروم سنة ٦٧٥ هجرية ويحاربهم مع حلفائهم التتار والكرج 'أهل جورجيا الآن' وابتصر عليهم في معركة البستان، ومع قوة المماليك وضعف المغول واهتمامهم بالعراق وما حولها فقط زالت دولة سلاجقة الروم وقامت مكانها إمارات في الأناضول منها أبناء أيدين وأبناء تركة وأبناء أرتنا وأبناء كرميان وأبناء حميد وأبناء صاروخان وغيرهم كثير.

### قيام الدولة العثمانية

مر بنا كيفية دخول واستقرار القبيلة التركمانية بقيادة 'أرطغرل بن سليمان' في غرب الأناضول بعدما سمح لهم أمير إمارة القرمات علاء الدين السلجوقي بالاستيطان بإمارته وعقد حلفاً مع 'أرطغرل' للدفاع المشترك ضد العدو البيزنطي، ولما توفي أرطغرل سنة ٦٨٧ هجرية تولى مكانه ولده عثمان، فبدأ يوسع أملاك القبيلة ناحية الغرب بموافقة علاء الدين أمير القرمات، وأصدر عثمان عمله باسمه كناية عن المكانة والسيادة.

في سنة ٦٩٩ هجرية أغار المغول على إمارة القرمات ففر من وجههم 'علاء الدين' ودخل بلاد الروم وما لبث أن مات بها في نفس العام وتولى من بعده ولده 'غياث الدين' الذي حارب المغول ولكنه قتل في حربه ضدهم فأفسح المجال لعثمان أن يستقل بما تحت يديه من أراضي خاصة بعدما انفرط العقد بتلك البلاد الهامة والتي تعتبر ثغر المسلمين قبالة عدوهم العتيق؛ الدولة البيزنطية، وأعلن 'عثمان' قيام الدولة الإسلامية الجديدة في هذه البقعة الملتهبة من العالم، ولم يكن هذا التأسيس من باب حب السلطة والتملك، إنما كان حباً في نشر الإسلام.

### عقبات في الطريق

عندما قامت الدولة العثمانية وظهرت للوجود سنة ٦٩٩ هجرية، كانت البقعة الملتهبة التي قامت بها مليئة بالعقبات والمشاكل التي ستصطدم حتماً ولا بد بهذه الدولة الوليدة، هذه العقبات كانت كالتالي:

- عقبات داخلية وتمثل في الإمارات المجاورة للدولة العثمانية مثل إمارات القرمات ومنتشا وصاروخان وغيرهم كثير، وكان أمراء تلك البلاد ضعفاء متفرقون يؤثرون الدنيا ومتاعها الزائل لذا قعدوا عن الجهاد واشتغلوا بخلافاتهم الداخلية ومطامعهم الشخصية عن نصره الإسلام ومقارعة الأعداء مما أطمع فيهم المغول والصليبيون وغيرهم، وهؤلاء المتسلطون على إماراتهم رفضوا أية محاولة للاتحاد مع الأمير عثمان ووقفوا حجر عثرة في سبيل إعادة مملكة سلاجقة الروم المتحدة القوية بل وقفوا أمام أي اتحاد، وبالتالي كانوا عبئاً ثقيلاً على حركة الفتح الإسلامي.
- عقبات خارجية وتمثل في الإمارات الصليبية المتناثرة في منطقة الأناضول الواسعة والذين يحكمون هذه المناطق على شكل الحكم الذاتي مع الارتباط الديني والقومي مع الدولة الأم 'بيزنطة'، مثل إمارة بورصة ومادانوس وأدره نوس وكستله وغيرهم، وهؤلاء عداوتهم أصلية وقديمة، لذلك قرر الأمير عثمان أن يبدأ رحلته الجهادية بمواجهة الصليبيين في منطقة



الأناضول، خاصة وأن أمراء الصليبيين قد نادوا سنة ٧٠٠ هجرية بتكوين حلف صليبي لتصفية الوجود الإسلامي الجذ بالأناضول بعدما سقطت سلطنة سلاجقة الروم.

## رحلة الجهاد المقدس

بدأ الأمير عثمان الأول رحلته الجهادية المقدسة واضعاً نصب عينيه هدفاً أسمى هو إعلاء كلمة الله عز وجل في فترة زمنية حرجة بالنسبة للأمة الإسلامية التي تعاني من ضربات التتار من ناحية الشرق وضربات الصليبيين الأسيان بالأندلس ناحية الغرب، وكانت صفات عثمان الأول الإيمانية وعميق حبه للدين غالبية وحاكمة على تحركاته وحملاته، فكان لا يبدأ القتال مع أعداء الإسلام إلا بعد ما يعرض عليهم الخصال الثلاثة الإسلام أو الجزية أو القتال.

شعر سكان الأراضي القريبة من الدولة العثمانية الوليدة صدق إخلاص عثمان ونيته الجادة في نشر الإسلام فتحركوا وانضموا للأمير عثمان في رحلته الجهادية المقدسة، من هؤلاء جماعة 'غزياروم' أي غزاة الروم وهي جماعة إسلامية كانت ترابط على حدود الروم بنية الرباط وصد غارات الروم على المسلمين وذلك منذ عهد الخليفة العباسي المهدي بالله، أي أنهم كانوا أصحاب خبرة طويلة في قتال الروم، ومن هؤلاء أيضاً جماعة 'الإخيان' أي الإخوان وهي جماعة من أهل الخير يعينون المسلمين ويقومون بخدمة المسافرين والجيوش المجاهدة وهي جماعة تتألف من كبار التجار وأصحاب رؤوس الأموال الذين سخروا أموالهم لنصرة الدين وأيضاً جماعة 'حاجيات روم' أي حجاج أرض الروم وهي جماعة معنية بالعلم الشرعي وتفقيه المسلمين بأمور الدين، وكان لانضمام أمثال هذه الجماعات أثر قوى وزخر كبير للحملة الجهادية.

ظهرت شجاعة الأمير عثمان الأول وحزمه في المائة يوم الأولى من قيام الدولة العثمانية حيث شن أمراء النصارى بالأناضول حملة صليبية على الدولة الوليدة سنة ٧٠٠ هجرية، فقاد عثمان الجيوش بنفسه وباشر القتال بسيفه ورمحه واستطاع بفضل الله عز وجل ثم قوة عزمه وشجاعته الفائقة في القتال أن يشتت هذه الحملة الغادرة ثم شرع بعد ذلك في فتح الحصون الصليبية ففتح حصون 'كنه' و'لفكه' و'آق حصار' و'قوج حصار' وذلك سنة ٧٠٧ هجرية، ثم فتح حصون 'كبوة' و'يكيجه' و'تكرريكارى' سنة ٧١٢ هجرية، ثم توج فتوحاته بفتح مدينة بورصة أو بورسة وذلك بعد مجاهدة ومحاصرة ومرابطة عدة سنوات قضاهها الأمير عثمان في مواجهة عدوه حتى تم له الفتح سنة ٧١٧ هجرية، وأظهر فتح بورصة مدى صبر وثبات الأمير عثمان في جهاد أعداء الإسلام. حاول أمراء النصارى في الأناضول إعادة الكرة مرة أخرى وتحالفوا هذه المرة مع 'المغول' الذين كانت تربطهم بالنصارى علاقة وثيقة قائمة في الأساس على كره الإسلام ومحاربة المسلمين وإلا فهؤلاء كفار مشركون والآخرون وثنيون يعبدون الشمس والكواكب، فجهز الأمير عثمان الأول جيشاً بقيادة ابنه الثاني 'أورخان' وسيره لقتال المغول قبل تحالفهم مع النصارى فأوقع بهم هزيمة كبيرة شتت بها شملهم وصرفهم عن فكرة الاتحاد مع البيزنطيين.

## الشخصية الأسرة

كانت شخصية عثمان متزنة وخلاصة وآثرة في نفس الوقت، فشدة إيمانه بالله عز وجل، وحماسته العالية في نشر الإسلام بأوروبا، جعلت منه شخصية شديدة الجاذبية للجميع مسلمين وكافرين على حد سواء، فلم تطغ قوته على عدالته ولا سلطته على رحمته، وكان إذا وعد وفى، فعندما اشترط أمير قلعة 'أولوباد' البيزنطية حين استسلم للجيش العثماني، ألا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم إلى داخل القلعة التزم بذلك الأمير عثمان وكذلك كل من جاء بعده.

هذه الشخصية الجاذبة جعلت حتى أعداءه الكافرين ينيهرون بتلك الشخصية الباهرة فيدخلون في الإسلام، وأوضح مثال على ذلك القائد البيزنطي 'إقريوس' الذي كان والياً على مدينة بورصة والذي استمات في الدفاع عنها ودخل في صراع طويل مع الأمير عثمان حتى سقطت المدينة في النهاية بعد خمس سنوات من الحصار وخلال تلك الفترة احتك 'إقريوس' بالأمير عثمان وانبهر بحصالة

حلاقه النبيلة وشخصيته الآسرة وفي النهاية أعلن 'إفرينوس' إسلامه عن صدق ويقين، بل صار من كبار قادة الجيش العثماني يحارب دولته الأصلية 'بيزنطة' وما أشبه هذه القصة بقصة إسلام القائد الرومي 'جرجورى بن تيودور' الذي تسميه المراجع العربية 'جرجة' والذي أسلم على يد الصحابي العظيم 'خالد بن الوليد' أثناء معركة 'اليرموك' الخالدة ودخل القتال مع المسلمين ضد بنى جنسه حتى استشهد آخر المعركة وهكذا أثر الشخصية الإيمانية وعملها في النفوس.

## وصية رجل عظيم

ظل الأمير عثمان يعمل على تثبيت دعائم الدولة الإسلامية الوليدة في هذه البقعة الحساسة والملتهبة من العالم القديم ويؤسس الدولة على القيم الإيمانية والأخلاقية المتينة ليضمن لها ياذن الله الاستمرار والنهوض والبقاء، ظل هذا الرجل الصالح ناصحاً لأمتة ولدينه حتى وهو على فراش موته وقد حفظ لنا التاريخ وصية الأمير عثمان لابنه وخليفته من بعده 'أورخان الأول' وهي تعتبر دستور الدولة العثمانية التي سارت عليه أيام قوتها وأوج مجدها إذ قال له:

{ يا بنى: إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً } .

{ يا بنى: أحط من أطاعك بالإعزاز وأنعم على جنودك ولا يغرنك الشيطان بجندك ومالك وإياك أن تبعد عن أهل الشريعة } . { يا بنى: إنك تعلم أن غایتنا هي إرضاء رب العالمين وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الأفاق فتحدث مرضاة الله جل جلاله } .

{ يا بنى: لسنا هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت وهذا يا ولدى ما أنت أهله } .

وهكذا يتضح لنا الأسس التي وضعها الأمير عثمان لمن بعده ومنها:

١. الإيمان العميق بالله عز وجل والعمل على اتباع أوامره وشريعته في شتى أمور الدولة.
٢. مشورة العلماء وأهل الفقه والشرع في مجريات وأمر الحكم والتزول على رأى الشورى.
٣. تحديد الهدف الذي قامت من أجله دولة بنى عثمان وهو إعلان كلمة الله ونشر دين الإسلام.
٤. تحديد الوسيلة لتحقيق هذا الهدف وهو الجهاد في سبيل الله.

وفي سنة ٧٢٦ هجرية توفي الأمير العظيم بعدما أسس دولة صغيرة مساحتها ستة عشر ألف كيلو متر مربع من الأرض ولكنها على تقوى من الله ورضوان وغاية جهادية جعلت هذه الدولة تمتد في ظرف قرن واحد من الزمان لتشمل آسيا الصغرى والبلقان ومعظم أوروبا الشرقية، ودحرت الدولة البيزنطية وفتحت القسطنطينية وأعادت الخلافة الإسلامية من جديد وتنشر الإسلام في قلب أوروبا، فيجزاه الله عز وجل عن الإسلام كل خير.

## الأمير شهاب الدين الغورى- صاروخ باكستان النووى رجال الهند الكبار

: يعتبر تاريخ الإسلام في بلاد ما وراء النهر غامضاً لكثير من المسلمين رغم أنه قد بدأ مبكراً في صدر الدعوة عندما دحرت جيوش الصحابة في عهد العمرين إمبراطورية الفرس وأزالوا دولتهم تماماً في عهد عثمان رضي الله عنه، وانساح المسلمون بعدها في بلاد ما وراء النهر ورفعوا الحواجز التاريخية بين الحضبة الإيرانية وبلاد الأتراك إلى بلاد الهند والصين، وظهر خلال تلك الفترة رجال أفذاذ

بار كلهم يضع هدفا ساميا نصب عينيه ألا وهو خدمة الدين ونشر الإسلام، من هؤلاء الكبار: عبد الرحمن بن ربيعة الملقب بد النور، وعبيد الله بن أبي بكر، وشريح بن هانئ، وعبد الرحمن بن الأشعث، وقتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم، وغيرهم كثير .

ولما قامت الدولة العباسية قل من يغزو تلك البلاد وانشغل المسلمون بأنفسهم فترة طويلة، حتى ظهرت الدولة الغزنوية وسلطانها العظيم 'محمود بن سبكتكين' الذي أعاد للمسلمين ذكريات الجهاد الأولى ودخل بلاد الهند ففتحها وحطم أصنامها ودمر معابدها ونشر الإسلام في مناطق لم تتل فيها قط سورة ولا آية.

وكان صاحب الفضل بعون الله عز وجل في تحطيم قوى أمراء الهند، ولكنه ومن جاء بعده لم يستقروا في الهند إنما كانوا يعودون إلى عاصمة بلادهم 'غزنة' ويتركون والياً من طرفهم على تلك البلاد الجديدة، مما لم يرسخ وضع الإسلام بالهند ولم يثبت أقدام المسلمين بها، ومما سمح أيضاً لكفار الهند بالتمرد والثورة مرة بعد مرة، وظل الأمر هكذا حتى ظهر بطلنا الكبير الذي قام بإنشاء أول دولة مسلمة ثابتة مستقرة بالهند وعاش حياته كلها في الجهاد والدعوة وكان له أعظم الأثر في وضع الإسلام بالهند حتى أن دولة باكستان المسلمة لما أنجزت مشروعها الجريء والكبير وأنتجت أول صاروخ حربي نووي لم تجد أفضل من بطلنا هذا لتطلق اسمه على صاروخها النووي الشهير 'غوري' اعترافاً منها بعظمة وفضل بطلنا الشهير، الذي لا يكاد يعرفه أحد من المسلمين.

### من هو شهاب الدين؟

هو البطل الشجاع والأمير المحنك أبو المظفر شهاب الدين محمد بن سام الغوري، قائد القبائل الغورية، ويرجع أصل هذه القبائل إلى الجنس التركي وكانت تستوطن جبال الغور وهي بلاد واسعة وباردة وموحشة، تقع بين غزنة وهرارة [وسط أفغانستان الآن] مما جعلت طبيعتهم قوية وصلبة، وقد دخلوا الإسلام على يد السلطان 'محمود بن سبكتكين' وذلك سنة ٤٠١ هجرية.

وبعدما حاربهم وعرف قوتهم وشجاعتهم حرص كل الحرص على أن يكونوا من جند الإسلام، فدعاهم للدين فدخلوه أفواجا، فأقرهم 'محمود' على أملاكهم واستعملهم لنصرة الدين وأرسل إليهم الدعاة والمعلمين، فحسن إسلامهم وكانوا من أخلص أعوان 'محمود بن سبكتكين' وساعدوه في كثير من الحروب ببلاد الهند.

### سنة الاستبدال

هذه السنة الربانية التي تعمل في الأمم والدول والجماعات وحتى الأفراد بلا محاباة ولا جور، فمن ركب طريق التمكين وأخذ بأسباب البقاء والقوة، ظل باقيا صامداً ظاهراً ياذن الله عز وجل وحده ومن ركب طريق الفرقة والاختلاف وأخذ بأسباب الزوال والذهاب والفشل، حتما لا بد من أن يكون مصيره السقوط والنهاية، وهذا ما حدث بالفعل مع الدولة الغزنوية أو السبكتكينية التي أصابها الوهن ودب الضعف وحب الدنيا إلى قلوب ملوكها، واختلفوا فيما بينهم واقتتلوا على الدنيا، بعدما قاموا بنصب سوق الجهاد ونشروا الإسلام بالهند لعهود طويلة، مما سمح لكفار الهند أن يرفعوا رؤوسهم مرة أخرى، ويخلعوا الطاعة، ويطردوا المسلمين من بلادهم.

ولأن الله عز وجل ناصر دينه ومظهر شريعته فإن من مقتضيات هذه السنة أن يتولى أمر الدين قوم آخرون يحوطون حياضه ويذبون عنه وينشرونه ويكونون على مستوى هذا الدين، لذلك لما دب الضعف في الدولة الغزنوية استبدلها المولى عز وجل بالدولة الغورية وقائدها الأمير المظفر شهاب الدين الغوري، حيث ورث الغوريون الدولة التي سقطت بالكلية سنة ٥٨٢ هجرية.

### إعادة الأمجاد

كانت الدولة الغزنوية قد بلغت أوج قوتها واتساعها في عهد سلطانها العظيم محمود وولده مسعود وشملت المنطقة الشاسعة من شمال الهند كله والسند والبنجاب وحوض الجانج حتى البنغال ولما أصابها الضعف والوهن أخذت أجزاء كثيرة من هذه الدولة في السقوط في يد الكفار مرة أخرى ومن عاونهم من الفرق الضالة التي لا تقل كفراً بل تزيد بنفاقها عن الكفار الأصليين أمثال فرقة القرامطة والشيعة الإسماعيلية، وانتزعت الكثير من أملاك الغزنويين.

حتى بإيران مركز دولتهم وعندما نهض بطلنا المقدم زعيم الغور شهاب الدين الغوري وأخذ في استعادة الأمجاد السابقة. بدأ شهاب الدين رحلته الجهادية مبكراً وبدأها كما بدأها من قبل 'محمود بن سبكتكين' ومن نفس النقطة من 'الملتان' وكان هذا الإقليم يقع تحت قبضة 'القرامطة' الكفار، وبالفعل استخلص شهاب الدين 'الملتان' من يد القرامطة سنة ٥٧٠ هجرية، ثم أعقب ذلك استعادة 'بيشاور' وأخضع حوض السند جميعه رغم الحسائر الفادحة التي تحملها جيشه على يد كفار الهند وشمال الهند إلى خليج البنغال.

### التحالف الهندوسي

شعر أمراء الهند بخطورة الأمر وعودة التهديد الإسلامي من جديد بعدما ظهر أسد جديد على الساحة وهو شهاب الدين الغوري وقرروا التحالف فيما بينهم فيما عرف بتحالف أمراء منطقة الأنهار الكبرى في شمال شبه الجزيرة الهندية وهذه المنطقة التي تعرف باسم 'الهندستان' وفيها أخصب بلاد الهند وأكثفها سكانا، وهؤلاء الأمراء دفعهم الحقد على الإسلام وتحريض الكهنة البراهمة وخوفهم على أملاكهم وعروشهم أن يبادئوا المسلمين بالعداوة والقتال مستغلين بعض الأحداث الداخلية في الدولة الغورية وانشغال شهاب الدين بالقضاء على بعض الاضطرابات والفتن الداخلية.

### جهاد على كل الجبهات

كان شهاب الدين الغوري يحلم بأن تكون بلاد الهند كلها مسلمة وأن يستكمل الدور الرائع الذي قام به من قبل السلطان 'محمود بن سبكتكين' بل كان شهاب الدين يحب أن يتشبه كثيرا بمحمود بن سبكتكين وظهر هذا جليا في العديد من المواقف، ولكن الأمور لم تكن مواتية مثلما حدث أيام محمود بن سبكتكين، ذلك لأن شهاب الدين قد اضطر للجهاد على العديد من الجبهات الداخلية والخارجية ويتنقل من الهجوم إلى الدفاع والكر والفر، من الهند إلى خراسان إلى الصين إلى إيران وهكذا، يقاثل كفار الهند وكفار الترك والباطنية الكفار أيضا طلاب الدنيا من المسلمين الطامعين المفسدين، لذلك فلقد قضى شهاب الدين حياته كلها لم يعرف بيتا ولا راحة ولا يلعب ولدا ولا يهتأ بأسرة واستقرار بل من على ظهر الخيل إلى ظهر الخيل ومن ضرب السيف إلى رمي السهم وهكذا.

### أولاً : جهاده ضد كفار الهند

كان أمراء الهندوس هم العدو الأكبر والأصلي في معارك شهاب الدين الغوري، وكان لقاءه الأول معهم في غير صالح المسلمين وترك أثراً شديداً على شهاب الدين الغوري، وذلك سنة ٥٨٣ هجرية عندما دخل المسلمون مدينة 'شرستي' واحتلوها وكانت من أغنى وأكبر مدن الهند، فهاجم التحالف الهندوسي بقيادة كبيرهم 'بريتي' والذي تسميه المراجع العربية 'كولة' على المسلمين ودارت رحي معركة من أشد ما لاقى المسلمون من قتال في الهند وهزم بعض الأمراء الغوريين وفروا من أرض القتال، وظل شهاب الدين يقاثل بنفسه حتى أنه من شدة القتال قتل عدة أفيال بسيفه ورمحه ثم أصيب إصابة بالغة وتكاثر عليه الكفار ليأخذوه فدافع عنه جنوده وحملوه مصاباً يترف الدم مسافة أربعين كيلومتراً حتى خافوا موته، ولما عاد إلى 'لاهور' أخذ الأمراء الغورية المنهزمين من أرض المعركة وعلق على كل واحد منهم عقيق شعير وقال لهم 'ما أنتم بأمراء إنما أنتم دواب' وألزمهم المشي حتى 'غزنة'.

بل شهاب الدين يجهز لقتال الهندوس ورد الهزيمة وأخذ العدة اللازمة وجهز جيشاً كبيراً وكان ما زال ناقماً على أمراء الغوري فرارهم في المعركة السابقة وعزم على ألا يصحبهم معه في القتال ضد الهندوس، فحاول بعض شيوخ القوم استرضاء عنهم فقال شهاب الدين كلمات تعبر عن النفسية المؤمنة الصادقة التي تستشعر بما عليها من واجبات تجاه نصره الدين والعمل للإسلام وتظهر مدى قوة قلب هذا البطل الشجاع وحساسيته الدافقة، قال {أعلم أنني منذ هزمني هذا الكافر ما نمت مع زوجتي على فراش ولا غيرت ثياب البياض عنى 'أى ثياب الكفن' وأنا سائر إلى عدوي معتمد على ربي عز وجل لا على الغورية ولا على غيرهم، فإن نصرتني الله سبحانه ونصر دينه فمن فضله وكرمه وإن انهزمت فلا تطلبوني، فلن انهزم ولو هلكت تحت حوافر الخيل}.

بعد هذه الرسالة الجلية اهتزت قلوب الأمراء الغورية وحلفوا جميعاً على القتال حتى الموت وعدم الانهزام مهما حدث في أرض المعركة.

عاد شهاب الدين الغوري إلى الهند بجيش قوامه مائة وعشرين ألف مقاتل بعد عام واحد من الهزيمة السابقة، فبرز له ملك الهند 'بريتي' في جيش قوامه ثلاثمائة ألف مقاتل أو يزيدون واستخدم شهاب الدين الغوري حيلة حربية ذكية حيث قسم جيشه إلى جزئين وهجم على الهندوس عند الفجر وهم غارون على قبضة الكماشة فأمضى المسلمون فيهم القتل، وحاول 'بريتي' الفرار فقال له أصحابه {إنك حلفت لنا أنك لا تخلينا وتهرب} فتزل من على فرسه وظل يقاتل حتى وقع أسيراً في يد المسلمين وحاول 'بريتي' أن يفدي نفسه بأموال طائلة مهولة ولكن شهاب الدين علم أن بقتل 'بريتي' يسهل سقوط الهند، فرفض قبول الفدية وقتله، وهو يؤكد بذلك على معنى رسالة الجهاد في الإسلام فهو ليس للدنيا ولا للأموال ولا للغنائم ولا لشهوة القتل والتملك بل هو لأسمى المطالب لنشر الإسلام وتبليغ الدين وإزاحة الطواغيت الذين يقفون على آذان الناس ويصدونهم عن سماع الحق.

كان هذا النصر المبين إيذاناً باختيار سلطان الأمراء الهندوس وبداية السلطان الحقيقي للإسلام في منطقة الهندستان، فلقد استولى شهاب الدين الغوري على مدن [شرستي، كهرام، هنسي، أجير] وحطم أصنام الهندوكية والبوذية في الهندستان واستعمل أحجارها في بناء المساجد، وعهد الأمير شهاب الدين الغوري إلى مملوكه وقائد جيوشه 'قطب الدين أيبك' بولاية المدن الهندية المفتوحة، وكان 'قطب الدين أيبك' لا يقل شجاعة ولا إخلاصاً عن أستاذه، فثبت أقدام المسلمين هناك، واتخذ 'دهلي' عاصمة له وبنى الجامع الشهير 'قطب منار'، كما تصدى 'قطب الدين' لقلول التحالف الهندوسى وانتصر عليهم في معركة حامية الوطيس في سهل 'جندوار' سنة ٥٩١ هجرية.

في نفس الوقت الذى كان 'قطب الدين أيبك' يرسخ أقدام الإسلام بالهندستان أرسل شهاب الدين الغوري بطلاً آخر من قادة جيوشه واسمه 'محمد بن بختيار الخلجي' إلى ناحية الشرق حيث منطقة 'البنغال' وهي معقل البوذية في الهند كلها، ففتحها وحطم معابدها وأظهر شعائر الإسلام بها وذلك سنة ٥٩٩ هجرية وفي نفس السنة استطاع قطب الدين أن يفتح حصن 'كلنجر' أمنع حصون الهند ويسقوطة لم يبق في الهند مكان لم يدخله الإسلام باستثناء صحراء الجنوب.

## ثانياً: جهاده ضد كفار الأتراك

الجنس التركي يشمل كل القبائل الواقعة وسط وشرق الهضبة الإيرانية حتى أقصى شرق الصين وأيضاً بلاد القوقاز ومنغوليا، وهذه القبائل كان منها المؤمن ومنها الكافر، وأمثال القبائل المؤمنة {السلاجقة والتركمان والغوريين والخوارزميين} وأما القبائل التركية الكافرة الوثنية فكانت تتجمع تحت لواء كبير وتحت أقوى هذه القبائل وهي قبائل {القراخاني} وأصلهم في غرب الصين، وكان همرا 'سيحون' و'جيحون' هما الحد الفاصل بين هذه القبائل الكافرة وبلاد الإسلام. وكانت هذه القبائل شديدة البأس كثيرة الفساد تؤذي جيرانها المسلمين وتفرض عليهم الجزية وتكثر من الإغارة عليهم وكان من الطبيعي أن يتصدى لهم بطل الإسلام المقدم في هذه البقعة من الأرض وتتجه أنظار المسلمين كلها إليه وبالفعل تصدى لهم شهاب الدين الغوري ومنع تقدمهم وعبورهم لنهر 'جيحون' ولكن الطامة الحقيقية والحقيقة التاريخية الثابتة والخرزنة للقلب حقاً هي أن هذه القبائل إنما تحركت لحرب شهاب الدين والمسلمين



حريض من ملك مسلم آخر وهو 'خوارزم شاه' وكان ملكه متسع للهضبة الإيرانية كلها وقد ورث الرجل ملك دولة السلا العظيمة ولكنه كان رجلاً لا يبالي إلا بمصالحه الخاصة وأمواله، وكان ملكه المتسع وما ورثه من أملاك السلاجقة دافعا له لأن يطلب من الخليفة العباسي 'الناصر بالله' منصب السلطنة والخطبة ببغداد، فأرسل الخليفة إلى شهاب الدين الغوري يطلب منه أن يمنع 'خوارزم شاه' من التقدم لحرب الخليفة، وعندها خاف 'خوارزم شاه' من قوة شهاب الدين الغوري، وأرسل إلى ملوك القراخطاي الكفار وأغراهم بالهجوم على الدولة الغورية وكان شهاب الدين قد أخذ من قبل بعض بلاد القراخطاي، فقويت عزائمهم على حرب شهاب الدين والمسلمين. استغل الكفار خروج شهاب الدين الغوري للغزو في بلاد الهند وهجموا بأعداد كبيرة على بلاد الغور وعظمت المصيبة على المسلمين لغياب شهاب الدين وضخامة العدو، ولكن الله عز وجل الذي وعد بحفظ دينه ونصرة جنده قيض للمسلمين عدة أبطال من أعوان شهاب الدين مثل الأمير 'محمد بن جريك' و'الحسين بن خرميل' و'حروش الغوري' واجتمع عندهم المجاهدون والمتطوعون من كل مكان وهجموا على جيش 'القراخطاي' وهم غارون ليلاً ووضعوا فيهم السيف واشتد القتال بين الفريقين واستشهد 'حروش الغوري' وكان شيخاً مسناً فالتهمت مشاعر المسلمين وألقوا السهام والرماح وصار القتال بالسيوف والفؤوس فقط وانتصر المسلمون انتصاراً هائلاً جعل عقل ملك 'القراخطاي' يطيئ وينقلب على خوارزم شاه ويطلب منه دية لكل قتيل كافر عشرة آلاف دينار ذهباً، مما جعل 'خوارزم شاه' يطلب العفو والصفح من شهاب الدين الذي قبل العفو شريطة دخول 'خوارزم شاه' في طاعة الخليفة العباسي فوافق خوارزم الذي كان يغير ولائه ويقبله حسب هواه وأطماعه، ووقعت كراهيته في قلوب كل المسلمين شرقاً وغرباً، والعجيب أن هذا الرجل النكبة عاد وحالف 'القراخطاي' من جديد وأغراهم بشهاب الدين ودلهم على أماكن ضعفه فهزموا شهاب الدين في معركة رهيبة سنة ٦٠٠ هجرية كاد يقتل فيها شهاب الدين وتنهار دولة الإسلام في الهند بسبب ذلك.

### ثالثاً : جهاده ضد الزنادقة والباطنية والفرق الضالة

كانت منطقة الهضبة الإيرانية وبلاد الهند مرتعاً خصباً وواسعاً للأفكار الضالة والعقائد المنحرفة حيث كانت مهبط ومعدن الفلسفة والمنطق والتأملات البراهمية والعقائد المجوسية والفارسية، فلا عجب أن تبقى آثار تلك العقائد الضالة في تلك البقاع، ولذلك كان السلطان العظيم 'محمود بن سبكتكين' شديد الاهتمام بتطهير كل بلد يفتحه أو يملكه من آثار تلك العقائد والفرق الضالة وقضى على كل المذاهب المخالفة لأهل السنة والجماعة، وسار على دربة الأمير شهاب الدين الغوري الذي كما قلنا من قبل شديد الشبه بمحمود بن سبكتكين، ودائم الاقتداء به، فقد كان شهاب الدين الغوري شافعيًا على عقيدة أهل السنة والجماعة، شديد الحب والإيمان بالإسلام، يكره أهل البدع والفساد شديداً على الفرق الضالة خاصة فرقة 'الاسماعيلية' الباطنية، فقد كان يقتل من يجده منهم ويخرب قراهم ويلزمهم بالدخول في الإسلام وإظهار شعائره، وكان شهاب الدين الغوري على يقين أن الملاحدة والزنادقة من أتباع الفرق الضالة هم الخطر الأكبر الذي يهدد سلامة الأمة الإسلامية وينخر في جسدها، وأنهم يتربصون بهذه الأمة الدوائر وأن عداوتهم وكفرهم أشد وطأة وأذى على المسلمين من الكفار الأصليين. عندما تحالف الخائن 'خوارزم شاه' مع قبائل 'القراخطاي' ضد شهاب الدين والمسلمين ودلهم على عورات جيش شهاب الدين، ووقعت الهزيمة على المسلمين، سرت شائعة في البلاد أن شهاب الدين قد قتل في المعركة، وعندها تناول كل ملحد وزنديق ومجرم ومفسد وطامع في الدنيا؛ ومن هؤلاء أحد مماليك شهاب الدين واسمه 'أبيك بال' الذي نصب نفسه سلطاناً على المسلمين مكان شهاب الدين وأعانه على ذلك أحد الزنادقة ويدعى 'عمرو بن يزان' وأخذ 'أبيك بال' في ظلم الناس وسفك دماءهم وأخذ أموالهم وتجمع حوله كل اللصوص وقطاع الطرق وفسح المجال للزنادقة والملاحدة في نشر أفكارهم وعقائدهم، ولما عاد شهاب الدين الغوري من القتال ووجد الأمر هكذا أمر بالقبض على هؤلاء المفسدين والزنادقة وأمر بقتلهم ثم تلا قوله عز وجل: 'إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا' وشن حملة واسعة وشاملة على قرى وبلاد الإسماعيلية حتى الموجودة خارج نطاق مملكته ليظهر بلاد الإسلام كلها من هذا الجنس

بيث. كانت الشائعة التي سرت بعد هزيمة شهاب الدين من 'القراخطاي' عن مقتل السبب في كشف مكون صدور الكثيرين

وسبحان الله كما قال عز وجل {وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم...} فقد كانت الهزيمة كريمة وأليمة على نفس المسلمين عموماً وشهاب الدين خصوصاً ولكنها كشفت حقيقة كثيرين ممن كانوا حول المسلمين، من هؤلاء كان أمير منطقة 'الجودي' واسمه 'دانيال' وكان قد أسلم خوفاً من بطش شهاب الدين، فلما وصلته شائعة مقتل شهاب الدين ارتد عن الإسلام مرة أخرى وحالف قبيلة تركية كافرة اسمها قبيلة 'بني كوكر' ومساكنهم في جبال لاهور والمولتان وهي حصينة ومنيعه، وقام هذا التحالف الكفري بالإغارة على بلاد المسلمين وقطعوا السبيل ونهبوا قوافل التجارة، وكان شهاب الدين في هذه الفترة يجهز الجيوش لمحاربة 'القراخطاي' ورد الهزيمة، فلما وقف على حقيقة الوضع غير عزمه وقرر البدء بمؤلا المرتدين والكافرين في مملكته وهذا يوضح فهم شهاب الدين لترتيب الأولويات والبدء بالعدو الأقرب الذي هو عادة أخطر، أعاد شهاب الدين جيوشه بسرعة من اتجاه الشرق إلى الشمال وهجم كالأسد الضاري على الخونة والمرتدين يوم الخميس ٢٥ ربيع أول سنة ٦٠٢ هجرية واشتدت مقاومة الكفار، وكان شهاب الدين قد قسم جيشه لجزئين جزء يقوده هو بنفسه ويتولى الاصطدام المباشر مع الكفار، وجزء آخر يقوده أنجب تلاميذ شهاب الدين الأمير البطل 'قطب الدين أيك' يكون كميناً يظهر في اللحظة الحاسمة، وبالفعل ظهر قطب الدين بجيشه عند اشتداد القتال وتنادوا بشعار الإسلام 'الله أكبر' وحملوا حملة صادقة على الكفار الذين انهزموا وأمعن المسلمون فيهم القتل، وفر الكفار وصعدوا إلى تلال هناك وأضرموا فيها النار فكان أحدهم يقول لصاحبه 'لا تترك المسلمين يقتلونك ثم يلقى نفسه في النار' فعمهم الفناء قتلاً وحرراً، وغنم المسلمون غنيمه هائلة حتى أن كل خمسة أسرى يباعون بدينار واشتد هذا النصر المين على كل كافر وملحد وزنديق ومرتد في هذه البقعة من الأرض.

### شهيد المحارب

وجد أعداء الإسلام على اختلاف مشاربهم وأهوائهم أنه لا سبيل للانتصار على هذا الدين إلا باغتيال رأس المسلمين وبطلهم المقدم الذي يستطيع أن يجمع الجيوش ويشحذ الهمم وينافح عن دين الإسلام، ولم يجد أعداء الإسلام أفضل من الباطنيين الكفرة ليوكلوهم في تلك المهمة القذرة فالباطنيون خبراء في أساليب الاغتيال والغيلة، وبالفعل تسلل نفر من الباطنية الإسماعلية إلى جيش شهاب الدين الغوري وهو خارج لقتال قبائل 'القراخطاي' الكافرة، وأظهر هؤلاء الباطنية أنهم من جملة الجيش حتى كانت ليلة ١ شعبان سنة ٦٠٢ هجرية، وكان شهاب الدين في خيمته يصلي قيام الليل وحده دخل عليه الكفار وضربوه بالسكاكين حتى قتلوه شهيداً رحمه الله وهو يصلي، فدخل عليه أصحابه فوجدوه على مصلاه قتيلاً وهو ساجد فأمسكوا هؤلاء الكفرة وقتلوهم جميعاً، وهكذا كانت نهاية هذا البطل العظيم الذي هو من أعظم أبطال الإسلام، ويا لها من حسن خاتمة لرجل طالما تعرض لمواطن الشهادة وباشر القتال بنفسه حتى أنه من شدة قتاله كان يقتل الفيل بسيفه، يستشهد بطلنا وهو يصلي ساجدا قائماً لربه عز وجل وهو خارج لقتال الكافرين وهكذا تكون خاتمة الأبطال وما أروعها من خاتمة.

المصادر : البداية والنهاية - الكامل في التاريخ - التاريخ الإسلامي - سير أعلام النبلاء - فتوح البلدان

أطلس تاريخ الإسلام

## أبطال سقطوا من الذاكرة السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين - فاتح الهند

### ومحطم الأصنام

: لقد ظلت شخصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه مضرباً للأمثال في كل باب في العدل والحق والقوة والورع والجهاد والزهد والخوف واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان له من المواقف المشهورة والأثار الحمودة ما جعلت العالم بأسره يعترف بفضله وأثره في البشرية وقتها، حتى أن 'مايكل هارت' صاحب كتاب 'العظماء مائة' قد وضعه ضمن هؤلاء العظماء.

طن المسلمون أن هذه الشخصية لن تتكرر مرة أخرى عبر التاريخ، والحق أننا لن نجد في التاريخ شخصية تتطابق مع الفاروق رضى الله عنه، ولكننا سوف نجد في أحداث التاريخ بعض أبطال المسلمين الذين تشبهوا بالفاروق عمر في كثير من مواقفه، وبطلنا هنا هو أكثر القادة المسلمين على مر العصور تشبها واقتداء بالفاروق عمر حتى كأنه هو، ومع الأسف لا يعرفه معظم المسلمين رغم أنه قد أضاف لبلاد المسلمين واحدة من أغلى أراضيهم ألا وهي 'أفغانستان'، وقهر أعدى أعداء المسلمين وهم الهندوس.

## الدولة السبكتيكية والخلافة العباسية

مرت الخلافة العباسية بعدة أطوار فبدأت قوية ثم ازدادت قوة واتساعاً ثم بدأ الضعف يدب في أوصالها عندما اقتتل الأخوان 'المأمون' و'الأمين' على الخلافة ثم دخلت مرحلة الضعف وتحكم الغير فيها، وفي هذه المرحلة بدأ ولاية الأقاليم البعيدة يستقلون بحكم تلك الأقاليم وينشؤون ممالك مستقلة تأخذ شكل الحكم الذاتي حيث تكون مستقلة في كل شيء ولكن ولاءها المعنوي والروحي للخلافة العباسية، وقامت العديد من الدول في الشرق والغرب تحت هذا الإطار.

ففي الشرق مثلاً ظهرت الدولة الطاهرية والدولة السامانية والدولة البويهية، وفي الغرب ظهرت الدولة الطولونية والإخشيدية ودولة الأغالبة وهكذا.

بعض هذه الدول كان له أثر حسن في خدمة الإسلام ونشر الدين مثل الطولونية والأغالبة وبعضها كان له أسوأ الأثر على الإسلام والمسلمين مثل الدولة البويهية الشيعية.

من هذه الدول التي استقلت ذاتياً عن حكم العباسيين مع الولاء لخليفتهم الدولة السبكتيكية ومؤسسها هو 'سبكتكين' وهو أمير تركي كان يعمل في خدمة والي مدينة 'هراة' وكانت هذه المدينة تتبع حكم 'الدولة السامانية' فلما توفي واليها لم يجدوا بعد تعيين عدة ولاية أكفأ من الأمير 'سبكتكين' فأصبح والياً عليها وأخذ في توسيع دائرة نفوذه حتى صار والياً على 'إقليم خراسان' كله سنة ٣٦٦ هجرية وقام 'سبكتكين' بمحاربة الخارجين على الدولة السامانية وتصدى عدة مرات لمحاولات الدولة البويهية للقضاء على السامانيين، وظل سبكتكين طوال حياته في جهاد مستمر ضد الخارجين وكفار الهند الذين شعروا بخطورة مثل هذا الرجل على نفوذهم بأفغانستان وشمال الهند، وفي هذا الجو الجهادي ولد بطلنا 'محمود بن سبكتكين'.

## من هو محمود؟

هو الملك الكبير والجاهد الغازي والمرابط وأول من تلقب بالسلطان أبو القاسم 'محمود بن سبكتكين' المكنى بيمين الدولة، ولد في الحرم سنة ٣٦٠ هجرية في مدينة 'غزنة' وتقع الآن في أفغانستان وكان أكبر أبناء أبيه 'سبكتكين' فنشأ وترى تربية القادة الأبطال واشترك منذ أحداثه في محاربة أعداء الإسلام من الهنود والبويهيين، وكان له أثر كبير في معركة 'نيسابور' التي انتصر فيها 'سبكتكين' وولده محمود على البويهيين، فكافأه 'نوح بن منصور الساماني' بأن جعله والياً على 'نيسابور' وذلك كله وهو في مقتبل الشباب.

توفي الأمير 'سبكتكين' سنة ٣٨٨ هجرية بعدما أنشأ دولة كبيرة وقوية وراسخة تشمل إقليم 'خراسان' كله وإقليم 'سجستان' حتى 'كابل'، وتولى الأمر من بعده البطل الجاهد 'محمود' بعد منازعة قصيرة مع أخيه 'محمد' الذي كان لا يصلح للرئاسة ولا للمهام الجسيمة التي وكلت لبطلنا 'محمود'.

## أوضاع العالم الإسلامي

يكبد الأمر يستقر محمود بن سبكتكين في حكم الدولة السبكتكينية حتى رأى أن أوضاع العالم الإسلامي شديدة الاضطراب المستوى الداخلي حيث تفرقت دولة الخلافة وتمزقت أوصالها لأشلاء مبعثرة في شكل دولة هنا وهناك، ومعظم هذه الدول قد أصبح نكبة ووبالا على الإسلام، وتقاتلوا فيما بينهم على الملك والأرض والدنيا الفانية، وأصبح الخليفة لا حول له ولا قوة ألعوبة في يد قادة الجيش والمتغلبين من ولاية الأقاليم، وانفصل الجزء الشرقي بأكمله 'مصر والمغرب العربي' إضافة للشام والحجاز واليمن وأصبح تابعا للدولة السرطانية الرافضية الملقبة زورا بالفاطمية، وأصبحت عقيدة الرفض هي الغالبة على المستوى الرسمي لكثير من ولاية الأقاليم وانتشر التشيع بسبب 'البويهيين' الشيعة المتحكمين في الخلافة العباسية، وواكب ذلك ضعف الدولة السامانية وانتشار الفساد فيها ولم تصبح قادرة على القيام بدورها المنوط بها .

أما على المستوى الخارجي فلقد كان أمراء الهند خاصة شمالها يترصدون بالمسلمين الدوائر خاصة بعد أن حقق المسلمون عدة انتصارات باهرة عليهم واستولوا على بلاد 'الأفغان' و'الخلج' منهم وبدأ أمراء الشمال في التجمع مرة أخرى لمنع تقدم المسلمين نحو كشمير، وكان هناك خطر من نوع آخر وهم كفار الترك أو الأتراك الغزية الذين كانوا يعيشون في الأرض فسادا ويعتمدون على السلب والنهب لخيرات المسلمين.

لذلك كان على 'محمود' التحرك على الصعيدين الداخلي والخارجي في سبيل خدمة الإسلام ونصرة الدين في هذه الفترة العصيبة من حياة الأمة، وبالفعل أثبت 'محمود' أنه رجل الساعة.

## أعمال محمود على المستوى الداخلي

### أولا: القضاء على الدولة البويهية

كانت الدولة البويهية ذات هوى وميول رافضية، كما أنها كانت دولة ذات جذور فارسية ظهرت في أوائل القرن الرابع الهجري في شرق الهضبة الإيرانية التي كانت تعد المرتع الخصب للعقائد الضالة والأفكار الفاسدة، وتطورت هذه الدولة مستغلة ضعف الخلافة العباسية وتحكم القادة الأتراك فيها حتى قويت شوكتها وصارت القوة المتحكمة في أمور الخلافة ببغداد، وكانت هذه الدولة من عوامل التفرق والخذلان في الكيان الإسلامي كله، وزاد خطرها بشدة بعدما قامت الدولة الرافضية العبيدية باحتلال مصر وإنشاء الخلافة الفاطمية فيها سنة ٣٦٢ هجرية، وأصبح الإسلام والخلافة بين فكي الأفعى الشيعية في الشرق والغرب بل عزم كبيرهم وهو 'أحمد بن بويه' الملقب بمعز الدولة على إزالة اسم الخلافة من بني العباس ويوليها علويا من الشيعة، لذلك أسرع 'محمود بن سبكتكين' بالقضاء على هذه الدولة البويهية المنحرفة وكانت مدينة 'أصفهان' عاصمتهم فقضى عليهم نهائيا، ويكفي لبيان فسادهم أن السلطان 'محمود' لما فتح بلادهم وأسقط ملكهم واسمه 'مجد الدولة' وجد في حوزته من الزوجات الحرائر ما يزيد عن خمسين امرأة ولدن له نيفا وثلاثين ولدا، ولما سئل عن ذلك قال 'مجد الدولة': هذه عادة سلفي ويقصد به 'كسرى الفرس'، ذلك لأن البويهيين كانوا يخططون للارتداد للعصر الساساني مرة أخرى، فخدم 'محمود سبكتكين' الإسلام بذلك خدمة جليلة.

### ثانيا: القضاء على الدولة السامانية

هذه الدولة كانت فيما مضى دولة قوية سنية ظاهرة حفظت البوابة الشرقية للعالم الإسلامي لفترة طويلة ولكنها لم تقم بدور الدعوة ونشر الإسلام في امتداد الشرق الإسلامي، وكان عصرهم كله حروب وصراعات مع الجيران، ولم تكن لولاية هذه الدولة سياسة رشيدة ولا اتجاه واضح مما جعل المشاكل والمتاعب تأتي كثيرا من جانبهم خاصة بعدما اقتتلوا فيما بينهم ودب الفساد والانحراف فيهم وأصبحوا عائقا أمام حركة الفتوحات الإسلامية والتي كان ينوي 'محمود' القيام بها، وبالفعل قضى 'محمود بن سبكتكين' على الدولة السامانية بعدما انتصر على 'عبد الملك بن نوح الساماني' عند مدينة 'مرو' سنة ٣٨٩ هجرية وأنهى الوجود الساماني بخراسان، ثم أمناه بسجستان سنة ٣٩٣ هجرية.

## ثالثا: تحالفه مع الخلافة العباسية ضد الدولة الفاطمية

كانت معظم الدول التي ظهرت بأطراف الخلافة العباسية تتعامل مع الخلافة بصورة مهينة، فيزدرون الخليفة العباسي، ولا يحترمون هيبة الخلافة، بل امتدت أيديهم بسفك دماء بعض الخلفاء مثلما حدث مع 'المعتز' و'المتوكل' و'المهتدي' العباسيين، فلما جاء السلطان 'محمود بن سبكتكين' وقامت الدولة السبكتيكية أعلن 'محمود' ولاءه الكامل وتبعيته التامة للخليفة العباسي وقتها 'القادر بالله'، وامتثل لكل الأوامر التي كانت تأتيه من الخليفة القادر بالله، وأقام معه حلفا قويا أمام أطماع الدولة الخبيثة الرافضية بمصر ووقف سدا منيعا أمام محاولات الروافض الكثرية ونشر الرفض ببلاد خراسان وما حولها مستغلين الأثر السيء الذي خلفه وجود الدولة البويهية المهلكة، وعندما حاول العبيدون في مصر إغراءه بالهدايا كي يقيم الدعاية لهم في بلاده أحرق كتبهم وهداياهم وقتل 'التاهري' مندوبهم للدعوة وأهدى بغلته إلى القاضي أبي منصور محمد بن محمد الأزدي وقال له: [كان يركبها رأس الملحين فليركبها رأس الموحدين]، ولما سمع أن أحد أمرائه وقد أرسله أميراً على قافلة الحجيج قد قبل هدايا من الفاطميين في موسم الحج أمره بالعودة بها مرة أخرى إلى بغداد عاصمة الخلافة وأن يحرقها بنفسه على باب قصر الخلافة أمام أعين الناس.

## رابعا: نشره للنسنة ومحاربته للبدعة

كان السلطان محمود بن سبكتكين على عقيدة السلف الصالح خاصة في باب الأسماء والصفات وله مناظرة شهيرة مع كبير الأشاعرة في وقته 'ابن قورق' انتصر عليه فيها وطرده من بلده بعدها وكان محمود يكره البدعة وأهلها والفرق الضالة بأسرها، لذلك فلقد أزال من كل بلد فتحه كل الاعتقادات الباطلة والفرق الضالة وأزال من بلاده كل أثر للتشيع والجهمية والمعتزلة ومذاهب الرفض كلها من إسماعيلية وقرامطة وزيدية، وعمل على نشر الإسلام الصحيح في كل نواحي السند إلى حوض البنجاب، وانتصار 'محمود' لعقيدة السلف الصالح جعلت كثيرا من المؤرخين الأشاعرة وأصحاب الميول الشيعية ينتقصون من قدر 'محمود' وينسبون إليه بعض الصفات الذميمة مثلما فعل ابن الأثير وكان متأثرا بالتشيع عندما وصف السلطان 'محمود بن سبكتكين' بالشرة في جمع الأموال ولو من غير حقها وهي دعوى باطلة تخالفها سيرة وحياة هذا البطل العظيم في كل موطن.

## خامسا: حراسته للدين وإقامته للعدل

كان السلطان محمود بن سبكتكين مثالا يحتذى به للحاكم المسلم الذي يعلم جيدا مهام الحاكم والواجبات المنوطة به، لذلك فلقد جاءت حياته وفترة ملكه تصديقا لهذه الواجبات والمهام الموكلة إليه فلقد كان رغم ملكه الفسيح في غاية الديانة والصيانة وكرهية المعاصي وأهلها، لا يجزؤ أحد على إظهار معصية في بلاده، ولا خفرا ولا شيئا من الملاهي والمعازف، فلقد كانت حياته على الاستقامة والجادة، واقتدى به شعبه فصار لا يشغلهم سوى قضية الدين ونشره والجهاد في سبيل الله، وكان 'محمود' من أحرص الناس على نشر الإسلام في البلاد المفتوحة خاصة كشمير وبلاد الغور 'في أفغانستان حاليا' وكان كلما فتح بلدا بعث فيه الدعاة والمعلمين لنشر الدين وتعليم الإسلام، وأزال كل الفرق الضالة والباطنية، حتى لا تفسد عقائد حديثي الإسلام في تلك البلاد. وكان محمود محبا للعلماء والفقهاء والحدثين وأهل الخير والصالحين، وكان حنفيا ثم صار شافعيا على يد الإمام 'القفال الصغير'، وعمل طوال حياته على إقامة ناموس العدالة حتى على أقرب المقربين فلقد اشتكى له بعض رعيته يوما أن ابن أخته يعتدي على حرمة بيته وحرمة زوجته محتما بقرابته من السلطان، فنذر محمود ألا يأكل ولا يشرب حتى يأخذ حق هذا الرجل الضعيف وظل صائما عدة أيام، حتى ضبط محمود ابن أخته وهو يزين بامرأة هذا الرجل قسرا عنها فأخذه وقتله بيده حتى يرتدع كل من تسول له نفسه وقرابته من السلطان أن يخالف الشرع ويعتدي على الناس، وهكذا يكون الحاكم المسلم القدوة الذي تردع فعاله قبل نصاله.

## أعمال محمود على المستوى الخارجي



بني الرغم من عظمة الأعمال التي قام بها السلطان محمود على المستوى الداخلي وأثرها القوي والبعيد على الشرق الإسلامي إلا أن ما قام به محمود على المستوى الخارجي ونقصد بذلك تلك الحملات الجهادية العظيمة التي قام بها محمود لأكثر من ثلاثين سنة متصلة على بلاد الهند وما حولها، هي التي رفعت ذكر هذا السلطان العظيم وأعلت شأنه وبيضت صفحته في التاريخ وبوأته مكانة لم يصل إليها أحد بعده من الفتوحات والجهاد في سبيل الله، وهذه الأعمال جاءت كآلاتي:

### أولاً: القضاء على أكبر ملوك الهند 'جيبال'

لم تكن شبه الجزيرة الهندية وحدة سياسية واحدة تحكمها إدارة وحاكم واحد، فلقد كانت مقسمة لعدة أجزاء وإمارات وأقاليم وذلك لضخامة مساحتها وكثرة الصحاري بها، وكل إقليم كان له ملك يحكمه، وكان أكبر هؤلاء الملوك سنا وشأنا وقوة وبأسا هو الملك 'جيبال' وكان في نفس الوقت أشدهم حقدا وكرها للمسلمين عموما وآل سبكتكين خصوصا، حيث أنه قد سبق وأن التقى في معركة كبيرة مع الأمير 'سبكتكين' سنة ٣٦٩ هجرية وهزمه 'سبكتكين' هزيمة منكرة جعلت قلبه يحترق ويتلظى على المسلمين، فكما انتهى السلطان 'محمود' من الأمور الداخلية جعل كل همه القضاء على 'جيبال' هذا.

بالفعل قاد محمود حملة جهادية كبيرة على شمال الهند حيث معقل ملك 'جيبال' وحصن مدنه واصطدم معه في معركة 'برشور' في المحرم سنة ٣٩٢ هجرية، وصبر المسلمون على القتال رغم الفارق الهائل بين الجيشين، فلما انتصف النهار انهزم الهنود وقتل معظمهم، ووقع 'جيبال' نفسه في الأسر وكان في عنقه قلادة من الجوهر الثمين تقدر بمائتي ألف دينار وحدها فصار هو وماله وعشيرته غنيمة للمسلمين وكان محمود شديد الذكاء وعلى دراية تامة بنفسية كفار الهند فبعدهما أسر 'جيبال' وألبسه شعار الذل، أطلق سراحه نظير دية ضخمة، وهو يعلم ما سيفعله به قومه، فإن من عادة الهنود أنهم من وقع في الأسر من ملوكهم لا تتعقد له رئاسة عليهم أبدا، فلما عاد 'جيبال' إلى بلده ورأى حاله وما صار إليه من هزيمة وذل وعار وضياح ملك ومال، حلق رأسه، ثم ألقى بنفسه في النار فاحترق بنار الدنيا قبل نار الآخرة، وبذلك أزال محمود أكبر عقبة في طريقه لنشر الإسلام بالهند.

### ثانياً: فتح الشمال الهندي

كل ما قام به السلطان المجاهد 'محمود بن سبكتكين' على الصعيد الداخلي وإزالته للدولة البويهية والسامانية وكل الفرق الباطنية الضالة، كان من أجل الهدف الآسمى الذي نذر محمود حياته من أجله ألا وهو نشر دين الإسلام في بلاد الهند والجهاد في سبيل الله عز وجل، فلقد استمر محمود في سلسلة طويلة من الحملات الجهادية على شمال الهند ابتداء من سنة ٣٩٢ هجرية حتى سنة ٤١٨ هجرية.

بدأ محمود فتوحه في الهند من مركز قوة، فلقد كان يسيطر على إقليم 'غزنه' وهو الإقليم الجبلي الذي يشرف على سهول البنجاب، فكانت مداخل الجبال وممر خبير في يده، كذلك كان محمود قد مد سلطانه على كل بلاد إيران وما وراء النهر، فلم يعد هناك عدو يناوئه في شمال البلاد أو غربها وبهذا تمكن من أن يواجه كل قواه نحو الشرق حيث الشمال الهندي.

بدأ محمود انتصاراته في الهند على أكبر ملوكهم 'جيبال' سنة ٣٩٢ هجرية، ثم انحدر على إقليم 'الملتان' وكان فيه مركز الهندوكية في شمال الهند الغربي، ثم استولى على مدينة 'بهاتنده' وكان بها الكثير من فرقة القرامطة الباطنيين وأميرهم يدعى 'أبو الفتوح داود' وكان من أضر خلق الله على المسلمين فقضى محمود على هذه الفرقة الضالة، ثم حارب 'أتاندابال بن جيبال' سنة ٣٩٥ هجرية وهزمه وقضى على سلطانه، ثم حارب حفيد 'جيبال' وكان قد ادعى الإسلام ليعرض عنه محمود ثم ارتد فقاتله محمود وأصبحت كل نواحي السند إلى حوض البنجاب بلاد مسلمة.

انتهاز أمراء الهند فرصة غياب 'محمود بن سبكتكين' لتأديب الخارجين عليه في بلاد ما وراء النهر، وخلعوا طاعته وجمعوا قواهم لقتاله وذلك سنة ٣٩٨ فعاد الأسد المجاهد بمنتهى السرعة في جيش كثيف من الأبطال المجاهدين وهزم الجيش الهندي المتحد هزيمة

حققة وذلك عند قلعة 'بيهمينكر' على سفح الهمالايا، وعندها أذعن كل أمراء الهند لسلطان الإسلام ودخل كثير منهم الإسلام

ومن بقى دفع الدية عن يد وهو من الصاغرين.

في سنة ٤٠٨ هجرية بدأ 'محمود بن سبكتكين' في فتح كشمير، فدخلها من ناحية الشمال الغربي فغير نهر 'جهلم' ودخل قلب كشمير وأخضع أمراءها وتحولت كشمير إلى بلاد مسلمة، وكان لهذا الانتصار صدى بعيد، حيث دخل معظم أمراء الهند في دين الإسلام وعلموا أنه الدين الحق الذي لا يغلب من يتمسك به ويعمل به ويدعوا إليه، وبعدها قرر 'محمود' أن يتجه جنوبا حيث إقليم الكوجرات وذلك من أجل مهمة خاصة جعلها 'محمود بن سبكتكين' ذرة أعماله وتتويجا لفتوحاته وجهاده الطويل.

### ثالثا: هدم صنم الهندوس الأكبر 'سومنات'

استمر السلطان الفاتح 'محمود بن سبكتكين' في حملاته وفتوحاته لبلاد الهند، وكان كلما فتح بلدا أو هدم صنما، أو حطم معبدا قال كفار الهند: [إن هذه الأصنام والبلاد قد سخط عليها الإله 'سومنات' ولو أنه راض عنها لأهلك من قصدها بسوء] فسأل 'محمود' عن 'سومنات' هذا فقيل له: إنه أعظم الأصنام ومعبود الهنود الأكبر، ويعتقد فيه الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه على عقيدة التناسخ عندهم فيعيدنها فيمن شاء بزعمهم، وأن المد والجزر الذي عنده إنما هو عبادة البحر له. ويقع 'سومنات' على بعد مائتي فرسخ من مصب نهر 'الجانج' بإقليم 'الكوجرات' في غرب الهند ولهذا الصنم وقف عشرة آلاف قرية وعنده ألف كاهن لطقوس العبادة وثلاثمائة رجل يخلقون رؤوس و لحى زواره، وثلاثمائة رجل وخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون على باب الصنم، وعندما اطلع 'محمود' على كل هذه المعلومات عزم وتوكل على الله في غزوه وتحطيمه وفتح معبده ظنا منه أن الهنود إذا رأوا تحطيم معبودهم وكذب أمره دخلوا في دين الإسلام وانتهت الوثنية من الهند.

خاض 'محمود بن سبكتكين' العديد من المفاوز والمستنقعات، حتى أعوزه وجيشه الماء حتى كادوا أن يهلكوا فقام محمود ومن معه بالابتغال والاستغاثة بالله عز وجل، فبعث الله عز وجل لهم سحابة أمطرت عليهم الماء الوفير فشربوا وسقوا وقويت أبدانهم وقلوبهم على عدوهم، ووصلوا إلى بلدة 'دبولواره' فاستولى عليها بعد أن ظن أهلها أن معبودهم 'سومنات' سيمنعهم، ووصل 'محمود' إلى مكان 'سومنات' في منتصف ذي القعدة سنة ٤١٦ هجرية، فوجد أهلها على الأسوار يتفرجون على المسلمين واثقين أن معبودهم سيقطع دابرهم ويهلكهم، ولكن هيهات هيهات لقوم أضل من البهائم، انقض محمود ومن معه على كفار الهند ومعبودهم 'سومنات' ورأى الكفار مالم يروونه من قبل في القتال والشدة وعظم الخطب عليهم، وكان الكفار يتقدم الواحد منهم إلى 'سومنات' فيسجد إليه ويعفر له خده ويعتقه ويتضرع إليه ثم يخرج للقتال، فيقتل كالشاه الحمقاء، وهكذا حتى قتل المسلمون من الهنود خمسين ألفا ففر باقي الهنود ودخل المسلمون المدينة وهنا حدث موقف لا يقل روعة ولا جلالا عن مواقف محمود بن سبكتكين السابقة.

### هكذا يكون رجل العقيدة والإسلام

بعدها حقق محمود بن سبكتكين نصره المبين على كفار الهند وفتح 'سومنات' عزم على هدم هذا الصنم الذي يعبد من دون الله عز وجل، فجاءه رؤساء الهنود وعرضوا عليه دفع أموال طائلة تقدر بالملايين، ومال أصحاب محمود وأمراء جيشه بالقبول وترك الصنم لتعويض الأموال الكثيرة التي أنفقت على تمويل الحملة، فبات 'محمود' طوال الليل يفكر ويستخير الله عز وجل، فلما أصبح قرر هدم الصنم 'سومنات' وعدم قبول الأموال وقال كلمته الشهيرة والتي تكتب بماء الذهب: [إن فكرت في الأمر الذي ذكر، فرأيت إذا نوديت يوم القيامة أين محمود الذي كسر الصنم؟ أحب إلي من أن يقال: أين محمود الذي ترك الصنم لأجل ما يناله من الدنيا؟] ولا نملك مع هذا الموقف العظيم إلا أن نقول للسلطان 'محمود' هنيئا لك ما وفقك الله إليه من حسن العمل للإسلام ونصرته، ونرجو من الله تعالى أن تنادي يوم القيامة بما أحببت أن تنادي به.

والعجيب أن المسلمين بعدما كسروا صنم 'سومنات' وجدوا بداخله كنوزا هائلة من الباقوت والجواهر أضعاف أضعاف ما عرضه

بود، فغنمه المسلمون وجمع الله عز وجل لهم فضيلة كسر الصنم وأفاء عليهم بأضعاف أضعاف ما تركوه، وصدق المصطفى ﷺ  
الله عليه وسلم عندما قال: [من ترك شيئا لله عز وجل عوضه الله بأفضل منه].

## شهيد على فراشه

ظل محمود بن سبكتكين رافعا لراية الجهاد في سبيل الله ليل نهار لا يكل ولا يتعب ولا يكاد يجلس على فراشه، طالبا للشهادة من مظانها وفي كل موطن، وقد أنشأ دولة عظيمة شاسعة تضم إيران وما وراء النهر والشمال الهندي كله، وأخضع لسلطان الإسلام السند والبنجاب وحوض الجانج إلى حدود البنغال، ونشر الإسلام والعقيدة الصحيحة بتلك الربوع والسهول التي كانت مرتعا للعقائد الضالة وأفكار الفلاسفة، وقد عزم 'محمود' على أن ينقل عاصمته إلى إقليم 'الكوجرات' لتدعيم الوجود الإسلامي بالهند وباليته فعل ذلك، ولكن رجاله عز عليهم مفارقة مواطنهم وديارهم فصرفوه عن هذه الفكرة، وظل السلطان 'محمود بن سبكتكين' مجاهدا غازياً أخذاً على عاتقه نشر الإسلام في بلاد الهند والقضاء على الوثنية فيها وبلغت مساحة فتوحاته ما فتحه الفاروق عمر وبلغت رايته الجهادية أماكن لم تبلغها راية قط ولم تتل بها سورة ولا أية قط وأقام شعائر الإسلام في أقصى ربوع الأرض. ومع ذلك ورغم هذه الحياة الطويلة فوق ظهر الخيل ورفقة السلاح إلا إنه مات على فراشه بعدما أصابه داء البطن ومكث عامين مريضاً ولكن لا يضطجع بل يتكأ على جنبه ويحضر مجلس الحكم ليفصل بين الناس ويسير شئون الدولة، حتى مات رحمه الله مبطونا ولعلها تكون شهادة كما ورد ذلك في الحديث، تعوض هذا السلطان العظيم الذي فتح بلاد الهند وظل طوال حياته يطلب الشهادة كي ما ينالها، وينصر الإسلام وينشره كي ما يرضى عنه ربه، فسلام عليك يا أعظم سلاطين الإسلام.

المصادر:

١. الكامل في التاريخ
٢. النجوم الزاهرة
٣. البداية والنهاية
٤. تاريخ الخلفاء
٥. سير أعلام النبلاء
٦. وفيات الأعيان
٧. فتوح البلدان
٨. أطلس تاريخ الإسلام

## أبطال سقطوا من الذاكرة الأمير بركة خان - أعظم ملوك التتار

: يتبادر إلى ذهن الكثير من الناس عند ذكر كلمة 'التتار' أو 'المغول' جميع الصفات التي لا تمت للإنسانية بصلة من وحشية وقسوة وإبادة شاملة وجميع المآسي والأهوال التي خلفها الاكتساح التتاري لبلاد الإسلام في القرن السابع الهجري، حتى أن كثيرا من مؤرخي الإسلام ظنوا أن هذه النازلة هي النهاية فنعى الإسلام والمسلمين؛ ومن أراد تفاصيل ذلك فليراجع ما كتبه المؤرخ ابن الأثير عنها بعبارات تقطر أسى وحزنا عميقين

ووسط هذه الصورة الحالكة السواد عن التتار كشعب وأمة، ضاعت آثار وأخبار رجل من أعظم الرجال وصاحب فضل كبير بعد الله عز وجل في دخول الأمة التتارية دين الإسلام، بل إن هذا الرجل يضرب أروع الأمثال في رسوخ عقيدة الولاء والبراء فيحارب بني جلدته في سبيل نصرته الإسلام والمسلمين.

نستطيع أن نقول أن المغول قد ورثوا ديار الإسلام من أقصى الشرق إلى حدود المنطقة العربية وحدود وسط أوروبا، وهي منطقة شاسعة مترامية الأطراف، لذلك وضع 'جنكيز خان' نظاما خاصا في تقسيم هذه الامبراطورية الواسعة، حيث قسمها بين أبنائه من زوجة الأولى على النسق التالي:

الابن الأكبر جوجي : بلاد روسيا والقوقاز وبلغاريا وما يفتحه من غرب المعمورة.

الابن الثاني جغتاي : بلاد الأوبجور وتركستان الغربية وبلاد ما وراء النهر.

الابن الثالث تولوي : خراسان وفارس وبلاد العرب وآسيا الصغرى.

الابن الرابع أوغطاي: بلاد المغول 'منغوليا الآن' والصين وتركستان الشرقية وما يفتحه من شرق المعمورة.

وكان من المقرر أن يكون 'جوجي' الابن الأكبر لـ 'جنكيز خان' هو الخليفة بعد موت أبيه، ولكن الطاغية 'جنكيز خان' شعر بطموحات 'جوجي' واستعجاله لنيل المنصب بعد أبيه فدرس عليه من قتله وعين بدلا منه أخاه 'أوغطاي' في منصب ولي العهد.

### القبيلة الذهبية

هذا هو الاسم الذي أطلق على أسرة 'جوجي' وممتلكاتها وما عرفوا به تاريخيا، وكانت أسرة 'جوجي' مميزة بين باقي الأسر فقد كانت لهم ثلث الغنائم التي يحصل عليها التتار في حروبهم.

وكان للإسلام بالغ الأثر في نفوس أبناء 'جوجي' ويرجع السبب في ذلك لأن أباهم 'جوجي' تزوج من الأميرة 'رسالة بنت خوارزم شاه' التي وقعت في الأسر وهي أخت السلطان جلال الدين 'منكبري' آخر سلاطين الدولة الخوارزمية، مع مراعاة أن هذا الزواج باطل ولا ينعقد أصلا لكفر 'جوجي'، وأغلب الظن أنها كانت سبية مكرهة معذورة، والدليل أن 'رسالة' هذه ظلت محافظة على إسلامها وشعائرها، وإلا ما تأثر بها أبناء 'جوجي' حتى دخل بعضهم في الإسلام كما حدث مع بطلنا هذا.

### من هو بركة خان ؟

هو السلطان العظيم والتري الأول ناصر الدين أبو المعالي 'بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان' حفيد الطاغية الدموي الذي روع العالم في القرن السابع الهجري 'جنكيز خان'، وهو أحد سبعة أبناء لجوجي وهم 'باتو'، أوردا، شوبان، بركة - بطلنا -، جهتاي، بركجار، توقاتيمر' وكان الابن الأكبر 'باتو' قد ورث منصب أبيه وأصبح زعيما للقبيلة الذهبية، والتي تعد أولى قبائل التتار إسلاما وأكثرها تعاطفا وتأدبا مع المسلمين.

وبسبب تعاطف 'باتو' مع المسلمين في بلاده أخذ النصارى خاصة الرهبان والقساوسة في بلاد المغول، وكان لهم دور وتأثير كبير على الحرب المروعة على بلاد الإسلام، في تحريض الزعيم الكبير للتتار 'كيوك بن أوغطاي' لمحاربة 'باتو' قبل أن ينتشر الإسلام في كل ربوع الشمال .

وتوفي 'باتو' سنة ٦٥٠ هجرية وخلفه من بعده في رئاسة القبيلة الذهبية ابنه 'حرتق' الذي لم يعيش طويلا حتى توفي وانتقلت الرئاسة لعمه البطل المقدام 'بركة خان' وذلك سنة ٦٥٣ هجرية .

دخل 'بركة خان' الإسلام سنة ٦٥٠ هجرية وكان من قبل محبا ومتأثرا بالإسلام بسبب امرأة أبيه 'رسالة' وقد التقى 'بركة خان' في مدينة 'نجارى' مع أحد علماء المسلمين واسمه 'نجم الدين مختار الزاهدي' وكان بركة عاندا لتوه من زيارة عاصمة المغول 'قروم' وأخذ 'بركة' في الاستفسار عن الإسلام من هذا العالم المسلم وهو يجيبه بكل وضوح وسلاسة، فطلب بركة منه أن يؤلف له رسالة تؤيد بالبراهين رسالة الإسلام وتوضح بطلان عقائد التتار والتشليث وترد على المخالفين والمنكرين للإسلام، فألف 'الزاهدي' الرسالة ودخل 'بركة خان' الإسلام إثر قرائتها عن حب واقتناع وإخلاص ورغبة عارمة في نصرته هذا الدين.

لم يكن دخول 'بركة خان' الإسلام كدخول آحاد الناس بل دخل الإسلام بطلا ملكا سلطانا لقبيلة تترية، والتتار وقتها هم الكابوس المفزع للبشرية جمعاء وللمسلمين خاصة، لذلك جاءت أعمال هذا البطل العظيم على نفس المستوى الفائق من المسؤولية والقيادة، وتحول هذا السلطان الوثني إلى جندي من أخلص جنود الإسلام شديد الحب والتفاني في نصرة الدين وأهله، حيث ضرب أروع الأمثلة في الولاء والبراء وهذه طائفة من أهم أعمال 'بركة خان' في نصرة الإسلام.

### أولاً: مبايعة خليفة المسلمين

بعدما أعلن 'بركة خان' إسلامه كان أول ما فعله أن أرسل ببيعته للخليفة العباسي 'المستعصم' ببغداد، وهذا الإجراء رغم أنه بسيط وبه كثير من الشكليات؛ لأن خليفة المسلمين وقتها لم يكن له أى نفوذ حقيقي إلا على مساحة ضيقة من الأرض، إلا أنه يعطي صورة واضحة جلية نحو ولاء 'بركة خان' لسلطان المسلمين وانضوائه تحت جماعة المسلمين.

### ثانياً: إظهار شعائر الإسلام

بعدما اعتلى 'بركة خان' رئاسة القبيلة الذهبية أخذ في إظهار شعائر الإسلام وكانت مندثرة في بلاد التتار منذ عهد 'جنكيزخان' الذي كان يقتل من يجهر بتلك الشعائر شر قتلة، وقام 'بركة خان' بإكمال بناء مدينة 'سراي' وهي مدينة 'سراتوف' الآن في روسيا على نهر الفولجا وجعلها عاصمة القبيلة الذهبية، وبنى بها المساجد والحمامات ووسعها جدا حتى صارت أكبر مدن العالم وقتها، وجعلها على السمت الإسلامي الخالص.

### ثالثاً: غيرته على المسلمين

نظراً لأن 'بركة خان' قد دخل الإسلام بحب وإخلاص، فلقد تجمعت معاني العقيدة الصحيحة ومقتضيات لا إله إلا الله في قلبه وجاءت ردود أفعاله وغيرته على الإسلام والمسلمين لتذكرنا بمواقف الصحابة رضوان الله عليهم والرعييل الأول من سلف الأمة، فقد كان 'بركة خان' شديد الغيرة على الإسلام والمسلمين. وقد ظهرت هذه العقيدة بوضوح عندما فكر الطاغية 'هولاكو' بن تولوي بن جنكيزخان' في الهجوم على بغداد بعدما كاتبه الخائن الرافضي 'ابن العلقمي' وزير الشؤون ببغداد وطلب منه الحضور، وكان 'مانغو' بن تولوي' أخو 'هولاكو' هو الخان الأكبر لجميع التتار، وقد نال هذا المنصب بمساعدة قوية من 'باتو' الأخ الأكبر 'البركة خان'. وحاول 'هولاكو' إقناع أخيه الأكبر 'مانغو' بهذه الفكرة، وبالفعل وافق 'مانغو' على الفكرة ورحب بالهجوم على باقي بلاد المسلمين، وبدأ 'هولاكو' في الإعداد لذلك، وما أن وصلت الأخبار إلى 'بركة خان' حتى التهب مشاعره وأسرع إلى أخيه 'باتو' وألح عليه في منع الهجوم على المسلمين وقال له: [إننا نحن الذين أقمنا 'مانغو' خانا أعظما وما جازانا على ذلك إلا أنه أراد أن يكافينا بالسوء في أصحابنا ويخفر ذمتنا ويتعرض إلى ممالك الخليفة وهو صاحبي وبيني وبينه مكاتبات وعقود ومودة وفي هذا ما لا يخفى من القبح]. وبالفعل أقتنع 'باتو' تماماً بكلام أخيه وبعث إلى هولاكو يكفه عما ينويه من قتال المسلمين؛ وبالفعل أجل 'هولاكو' الهجوم على



#### رابعاً : محالفته للمماليك

العجيب في إسلام 'بركة خان' هذه الحالة الإيمانية الفائقة وترسخ عقيدة الولاء والبراء في قلبه، وتجلي ذلك في كل مواقفه التي كانت تنبع من أصل هذه العقيدة السليمة النقية.

فقد دخل 'بركة خان' في حلف مع المماليك الذين همروا العالم عندما انتصروا على التتار في موقعة 'عين جالوت' سنة ٦٥٨ هجرية، وكثرت المراسلات والاتصالات بين السلطان 'بيبرس' و 'بركة خان' وكان لها أثر كبير في توجيه 'بركة خان' لحرب 'هولاكو' وأن هذا الأمر من مقتضيات الولاء والبراء.

وبالفعل اتفق 'بركة خان' و 'بيبرس' على محاربة 'هولاكو' وكتب 'بركة خان' برسالة إلى 'بيبرس' يقول له فيها: [قد علمت محبتي للإسلام وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين، فأركب أنت من ناحية حتى آتية أنا من الناحية الأخرى؛ حتى نهزمه أو نخرجه من البلاد، وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد].

فألله الله على 'بركة خان'؛ ولاء وبراء، مع تجرد وإخلاص، مع جهاد وزهد في الدنيا، وهكذا يكون الأبطال الذين تسطر أخبارهم بماء الذهب.

#### خامساً : محاربته لهولاكو والتتار

لم يكتف 'بركة خان' بمناصرة المسلمين والدخول في جماعتهم وحلفهم ولكن طبق عقيدة الولاء والبراء بشقيها وفي أنقى صورها، فلقد انقلب حرباً ضروساً على التتار الوثنيين عموماً وعلى 'هولاكو' خصوصاً حيث لم ينس 'بركة خان' ما فعله 'هولاكو' بالخلافة العباسية أبداً عندما اكتسح هولاكو بحافله بغداد.

فقد حاول 'بركة خان' بشتى الوسائل أن يوقف هذا المد الجارف الذي ينذر بمحو الإسلام من الوجود، ولكن لأن معظم جنوده كانوا لا يزالون على الوثنية فقد رفضوا الانصياع لأمره بمحاربة 'هولاكو' لأنهم بذلك سيخالفون الخان الأعظم للتتار والذي قد وافق على الهجوم الهولاكي على بغداد.

فأخذ 'بركة خان' في اختلاق الذرائع والحجج لإشعال الحرب ضد 'هولاكو' ووجد ضالته في مسألة الغنائم حيث كان من عرف 'جنكيز خان' القديم أن أسرة 'جوجي' لها ثلث الغنائم التي يحصل عليها التتار جميعاً في أي معارك يخوضونها.

وبالقطع لم تكن الغنائم دافعا لـ 'بركة خان' بل كان حبه للإسلام ورغبته في مقاتلة 'هولاكو' الطاغية فأرسل 'بركة' رسلاً من طرفه وأمرهم أن يشتدوا ويغلظوا على 'هولاكو' في السؤال، وبالفعل نجحت الحيلة واستشاط 'هولاكو' غضباً وقتل رسل 'بركة خان' وسير جيشاً لمحاربة 'بركة خان' فانهزم جيش هولاكو شر هزيمة وذلك سنة ٦٦٠ هجرية، فعاود الهجوم مرة أخرى بجيش أكبر فانهزم جيش 'بركة خان' وكان يقوده أحد قواده واسمه 'نوغاي'، فأراد 'هولاكو' أن يجهز بالكلية على 'بركة خان' فأرسل جيشاً جراراً فيه معظم جنوده يقودهم ابنه الخبيث 'أباقا'، فخرج لهم 'بركة خان' بنفسه على رأس الجيش ومزق جيش هولاكو شر تمزيق سنة ٦٦١ هجرية في منطقة القوقاز ولم ينج منهم سوى القليل.

#### سادساً : تفريقه لوحدة التتار الوثنيين

عندما يكون للمرء هدف يعمل من أجله ويحى في سبيل الوصول إليه فإنه عادة ما يصل إليه بإذن الله عز وجل، وبطلنا 'بركة خان' كان يحى من أجل نصرة الإسلام ومحاربة أعدائه، لذلك نجده يعمل من أجل هذا الهدف على عدة محاور، فهو يخالف المسلمين

باليك ويحارب بني جلدته من التتار، وعمل أيضا على محور شديد الخطورة وذلك بذكاء ودهاء محمود للوصول إلى تفتيت دول التتار الوثنية وإضعافها.

فقد استغل 'بركة خان' خروج الخان الأعظم 'مانغو' لقتال بعض الخارجين عليه ومعه أخاه 'قبلاي' وترك أخاه الآخر 'أرتق بوكا' مكانه لتسيير الأمور لحين عودته، فاستغل 'بركة خان' وفاة 'مانغو' في الطريق لإثارة الفتنة بين 'أرتق بوكا' و'قبلاي'، حيث اتفق الجند والأمراء على تولية 'قبلاي'، فأرسل 'بركة خان' إلى 'أرتق بوكا' بقوة عسكرية لمنازعة أخيه 'قبلاي' على منصب الخان الأعظم، وحرص أيضا أسرة 'أوغطاي' على مساعدة 'أرتق بوكا' ووقعت الحرب بينهما سنة ٦٥٨ هجرية وذلك قبل معركة 'عين جالوت' بقليل مما جعل هولاكو يعود مسرعا من الشام لفض النزاع.

واستمرت الحروب عدة سنوات، وكان 'بركة خان' في نفس الوقت يقنع ويحث كثيرا من جنود 'هولاكو' بالشام على الدخول في الإسلام والانضمام إلى جيش 'بيبرس'؛ وبالفعل أقنع الكثيرين منهم وتحولوا إلى حرب 'هولاكو'.

أما 'هولاكو' فوجد أن كل البلايا والمعارك التي حدثت له وللتتار جميعا كان سببها 'بركة خان' فاشتد غيظه وحقدته على 'بركة خان' وحاول محاربته عدة مرات ولكنه هزم شر هزيمة مما أشعل الغيظ في قلبه حتى وصت نيران غيظه إلى عقله وجسده، فأصيب بجلطة في المخ بعد وصوله خبر هزيمة ولده 'أباقا' أمام 'بركة خان' سنة ٦٦١ هجرية وظل يعاني من الصرع حتى هلك الهالك 'هولاكو' سنة ٦٦٣ هجرية، فانتقم 'بركة خان' للإسلام والمسلمين من هذا الجرم الطاغية الذي دمر دولة الخلافة الإسلامية وسفك دم الملايين من المسلمين.

## رحيل البطل

ظل 'بركة خان' طوال حياته مجاهدا مناصرا للإسلام والمسلمين في كل موطن وعلى عدة محاور، تشغله قضية الإسلام وتلهب مشاعره ويهتز قلبه من أجل خدمة هذا الدين، لذلك كان من الطبيعي أن يموت هذا البطل على درب النصر والجهاد، فبعدما هلك الطاغية 'هولاكو' من شدة الغيظ والحقد على ما جرى على يد 'بركة خان' ورث مكانه ابنه 'أباقا' وورث عنه أيضا حقدته وحسده على 'بركة خان' خاصة أن 'بركة' قد هزمه هزيمة كبيرة سنة ٦٦١ هجرية، لذلك كانت محاربة 'بركة' هي أولى خطوات وقرارات 'أباقا بن هولاكو'.

لفعل أعد 'أباقا' جيشا جرارا لمحاربة 'بركة' وأرسل 'بركة' أولا قائده 'نوغي' ولكنه هزم وأصيب بسهم في عينه، وكان 'بركة خان' يحب 'نوغي' لإسلامه وجهاده معه في كل موطن، فخرج 'بركة خان' بنفسه للقائه 'أباقا' وفي نيته محاربة عدو الإسلام وإزالة هذا الفرع الخبيث من شجرة التتار التي بدأت تتحول للإسلام شيئا فشيئا.

وفي الطريق أتاه اليقين وتوفي البطل العظيم مجاهدا مناصرا سنة ٦٦٥ هجرية بعدما قضى حياته الحقيقية، خمسة عشر سنة، في خدمة الإسلام ومحبة المسلمين ومحاربة أعداء الإسلام حتى مات رحمه الله وبلل بالمغفرة ثراه على نية الجهاد، ولم يكن له أولاد ولم يترك ذرية ولكنه ترك سجلا حافلا في العمل للدين والفهم الصحيح لعقيدة الولاء والبراء، حتى أن السلطان المملوكي الظاهر 'بيبرس' قد سمي ولده الأكبر 'بركة خان' حبا في شخصية هذا البطل العظيم والذي ومنتهى الأسف والأسى لا يعرفه معظم المسلمين الآن.

## [ المصادر ]

١. الكامل في التاريخ
٢. البداية والنهاية
٣. سير أعلام النبلاء
٤. فتوح البلدان
٥. التاريخ الإسلامي

'لابن الأثير'

'لابن كثير'

'الذهبي'

'البلاذري'

'محمود شاكر'

٦. موسوعة التاريخ الميسرة 'مجموعة من الباحثين'

٧. أطلس تاريخ الإسلام 'حسين مؤنس'

## أبطال سقطوا من الذاكرة الفقيه القاضى الأمير أسد بن الفرات فاتح صقلية

أن يكون المسلم متميزاً في باب معين من أبواب الخير فهذا شيء عظيم يستحق أن يثني عليه الناس به ويذكرونه ولكن أن يكون المسلم فقيهاً وعالماً ومحدثاً ومجاهداً وأميراً للجيوش وقائداً لأساطيل أعالي البحار وقاضياً ومعلماً ومدافعاً عن السنة وقامعاً للبدعة ومرابطاً في سبيل الله حتى الموت، فهذا النوع من الرجال الأبطال لا بد أن نؤرخ له وبماء الذهب خاصة أن أبناء المسلمين الآن لا يعرفون عنه شيئاً .

### من هو الأسد

هو الأمير الكبير والفقيه البار والحدث الثقة وأمير المجاهدين أبو عبد الله 'أسد بن الفرات بن سنان' ولد سنة ١٤٢ هجرية بمدينة 'حران' من أعمال ديار بكر بالشام ثم انتقل إلى بلاد المغرب مع أبيه 'الفرات بن سنان' سنة ١٤٤ هجرية والذي كان قائداً للمجاهدين الذين خرجوا لنشر الإسلام في بلاد المغرب، واستقر مع أبيه بالقيروان، ونشأ منذ صغره على حب العلم وحفظ كتاب الله حتى أتمه في مرحلة الصبا وأصبح هو نفسه معلماً للقرآن وهو دون الثانية عشر .

### رحلته العلمية

بعدما أتم أسد حفظ كتاب الله بدأ في تحصيل العلوم الشرعية حتى برع في الفقه وكان محباً للنظر والمسائل المتفرعة وإعمال العقل فمال ناحية مذهب أبي حنيفة وظل هكذا حتى التقى مع 'علي بن زياد' والذي يعتبر أول من أدخل مذهب الإمام مالك بن أنس بالمغرب، فسمع منه أسد كتاب الموطأ وتلقى منه أصول مذهب مالك، وبعدها قرر أسد أن ينتقل إلى المشرق في رحلة علمية طويلة ابتداءً من سنة ١٧٢ هجرية وهو في ريعان الشباب .

دخل أسد بن الفرات المدينة النبوية لسماع الموطأ من الإمام مالك مباشرة، وكان الإمام مالك له ترتيب خاص في إسماع الموطأ حيث كان يقسم السامعين إلى ثلاثة أفواج:

- الفوج الأول أهل المدينة .
- الفوج الثاني أهل مصر .
- الفوج الثالث بقية الناس .

ولاحظ الإمام مالك حرص أسد على سماع الحديث وشغفه بالعلم فأدخله مع الفوج الثاني أهل مصر، ولكن أسد بن الفرات كان شديد الشغف بالعلم فاستقل مرويات مالك في الموطأ واستزاده في السماع فقال له مالك 'حسبك ما للناس' فخشي أسد أن يطول به الأمر ويفوته ما رغب فيه من لقية الرجال وسماع الحديث، فارتحل إلى العراق بعدما انتهى من سماع الموطأ.

بالعراق التقى أسد مع كبار تلاميذ أبي حنيفة أمثال 'محمد بن الحسن' وكان من كبار رواة الحديث والقاضى أبو يوسف أخص تلاميذ أبي حنيفة وأفقههم، فتعلم أسد أولاً المذهب الحنفي وأكثر من سماع الثقات في الحديث، واستفاد أسد من محمد بن الحسن استفادة كبرى وكتب عنه الكثير من مسائل المذهب الحنفي المشهور . استمر أسد في رحلته إلى العراق جامعاً بين طلب الحديث والفقه إلى سنة ١٧٩ هجرية وهي السنة التي توفي فيها الإمام مالك فارتجت العراق لموته وأقبل الناس من كل مكان للسماع من تلاميذ مالك، وعندها ندم أسد على أنه لم يبق بجوار مالك وقال لنفسه 'إن كان فاتني لزوم مالك فلا يفوتني لزوم أصحابه' .

تخل أسد بن الفرات إلى مصر وكان بها أخص تلاميذ مالك وأكثرهم علما وورعا أمثال ابن وهب وابن القاسم، فدخل أسد على ابن وهب وعرض عليه كتبه التي كتبها على مذهب أبي حنيفة وطلب منه أن يجيب عليها على مذهب مالك، فتورع ابن وهب عن ذلك، فدخل أسد على ابن القاسم فأجابه على هذه المسائل وتفرغ له ابن القاسم ولقنه المذهب كله بأصوله وفروعه ودون هذه المسائل كلها في الكتاب الشهير 'المرونة' أو 'الأسدية' وحررها وضبطها حتى صارت المرجع الأول للفقهاء المالكي ببلاد المغرب وقتها، وأخيرا عاد أسد بن الفرات إلى القيروان سنة ١٨١ هجرية بعد رحلة علمية شاقة وحافلة بالفوائد حيث تنقل فيها بين المدينة ومكة وبغداد والكوفة والفسطاط في طلب العلم حتى صار من كبار علماء المغرب وإمام من أئمة المسلمين الذين بلغوا درجة الاجتهاد فلا يفتي إلا بعد النظر والترجيح ولا يتقيد بمذهب معين .

### نشاطه العلمي بالمغرب

عاد أسد بن الفرات إلى القيروان حاضرة أفريقية وقتها ومنارة العلم الأولى في الشمال الأفريقي بعلم جم في الحديث والفقهاء بمدرستيهم الأوليتين الحنفية والمالكية وجلس بجامع عقبة وأقبل عليه الناس من كل مكان من المغرب والأندلس واشتهر أمره وظهر علمه، وارتفع قدره، وانتشرت إمامته، وجاءته الأسئلة من أقصى البلاد ليجيب عليها . بلغ أسد درجة الاجتهاد المطلق فلم يكن يلتزم برأي واحد بل يفتي بما يوصله إليه إجهاده ويلتزم من أقوال أهل المدينة وأهل العراق بما يوافق الحق عنده، وكان إذا جلس في المجلس وسرد أقوال العراقيين، أي مذهب أبي حنيفة، في مسألة ما، قال له المشايخ الذين يجالسونه ممن يذهب مذهب أهل المدينة، أي مذهب مالك، 'يا أبا عبد الله أوقد القنديل الثاني' فيسرد أقوال المدنيين مما يوضح سعة علمه. كان أسد بن الفرات شديد الضبط والتحرير والدقة لكتبه حتى صار مضرب الأمثال فقد بيعت يوما كتب فقيه مات، فتودي عليها 'هذه كتب فقيه قد قوبلت على كتب الأفريقي' أي أسد بن الفرات 'فبيعت بأعلى الأثمان' .

### محاربه للبدع

كان أسد بن الفرات على عقيدة أهل السنة والجماعة عقيدة السلف الصالح لذلك كان من أشد علماء المغرب على أهل البدعة، معروفا بنشر السنة حتى خارج أفريقية 'تونس الآن' وكان يكسر من تقريع المبتدعين، قرأ يوما قوله عز وجل 'إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني' ثم قال 'يا ويل أهل البدع يزعمون أن الله عز وجل قد خلق كلامه، آمنت بالله عز وجل، وبأنه قد كلم موسى تكليما، وأن الكلام غير مخلوق، ولكن لا أدري كيفيته' .

### الأسد أمير المجاهدين

لم يكن أسد بن الفرات من هذا النوع السلبي من العلماء الذين يقعون خلف كتبهم ومصنفاتهم ومحبرهم ولا يتحركون بعلمهم بين الناس، بل كان من العلماء العاملين وأيضا من كبار المجاهدين في سبيل الله، فلقد ورث حب الجهاد عن أبيه الذي كان أمير المجاهدين في حران والذي حمل ولده الصغير 'أسد' وخرج به مجاهدا في سبيل الله، فشب عالما ناهما وأيضا جنديا جريئا، وبحارا مغامرا، حتى أنه في سن الشباب وقبل أن يقوم برحلته العلمية المشهورة اشترك في العديد من المعارك البحرية في مياه البحر المتوسط، ويقول العلامة ابن خلدون أن أسد بن الفرات هو الذي افتتح جزيرة 'قوصرة' وهي جزيرة صغيرة تقع شرقي تونس الآن. حيث كانت أفريقية أو تونس واقعة تحت حكم دولة الأغالبة التي استقلت بحكم البلاد منذ سنة ١٨٤ هجرية ولكنها كانت تابعة للدولة العباسية، وكانت هذه الدولة في بدايتها معنية بأمر الجهاد ونشر الإسلام، فاتجه ولادة هذه الدولة بأبصارهم ناحية الجزر الكبرى الواقعة في منتصف البحر المتوسط مثل جزيرة صقلية، وكورسيكا، وسردينيا، وغيرها ولكن التركيز الأكبر كان على جزيرة صقلية .

### فتح جزيرة صقلية

متبر جزيرة صقلية أكبر جزر البحر المتوسط مساحة وأغناها من حيث الموارد الاقتصادية وأفضلها موقعا، ولقد انتبه المسلمون لأهمية هذه الجزيرة مبكرا منذ عهد الصحابة حيث حاولوا فتحها في عهد عبد الله بن سعد رضي الله عنه ثم معاوية بن حديج ثم عقبة بن نافع ثم عطاء بن رافع وكان آخرهم عبد الرحمن بن حبيب وذلك سنة ١٣٥ هجرية، ثم وقعت الفتن الداخلية ببلاد المغرب بين العرب والبربر وانشغل المسلمون عن جهاد العدو الذي انتهاز الفرصة وأغار على سواحل المغرب عند منطقة إفريقية مما جعل المسلمون يتوحدون و يتهيئون للرد على هذا العدوان البيزنطي . في هذه الفترة وقعت العديد من الاضرابات بجزيرة صقلية والتي كانت تتبع الدولة البيزنطية حيث وقع نزاع على حكم الجزيرة بين رجلين أحدهما اسمه 'يوفيموس' وتسميه المراجع العربية 'فيمي' والآخر اسمه 'بلاتريوس' وتسميه المراجع العربية 'بلاطه' وانتصر 'بلاطه' على 'فيمي' الذي فر هاربا إلى إفريقية واستغاث بزيادة الله ابن الأغلب حاكم إفريقية وطلب منه العون في استعادة حكمه على الجزيرة، فرأى زيادة الله فيها فرصة سانحة لفتح الجزيرة . استنفر 'زيادة الله' الناس للجهاد وفتح صقلية فهرعوا لتلبية النداء وجمعت السفن من مختلف السواحل و بحث ابن الأغلب عمن يجعله أميرا لتلك الحملة البحرية الكبيرة فلم يجد خيرا ولا أفضل من الأسد المصور والبطل المقدم 'أسد بن الفرات' على الرغم من كبر سنه في هذه الفترة ربيع الأول ٢١٢ هجرية أي سبعين عاما، وكان هذا الاختيار دليلا على فورة المشاعر الإسلامية في هذه الفترة والأثر الكبير لعلماء الدين الربانيين على الشعب المسلم، وكان أسد بن الفرات يبدى رغبته في هذه الغزوة كواحد من المسلمين لأنه كان محبا للجهاد عالما بمعاني ومقتضيات آيات النفرة في سبيل الله ودور العلماء في ذلك وأيضا كان يكره الشهرة والرياء ولكن ابن الأغلب أصر على أن يتولى قيادة الحملة العسكرية وأيضا يكون قاضيا للحملة أي جمع له القيادة الميدانية والروحانية لعلمه بمكانة أسد بن الفرات وأثره في الناس وحبهم له .

### الجهاد حتى الممات

خرج أسد بن الفرات من القيروان في حملة عسكرية كبيرة قوامها عشرة آلاف من المجاهدين المشاة وسبعمئة فارس بخيولهم في أكثر من مائة سفينة كبيرة وصغيرة خرجت من ميناء سوسة على البحر المتوسط وسط جمع عظيم من أهل البلد الذين خرجوا لتوديع الحملة الجاهدة.

تحرك الأسطول الإسلامي يوم السبت ١٥ ربيع الأول سنة ٢١٢ هجرية متجها إلى جنوبي جزيرة صقلية وبالفعل وصلت الأساطيل المسلمة إلى بلدة 'فازر' في طرف الجزيرة الغربي بعد ثلاثة أيام من الإبحار أي يوم الثلاثاء، ونفذ أسد بن الفرات على رأس جنده إلى شرقي الجزيرة، وهناك وجد قوة رومية بقيادة الثائر 'فيمي' الذي طلب مساعدة 'ابن الأغلب' لاستعادة حكمه على الجزيرة، وعرض 'فيمي' على 'أسد بن الفرات' الاشتراك معه في القتال ضد أهل صقلية ولكن القائد المسلم العالم بأحكام شريعته المتوكل على الله عز وجل وحده يرفض الاستعانة بالمشركين تأسيا بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي رفض الاستعانة باليهود يوم أحد . استولى 'أسد' على العديد من القلاع أثناء سيره مثل قلعة بلوط والدب والطواويس حتى وصل إلى أرض المعركة عند سهل 'بلاطه' نسبة إلى حاكم صقلية، وعندها أقبل 'بلاطه' في جيش عدته مائة ألف مقاتل، أي عشرة أضعاف الجيش المسلم وعندها قام أسد بن الفرات في الناس خطيبا فذكرهم بالجنة وموعود الله عز وجل لهم بالنصر والغلبة وهو يحمل اللواء في يده ثم أخذ يتلو آيات من القرآن ثم اندفع للقتال والتحم مع الجيش الصقلي الجرار واندفع المسلمون من ورائه ودارت معركة طاحنة لا يسمع منها سوى صوت قعقة السيوف وصهيل الخيول والتكبير الذي يخترق عنان السماء والأسد العجوز أسد بن الفرات الذي جاوز السبعين يقاتل قتال الأبطال الشجعان حتى أن الدماء كانت تجري على درعه ورمحه من شدة القتال وكثرة من قتلهم بنفسه وهو يقرأ القرآن ويحمس الناس، وتمادت عزائم المسلمين حتى هزموا الجيش الصقلي شر هزيمة، وفر بلاطه من أرض المعركة وانسحب إلى مدينة 'قصريانة' ثم غلبه الخوف من لقاء المسلمين ففر إلى إيطاليا وهناك قتل على يد بني دينه بسبب جبنه وإحجامه عن قتال المسلمين. بعد هذا الانتصار الحاسم واصل أسد بن الفرات زحفه حتى وصل إلى مدينة 'سرقوسة'



ومدينة 'بلرم' فشدد عليها الحصار وجاءته الإمدادات من 'إفريقية' واستطاع أسد بن الفرات أن يحرق الأسطول البيزنطي الذي جاء لنجدة 'بلرم' وأوشكت المدينة على السقوط ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان؛ حيث حل بالمسلمين وباء شديد أغلب الظن أنه الكوليرا أو الجدري فهلك بسببه عدد كبير من المسلمين في مقدمتهم القائد المقدم 'أسد بن الفرات' فلاقي حمام الموت مرابطا مجاهدا بعيدا عن أهله وبيته وحلق دروس العلم، مجافيا لفراشه وداره، مؤثرا مرضات ربه ونصرة دينه، وذلك في شعبان سنة ٢١٣ هجرية، فجمع بين خصال الخير كلها من علم وورع، وجهاد وشهادة، فياليت علماء الأمة يتعلمون شيئا من سيرة هذا البطل الذي سقط من ذاكرة المسلمين الآن .

## أبطال سقطوا من الذاكرة المجاهد الكبير حسن الطوشي – قاهر شارلكان

: إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم أما بعد:

إن المسلم لا يدرك القيمة الحقيقية لقدراته ومواهبه إلا إذا وضع في الاختبار الحقيقي والحك العملي الذي تظهر فيه الكوامن وتقهر فيه الصعاب، فالمسلم لا يستصعب العوائق أبدا لأنه يأذن الله عز وجل أقوى منها ولا يحبس نفسه أسر أوهامه بأن الأمور فوق إمكاناته وسوف يأتي اليوم الذي تسقط الأوهام وتفيق الأمة من غفلتها وتستعيد ذاكرتها وأبطالها وما أكثرهم وهذه قصة واحد من أعظمهم :

### خير الدين وحسن الطوشي

بعد أن فتح السلطان سليمان الأول مدينة بلجراد عزم على السفر بسائر جنوده إلى إسبانيا للاستيلاء عليها وإعادة دولة الإسلام في الأندلس المفقود وبدا للسلطان الاعتماد على رجل ذي خبرة واسعة ودراية بقتال هؤلاء الصليبيين فوقع اختياره على القائد الكبير خير الدين بربروسا فأرسل يستدعيه إلى إستامبول وعينه قائدا عاما للأساطيل العثمانية ونقل جهاده للجهة الشرقية من البحر المتوسط فلما ذهب خير الدين استخلف مكانه أخص رجاله وأشجع أبطاله حسن الطوشي وكان يتصف بالعقل والعلم الواسع هذا إضافة لورعه وتدينه الشديد وحميته الإسلامية العالية ومن يومها سطع نجم حسن الطوشي في سماء البطولة والجهاد بتلك البقاع والبلاد.

شرع حسن الطوشي في عمله الجديد فعمل على توطيد الأمن الداخلي ووضع الأسس للإدارة المستقرة ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية بالجزائر وعمل على قهر القرصنة الأوروبية الصليبية فأبلى في ذلك بلاءً حسنا وسار شخصه مثالا بارزا في البطولة والتضحية الإسلامية في سبيل الدفاع عن بلاد الإسلام في الشمال الإفريقي فأكسب الجزائر مهابة وجلالا ومخافة في قلوب الأعداء.

واستطاع حسن الطوشي أن يحرر مدينة 'مستغانم' ويضمها للجزائر ثم تقدم نحو الجنوب الشرقي واستولى على مدينة بكرة وشيد هناك حصنا وأقام به حامية قوية، وفي سنة ٩٤٩ هـ جهز ثلاث عشرة سفينة حربية برجالها وعتادها وهجم بهم على السواحل الإسبانية وجعل تلك الفرقة دائمة الإغارة على سواحل إسبانيا فأخذ الكثير من السبايا والأسرى يسوقهم للبيع في المدن المغربية الشمالية خاصة مدينة 'تطوان' وذات مرة اصطدمت تلك الفرقة الصغيرة بأسطول إسباني كبير ودارت رحى حرب عنيفة وقاسية استشهد على إثرها الكثير من المسلمين ولكن خسائر الصليبيين كانت أضعاف أضعاف المسلمين .

### الإمبراطور شارلكان الصليبي

مد الإمبراطور شارل الخامس أو شارلكان من أكبر وأعدى ملوك النصارى للإسلام والمسلمين على مر العصور فهو شارل اح  
حفيد كل من فرناندو وإيزابيلا قديسا إسبانيا اللذان على أيديهما سقطت غرناطة آخر معاقل الإسلام بالأندلس سنة ٨٩٧ هـ وقد  
أصبح شارلكان إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة والتي تضم كل من إسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا مما جعل  
شارلكان محط أنظار ومنتهى آمال كل صليبي على وجه الأرض وقتها عدا فرنسا وإنجلترا فقط.  
عندما توالى ضربات خير الدين وحسن الطوشي على الصليبيين في البحر المتوسط هرع البابا بول الثالث لعاهل الصليبيين الأكبر  
شارلكان وطلب منه مواجهة خير الدين وحسن الطوشي وأهل الجزائر.

### الحملة الصليبية الإسبانية على الجزائر

عزم شارل كان على تجهيز حملة صليبية كبيرة يقودها بنفسه ليقضي بها على حركة الجهاد الإسلامي في غرب البحر المتوسط فبدأ  
أولا بتأمين كيد أعدائه الفرنسيين فعقد معاهدة نيس في سنة ٩٤٥ هـ مع فرنسا لمدة عشر سنوات وبذلك تفرغ للجزائر .  
قاد شارلكان الحملة الصليبية على الجزائر سنة ٩٤٨ هـ ووصل إلى شواطئ الجزائر في ٢٨ جمادى الأولى سنة ٩٤٨ هـ وهو  
ينوي تخريب البلاد وقتل العباد وقمع الجهاد .

### ملحمة الصمود الجزائري

عندما وصلت الأساطيل الصليبية للشواطئ الجزائرية جمع القائد حسن الطوشي أعيان البلد وقادتها وعلمائها وحثهم على الجهاد  
والدفاع عن البلاد والدين وقال لهم: 'لقد وصل العدو عليكم ليسبي أبنائكم وبناتكم فاستشهدوا في سبيل الدين الحنيف هذه  
الأراضي فتحت بقوة السيف ويجب الحفاظ عليها وبعون الله النصر حليفنا فنحن أهل الحق وهم أهل الكفر والباطل'، فوافقه  
الزعماء ودعا له المسلمون فأخذ البطل في تجهيز دفاعاته وحشد جيوشه.  
أراد شارلكان أن يفت في عضد المسلمين فأرسل برسالة تهديد ووعيد للقائد حسن الطوشي وقال فيها: 'أنت تعرفني فأنا سلطان  
كل ملة المسيحيين إذا رغبت في التشرف بمقابلتي سلمني القلعة مباشرة وأنقذ نفسك من يدي وإلا أمرت بأنزال أحجار القلعة في  
البحار ثم لا أبقى عليك ولا سيدك ولا الأتراك وأخرب كل البلاد'. فماذا كان رد حسن الطوشي هل خاف وارتعد وسلم مباشرة ؟  
كما يفعل الآن كلا بل رد عليه ردا قويا جريئا فيه استهزاء وسخرية بهذا الطاغية الغاشم قال له فيه: 'أنا خادم السلطان سليمان  
تعال واستلم القلعة ولكن لهذه البلاد عادة أنه إذا جاءها العدو لا يعطى إلا الموت، ولقد غزت إسبانيا الجزائر في عهد عروج مرة  
وفي عهد خير الدين مرة ولم تحصل على طائل بل انتهت أموالها وفقدت جنودها وستحصل المرة الثالثة إن شاء الله'.  
تدفقت أعداد كبيرة من المجاهدين المتطوعين لنصرة الدين إلى الجزائر بمجرد سماعهم أن إسبانيا تقود حملة صليبية ضد المسلمين  
وكانوا مدرين جيدا على القتال خاصة بتلك البلاد.

### وما يعلم جنود ربك إلا هو

أرسل حسن الطوشي إلى شارلكان يطلب منه الإذن بالسماح لمن أراد من أهل الجزائر بالمغادرة خصوصا النساء والأطفال وعندها  
أيقن شارلكان أن مجاهدي البلد سيقاتلون حتى الموت وأنه من المحال احتلال الجزائر إلا إذا تم تدميرها تدميرا تاما وأخذوا المجاهدون  
في استغلال ميزة معرفتهم بطبيعة الأرض والبلد فشنوا حربا شديدة على الصليبيين باستخدام الكر والفر وظهرت بطولات رائعة  
للمجاهدين أمثال 'الحاج بشير' الذي تخصص في حصد رؤوس الصليبيين.

ثم كانت المنة الإلهية والمدد الرباني لأهل الإيمان والجهاد المقدس حيث سخر الله عز وجل لجند الإسلام جندا من عنده فأرسل على  
جيوش الصليبيين الأمطار الغزيرة والرياح العاصفة والأمواج العاتية فاقتلعت الريح الخيام وارتطمت السفن بعضها ببعض وحملت

مواج العاتية بعض السفن إلى الشاطئ فأخذها المسلمون غنيمة وأفسدت الأمطار مفعول البارود ووسط هذه الضربات الإلهية حاول شارلكان مهاجمة الجزائر عدة مرات ولكنه فشل في كل مرة وفي نفس الوقت كان القائد حسن الطوشي يقود المجاهدين لهجمات قاسية وشديدة أوجعت وأذهلت الصليبيين في نفس الوقت حتى قال أحد فرسان المعبد في تقريره عن القتال 'لقد أذهلتنا هذه الطريقة في الحرب لأننا لم نكن نعرفها من قبل'.

بعد الضربات الهائلة التي نالها شارلكان من مجاهدي الجزائر بالإضافة إلى العقاب الإلهي المتمثل في العواصف والأمطار والأمواج للمم شارلكان فلول جيشه وما تبقى من سفنه وانسحب خائبا يجر أذيال الحيبة وبعض على أنامله من الغيظ ومن شدة خجله وحزنه من الهزيمة لم يعد لإسبانيا بل توجه إلى إيطاليا يتوارى من الناس من شر هزيمته المنكرة، وأرسل حسن الطوشي للسلطان سليمان يشره بالنصر قائلا: 'إن الله سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنوده بعقاب أصحاب القليل وجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم ريحا عاصفا وموجا قاصفا فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل ولا نجا منهم من الغرق إلا قليل'.

### مصير شارلكان

كان فشل شارلكان في حملته الصليبية إيذانا بأفول نجمه في سماء النصرانية ونزلت أخبار الهزيمة نزول الصاعقة على أوروبا كلها وتطورت الأحداث هناك بسرعة وانفض حلفاؤه من حوله وتحولوا إلى خصمه ملك فرنسا فرانسوا الأول الذي كان أسعد الناس بهزيمة شارلكان لخوفه على أملاكه ولم يبق مع شارلكان أحد سوى هنري الثالث ملك إنجلترا الذي حالف شارلكان نكاية في فرنسا وقد حفظ الشعر العربي هذا الحدث الهام فقييل فيه:

سلوا شارلكان كم رأى من جنودنا      فليس له إلا هم من زواجر  
فجهز أسطولا وجيشا عرمرما      ولكنه قد آب أوبة خاسر

والخلاصة أن شارلكان عظيم النصارى انكسر بعدها كسرة ما قام بعدها واختتم حياته الحافلة بالعداوة للإسلام بهزيمة يلحقه عارها وإثمها إلى يوم الدين وذلك كله على يد القائد الكبير والمجاهد البطل حسن الطوشي الذي لا يعرفه أحد الآن في زماننا هذا .

## أبطال سقطوا من الذاكرة. ليو الطرابلسي – أمير البحار

كان القرن التاسع الميلادي الموافق للقرن الثالث الهجري هو عصر السيادة البحرية الإسلامية، وكان البحر الأبيض المتوسط والذي كان يعرف قبل ظهور الإسلام ببحر الروم، والذي تحول بعد ذلك إلى بحر العرب هو ميدان هذه السيادة، وقد بدأ المسلمون العرب معاركهم البحرية الأولى في تردد وخوف من البحر وأهواله، ولكن لم يمض سوى نصف قرن حتى كان البحر لهم كاليابسة محط الغزوات والفتوحات الكبيرة، وكان فتح جزيرة قبرص سنة ٢٨ هـ على يد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما إيذانا بتدشين عصر الفتوحات البحرية التي استمر خطها البياني في تصاعد مطرد حتى وصل لقمته في القرن الثالث الهجري، وفي هذه الفترة ظهر بطلنا المغوار الملقب بأمير البحار .

### أمير البحار ... ليو الطرابلسي :

في أواخر القرن الثالث الهجري ظهر في شرق البحر المتوسط أعظم بحار مسلم سمعت به كتب التاريخ على الإطلاق، وهو أمير البحر الذي فاضت المراجع والكتب الغربية في وصف وسرد حملاته وغزواته البحرية الجرينة على ثغور الدولة البيزنطية، في حين أغفلت بكل أسف كتب التاريخ الإسلامية حياة هذا البطل العظيم حتى لا نكاد نرى له أي ذكر بما سوى بضعة سطور لابن الأثير في أحداث سنة ٢٩١ هـ، فمن هو 'ليو' أو 'ليون الطرابلسي' ؟ .

المصادر الإسلامية كما ذكرنا لا تكاد تذكره وعند البحث والتحقيق عنه ينتهي الكلام إلى أنه الملقب باسم 'غلام زرافة' أو 'رشيق الورادني' وكان أمير البحر لوالي طرابلس أيام الخليفة 'المستكفي' العباسي، وليس في الرواية الإسلامية ما يلقي الضوء على نشأته، ولكن الروايات الغربية خاصة البيزنطية تكشف لنا عن نشأة هذا البطل العظيم وأعماله الهائلة في ميادين الجهاد في سبيل الله، ومما يزيد من حسرتنا وألمنا أن يكون أعداؤنا أولى منا برجالنا .

ولد 'ليون الطرابلسي' لأبوين نصرانيين في بلدة تدعى 'أتاليا' في جنوب شرقي الأناضول، لكنه منذ حدثه أيقن أن الإسلام هو الدين الحق، وأن النصرانية ضلال وتحريف فاعتنق الإسلام صغيراً، وحاول أبواه بكل طريق أن يحولا بينه وبين الإسلام، وضغطوا عليه بقوة ليرتد إلى النصرانية، ولكنه ثبت على دين الحق، وفر منهما وانضم إلى المجاهدين من البحارة المسلمين الذين كانوا يجوبون البحار لمحاربة الأساطيل البيزنطية لردعها عن شواطئ المسلمين، وكان هؤلاء المجاهدون يركزون غاراتهم على شواطئ بحر الأرخيل [بحر إيجه] وثورته وجزره .

### بزوغ النجم :

انتقل ليون منذ حدثه من بلده إلى مدينة طرابلس من أعمال الشام وبها استقر وترعرع على متن السفن وتلقى دروسه العربية في لجة البحر، واشترك منذ صغره في كثير من الحملات الجهادية التي كانت تقوم بها الجماعات البحرية المسلمة، واكتسب خبرة وشجاعة وجراءة كبيرة، خاصة في قتال الأساطيل البيزنطية، واشتهر بخفة حركته وسرعته في اتخاذ القرارات الحاسمة، فاشتهر عند المسلمين باسم 'رشيق' .

تدرج 'ليون' أو 'رشيق' في سلم قيادة الأساطيل حتى صار من كبار قادة البحر ثم انتقل إلى مدينة 'طرسوس' وكانت تعتبر المركز الرئيسي في محاربة الدولة البيزنطية بل تعتبر رأس الحربة الإسلامية في هذا المضمار، فأصبحت 'طرسوس' محط رحاله ومرفأ سفنه، وجمع 'ليون' تحت لوائه أمهر وأشجع البحارة المسلمين المجاهدين، حتى صار له ما أراد من وجود عصبة قوية مغامرة تعد خلاصة أبطال الجهاد البحري، وليتحول هو وزمرته الميمونة إلى قوة بحرية عظيمة تروع الدولة البيزنطية وتدخل الرعب في قلوب أعداء الله .

### معركة تسالونيكا :

استمر 'ليون الطرابلسي' أو 'غلام زرافة' في غزواته البحرية الجريئة على ثغور الدولة البيزنطية وأصبح كابوساً مفرعاً يقض مضاجع تلك الثغور، ولكن أعظم غزوات 'ليون' والتي خلدت ذكره في المراجع الأجنبية قبل الإسلامية معركة 'تسالونيكا'، حيث تعتبر تلك المدينة من أعظم الثغور البيزنطية وأمنعها وأغناها بعد 'القسطنطينية' وتقع على هضاب 'أولمبوس' وتشرف على رأس خليج ضيق تستطيع أن تمتنع به السفن وكان يفصلها عن هذا الخليج سور ضخيم يمتد نحو ميل على طول الشاطئ وتحميها بعد ذلك قلاع حصينة شيدت على آكام مرتفعة .

وفي سنة ٢٩١ هـ استعان 'ليون الطرابلسي' بالله وخرج من 'طرسوس' في أربع وخمسين سفينة في كل منها نحو مائتي مقاتل عدا جماعة مختارة من الرؤساء والضباط، وانضم إليه في سيره أشجع أبطال البحر المسلمين في مياه المشرق .

ولم يجرؤ الأسطول البيزنطي الذي بعثه الإمبراطور 'ليون السادس' لحماية ثغور الدولة على لقاء سفن المسلمين، فارتد إلى ضفاف 'الدردنيل' تاركاً مياه بحر 'إيجه' مفتوحة لسفن المسلمين تتجه بمنتهى السرعة إلى ثغر 'تسالونيكا' .

كان قائد الحامية البيزنطي بالمدينة رجلاً شجاعاً ذكياً اسمه 'بتروناس' حاول أن يرد سفن المسلمين بعدة وسائل منها إلقاء مقادير كبيرة من الصخور الضخمة وقطع الرخام التي كانت تزدان بها القبور اليونانية ليعطل سير السفن المسلمة ويجعلها في مرمى نبال

ونيران اليونانيين، واجتهد 'بترonas' في تحصين المدينة، ولما مات 'بترonas' فجأة كان خليفته واسمه 'نيكتاس' صلبا هو الآخر كسابقه .

أما أهل المدينة فقد وضعوا آمالهم في أحد قديسيهم المالكين ويدعى 'ديمترس' وقد كان مدفونا في كنيسة خاصة به، فهرعوا إليه في هذه الكنيسة وانهمكوا في الصلاة ليلا ونهارا داعين وليهم 'ديمترس' هذا أن يكشف عنهم الضرر .

أما 'ليون الطرابلسي' ومن معه من العصبة المؤمنة المجاهدة فقد قرر الهجوم على المدينة من ناحية الخليج الحصين وهو يضم في نفسه خطة ذكية لفتح المدينة الحصينة .

وفي يوم الأحد الموافق ٢٩/٧/٩٠٤ هـ بدأ الهجوم على المدينة من ناحية المدخل الأمامي ليختبر دفاعات البلد ومدى استعداد أهلها للدفاع عنها . وفي اليوم التالي هاجم المسلمون المدينة من ناحية الشرق وحاول استخدام عدة وسائل للاقتحام بالسلام وإطلاق النجانيق وإضرام النار تحت أبواب المدينة وشغل أهل المدينة بالقتال عامة اليوم، وكان 'ليون' يرجو بكل هذه المقدمات إلى تحويل عناية المدافعين عن غايته الحقيقية . فقد رأى من خلال استطلاع أسوار المدينة عدة مواضع معينة يمكن اقتحام المدينة من خلالها، فبدأ بتنفيذ خطته النهائية بمنتهى السرعة والبراعة، فربط عدة سفن كل اثنين معا ربطا وثيقا محكما، وأقيم فوق كل اثنين برج خشبي مرتفع، وفي صباح اليوم التالي دفعت هذه الأبراج نحو المواضع المنخفضة في السور وفي كل منهما نخبة من المسلمين تستطيع أن تقضي على المدافعين عن الأسوار، ونشبت معركة هائلة بين الفريقين، وكان بحارة سفن الإسكندرية أول من اقتحم الأبراج، وانقضوا على المدافعين كالصواعق المرسله وأجبروهم للفرار تحت ضغط الهجوم الكاسح، فترل الأبطال وفتحوا أبواب المدينة لينقض المسلمون عليها من كل ناحية واستولوا عليها بأكملها في سويغات وتم أسر اثنين وعشرين ألفا من أهلها حملوا جميعا إلى مدينة 'طرسوس' قاعدة الانطلاق ليتم مبادلتهم بالأسرى المسلمين لدى البيزنطيين، حيث كان من الأهداف الرئيسية لحملات 'ليون الطرابلسي' أخذ أكبر عدد من الأسرى البيزنطيين لاسترجاع أسرى المسلمين عندهم .

واستمر 'ليون الطرابلسي' أمير البحار في حملاته وغزواته البحرية الجريئة بمنطقة بحر 'إيجي' حيث لم يقوم له أحد ولم ترده أساطيل الدولة البيزنطية الضخمة، وهو في ذلك كله تابع وموالي للخليفة العباسي يأتمر بأمره ولا يرد له طلبا، ويقوم بأعظم الخدمات للدولة المسلمة من إضعاف للقوة البيزنطية، وفك أسرى المسلمين، وجمع الغنائم والثروات لصالح الدولة المسلمة، حتى استحق وعن جدارة لقب 'أمير البحار' بل وأعظم بحار مسلم عرفه التاريخ .

## أبطال سقطوا من الذاكرة مجاهد العامري - أسطورة البحر المتوسط

### فتنة الأندلس:

عاشت دولة الأندلس أياما سعيدة تحت الحكم الموحد للخلافة الأموية التي أسسها عبد الرحمن الداخل الملقب بصقر قریش منذ سنة ١٣٨ هـ، وظلت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها من كل مكان حتى آل الأمر للفرق وفساد ذات البين واقتتال المسلمين فيما بينهم على الحكم، وسقطت الخلافة القوية وسقطت معها وحدة المسلمين وقوتهم وتحول جسد الأمة المسلمة الكبير في الأندلس إلى أشلاء ينتهب منها كل طامع فبته ويقضم من أجزائها قدر ما يستطيع من الأراضي والبلدان .

وكانت قواعد الأندلس الشرقية عند الفتنة من نصيب الفتيان العامريين موالي القائد العظيم 'المنصور بن أبي عامر'، وكان معظم أولئك الفتيان من الصقالبة من أصول أجنبية [ألمان وفرنسيين وإيطاليين ومن أهل البلقان] حيث يؤتى بهم وهم أطفال، ويربون في البلاط تربية إسلامية خالصة.

### من هو مجاهد العامري؟

هو أبو الجيوش 'مجاهد بن يوسف بن علي' الملقب بـ 'مجاهد العامري' نسبة إلى أستاذه ومعلمه الأول 'المنصور بن أبي عامر' والذي



ننى به عناية خاصة لما رآه فيه من خلال وصفات باهرة من قوة وشجاعة إلى نسلك وورع وتضلع في علم اللغة والقرآن؛ وهي صفات رشحته لأن يكون واليا على حكم 'دانية' ومنطقة الجزائر الشرقية، وظل عليها واليا حتى اضطرت الفتنة بالأندلس بعد وفاة المنصور بن أبي عامر وما تبعه من سقوط الخلافة الأموية التي كان مجاهد العامري من أشد مؤيديها، فرأى مجاهد أن من المصلحة أن يستقل بحكم منطقة الجزائر الشرقية ويبحث عن رجل من بني أمية ينصبه خليفة للمسلمين على أمل إحياء الخلافة الإسلامية من جديد بالأندلس، ووجد ضالته في رجل من أهل العلم يلقب بـ 'المعطي' وينتسب إلى بني أمية، وبالفعل نصبه خليفة على المسلمين بشرق الأندلس عام ٤٠٥ هـ .

### صفات مجاهد العامري :

كان مجاهد العامري نسيجا منفردا حيث جمع بين كثير من الخصال والصفات الحميدة وذلك في مجالات شتى؛ فهو بطل شجاع من أعظم فرسان عصره لا يباريه في المبارزة والرماية إلا القليل، يباشر القتال بنفسه وكثيرا ما كان يخرق صفوف العدو أثناء القتال، وكان لا ينضم لكتيبته الخاصة إلا أعظم الفرسان . وفي التجارة كان مجاهد من أذكى ملوك الطوائف وأعلمهم بالشئون المالية والتجارية، وأنشأ أسطولا من السفن التجارية حقق من ورائه ثروة طائلة أحسن استغلالها في زيادة قوة ومناعة وعمران شرق الأندلس . ولكن أعظم صفات مجاهد العامري كانت تتمثل في حبه للقرآن وعلوم القراءات والتفسير واللغة العربية؛ فقد كان مجاهد رغم أنه من الموالي إلا أنه شديد العروبة محبا للقرآن منذ صباه، صيتا به، معنيا بعلومه؛ حتى صار في المعرفة نسيج وحده، وجمع من كتب العلم خزائن جمّة، فأمه جل العلماء وأنسوا بمكانه، وخيموا في ظل سلطانه؛ فانتشر العلم في دولته وقصده أكبر العلماء في القرآن واللغة أمثال 'أبو عمرو بن سعيد الداني' صاحب القراءات الشهير و'أبو عمر بن عبد البر' صاحب كتاب الإجماع، و'ابن معمر' اللغوي، و'ابن سيده' صاحب كتاب المحكم، وغيرهم كثير حتى فشا العلم بين الجوّاري والغلمان وصارت الجزائر الشرقية منارة العلم والقرآن بالأندلس .

### مجاهد أسطورة البحر المتوسط:

كان مجاهد العامري من أعظم بحارة الإسلام في هذا العصر ومن أكثرهم تمرسا بالحروب والغارات البحرية حتى أصبح أسطورة البحر المتوسط وأحيطت شخصيته في المراجع الأجنبية بالكثير من الخيال والروعة، بل إن تفاصيل حملاته البحرية على أوروبا نجد ذكرها في المراجع الإيطالية واليونانية، ولا نجد لها ذكرا في المكتبة الإسلامية، وقد أطلق عليه المؤرخون الغربيون اسم 'موجيتوس' وهو اسم كان كفيلا أن يلقي الرعب والفرع في قلوب سكان إيطاليا وفرنسا لفترة تزيد عن ثلاثين سنة، وكانت غزوة جزيرة 'سردانية' هي أعظم معاركه وغزواته البحرية، والسبب الرئيس كان لشهرة مجاهد في أوروبا وحوض البحر المتوسط الغربي .

### غزوة جزيرة سردانية [ربيع الثاني ٤٠٦ هـ]

بينما كانت دول الطوائف الأخرى تخوض غمار المنازعات والحروب الأهلية الصغيرة، كان مجاهد العامري يفكر في مشروع ضخم ربما كان أعظم مشروع فكر فيه أمير من الأمراء في دولة الأندلس، ذلك هو غزو جزيرة سردانية وفتحها، وقد كان مجاهد زعيما قوي النفس خبيرا بحريا يرى أن إمارته الساحلية وأملاكه البحرية تقتضي أن يكون اعتمادها في القتال على الأساطيل قبل كل شيء، فاهتم بتقوية الأسطول فجدد دار الصناعة القديمة التي كانت بدائية واستكثر من شراء السفن والمعدات الحربية حتى صار عنده خلال فترة وجيزة أقوى أساطيل البحر المتوسط، واستعد لمشروعه الخطير، فحشد أسطولا قوامه مائة وعشرين سفينة مشحونة بالأبطال والعتاد الحربي، وأقلعت الحملة البحرية من 'دانية' في ربيع الأول سنة ٤٠٦ هـ [أغسطس ١٠١٥ م] وكانت جزيرة

ردانية موضع اهتمام المسلمين منذ فتح الأندلس وقد غزاها المسلمون عدة مرات سنة ٧١١ م، ٧٥٢ م، ٨١٣ م، ٨١٦ م،

٨١٧ م، ٨٣٨ م بيد أن هذه الحملات كلها كانت عارضة لا تخطط للبقاء بالجزيرة، وكانت هذه الجزيرة تحت حكم الدولة البيزنطية ثم حكم الإفرنج ولكنها كانت مستقلة ذاتيا يحكمها قادة محليون، وكانت طبيعتها الوعرة وشجاعة أهلها الجلبين واعتزازهم بحرياتهم مما يعاون على دفع الغزاة ورد الحملات الغازية العارضة .

كانت حملة مجاهد العامري على جزيرة سرديانية كبيرة قوية تخطط للبقاء بالجزيرة وإقامة سلطان الإسلام فيها بكل عزم وقوة، ووصلت الحملة إلى الجزيرة بعد ثمانية أيام ورست في خليج كالياري في جنوب الجزيرة ثم انساح الغزاة المسلمون إلى داخل الجزيرة بمنتهى القوة كالسيل الهادر ووقعت بينهم وبين أهل الجزيرة معارك دموية قتل فيها جمع غفير في مقدمتهم قائد الجزيرة 'مالوتو' وأسر المسلمون جموعا غفيرة وأصبحت الجزيرة تحت حكم المسلمين .

شرع مجاهد في توطيد وضع المسلمين بالجزيرة فأنشأ بها مدينة واسعة ونقل أهالي المجاهدين والمسلمين الفاتحين إليها واستقدم هو زوجته وولده الوحيد عليا وباقي أسرته .

كان لهذه الغزوة الجريئة رد فعل عنيف وقوي لدى البابوية والدول الإيطالية القربية خاصة أن مجاهد العامري جعل جزيرة سرديانية قاعدة انطلاق جهادية على شواطئ إيطاليا خاصة 'جنوه' و'بيزا' وكلاهما من أقوى الدول البحرية في البحر المتوسط، وفي الحال أعلن البابا 'بندكتوس الثامن' الحرب الصليبية ضد المسلمين وكون أسطولا ضخما أضعاف أضعاف الأسطول المسلم وقرر الهجوم على سرديانية لتحريرها من المسلمين .

وصلت أخبار الحملة الصليبية البحرية لمجاهد العامري فقرر الاستعداد لها بقوة وبالغ في تحصين الجزيرة ولكن تضافرت عليه عوامل كثيرة أدت ف النهاية لهزيمة المسلمين؛ منها مقاومة أهل الجزيرة من الداخل، وسامة الجنود المسلمين من رداءة الطقس وقلة الغنائم والبعد عن الأوطان وهبوب الرياح والعواصف العاتية على الأسطول المسلم الراسي في خليج كالياري مما أدى لغرق الكثير من سفن الأسطول المسلم .

كانت الهزيمة التي حلت بالمسلمين من الشدة بمكان أن أسرة مجاهد نفسه قد وقعت في الأسر كلها ولم ينج من الأسطول الضخم البالغ قوامه مائة وعشرين سفينة سوى بضع سفن فقط عادت إلى الأندلس تجتر هزيمة شنيعة وتبكي قتلى وأسرى بالآلاف، وهكذا تحطم هذا المشروع الضخم ولم يتح للمسلمين أن يستقروا في سرديانية كما أتيح لهم من قبل أن يستقروا في صقلية، ولو نجح مجاهد العامري في مشروعه واستقر المسلمون في سرديانية لكان مرجعا أن تزدهر بها حضارة إسلامية كبيرة تشع على ظلمات أوروبا ولربما صارت أوروبا بعدها كلها مسلمة.

ولكن هذه الهزيمة القادحة لم تمنع مجاهد العامري من أن يواصل حملاته البحرية القوية في حوض البحر المتوسط مما جعله أسطورة البحار وكابوسا يقلق كرسي البابوية سنوات طويلة .

## أبطال سقطوا من الذاكرة أعظم بحارة التاريخ خير الدين بربروسا

إن من الأمور المبهجة حقًا واخزنة في نفس الوقت أن ينوب أعداء الإسلام عن المسلمين في قراءة تاريخهم وتراث أمتهم فنجد أن كثيرا من كتب التاريخ والتراث والموسوعات الكبار قام بجمعها وترتيبها وإخراجها للحياة والعلن مجموعة من المستشرقين الذين في جملتهم ما قاموا بذلك حبًا في الإسلام والبحث العلمي، إنما قاموا بذلك للطعن في الإسلام والنيل منه وأهله؛ حيث يستطيع هؤلاء وبسهولة أن يزيّفوا الحقائق التاريخية ويروجوا الأكاذيب ويضخموا الأخطاء ويبدوا المثالب؛ ثم يأتي المسلمون من بعدهم فيهددون بعلمهم ويتبعون صنعهم ويصبحوا ببغاوات تردد نفس الأكاذيب والأباطيل الاستشراقية، ويطننا الذي سنتحدث عنه واحد من كبار أبطال المسلمين الذين انمأل عليه أعداء الإسلام طعنًا وتشويهًا وطمسًا حتى ضاعت ذكراه العطرة وبقيت الأوصاف الكاذبة تلوح في الذاكرة، وهذا أوان تصحيحها .

## الأخوين 'عروج وخير الدين' :

يرجع أصل الأخوين المجاهدين 'عروج وخير الدين' إلى الأتراك المسلمين، والدهما 'يعقوب بن يوسف' من بقايا المسلمين الأتراك الذين استقروا في جزيرة 'مدللي' إحدى جزر الأرخبيل وأمهما سيدة مسلمة أندلسية كان لها الأثر على الأخوين في توجيههما للجهاد في سبيل الله ضد الصليبيين الأسبان والبرتغاليين، وقد حاول المؤرخون الصليبيون وخاصة المستشرقين منهم الطعن في جهاد الأخوين ووصفهما بأنهما قراصنة ولصوص البحر وقد توصل المؤرخ الجزائري 'أحمد توفيق مدني' إلى ما يدل على صحة نسب الأخوين، واخزن حقاً أن كثيراً من المراجع الإسلامية المعاصرة وقعت في هذا الخطأ وسارت على نهج الأعداء ووصفتهم بالقراصنة.

## جهاد الأخوين ضد الصليبيين:

اتجه الأخوان عروج وخير الدين إلى الجهاد البحري منذ الصغر بدافع من والدتهما الأندلسية خاصة بعد السيطرة الأسبانية والبرتغالية على البحر المتوسط واحتلالهما لعدة موانئ في شمالي أفريقيا وقد استطاع الأخوان أن يكونوا مجموعة قتالية قوامها عدة سفن صغيرة لبحارة مسلمين؛ واستطاعت هذه المجموعة تحقيق عدة انتصارات رائعة على القراصنة الصليبيين الذين كانوا يعيشون في المنطقة فساداً ويستولون على سفن المسلمين ويأخذونهم كأسرى وعبيد، فاثارت هذه الانتصارات إعجاب القوى المسلمة الضعيفة في شمال إفريقيا فأعطاهم السلطان 'الحفص' حق الإقامة بجزيرة 'جوبة' التونسية فزادت شعبية الأخوين بين مسلمي إفريقيا فاستجار بهم الأهالي عدة مرات للتصدي للهجوم الأسباني الصليبي فاستطاع الأخوين تحرير 'بجانة' سنة ٩١٨هـ من الاحتلال الأسباني لتكون محطة عمليات لإنقاذ مسلمي الأندلس.

## تحالف الأخوين مع العثمانيين :

يرجع تاريخ تحالف الأخوين 'عروج وخير الدين' مع العثمانيين إلى سنة ٩٢٠هـ بعد تحرير ميناء 'جيجل' حتى شعر كل من الجانبين بأهمية التحالف فالأخوين وجدا أنهما يواجهان قوى منظمة تكبر يوماً بعد يوم وهم في حاجة لأسلحة حديثة وسفن قوية، والعثمانيون شعروا بأهمية الجهاد البحري ضد صليبي أسبانيا والبرتغال لتهديدهما المباشر للمسلمين في الخليج العربي والهند بعد احتلال البرتغاليين لعدن ومدن أخرى في جنوب الجزيرة بنية التوجه للأماكن المقدسة بما ونش قبر النبي . بعد فتح ميناء 'جيجل' حوَصر الأخوان من كل جانب غرباً من حاكم الجزائر العميل 'سالم التومي' وشرقاً وجنوباً من 'الحفصيين' العملاء للأسبان وشمالاً من أسطول الأسبان وفرسان القديس يوحنا؛ فأرسل الأخوان برسالة للسلطان 'سليم الأول' يشرحان الموقف وخطورته فأرسل إليهما أربعة عشر سفينة حربية مجهزة بالعتاد والجنود، حيث كان لهذا المدد أثره الكبير في انتصار 'عروج وخير الدين' على حاكم الجزائر وقتله.

## استشهاد 'عروج':

كانت مدينة 'تلمسان' ذات موقع استراتيجي مؤثر على مقاليد الحكم بالجزائر، وكان الأسبان محتلين للبلد ويعملون على إثارة القلاقل على الأخوين بالجزائر فقرروا تحرير المدينة وإعداد جيش كبير سنة ٩٢٣هـ للمهمة وبعد أن نجحوا بالفعل في السيطرة على المدينة تمكن الأسبان بالتعاون مع بني حمود الخونة أن يستعيدوا المدينة، وأثناء الحصار والقتال استشهاد 'عروج' وأخ له اسمه [إستاق] وكثيرون من رجال الأخوين، وتركت تلك الحادثة أثراً بالغاً على 'خير الدين' الذي قرر أن يشن حرباً ضروساً ضد الصليبيين أينما كانوا خاصة الأسبان منهم .

## الجزائر ولاية عثمانية وقاندها خير الدين:

معر أهل الجزائر بشدة الموقف وخطورته في ظل كثرة التهديدات الخارجية وضعف السلطة اخلية وارتقاء الكثير منهم في أحص الصليبيين فصاروا لهم عبيداً ولدينهم وأمتهم خونة ومارقين، فاجتمع زعماء البلد وقرروا إرسال رسالة هامة للسلطان 'سليمان الأول' الذي خلف أباه السلطان 'سليم الأول' يطلبون فيها إخضاع الجزائر للسيادة العثمانية، وحاول 'خير الدين' أن يذهب بنفسه للقاء السلطان ولكن أهل البلد توسلوا إليه ألا يغادر البلد خوفاً من هجوم الصليبيين، فتر عن رغبتهم وأتاب بالرسالة الفقيه 'أبا العباس أحمد بن قاض' وكان من أكبر علماء الجزائر، ولم يفث أهل الجزائر أن يشنوا على 'عروج' في مدافعتة للصليبيين ونصرة الدين والجهاد حتى الشهادة وكانت فحوى الرسالة تركز على عدة مطالب منها:

[١] ضم الجزائر للسيادة العثمانية وتم ذلك ابتداءً من سنة ٩٢٦هـ.

[٢] تعيين 'خير الدين' قائداً عليهم.

[٣] إقامة سوق الجهاد بتلك البلاد ضد صليبي أسبانيا والبرتغال.

فاستجاب السلطان لتلك المطالب وعين 'خير الدين' قائداً على البلد وأرسل فرقاً من الانكشارية وأذن لمن شاء من رعاياه المتطوعين للجهاد بالذهاب للجزائر مع منحهم نفس امتيازات الجند النظاميين.

### جهود 'خير الدين' لنصر الدين:

كان أمام 'خير الدين' الكثير من الأعمال التي يجب أن يقوم بها وكان عليه أن يحارب على جبهتين:

\* الجبهة الأسبانية الصليبية المتمركزة في عدة جيوب بالجزائر مثل 'عنابة' و'قالة' و'حصن بنيون' وقد استطاع 'خير الدين' بفضل الله عز وجل أن يقضي على تلك الجيوب ويظهر البلد من بقايا الصليبيين وذلك سنة ٩٣٦هـ .

\* الجبهة الداخلية العميلة والخائنة ممثلة في مؤامرات أمراء بني زياد والحفصيين وغيرهم من القبائل الصغيرة التي تقوم على مدد صليبي وعون خارجي وتعمل على الحيلولة من توحيد الصف في المغرب الأوسط، وكان ملك الحفصيين الممتد منذ أيام دولة الموحدين قد ترهل وكثرت المنازعات والخلافات الداخلية بينهم حتى مزقت تلك الأسرة ولجأ أحد أمرائها واسمه 'الرشيد' إلى 'خير الدولة' لمساعدته ضد أخيه السلطان 'الحسن بن محمد' فوجدها 'خير الدين' فرصة مواتية للقضاء على تلك الأسرة المشؤمة على البلاد؛ فأرسل 'خير الدين' للسلطان 'سليمان' يعرض عليه فكرة ضم تونس للسيادة العثمانية فوافق وأرسل إليه الأسطول العثماني كله، وتوجه الجميع لتونس ففر منها سلطانها الخائن 'الحسن بن محمد' ودخل أسبانيا وعمل على جعل الإمبراطور 'شارلكان' يحتل تونس مرة أخرى ليعيده سلطاناً على رقاب العباد، وهكذا نرى أن الخونة يبيعون دينهم وأمتهم وأرضهم وعرضهم في سبيل ملك زائل ودنيا فانية وسلطان خادع، والذي يقرأ ما تعهد به الخائن 'الحسن بن محمد' لـ 'شارلكان' حال مساعدته في احتلال تونس يتضح له حجم الخيانة حيث تعهد الخائن بما يلي:

[١] أن يسلم 'الحسن' عدة مدن كبيرة منها المهدية و'بونة' لـ 'شارلكان'.

[٢] أن يكون مساعداً حليفاً لفرسان القديس يوحنا أعدى أعداء المسلمين.

[٣] أن يناصب العثمانيين العداة ويعمل على حربهم في بلاد الجزائر والمغرب.

[٤] أن يتحمل نفقات إقامة ألفي جندي أسباني يتركون بالبلاد كحامية بالبلد.

وبالفعل حشد 'شارلكان' أسطولاً جراراً قاده بنفسه ولم يتمكن 'خير الدين' من رد عاديته فاحتل 'شارلكان' تونس سنة ٩٤٢هـ وارتد 'خير الدين' راجعاً إلى الجزائر وهو ينوي رد الصفعة لـ 'شارلكان'.

\* قرر 'خير الدين' الرد على ضربة تونس بضربة أشد منها وجميعه فقام بالهجوم على جزر البليار الأسبانية والبرتغالية وكانت محملة بالذهب والفضة والعبيد وأخذ الكثير من النصارى عبيداً وسبائا، واهتزت لتلك الضربة كل نواحي أوروبا، وشعر 'شارلكان' أن

هـ 'خير الدين' مازالت قائمة، ونظرًا لتلك الانتصارات الرائعة قرر السلطان 'سليمان الأول' تعيين 'خير الدين' وزيرًا للبحر.  
العثمانية في كل البلاد واستدعاه لاستنبول لتلك المهمة ونقل 'خير الدين' نشاطه للجهة الشرقية من البحر المتوسط.  
\* أصبح 'خير الدين' شبحًا ورعبًا يشغل عقول الصليبيين في أوروبا وأسبانيا لفترة طويلة واستولى على تفكيرهم حتى إذا تحركت ريح أو سمع صوت قالوا إن 'خير الدين' قادم ويعلموا صراخهم وعويلهم ويفر السكان من ديارهم ومتاجرهم ومزارعهم حتى إذا حطمت العواصف سفنهم نسبوا ذلك إلى 'خير الدين'، وبلغ الخوف مداه حتى إذا ما وقعت سرقة أو تخريب أو حتى مرض ووباء نسبوا ذلك إلى 'خير الدين' وجنوده.

### 'خير الدين' قائد الأسطول العثماني:

\* عين السلطان العثماني 'سليمان الأول' القائد 'خير الدين' قائدًا عامًا على الأسطول العثماني ونقله للعمل في الجهة الشرقية من البحر المتوسط للقضاء على نفوذ أسبانيا و'شارلكان' وقد دخل 'سليمان' في حلف مع فرنسا العدو اللدود لأسبانيا وجعل 'خير الدين' مدينة 'مارسيليا' قاعدة لعملياته وصار قائدًا عامًا للأساطيل المشتركة بين العثمانيين وفرنسا وقام بتوجيه ضربات للوجود الأسباني بالمنطقة وأسر كثيرًا من الأسبان وباعهم رقيقًا وتداولتهم أيدي الناس حتى صاروا بأجناس الأثمن لكثرتهم.

### وفاة 'خير الدين':

\* ظل 'خير الدين' ناصبًا لسوق الجهاد في سبيل الله في البحر المتوسط وخضد شوكة 'شارلكان' والأسبان وقاد كثيرًا من الحروب ضد الصليبيين حتى صار كابوسًا يورق مضاجع أعداء الإسلام وحفظ لنا التاريخ العديد من مواقفه البطولية التي توضح البعد الإيماني في جهاده؛ فعندما حاصر 'شارلكان' الجزائر بعد استشهاد 'عروج' خرج 'خير الدين' بكل حزم وعزم وقرأ على جنوده قوله عز وجل: {إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم}، ثم قال: إن المسلمين في المشرق والمغرب يدعون الله بالتوفيق لأن انتصاركم انتصار لهم وإن سحقكم هؤلاء الجنود الصليبيين سيرفع من شأن المسلمين وشأن الإسلام.  
\* وظل 'خير الدين' مجاهدًا حتى آخر لحظة في حياته حتى آتاه اليقين وتوفاه الله على فراشه حثف أنفه سنة ٩٥٣هـ رغم أنه ظل طوال حياته مجاهدًا وقد استشهد أخوه فلا نامت أعين الجبناء.

## أبطال سقطوا من الذاكرة مؤسس دولة المرابطين

: إن فخر كل أمة ومصدر عزها بعد ربها يكمن في الترجمة العلمية لعقيدة هذه الأمة والتي تظهر وتتضح في صورة رجال قاموا بأدوار في خدمة دينها وأمتها وعقيدتها وإننا لنرى أمم تعيش على ذكريات أبطال محليين ينسجون عنهم الكثير من الأساطير والأكاذيب من أجل رفع شأنهم بين أبطال الأمم الأخرى ليتباهوا بهم وتصير ذكراهم بعد ذلك أعيادًا رسمية بل مقدسة عندهم وإن في أمة الإسلام رجالاً وأبطالاً سطوراً صحائف من نور بدمائهم وأرواحهم وجهدهم وعرقهم من أجل خدمة الدين والأمة وحفظ لهم التاريخ ذلك ولكنهم وللأسف الشديد سقطوا من ذاكرة المسلمين فلم يعرفهم وتاهوا في طي النسيان والغفلة، هذا رغم أننا نرى الأمم من حولنا في كل يوم تخرج علينا باحتفالية جديدة لقزم من أقزامهم أو مجرم من مجرميهم لا عمل له صالح إلا أن محاربته للإسلام كانت سر شهرته نذكر منهم 'رولان الفرنسي' الذي قتل في حربه ضد المسلمين وخلد الفرنسيون ذكراه بأنشودة رولان الشهيرة في الأدب الفرنسي، ومنهم 'شارل مارتن' قائد الصليبيين الذي انتصر على المسلمين في معركة بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ عند حدود فرنسا والذي صار من يومها قديسًا، ومنهم 'رودريجو دي بيار' أو السيد 'الكمبيادور' الأسباني الذي قضى حياته في محاربة المسلمين في الأندلس والذي نسجوا عليه الكثير من الأكاذيب والأباطيل حتى صار بطل أسبانيا القومي حتى الآن رغم أنه كان قاطع طريق ولص ولا يهتم سوى الأموال، ومنهم 'لويس التاسع' ملك فرنسا الذي قاد حملتين فاشلتين وهما الحملة الصليبية السابعة على دمياط وفشل ووقع في الأسر ثم قاد الحملة الصليبية الثامنة على تونس وفيها فشل وقتل فصار بطل فرنسا القومي وأعطى لقب



يس، وهكذا نرى الأمم من حولنا ترفع رجاها ليرفعوها.

وفي هذا الباب من أبواب ذاكرة الأمة نعيد اكتشاف هؤلاء الرجال والأبطال ونحي ذكراهم مرة أخرى آمليين أن يأجرنا الله عز وجل.

## الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي

### مؤسس دولة المرابطين

عندما فتح المسلمون بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر سنة ٢٠ هـ كان ذلك إيذاناً بطور جديد من أطوار الجهاد والدعوة وفتح أرض جديدة خصبة لنشر الإسلام ألا وهي بلاد المغرب العربي الممتدة من غرب بلاد مصر من برقة حتى ساحل بحر الظلمات أو المحيط الأطلنطي كما كانوا يسمونه وكانت تلك المناطق الشاسعة المترامية الأطراف يسكنها قبائل البربر وينقسمون إلى قسمين: قبائل البرانس الكبرى وهم بربر الحضر الذين يسكنون السهول وأعظم قبائلهم 'قبيلة صنهاجة'؛ والنوع الثاني: قبائل البئر وهم بربر الصحراء في جنوبي المغرب والسودان فيما يعرف الآن بدولة 'موريتانيا' وكانوا مقاتلين أشداء ممتازين وأشهر هذه القبائل قبيلة 'لمتونة'.

وكانت القبائل البربرية تدين بالخشية حتى جاء الإسلام وانتشر بينهم بفضل رجال أمثال عقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار وحسان بن ثابت وموسى بن نصير ولكن بقيت قبائل بربر الصحراء بعيدة عن الإسلام حتى فتح الأندلس فذاع صيت الإسلام في كل مكان وكان ملك قبيلة 'لمتونة' اسمه 'تيولوثان بن تيكلان' فدخل في الإسلام وحارب القبائل الوثنية ونشر بينهم الإسلام وجاء أولاده من بعده فقاموا بنفس الدور حتى وصلت رئاسة القبيلة إلى الأمير 'يحيى بن إبراهيم' الذي حارب الوثنيين في غرب أفريقيا 'السنغال/غانا' ونشر الإسلام بينهم حتى سنة ٤٢٧ هـ عندما قرر أن يقضي فريضة الحج فترك الرئاسة لولده إبراهيم ثم اتجه للحج.

وفي رحلة الحج تأثر 'يحيى بن إبراهيم' بما رآه وقد رأى أن قومه البربر في جهل شديد بالإسلام وأصوله وتعاليمه وأثناء عودته مر في الطريق على مدينة القيروان منارة العلم في المغرب العربي وقتها والتقى بالفقيه أبي عمران الفاسي شيخ المالكية وشكا إليه من جهل قومه وطلب منه أن يرسل معه فقيهاً من تلاميذه لتثقيف البربر فبعث كتاباً إلى تلميذ من تلاميذه بالسوس الأقصى وهو 'أبو محمد واجاج اللمطي' وكان فقيهاً ورعاً يدرس العلم لتلاميذه في رباط خاص به فلما وصل 'يحيى' إليه قرأ الرسالة على تلاميذه فاستجاب للدعوة الفقيه 'عبد الله بن ياسين الجزولي' وكان من أنبه تلاميذه وأكثرهم علماً وورعاً فرحل مع 'يحيى' حتى وصل الصحراء حيث البربر.

### عبد الله بن ياسين:

كان عبد الله بن ياسين الجزولي فقيهاً شديد الورع غزير العلم والغيرة على تعاليم دين الإسلام وكان فوق ذلك خطيباً موهوباً قوي التأثير يجيد اللغة العربية والبربرية أيضاً وكان قد رحل إلى الأندلس لطلب العلم وأمضى بها عدة سنوات ورأى دولة الطوائف وما أصاب الإسلام على أيديهم وبسبب بعدهم عن الدين، وعندما وصل 'عبد الله بن ياسين' الصحراء وجد أن البربر بأعداد ضخمة ومهولة وأيضاً في قمة الجهل والبعد عن الدين فأخذ في نشر تعاليم الدين بينهم وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر واشتد عليهم في ذلك لشيوع المنكرات والعادات المخالفة للإسلام مثل الزواج بأكثر من أربع فلم يقبل البربر نصيح 'عبد الله بن ياسين' وأعرضوا عنه.

### السياسية التربوية لـ 'عبد الله بن ياسين'

ندما رأى 'عبد الله بن ياسين' إعراض البربر عن نصحه ودعوته قرر وصديقه وتلميذه الوفي 'يحيى بن إبراهيم' على نبذ أولئك البدو الجهلة والانقطاع عنهم إلى العبادة والزهد في جزيرة نائية بنهر النيجر وانضم إليهم سبعة رجال من قبيلة 'كدالة' ومعهم 'يحيى بن عمر' من رؤساء 'لمتونة' وبنوا بالجزيرة مسجداً ورباطاً للعلم والعبادة وما لبث أن اشتهر أمر هذا الرباط ووفد إليه كثير من أشراف 'صنهاجة' من آثروا الزهد والعبادة فأخذ 'عبد الله بن ياسين' في تثقيفهم وتربيتهم أخلاقياً وسلوكياً ودينياً وأخذ يعلمهم الكتاب والسنة ويعظمهم بالجنة والنار ويربيهم على معاني الجهاد في سبيل الله ويذكرهم بعاقبة الشهادة في سبيل الله ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر؛ أي أن 'عبد الله بن ياسين' اتبع مع تلاميذه سياسة تربوية شاملة تقوم على:

[١] تربية إيمانية. [٢] تربية أخلاقية. [٣] تربية سلوكية.

[٤] تربية تحفيزية 'وعظية'. [٥] تربية دعوية. [٦] تربية جهادية.

[٧] تربية عقائدية 'الولاء والبراء'.

وسميت هذه الفرقة بفرقة المرابطين أي الملازمين للرباط الذي أقامه 'عبد الله بن ياسين' الذي كان يشعر في داخله بضرورة وحتمية إقامة دولة الإسلام بين قبائل البربر المتخلفة تلك الدولة التي تحكم بشرع الله وبالكتاب والسنة فعندما بلغ عدد المرابطين ألف وتأكد 'عبد الله بن ياسين' من سلامة تربيتهم وأنهم على استعداد لتطبيق ما تعلموه؛ دعاهم للمرحلة الأخطر.

### جهاد عبد الله بن ياسين:

بعد أن بلغ عدد المرابطين ألفاً دعاهم 'عبد الله بن ياسين' إلى خطوة عملية فبعثهم إلى أقوامهم لينذروهم ويطلبوا إليهم الكف عن البدع والضلالات وتحكيم شرع الله ففعلوا ذلك ولكنهم وجدوا الإعراض من أقوامهم فعاد 'عبد الله بن ياسين' للجوء لإعلان الجهاد على هؤلاء الضالّ.

\* أولاً: معاركه كانت مع قبيلة 'كدالة' سنة ٤٣٤هـ فانتصر عليهم وأسلمت القبيلة من جديد.

\* ثم حارب قبيلة 'لمتونة' وضيق عليهم حتى أذعنوا للطاعة وبايعوه على الشريعة.

وهكذا تعاقب خضوع قبائل 'صنهاجة' الواحدة تلو الأخرى حتى خضعوا جميعاً لهم وزادت قوة وسلطان 'عبد الله بن ياسين' الروحية على قبائل بربر الصحراء وصارت الرئاسة لـ 'يحيى بن إبراهيم' الذي ما لبث أن توفي فخلفه 'يحيى بن عمر' أخلص تلاميذ 'عبد الله بن ياسين' وأكثرهم طاعة له وكان 'عبد الله بن ياسين' يحبه ويقدره حتى أنه ذات مرة جلده عشرين سوطاً لأنه باشر القتال بنفسه مع جنده وهو الأمير الذي يجب المحافظة عليه للصالح العام.

\* انضم جماعة المرابطين الفتية الكثير من المسلمين الناقمين على فساد بلادهم وحكامهم وبعدهم عن الدين ففي سنة ٤٤٤هـ بعث فقهاء مدن 'سجلماسة' و'درعة' بكتبهم إلى 'عبد الله بن ياسين' و'يحيى بن عمر' يشكون من ضروب الظلم والطغيان والخروج عن أحكام الإسلام ويدعونهم إلى إنقاذ المسلمين من هذا النير المهرق وعندها خرج المرابطين يقودهم 'عبد الله بن ياسين' في حشد كبير ضخم وتوجهوا إلى مدينة 'درعة' فاستولوا عليها وأخرجوا الطغاة منها وأمر 'عبد الله بن ياسين' بإزالة المنكرات ورفع المكوس الجائرة وعين عليها حاكماً من المرابطين وأمره بالتزام شرع الله عز وجل.

\* توجه 'عبد الله بن ياسين' والمرابطين بعدها إلى الجنوب حيث غانا والسنغال فاستولوا على عدة مدن سنة ٤٤٦هـ ونشروا

الإسلام وفي ٤٤٧هـ توفي الأمير 'يحيى بن عمر' فتولى الأمر مكانه وقرر مع 'عبد الله بن ياسين' فتح كل بلاد المغرب.

\* توجه 'عبد الله بن ياسين' إلى قتال الروافض بقايا الدولة الخبيثة الفاطمية زوراً 'العبيدية' بمدينة 'فارودنت' وكانت تعاليم الرافضة بتلك البلد كلها إلحاد وإباحية وزندقة فانتصر 'عبد الله بن ياسين' عليهم واسلموا من جديد على مذهب أهل السنة والجماعة.

\* استشهد 'عبد الله بن ياسين':

كان 'عبد الله بن ياسين' منذ أن أعلن حركته الجهادية من سنة ٣٤هـ وهو يركز على أمر واحد وهو محاربة أعداء الإسلام الفرقة الضالة والمبتدعة والملاحدة والزنادقة والإباحيين.

وكان من أشهر القبائل الضالة المارقة بالمغرب هي قبائل 'برغواطة' وتقع بأقصى جنوب المغرب على حدود المحيط الأطلسي 'موريتانيا' وكانت تدين بمذهب الإباحية الذي أسسه رجل يهودي الأصل يدعى 'صالح بن طريف الأندلسي' في القرن الثاني من الهجرة وقد استغل غباوة وجهالة أهل تلك البلاد فادعى النبوة وشرع لهم شرعاً جديداً أساسه الإباحية فتيبته كثير من الهمج الرعاع حتى صاروا قبائل كبيرة وقرر 'عبد الله بن ياسين' محاربة هؤلاء الكفرة فقاد جيوش المرابطين لمعركة طاحنة مع قبائل 'برغواطة' وفي أثناء المعركة أصيب 'عبد الله بن ياسين' إصابات بالغة قاتلة وقبيل وفاته جمع أشياخ المرابطين وحثهم على الاتحاد والنيات ومواصلة الجهاد ونشر الدين وحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد في طلب الرياسة واستشهد 'عبد الله بن ياسين' هذا الفقيه المجاهد منشئ دولة من أعظم دول الإسلام في المغرب وسيكون لها أعظم الدور في الأندلس في ٢٤ جمادى الأولى سنة ٤٥١هـ ودفن في مكان يعرف بـ 'كريفلة' وما زال قبره معروفاً حتى الآن، وقبل وفاة 'عبد الله بن ياسين' أوحى للمرابطين بتأميم 'أبي بكر بن عمر اللمتوني' عليهم وكأنه ينصح للأمة قبل وفاته وكان نعم الاختيار كما أثبتت الحوادث والأيام.

كان 'عبد الله بن ياسين' فقيهاً شديداً الورع والنقشف شديد الحمية والغيرة على تعاليم الإسلام داعية من طراز فريد جداً استطاع أن يدخل صحراء شاسعة مترامية الأطراف وحده وعلى أمم كثيرة وكبيرة في غاية الجهل والبعد عن الدين ولا تتحدث العربية فكون منهم أمة قوية مترابطة قامت على أساس ديني وعقائدي قوي وأصبح البربر قوة حركية تعمل على خدمة الإسلام ويكفي أن تعرف أن الإسلام انتشر في وسط وغرب أفريقيا عن طريق تلك الحركة المباركة التي يرجع الفضل لإنشائها وتكوينها بعد فضل الله للفقيه 'عبد الله بن ياسين الجزولي'.

## السلطان طغرل بك السلجوقي – منقذ الخلافة العباسية

الزمان / ٨ رمضان - ٤٥٥هـ

المكان / الري - العراق .

الموضوع / وفاة السلطان طغرل بك أول ملوك دولة السلاجقة العظام .

الأحداث /

: هذه قصة رجل أنقذ الله عز وجل به الخلافة العباسية من السقوط للأبد وأنقذ الله به أهل السنة من الضياع في برائن التشيع ، هذه قصة رجل أنشأ دولة هي أعظم الدول التي ظهرت في الإسلام هذه الدولة سيطرت على معظم أملاك المسلمين وكانت دولة سنية تحب الحق والسنة وإظهار العدل والشرع ، هذه قصة رجل أعاد لمقام الخلافة هيبتها ومكانتها بعد أن ضاعت على يد المفسدين وملوك دولة بني بويه الشيعية .

هو السلطان أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق التركي الملقب بطغرل بك مؤسس الدولة السلجوقية ويرجع أصل هذه الدولة العظيمة إلى سلجوق بن تلقاق وكان من قادة جند الأتراك وقد ظهرت عليه علامات النجابة والهمة فقر به ملك الترك وقدمه على باقي القواد حتى علت مكانته بين عشائر الترك فخافه هذا الملك وهم بقتله فشرع سلجوق بذلك فجمع أهله وعشيرته وهاجر إلى بلاد الإسلام واعتنق الإسلام ونذر نفسه للجهاد ضد كفار الترك وكان له ثلاثة أولاد ميكائيل وأرسلان وموسى فأما ميكائيل فاستشهد في القتال ضد كفار الترك وخلف ورائه ثلاثة أبناء طغرل بك محمد وإبراهيم أينال وجعفر بك داود فعظم شأنهم في قومهم وكان طغرل بك أكبرهم واجتمع الأتراك عليهم وقرروا الانتقال إلى بخاري للإقامة هناك ولكن أمير بخاري 'بوغراخان' خاف منهم فاعتقل طغرل بك فقاد أخوه داود الجيوش وأنقذ أخاه من السجن وتحولوا إلى خراسان حيث الدولة الغزنوية التي خافت من قوة

سلاجقة الدولة الفتية الجديدة وكان الغزنويون هم البادؤن بالعدوان لذلك فإن النصر كان حليف السلاجقة وفي سنة ٤٢٩هـ استولى طغرل بك على مدينة مرو وخطب لطغرل بك على منابرها وتسمى ملك الملوك ، وفي سنة ٤٣٢هـ استولى طغرل بك على نيسابور وجرجان وطبرستان وكرمان وبلاد الديلم ، وواصل طغرل بك فتوحاته حتى اصطدم بدولة بني بويه الشيعية المتحكمة في الخلافة العباسية فاستولى سنة ٤٣٤هـ على خوارزم ثم اصطالح مع البويهيين على دخن .

علا شأن طغرل بك جداً سنة ٤٤١هـ عندما نقل صراعه إلى بلاد الروم وانتصر عليهم في معارك هائلة وأصبح على مسافة قريبة من القسطنطينية وارتجت أوروبا الصليبية من هول المفاجأة قاتر ملك القسطنطينية الصليبي الصلح مع طغرل بك فوافق طغرل بك شريطة إعادة افتتاح المسجد القديم في القسطنطينية وكان قد بناه مسلمة بن عبد الملك أيام الأيوبيين وأن يخطب لطغرل بك فيه يوم الجمعة وسارت الركبان بهذا الخبر العجيب فعظم طغرل بك في أعين ملوك الأرض فخطبوا له على منابره وهذه الشهرة والجاه العريض دفع الخليفة العباسي القائم بالله ليكتب له يستقدمه إلى بغداد ليستعين به على إزالة دولة بني بويه الشيعية التي أضاعت مكانة الخلافة وكرامة الخلفاء وذلك في سنة ٤٤٧هـ ، وكان قدومه رحمة بهذه الأمة رغم فساد جيوشه الجاراة في بغداد ذلك لأن قدومه وافق خروج رجل يقال له البساسيري التركي يريد نقض الخلافة السنية وإقامة الخلافة الفاطمية الباطنية الشيعية .

كان الفاطميون يحاولون منذ إقامة خلافتهم بمصر الكيد والترص بالخلافة العباسية وإزالتها عن الوجود وجاءتهم الفرصة المناسبة عند ظهور البساسيري الذي استطاع أن يجمع حوله الطامعين وطلاب الدنيا ويستولي على العديد من البلدان والمدن فراسل الخليفة الفاطمي المستنصر البساسيري ودعمه في سعيه الخبيث لإزالة السنة وإقامة البدعة ولكن جهودهم تعطلت لأن طغرل بك قدم إلى بغداد بجيوشه الجاراة وأرسل أخاه إبراهيم نبال لقمع ثورة البساسيري فلجأ البساسيري للمكر والخداع فاستمال إبراهيم لصفه ووعدته ومنه بمكان أخيه طغرل بك على البلاد فعصى إبراهيم على أخيه طغرل بك فأوقع البساسيري بين الأخين ووقع بينهما حرب طويلة استغل خلالها البساسيري الاستيلاء على بغداد ونفي الخليفة العباسي القائم بالله إلى الموصل وأقام الدعوة للفاطمين ببغداد وذلك سنة ٤٥٠هـ ولكن طغرل بك استطاع أن يقضي على ثورة أخيه إبراهيم وقتله جزاء خيانتة للإسلام والسنة والخلافة ثم عاد سريعاً لبغداد حيث قضى على ثورة البساسيري وتعقبه حتى قتله سنة ٤٥١هـ وأعاد الخلافة السنية مرة أخرى وأعاد الخليفة القائم بالله لموضعه مرة أخرى وكان هذا العمل من أعظم أعمال طغرل بك على الإطلاق وكانت سبباً لشهرته وتقدمه على ملوك الإسلام حتى أنه الوحيد من سلاطين الإسلام الذي حظي بمصاهرة الخليفة العباسي عندما تزوج من بنت الخليفة القائم بالله .

كان طغرل بك رغم كثرة جهاده وغزواته الكثيرة منذ نعومة أظفاره إلا أنه كان خيراً مصلحاً محافظاً على الصلاة في أول وقتها في جماعة وكان كثير الصيام يديم صيام الاثنين والخميس ، حليماً عمن أساء إليه كتوماً للأسرار يبالغ في تعظيم مقام الخلافة وكان هو أول من أعاد هيبة الخلفاء واحترامهم وبالغ في ذلك حتى أنه كان يأخذ بيد الخليفة القائم فيقبلها مرتين ثم يمسح بها وجهه تبركاً واحتراماً ، وكان طغرل بك صاحب عقيدة صحيحة وقد أمر بلعن كل الطوائف المخالفة للسنة على المنابر ومنها المعتزلة والأشعرية فغضب علماء الأشعرية ومنه القشيري وغيره من ذلك وتركوا بلاده وهاجروا منها فأرسل طغرل بك وجمعهم عنده واستفسر عن سبب خروجهم فقالوا له إن الأشعري لم يقل هذا الكلام الذي تلعنونه بسببه فقال لهم طغرل بك 'نحن نلعن من يقول ذلك بغض النظر عن صاحبه' وكان طغرل بك رغم سعة الملك وكثرة الأتباع والسعادة في حركاته إلا أنه لم يكن له أولاد ولا عقب يحملون ويرثون مجد هذا السلطان الكبير الذي جاء به الله عز وجل في الوقت المناسب قبل ضياع الخلافة العباسية للأبد ومعها أهل السنة .

## أسد الدين شيركوه

هو البطل الفذ والفارس الأسد أسد الدين شيركوه بن شاذى بن مروان بن يعقوب الدونى الكردي، المولود ببلدة 'دوين' على أطراف أذربيجان مع جورجيا سنة ٥٠٠ هجرية تقريباً، وشيركوه بالعربية : أسد الجبل، فشير : أسد، وكوه : جبل، نشأ هو وأخوه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، بتكريت لما كان أبوهما شاذى 'ومعناها فرحان' نقيب قلعته، وكان نجم الدين أسن

أسد الدين، ويغلب على نجم الدين العقل والحكمة والتؤدة، في حين كان أسد الدين كالشهاب الحارق لا يصبر على إس أو عدوان أو انتهاك حرمت وهذا ما سينقل حاله من مكان لآخر .

### من تكريت إلى الموصل

التحق أسد الدين وأخوه نجم الدين بخدمة الأمير 'بهروز' قائد شرطة بغداد عاصمة الخلافة العباسية، فأقطعهما الأمير 'بهروز' قلعة تكريت، فسارا في الناس سيرة حسنة، ووقعت حادثة سنة ٥٢٦ هجرية خلاصتها أن أسد الدين ونجم الدين قد ساعدا الأمير البطل 'عماد الدين زنكي' عندما جاء إلى تكريت منهزماً في قتاله ضد بعض خصومه بالخلافة، حيث قدم الأخوان لعماد الدين زنكي السفن اللازمة لعبوره هو وجنوده فمر دجلة إلى مدينته 'الموصل' وكان الأمير 'بهروز' على خلاف شديد مع 'عماد الدين زنكي' فلم يعجبه هذا الفعل من أسد الدين ونجم الدين وتربص لهما الدوائر وتحين لهما الفرصة لمعاقبتهما .

كثرت التحرشات بنجم الدين وأسد الدين وأهلهم بقلعة تكريت من جانب جنود الأمير 'بهروز' حتى جاءت الفرصة التي يريدها، عندما تعرض أحد الجنود لفتاة من آل أسد الدين في الطريق واشتكت الفتاة لعمها أسد الدين، فترل لهذا الجندي الماجن وتكلم معه بشدة فرد عليه الجندي بأن سحب عليه السلاح، فتشاجر الرجلان مشاجرة انتهت بمصرع الجندي الماجن فغضب الأمير 'بهروز' وأمر بطرد نجم الدين وأسد الدين وأهلهم من قلعة تكريت وذلك سنة ٥٣٢ هجرية وفي نفس الليلة التي ولد فيها صلاح الدين يوسف بن أيوب .

قرر الأخوان الصالحان التوجه إلى أمير الموصل 'عماد الدين زنكي' والالتحاق بخدمته، فسارا إليه فأحسن استقبالهما وشكر صنيعهما معه، وضمهما لأمرائه وقادته وبالف في إكرامهما وأقطعهما أقطاعاً حسناً، وجعل نجم الدين والياً على بعلبك وأسد الدين من مقدمي جيوشه، فعماد الدين زنكي كما قلنا من قبل كان خبيراً بمعادن الرجال، بصيراً بقدراتهم، قادراً على توظيفهم حسب ما يبرزون ويمسنون، فرأى في نجم الدين الرجل الحكيم العاقل القادر على السياسة والقيادة، ورأى في بطلنا أسد الدين القائد العسكري الشجاع القادر على تحويل دفة الحروب بشجاعته وإقدامه .

### من عماد الدين إلى نور الدين

ظل أسد الدين شريكه في خدمة عماد الدين زنكي، وخاض معه كل حروبه ضد الصليبيين وكان معه يوم فتح الرها وكان عماد الدين يحبه ويقدره لأنه كان مثله بطلاً شجاعاً لا يهاب الموت، وظل هكذا حتى كان معه في معسكره ليلة أن قتل عماد الدين سنة ٥٤١ هجرية، وعندها قام أسد الدين شريكه بدور في غاية الأهمية، ذلك أنه حفظ معسكر المسلمين من الهرج والمرج الذي يحدث عادة عند مقتل القائد ثم قام بإعطاء خاتم الملك الخاص بعماد الدين لولده نور الدين محمود كناية عن خلافة لأبيه الشهيد، ثم قام بحراسة نور الدين محمود حتى وصل سالماً آمناً إلى مدينة 'حلب'، فعرف نور الدين هذا الجميل لأسد الدين، وصار من أقرب الناس إليه .

ومن ذلك اليوم أصبح أسد الدين شريكه قائد جيوش نور الدين محمود أمير الشام الجديد وأصبح أخلص وأقوى أمراء الجيوش الشامية، ورجل المهام الصعبة الذي يعتمد عليه نور الدين محمود في النوازل وصعاب الأمور، وكان له المواقف المشهورة والبطولات المشهورة.

### الأسد المعلم



كان أسد الدين شيركوه بحق الأستاذ الأول والمعلم الحقيقي والمكتشف البارع لقدرات ومواهب ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وذلك منذ كان صلاح الدين فتى يافعاً حيث رأى فيه شيركوه بعين الخبير الفاحص أن الفتى الصغير يجمع بين عقل وحكمة أبيه نجم الدين أيوب، وشجاعة وفروسية عمه أسد الدين شيركوه، وزهد وورع أميره نور الدين، وهي خصال ثلاث كفيلة بأن ترشح هذا الفتى لقيادة الأمة فيما بعد .

أدرك ذلك كله الأسد المعلم شيركوه في ابن أخيه فتعاهده بالرعاية وضمه إليه وتولى تدريبه على فنون القتال وقيادة الجيوش وأساليب إدارة المعارك دفاعاً وهجوماً، كما تولى تعليمه فنون السياسة والمناورة والمفاوضة، حتى نضج الفتى اليافع وأصبح شاباً قوياً يصحبه أسد الدين في كل مكان وهو بمثابة الذراع اليمنى له ومن لا يعرفهما يظن أن صلاح الدين هو الابن الوحيد والمقرب لأسد الدين، ولعل تعليم وتدريب صلاح الدين من أهم وأفضل أعمال أسد الدين شيركوه .

### الأسد فاتح الديار المصرية

كان أسد الدين شيركوه بحكم خبرته العسكرية الطويلة وبصيرته السياسية لأوضاع العالم الإسلامي وقتها يرى أهمية الديار المصرية وضرورة فتحها وإزالة الدولة الفاطمية الخبيثة بها والتي تسببت في ضياع بيت المقدس سنة ٤٩٢ هجرية، فلقد كان أسد الدين شيركوه متأثراً بفكرة توحيد العالم الإسلامي ضد الوجود الصليبي، وكان يرى أن النصر على الصليبيين لن يتم إلا بتوحيد مصر والشام

لذلك كان شيركوه دائم الإلحاح على نور الدين لكي يفتح مصر ونور الدين يرى أن الوقت غير مناسب والإمكانات غير متاحة، فالجيوش مشغولة في قتال البؤر الصليبية في جميع أنحاء الشام، ولكن نور الدين لم يترك فكرة فتح مصر بالكلية، بل انتظر الفرصة المناسبة.

كانت الأوضاع في مصر شديدة الاضطراب، فالخلاف على أشده بين شاور وضرغام على منصب الوزارة والخليفة العاضد الفاطمي ليس له من الأمر شيء، ولقد انتصر ضرغام على شاور وأخرجه من مصر فذهب مستنجداً بالملك العادل نور الدين محمود وضمن له ثلث إيرادات مصر وأموراً أخرى إن هو أعانته على استعادة وزارته المفقودة، فوجد في ذلك نور الدين الفرصة المناسبة لفتح مصر وضمها للشام، فكلف قائد جيوشه أسد الدين شيركوه على أن يتوجه إلى مصر لذلك الغرض، ففرح الأسد بهذه المهمة وخرج في صحبته تلميذه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ومعه ألف رجل فقط وذلك سنة ٥٥٩ هجرية .

### الأسد المرعب

وصل أسد الدين شيركوه بعسكره المكون من ألف رجل فقط إلى مدينة بلبيس حيث اشتبك مع جيش ضرغام وانتصر عليه، ثم واصل تقدمه إلى القاهرة حتى قضى على ضرغام وأعاد شاور لمنصب الوزارة وأقام هو بظاهر القاهرة انتظاراً للوفاء بالعهد والمواثيق مع شاور ولكن شاور غدر به وأمره بالرجوع إلى الشام وهدده، فما كان من الأسد شيركوه إلا أنه دخل مدينة 'بلبيس' وامتنع بها وأرسل إلى شاور بأنه لن يتحرك من مكانه إلا بأمر قائده الملك العادل نور الدين محمود، وهكذا يكون الجندي الممثل لأوامر قائده، حتى ولو كان هذا الجندي هو أعظم فرسان زمانه .

ولما كان شاور رجل لا يهتم إلا بمصالحه الخاصة ومنصبه، فلقد أسرع وأرسل للصليبيين في الشام يستنجد بهم على أسد الدين، وكان الصليبيون منذ أن توجه أسد الدين إلى مصر قد أيقنوا الهلاك إذا فتح الشاميون مصر، فلما جاءهم استغاثة شاور فرحوا

وأرسلوا جيوشهم وقد بذل لهم شاور أموالاً طائلة من أجل الانتصار على بني دينه وهكذا نرى أهل الدنيا لا يباليون بشيء إلا بدنيهم ولا أي شيء يردعهم عن تحصيل دنياهم .

اجتمعت الجيوش الصليبية مع عساكر شاور الخائن وحاصروا أسد الدين شيركوه في بلبس ثلاثة أشهر وهو ممتنع بها مع أن سورها قصير جداً يقفزه الفارس بفرسه وليس لها خندق ولا أي تحصينات، ومع ذلك لم يجسروا على اقتحام المدينة من شدة خوفهم من أسد الدين شيركوه الذي ظل يقاتلهم ليلاً ونهاراً بألف رجل لا غير وهم عشرات الألوف، وفي هذه الفترة أغار نور الدين على أملاك الصليبيين في الشام وفتح تل 'حارم'، فخاف الصليبيون على باقي أملاكهم وراسلوا أسد الدين في الصلح على أن يخرج كل منهم ومن الشاميين إلى بلادهم فوافق أسد الدين .

### شهادة الأعداء

قديماً قالوا 'الفضل ما شهد به الأعداء' فاسمع لهذه الشهادة من أحد الصليبيين الذين شاهدوا أسد الدين شيركوه يوم حصار بلبس ثم يوم الصلح قال [أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم وبيده عود من حديد يحمي ساقيتهم والمصريون والفرنجة ينظرون إليه، فتقدمت منه وقلت له 'أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنجة، وقد أحاطوا بك وبأصحابك ولا يبقى لكم بقية؟' فقال شيركوه : ياليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله، كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال، والله لو أطاعني هؤلاء 'يعني جنوده' خرجت إليكم من أول يوم 'يعني الحصار' ولكنهم امتنعوا' فقام هذا الصليبي بالتصليب على صدره وقال : كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرناهم .

### العزيمة الفولاذية

رجع أسد الدين شيركوه إلى الشام وهو يتلمظ غيظاً على الوزير الخائن 'شاور' والأوضاع المتردية في الديار المصرية، ويتحرق شوقاً لمعاودة الكرة مع الصليبيين وخونة المصريين، وهو مازال يلح على الملك العادل نور الدين محمود في العودة إلى مصر، حتى وافق نور الدين على ذلك سنة ٥٦٢ هجرية، وانطلق أسد الدين في جيش يقدر بألفين من المقاتلين .

أسرع 'شاور' كعادته وأرسل للصليبيين بالشام يستنجد بهم، فجاءوه بألوف مألوفة من أجل إدراك ثأرهم مع أسد الدين وتحقيق مبتغاهم باحتلال مصر، وكان أسد الدين يتحرك بسرعة لخفة جيشه، فوصل إلى الصعيد وفتحته ثم عسكر في منطقة البابين 'قريب من محافظة المنيا الآن' وقد رفعت له الجواسيس الأخبار عن ضخامة الجيش الصليبي ومن معه من عساكر شاور، فعقد اجتماعاً مع قادة جيشه فأشاروا جميعاً بالرجوع إلى الشام لقلة عددهم وتسليحهم وبعدهم عن أوطانهم، فوقف أسد الدين كالطود العظيم وأصر على القتال واستعان بالله وواقفه ابن أخيه صلاح الدين، ثم قام أسد الدين شيركوه بوضع خطة عسكرية في غاية الذكاء بحيث أن استدرج معظم الجيش الصليبي لقلب الجيش المسلم ثم هجم هو في كتيبة منتقاه من خلاصة الأبطال على مؤخرة الجيش الصليبي، فوضعه في شبه دائرة، وانتصر انتصاراً عظيماً لم يسمع بمثله في التاريخ كما يقول المؤرخ ابن الأثير

بعد معركة البابين توجه أسد الدين وجنده الشامي إلى الإسكندرية بعد أن استدعاه أهلها الذين أرادوا نصرة إخوانهم المجاهدين الشاميين، ثم ترك بها حامية يقودها صلاح الدين ثم توجه إلى الصعيد لمواصلة الفتح، فانتهاز الصليبيون الفرصة وحاصروا الإسكندرية حصاراً عنيفاً طيلة تسعة أشهر، فعاد الأسد لنصرة أهل الإسكندرية وابن أخيه، فخاف الصليبيون منه خوفاً شديداً جعلهم يطلبون منه الصلح، فاشتراط عليهم مغادرة مصر ولا يتركوا منها قرية واحدة فوافقوا .

لم يعلم أسد الدين شيركوه عندما اتفق مع الصليبيين على الخروج من مصر، أن الخيانة والعمالة التي تسرى في دم الوزير الخائن 'شاوور' سوف تدفعه لأن يعقد اتفاقاً سرياً مع الصليبيين يتعهد فيه بدفع مائة دينار سنوياً من إيراد البلاد للصليبيين كي ما يتقنوا بها على حرب نور الدين في الشام، ثم يكتف الخائن بهذه الفعلة القدرة، بل اتفق معهم على أن يكون للصليبيين حامية من كبار فرسانهم تحرس أبواب القاهرة وذلك سنة ٥٦٢ هجرية .

لم يكن بقاء هذه الحامية من أجل الحرص على سلامة مصر والمصريين أو السهر على راحتهم ! بل كانت ترصد الأخبار والأحوال تمهيداً لعودة الصليبيين مرة أخرى في الفرصة المناسبة وهو ما حدث بالفعل في أوائل ٥٦٤ هجرية، عندما أرسلت الحامية الصليبية إلى ملك بيت المقدس الصليبي 'أمريك' تعرفه أن الأوضاع مهيئة في مصر لدخول القوات الأجنبية.

حشد 'أمريك' جيوشه وانطلق إلى مصر بأقصى سرعة وكانت مدينة 'بلبيس' أولى محطاته حيث قام الصليبيون هناك بمجزرة مرعبة لأهل المدينة كلها بحيث لم يتركوا منها أحداً كما هي عادتهم البربرية الوحشية، ثم نزلوا إلى القاهرة وضربوا عليها حصاراً شديداً، فأقدم الخائن شاوور على فعلة في غاية الحفارة والذلة وأيضاً في غاية الغباء السياسي حيث أقدم على حرق القاهرة ليرجع عنها الصليبيون، وظلت النار تأكل القاهرة ٥٤ يوماً فأرسل الناس وعلى رأسهم العاضد الفاطمي إلى نور الدين يستغيثون به من الصليبيين وشاور .

### الفتح الأخير

لقد كان فتح مصر بالنسبة لأسد الدين شيركوه الخطوة الأخيرة في تحقيق حلم حياته بتوحيد العالم الإسلامي في مصر والشام لطرد العدو الصليبي الجاثم على الأرض المقدسة منذ سبعين سنة، لذلك فإننا نجد أن أسد الدين شيركوه منذ أن خرج لمصر سنة ٥٥٩ هجرية وهو لا يفكر ولا يسعى ولا يتجهز إلا لفتح مصر والمعاودة إليها مرة بعد مرة، على الرغم من الأهوال والشدائد التي لاقاها في كل مرة .

وكان أسد الدين مقيماً في 'حمص' عندما جاءت رسالته رسالة نور الدين محمود بالقدوم إلى حلب استعداداً لإنقاذ مصر فركب البطل العجوز الذي جاوز الستين فرسه بعد صلاة الفجر وانطلق بأقصى سرعة حتى وصل 'حلب' قبيل الغروب وهذا الأمر لم يتسن لأحد من الناس سوى الصحابة رضوان الله عليهم أن يقطعوا هذه المسافة الطويلة في هذا الوقت الوجيز فسر نور الدين بذلك جداً وجهزه بجيش مكون من ألفي فارس وقام أسد الدين بجمع ستة آلاف فارس آخر من متطوعة الشام لفتح مصر وانطلق الأسد يزار ويرعد ويرق ويتوعد الصليبيين والخونة المنافقين في مصر .

كما قلنا من قبل كان الصليبيون في قمة الخوف والفرع من مجرد ذكر اسم أسد الدين شيركوه، فلقد كان كابوسهم المزعج الذي يقض مضاجعهم، فلما جاءتهم الأخبار بقدوم الأسد وجنوده الشامي على جناح السرعة أجمعوا أمرهم على الرحيل من مصر بعد أن هزموا بها مرتين من قبل على يد أسد الدين، وبالفعل رحلوا مذعورين هاربين، ودخل الأسد المظفر القاهرة فاتحاً منتصراً من غير أن يشهر سيفاً واحداً هذه المرة، فلقد نصره الله عز وجل بالرعب .

حاول شاوور الخائن أن يستدرج الأسد لدعوة طعام مسموم ليهلك فيها هو وأصحابه ولكن الكامل بن شاوور الابن الأكبر لشاوور وكان رجلاً صالحاً مجاهداً نهي أباه عن هذه الفعلة وهدده بأن سيخبر شيركوه وقال كلمته الشهيرة عندما قال له أباه الخائن

باور' [والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً] قال الكامل: [صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية، خير من أن وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعو بالقبض على شيركوه].

لقي شاور جزاء خيانتة وعمالته للصليبيين حيث أمر العضد الفاطمي بإعدامه، وتولى أسد الدين شيركوه الوزارة في مصر وأخذ في التدبير والعمل من أجل إسقاط الدولة الفاطمية الخبيثة وتوحيد مصر والشام تحت حكم نور الدين محمود خاصة بعد إلحاح الخليفة العباسي المستضيء بالله على ذلك الأمر، ولكن القدر المحتوم والأجل المكتوب جاء للأسد في ميغاده المعلوم فأصيب الأسد بذبحة صدرية قتلته رحمه الله في ٢٢ جمادى الآخر ٥٦٤ هجرية بعد أن حقق مراده وكلل سعيه وجهاده الطويل بفتح مصر، وسبحان الله لقد خاض هذا البطل أكثر من مائة وخمسين موقعة وتعرض للشهادة في كل موطن وسعى لها سعياً حثيثاً ولكنه مات على فراشه وصدق الصديق عندما قال [أحرص على الموت توهب لك الحياة].

فلقد كانت سيرة هذا الرجل ترجمة لحياة المجاهد المعتز بدينه وإسلامه ولا يرى له عملاً سوى تحرير الأرض المحتلة، والذي كانت أخباره ووقائعه مليء الصدور وصورته مليء العيون وهيبته وقدره في نفوس عدوه كفزع الزلازل والأعاصير والبراكين، فرحمه الله على الأسد شيركوه الذي ترك لنا مثل هذه السيرة وتخرج من مدرسة بطولته وشجاعته وحلقة جهاده الناصر صلاح الدين.

المراجع والمصادر:

الكامل في التاريخ / سير أعلام النبلاء / البداية والنهاية

وفيات الأعيان / السلوك للمقريزي / العبر في خبر من غير

الروضتين في تاريخ الدولتين / شذرات الذهب / النجوم الزاهرة

مفرج الكروب / حسن المحاضرة / أيام الإسلام

فاة الظاهر بيبرس - الأسد الضاري

الزمان/ الخميس ٢٧ محرم - ٦٧٦هـ

المكان/ القاهرة - مصر

الموضوع/ وفاة الظاهر لدين الله بيبرس البندقداري

الأحداث/

: تفتقر الأمة الإسلامية في حاضرها الأليم الكثير من مقومات الصمود والتحمدي واستعادة الريادة مرة أخرى وتأتي القيادة الصالحة على رأس مقومات النجاح الغائبة والتي ما زالت تبحث عنها الأمة في ظلمات الواقع المدهمة هذا على الرغم من أن تاريخنا يذخر بقيادة أفاذ ضربوا أروع الأمثلة في خدمة قضية الإسلام والارتقاء لمستوى المسؤولية وتقدير خطورة الأحداث خاصة ما كان أيام الأزمات العيفة وتكالب الأعداء أمثال الحملات الصليبية والاكنتاسح التتاري وما أشبه واقعنا بتلك الأيام وهذه قصة واحد من هؤلاء الأفاذ الذين قادوا الأمة وقت الأزمات وجددوا ما اندثر من معلم الجهاد في سبيل الله وظل طيلة حياته كالأسد الضاري الذي يحرس عرينه ومملكته ولا يجرؤ أحد على خفر ذمته ولا المساس بحريمه.

- دولة المماليك

ندما اكتسح التتار بحافلهم الجرارة العالم الإسلامي من ناحية المشرق واسقطوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ خلت الأمة من خليفة ولا قائد وأصبحت الأمة كالغنم التي فقدت راعيها في الليلة الشتائية هذا إضافة لتفريق الصف المسلم بالاختلاف الواقع بين أمراء الدولة الأيوبية بالشام بعضهم بعضاً من جهة ومع أمراء المماليك بالديار المصرية من جهة أخرى، وهذا التفريق سهل مهمة التتار فاكسحوا الشام سنة ٦٥٨هـ وتوجه عزمهم بعد ذلك لاكتساح الديار المصرية.

— من رحمة الله عز وجل بالأمة المسلمة في تلك الفترة الحالكة السواد أن قيض لها بطلاً شجاعاً وأميراً هاماً هو سيف الدين قطز الذي قاد المسلمين لأعظم معاركهم في القرن السابع الهجري وهي معركة 'عين جالوت' الشهيرة وكسر التتار كسرة فظيعة أسقطت أسطورة الدولة التي لا تهزم فارتفع ذلك شأن دولة المماليك بين ممالك المسلمين وطارت شهرتهم في العالم الإسلامي كله وأصبح البطل الجسور محط أنظار الجميع ومقعد الأمل للأمة من جديد كما كان الحال عند ظهور الناصر صلاح الدين وهذا أيضاً عجل بنهاية هذا القائد الفذ حيث امتدت أصابع الشر والحقد والحسد واغتالت مشروع الإحياء للأمة الإسلامية فصل القائد المظفر قطز أثناء رحلة عودته من انتصار 'عين جالوت' الشهيرة ورنت شياطين الإنس والجن في كل مكان فرحة بهذه الجريمة وظنوا أن البلاد قد غدت بلا أسد يجرسها ولا قائد يسودها ولكن ظنهم قد خاب وسعيهم قد طاش فلقد ظهر أسد أشد ضراوة وقوة من سابقه وهو القائد ركن الدين بيبرس البندقداري.

— الأسد الجديد:

يرجع أصل ركن الدين بيبرس إلى أتراك ما وراء النهر فيما يعرف الآن بجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق المسلمة وبالتحديد 'قيرغيزستان' قد أخذ وهو طفل صغير وتربى تربية إسلامية وجهادية كما كان هو الحال مع طبقة المماليك واشتره السلطان الصالح نجم الدين أيوب، ثم انتقل بعد ذلك إلى الأمير فارس الدين أقطاي وارتقى في سلم الجندية حتى صار من كبار قادة المماليك وأبدى قوة وشجاعة وبسالة نادرة في كل المعارك التي اشترك فيها ضد الصليبيين أثناء الحملة الصليبية السابقة على دمياط سنة ٦٤٧هـ، ولما تولى عز الدين أيلك حكم مصر بعد زواجه من شجرة الدر لم يكن على وفاق معه فذهب إلى الشام والتحق بخدمة أمرائها من بني أيوب وظل بها حتى آل الأمر إلى سيف الدين قطز وهجم التتار على دمشق وأخذوها فاستدعاه قطز وطلب منه قيادة فيلق بالجيش المصري المقاتل للتتار وبعد الانتصار الرائع في 'عين جالوت' عهد قطز لبيبرس بمهمة مطاردة فلول التتار المنهزمين ومنعهم من التجمع مرة أخرى فأدى المهمة بنجاح كبير.

— بعد مقتل قطز في ظروف مريبة لم يجد قادة المماليك خيراً من ركن الدين بيبرس ليولوه هذه المهمة الشاقة في هذه الظروف الدقيقة فتولى الحكم في آخر سنة ٦٥٨هـ وكانت هذه الولاية من رحمة الله عز وجل بالمسلمين في هذه الفترة العصيبة من حياة الأمة الإسلامية فقد كان بيبرس شهماً شجاعاً أقامه الله عز وجل للناس لعلو همته وشفقته على المسلمين وقصده الصالح في نصرة الإسلام وأهله.

## — أهم أعمال الأسد

أولاً: إعادة الخلافة الإسلامية:

عندما احتل التتار بغداد زين لهم الوزير الشؤم ابن العلقمي الرافضي قتل الخليفة المستعصم العباسي لتسقط بقتله الخلافة العباسية وذلك في ١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ وظل العالم الإسلامي بلا خلافة ولا خليفة طيلة ثلاث سنوات حتى تولى بيبرس حكم الديار المصرية والشامية وعمل على إعادة الخلافة العباسية مرة أخرى فبحث عن رجل من نسل العباس فوجد الأمير أبا القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر العباسي وكان معتقلاً في بغداد وهو أخو أمير المؤمنين 'المستنصر' باني المدرسة المستنصرية الشهيرة فاستقدمه إلى مصر ودعا الناس لبيعتهم فبايعه الناس في يوم عظيم مهيب ذكر الناس بأجدادهم السابقة وأفراحهم الماضية، وكان هذا العمل على



ريته وقلة أثره في السلطة واتخاذ القرارات إلا أنه كان له كبير الأثر في نفوس المسلمين في كل مكان إذ سرت روح الوحدة

الإسلامية من جديد بين أفراد الأمة.

ثانيًا: إزالة الوجود الصليبي بالشام

كان للصليبيين بالشام عدة مدن وإمارات صغيرة من أيام صلح الرملة وقد اتسعت هذه الأملاك عندما وقع الخلاف بين أمراء الشام ومصر قبل معركة 'عين جالوت' فلما تولى بيبرس عمل على تصفية الوجود الصليبي بالشام فاستطاع أن يظهر كل من قيسارية وأرسوف وصغد وقتل كل فرسان المعبد 'الداوية' المتحصنين بها وبافا وطبرية والقصر من الوجود الصليبي.

أما أعظم انتصاراته على الصليبيين فكان فتح إنطاكية وهي أكبر المدن المحتلة بالشام وكان حاكمها الصليبي من أشد الناس أذية للمسلمين فاستطاع فتحها سنة ٦٦٥هـ ويفتحها فتحت وسلمت كثير من الحصون الصليبية وسارع أمراء الصليبيين في عقد معاهدات صلح معه في إذعان بالخضوع والطاعة.

ثالثًا: تصديه للتوسع التناري.

كانت للهزيمة الهائلة التي نالت التتار بعين جالوت أشد الأثر في نفوس قادة التتر خاصة هولاءكو الذي أصر على معاودة الكرة مرة بعد مرة وهنا برز ذكاء بيبرس الفذ عندما استطاع استمالة أحد كبار قادة التتار وهو بركة خان وهو ابن عم 'هولاءكو' وكان 'بركة خان' مسلمًا صادقًا مخلصًا فأخذ بيبرس في مراسلته واستمالته لجهاد وقتال 'هولاءكو' وأفهمه ذلك في رسائل متبادلة حتى اقتنع بركة خان بذلك وأصبح من أكبر أنصار الإسلام والمسلمين وأخذ في التنسيق مع المسلمين وبيبرس ضد 'هولاءكو' الشرير، واستطاع أن يستميل كثيرًا من التتار بالشام لدخول الإسلام وأغدى عليهم بالهدايا والعطايا فدخلوا في دين الله أفواجًا، ولما هلك الطاغية 'هولاءكو' وتولى من بعده ابنه 'أبقا' وكان أشد من أبيه عداوة للإسلام والمسلمين سعى لتجديد التوسع التناري بالشام الذي أصبح من أملاك الدولة المملوكية وكتب إلى بيبرس يتهدده قائلاً 'أنت صعلوك حقير فكيف يصلح لك أن تحالف ملوك الأرض؟ واعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت مني فاعمل لنفسك على مصالحتي' فجاء رد الملك بيبرس في منتهى العزة فرد يقول وأعلموه أي من ورائه المطالبة ولا أزال حتى أنتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض' وبالفعل كان الظاهر بيبرس من أشجع أمراء المسلمين في حرب التتار وأنشطهم وكان لا يسمح لهم بالتجمع بل يسارع بالانقضاض كالأسد الضاري كما حدث سنة ٦٧١هـ عندما وصلت لمسامع بيبرس أن طائفة كبيرة من جنود التتار تجمعت عند نهر الفرات أسرع بجيشه وخاض بنفسه وجيشه نهر الفرات وانقض على التتار فمزقهم تمزيقًا، ثم كانت معركته الشهيرة مع التتار سنة ٦٧٥هـ والمشهورة بموقعة 'البلستين' وكان مع جيش التتار فرقة كبيرة من الروم وهذا يوضح مدى العلاقة بين أعداء الإسلام فيما بينهم على اختلاف راياتهم وكانت معركة رهيبة استشهد فيها الكثير من أبطال المسلمين وقادتهم وصبر المسلمون صبرًا بليغًا حتى أنزل الله عز وجل عليهم نصره وكسروا التتار كسرة قرية من يوم عين جالوت.

رابعًا: حربه للباطنية:

كانت الشام ومصر أرض الدولة العبيدية الباطنية الخبيثة المسماة زورا 'الفاطمية' قرابة القرنين من الزمان معا جعل هذه البلاد مرتعًا خصبًا للفرق المنحرفة ومأوى للضالين والمنحرفين خاصة أتباع المذهب الإسماعيلي الخبيث وكانت لهم بالشام العديد من القلاع والحصون والقرى وكانوا أشد الناس ضررًا على الإسلام والمسلمين وعونًا للصليبيين والتتار على المسلمين وتخصصوا في اغتيال قادة المسلمين وعلمائهم حتى صار مجرد ذكر اسمهم يثير الرعب في قلوب الناس، ولم يكن هؤلاء أن يغيبوا عن حسابات الظاهر بيبرس الذي رأى من قبل مدى فداحة خطورتهم على الأمة المسلمة فشدد الحصار عليهم واقتحم حصونهم عدة مرات واستخدم معهم الخداع والاستدراج حتى أخرج معظمهم من حصونهم وقد استخدم مع عامة الباطنية الجهلاء السفهاء أسلوب الجذب والإقناع والاندماج في المجتمع المسلم حتى أزال خطرهم.

قد استطاع بيبرس بفضل الله ثم يقظته وسرعة حركته أن يحبط محاولة الباطنية إحياء الدولة العبيدية الرافضية من جديد عندما رجل بأرض مصر اسمه 'الكوراني' يدعو 'للفاطميين' ويجمع الناس من أجل ذلك فأخذه بيبرس فقتله وشرذ أتباعه وقضى على فسنته. خامساً: غيرته على المسلمين

كان مما يميز بيبرس عن غيره من ملوك المسلمين في عصره ولأعوام طويلة أنه كان شديد العناية بحرمات المسلمين ودمائهم وحقوقهم بصورة أعادت للأذهان أيام الإسلام الأولى وعهود الراشدين وأيام العز والتمكين وذلك في مواقف كثيرة فقد كان لا يصبر على أذى المسلمين ومن يتعرض لهم فقد ذكروا له عندما فتح مدينة 'صغد' ووجد بها كثيراً من أسرى المسلمين ذكروا له أنهم قد وقعوا في الأسر بسبب أهل قرة 'فأرا' وهي قرية من نواحي أرمينيا وكانوا يخطفون رجال ونساء المسلمين ويبيعونهم عبيداً للفرنج فعندها ثارت ثورة الأسد العارمة وقرر الهجوم من فوره على أهل هذه القرية الجرمين فدمرها تدميراً وجعل أهلها بين قتل وأسير وأخذ ثار المسلمين وشفى غليلهم.

و ذات يوم أثناء عودته بالجيش من إحدى الغزوات اعترضت طريقة امرأة من المسلمين فقالت له يا أيها الأمير إن ولدي قد دخل مدينة 'صور' بالشام تاجراً فأخذه ملك صور الصليبي فغدر به وقتله وأخذ ماله وفي الحال غير بيبرس مسار جيشه وهجم على مدينة 'صور' وأوقع بها بأساً شديداً فأرسل إليه ملكها يقول له ما سبب هذا؟ فقال له لغدرك ومكرك بالتاجر فلان حتى لا تعود أنت وغيرك لمثلها'.

وأسر له يوماً أمير من أمرائه هو 'سنقر الأشقر' فأبدله بعدد كبير من الأسرى الفرنج منهم ابن ملك السيس الصليبي وسبحان الله انظر كيف انقلبت الآية فأصبح الأسير اليهودي يستبدل بمئات الأسرى من المسلمين!!.

وأعدم بيبرس الأمير عمر بن العادل الأيوبي وكان أميراً على حصن الكرك ذلك لأنه خان المسلمين خيانة عظمى وتعاون مع التتار أعداء الإسلام وكتبهم ودلهم على عورات المسلمين واستدعاهم للهجوم على الشام مرة أخرى ووعد التتار بأنه سيكون نائباً لهم على الشام فاستفتى بيبرس الفقهاء في أمره فأفتوا بقتله فأعدمه جزاءً لخيانته للمسلمين.

و ذات مرة وأثناء حصاره لأحد حصون الصليبيين بالشام قتل جندي مسلم فلما أراد أهل الحصن أن يستسلموا رفض عقد التسليم حتى يدفعوا دية الجندي المسلم وقال لهم: أنتم قتلتم جندياً من جيشي وأريد دية مائة ألف دينار.

سادساً: قمعه للمفسدين

كان بيبرس يكره الفساد والمفسدين بشدة عكس ما يروجه المزورون للتاريخ الإسلامي الآن حيث احترقوا تزييف التاريخ وتشويه صورة القدوات والكبراء من هذه الأمة لتفقد الأمة المثال والقُدوة فتقتدي بالفاسقين والجرمين والصالين.

أمر بيبرس بإراقة الخمر وتحريم الاتجار فيها في شتى نواحي مصر ومن ضبط بتصنيع الخمر سوف يقتل، كما منع الخواطي والغانيات والمفسدات من الفاحشة وسلب أموالهم من بيع الأعراض وأمر بتزويجهم جميعاً بعد التوبة والإنابة فحفظ الديار المصرية من أفك الأمراض: الخمر والزنا.

سابعاً: اهتمامه العمراني

الذي يقرأ سيرة الظاهر بيبرس وحياته الجهادية يظن أنه لم يكن له باع في جانب الاهتمام العمراني والحضاري وهذا يخالف الواقع تماماً فقد كان معنياً ببناء السدود والقناطر على الأنهار وتمهيد الطرق وفتح الأسواق لترويج التجارة واهتم ببناء المستشفيات والخانات وأماكن ضيافة المجاهدين والمسافرين وضرب الدراهم والدنانير الجيدة الخالصة ومنع العملات الزائفة لسلامة التعاملات بين الناس، وكان أول من نظم القضاء فجعل لكل مذهب قاضياً مستقلاً.

ولكن أكثر ما كان يهتم به ويوليه جل عمله الحضاري والعمراني هو بناء المساجد وصيانتها فقد جدد بناء المسجد النبوي بعد احتراقه وأمر بإخراج كل المجاورين من المسجد الأموي بدمشق وقد ضيقوا على الناس من ملازمتهم للمسجد بصفة مستمرة فاتسع المسجد على الناس وأمر بتجديد عمارة الجامع الأزهر وإعادة صلاة الجمعة فيه وقد كانت لا تقام فيه منذ أيام الحاكم العبيدي،

تمل على تبليط المساجد وتوسيعها حتى لم تبق بقعة بمملكته إلا عمرها بالمساجد إلا أنه كان يؤخذ عليه اهتمامه ببناء القباب - قبور الصالحين وما أدى بعد ذلك لانتشار البدع والشركيات والموالد.

وبالجملة كان الظاهر ركن الدين بيبرس من خيرة سلاطين المسلمين وقادتهم وفتح فتوحاً كثيرة وأعاد لحظيرة الدين بلاداً كثيرة من أيدي التتار والصليبيين واتسعت دولة المماليك في عهده من الفرات إلى أقصى بلاد النوبة مع الحجاز واليمن ومع ذلك كان مقتصدًا في ملبسه ومطعمه همه الجهاد في سبيل الله و قمع أعداء الله لا يفتر عنهم ليلاً أو نهاراً فهو أشبه ملوك الإسلام بالصحابي الجليل خالد بن الوليد رضي الله عنه وكان شوكة في حلق المارقين المفسدين والكافرين وبالجملة كان رحمة من الله عز وجل لهذه الأمة الإسلامية.

## أمير الشام عماد الدين رائد الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين

عندما يحى الإنسان لهدف ما يجعله نصب عينيه بحيث لا يرى غيره ولا يعمل إلا لتحقيقه ولا يفكر في سواه، يدندن حوله ليل نهار، يسعى للوصول إليه بكل السبل، فإن هذا الإنسان مهما كان حاله يستحق الإعجاب والثناء والتقدير، كيف إذا كان هذا الهدف هو الدفاع عن الأمة الإسلامية وإنقاذ المقدسات الأسيرة وتحرير الأراضي المحتلة، كيف وإذا كان الساعي لتحقيق هذا الهدف السامى هو أول من سعى لتحقيقه؟ وكيف إذا كان معظم من حوله أو حتى كلهم يعمل ضده ويعيقه في هذا السعى الحميد؟ فهو كالمغرد والطائر وحده في سماء مليئة بالغيوم والكواسر، وبطلنا الذى سنسرد سيرته هو رائد الجهاد الإسلامى ضد الوجود الصليبي بالشام بعد أن ظن الجميع أنهم لن يخرجوا أبداً من بلاد الإسلام، هذا البطل الذى كسر أسطورة الصليبيين الذين لا يقهرون هو البطل العظيم عماد الدين زنكى .

### البطل بن البطل

كان من النتائج الطيبة لإهتمام الوزير العظيم 'نظام الملك' بالعلم والمدارس وأهل الصلاح خلال وزارته لسلاطين السلاجقة العظام ألب أرسلان وولده ملكشاه، وحرصه على إستعمال الأكفاء وأصحاب الديانة في المناصب الهامة والقيادية، أن سطح نجم العديد من الرجال والأبطال على مستوى عال من الكفاءة والمسئولية وكان لهم الأثر العظيم في حفظ بلاد الإسلام، من هؤلاء القائد 'آق سنقر بن عبد الله التركي' الملقب بقسيم الدولة وكان له مكانة عظيمة عند السلطان ملكشاه السلجوقي حتى أنه قد جعله والياً على حلب، وقد قتل هذا القائد في دفاعه عن الدولة السلجوقية ضد الخارجين عليها ولم يترك وراءه سوى ولد صغير في العشرة من العمر هو بطلنا الفذ ورائد الجهاد ضد الصليبيين عماد الدين زنكى .

\*تولى الأمير كربوقا أمير الموصل تربية عماد الدين زنكى وتعهده بالعناية والرعاية وتعليمه فنون الفروسية والقيادة والقتال، ثم انتقل عماد الدين بعد ذلك للعمل في شحنة بغداد بعد أن أبان عن فروسية وذكاء وصلاح، وترقى في سلك الجندية حتى صار مقدم عساكر مدينة واسط ثم ظهرت كفاءته القتالية سنة ٥١٧ هـ في قتاله مع الخليفة العباسى المسترشد بالله ضد أحد الثوار الشيعة واسمه 'دييس بن صدفة' مما جعل السلطان السلجوقي محمود يرقيه ليصبح قائد شحنة بغداد سنة ٥٢١ هـجرية ويعطيه لقب الأتابك أى مربى الأمير، ذلك لأنه توسم فيه الخير والصلاح والنجاة، فعهد إليه بتربية ولديه ألب أرسلان وفروخ شاه .

### من قيادة إلى ولاية

بعد أن أصبح عماد الدين زنكى قائداً لشحنة 'شرطة' بغداد، حدث تغير كبير في مجرى الأحداث في منطقة الشام الملتهية حيث توفي أمير الموصل عز الدين مسعود، وحاول بعض المنتفعين توليه ولده الصغير مكانه، ولكن قاضى الموصل بهاء الدين الشهرزورى ذهب إلى السلطان محمود وطلب منه تعيين أمير قوى وكفاء للموصل التى على حدود الشام حيث الوجود الصليبي الكثيف في سواحل الشام منذ ثلاثين سنة والذى أسفر عن قيام أربع ممالك صليبية [أنطاكية — الرها — طرابلس — بيت المقدس] .

بعد تفكير سريع وإمعان نظر عميق قرر السلطان محمود أن يسند ولاية الموصل وأعمالها إلى بطلنا عماد الدين زنكي، الذي لم السلطان محمود أفضل منه لهذه المهمة، وكانت هذه الولاية سنة ٥٢١ هجرية أي بعد شهور من قيادته لشحنة بغداد، وكان هذا التاريخ إيذاناً بعهد جديد في الصراع ضد الصليبيين وفتاحة خير على الأمة كلها .

#### الأوضاع على الجبهة الشامية

عندما تولى عماد الدين زنكي الموصل تسنى له أن يرى الأوضاع على الجبهة الشامية عن قرب حيث كانت الصورة قاتمة فالصليبيون قد احتلوا معظم سواحل الشام وأقاموا أربع إمارات صليبية بالشام والجزيرة، أما المدن والحصون التي تحت حكم المسلمين فهي تعاني من الفرقة والاختلاف والتنافر وربما التقاتل فيما بينها، فكل وال على مدينة يتعامل فيها كأنه ملك مستقل عن سائر البلاد، وأغلبهم بل كلهم يتقى شر الصليبيين ويتحاشى الصدام معهم خوفاً على ضياع ملكه وانهدام دنياه، وهذا الخذلان من ولاية الأمصار سهل للصليبيين مهمتهم وجعل وجودهم في الشام يترسخ شيئاً فشيئاً .

أضف إلى ذلك أن الأمصار الإسلامية كلها تقريباً كانت في حالة فوضى واضطراب، فالخلاف على أشده بين أمراء البيت السلجوقي بعضهم بعضاً، كذلك الخلاف بين السلطان مسعود السلجوقي والخليفة العباسي المسترشد بالله على أشده . ومن خلال النظر في هذه الأوضاع كلها قرر عماد الدين زنكي أخذ زمام المبادرة والقيام بعمل لم يسبقه فيه أحد ووضع نصب عينيه هدفاً عظيماً طالما حلم المسلمون بتحقيقه ولكن يتعد نطاقه الأحلام إلى الحقيقة، قرر البطل تحرير بلاد الشام من الوجود الصليبي .

#### بناء القاعدة الصلبة

\*من البديهيات الأساسية في قتال أي عدو وطرد أي محتل وتحرير أي أرض أن تكون جبهة المقاومة والدفاع واحدة صلبة مجمعة، إذ كيف يجاهد المسلمون بصف مهترى ممزق لذا كان أول ما سعى عماد الدين لتحقيقه هو تكوين وبناء القاعدة الصلبة للمسلمين بتوحيد الجبهة الداخلية للشام، وربما كانت هذه المهمة هي أصعب مرحلة في مراحل الانتصار .

بدأ عماد الدين زنكي بمدينة 'حلب' فضمها إلى الموصل في ١ محرم سنة ٥٢٢ هجرية أي بعد شهور قليلة من ولايته على الموصل مما يوضح أن هذا الرجل الفذ كان يملك خطة شاملة ورؤية واضحة معدة سلفاً لحركته بأرض الشام، ولم يكن ضمة لمدينة 'حلب' بالشيء السهل فلقد ظل محاصراً لها عدة شهور قبل فتحها وكان عليها بعض الطامعين المتغلبين، ثم قام بعدها بضم مدينة 'هامة' في السنة التالية ٥٢٣ هجرية، ثم ضم مدينة سرجى ودارا ثم حصن الأتارب وكان بيد الصليبيين، ثم انشغل عماد الدين زنكي بالخلافات العنيفة بين الخليفة المسترشد والسلطان مسعود بل تورط فيها وذلك لعدة سنوات، ثم عاد بعدها لهدفه الأسمى وضم عدة قلاع للأكراد الحميدية والهكارية وقلعة الصور وواصل سعيه حتى استقامت له ديار بكر وإقليم الجبال سنة ٥٢٨ هجرية .

\*استقامت معظم بلاد الشام لعماد الدين زنكي عدا ما كان بيد الصليبيين ودمشق قلب الشام وحاضرتة وقد حاول زنكي ضم دمشق سنة ٥٢٩ هجرية بعد أن أرسل إليه أهلها يطلبون ذلك منه صراحة ولكنه فشل بسبب أحد المتغلبين عليها واسمه 'معين الدين أنر' .

#### أسد الشام

بعد أن تم لعماد الدين زنكي معظم ما أراد من تكوين القاعدة الصلبة، بدأ في العمل الحقيقي والجهاد الأصيل ضد أعداء الأمة المحتلين لمقدساتها، وكان الصليبيون قبل مجيء عماد الدين زنكي يخططون للاستلاء على أرض الشام كلها ثم مصر بعدها، فلما جاء أسد الشام الجديد صار غاية سعيهم الحفاظ على ما تحت أيديهم .

ولما ازدادت قوة عماد الدين زنكى وثقلت وطأته على الصليبيين في الشام فكروا في الاستعانة بإمبراطور القسطنطينية 'عمانو' ورغم الاختلاف المذهبي بينهم فهم كاثوليك وهو أرثوذكسي إلا أنهم في النهاية صليبيون فوافق 'عمانويل' على نجدتهم .

#### رجل المهام الصعبة

أصبحت بلاد الشام في موقف حرج بالغ الخطورة فإمبراطور بيزنطة 'عمانويل' جاءها بجيوش جرارة سنة ٥٣٢ هجرية واخترق آسيا الصغرى ولم يقدر أحد من سلاجقة الروم على إيقافه ثم استولى على مدينة 'بزاعة' وهي قرية من حلب فغدر بأهلها بعد أن أعطاهم الأمان فقتلهم وسبى نساءهم ودخل أهل الشام رعب شديد من وقوعهم بين مطرقة إمبراطور بيزنطة وسندان الصليبيين الفرنجية بالشام وهنا برز رجل المهام الصعبة .

بعد نظر وتمعن في هذه النازلة العامة قرر عماد الدين زنكى العمل في اتجاهين:—

١. الاتجاه الأول: مناوشة إمبراطور بيزنطة بشن حرب عصابات على معسكره باستخدام المجاهدين المتطوعين ضد الأعداء بالكر والفر وإظهار القوة والشجاعة وإرسال رسائل تهديد ووعيد لهذا الإمبراطور على الرغم من الفارق الضخم بين القوتين وذلك من أجل إرهاب البيزنطيين .

٢. الاتجاه الثاني: فهو إيقاع الخلاف بين البيزنطيين والفرنجية، فلقد كان عماد الدين زنكى من دواهي العصر ذكاءً وفطنة وحدة بصيرة فلقد استغل الخلاف المذهبي بين الأرثوذكس والكاثوليك للتفريق بينهما، فأرسل إلى إمبراطور بيزنطة يخوفه من نقصان الفرنجية للعهود وأهم يتربصون به فإن فارق مكانه الذى فيه 'قلعة شيراز' سيتخلفون عن نصرته ثم أرسل إلى الصليبيين الفرنجية يخوفهم من إمبراطور بيزنطة ويقول لهم إن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً . ونجحت خطة عماد الدين زنكى ووقع الخلاف بين الطرفين وانسحب الإمبراطور من الشام وترك الجانيق وأسلحة كثيرة بحالتها غنمها المسلمون، وحرروا أسرى المسلمين، وارتفعت مكانة عماد الدين بين المسلمين وعظمت هيئته في صدور الصليبيين وأثبت للجميع أنه رجل المهام الصعبة .

\*وقد حاول بعدها فتح دمشق ولكنه فشل بسبب سياسة 'معين الدين أنر' المتحكم في دمشق والتي كانت ستجلب وبالأشديداً على المسلمين فتركها عماد الدين وضم شهر زور وأعمالها .  
فتح الرها

تقع إمارة الرها في منطقة الجزيرة وهي المنطقة الواسعة الواقعة بين العراق وسوريا، وقد فتحها المسلمون سنة ١٧ هجرية، و'الرها' من البلاد التي كان لها خصوصية عن البيزنطيين لأنها إحدى المدن الدينية عندهم وكانت تنتشر بها الكنائس والصوامع، وأيضاً لها خصوصية عند المسلمين لكونها على حدود الدولة الإسلامية المشتركة مع الدولة البيزنطية، وكان الخلفاء دائمي الاهتمام بهذه المنطقة، ولكن مع ضعف الخلافة العباسية وخروج كثير من أجزاءها عن سيطرتها تعرضت منطقة الرها للعدوان المتكرر من البيزنطيين \*وعندما انطلقت شرارة الحملات الصليبية احتل الصليبيون 'الرها' وأقاموا بها أول إمارة صليبية بأرض الإسلام وذلك سنة ٤٩٢ هجرية .

\*كانت الرها قرية من الموصل وكان أميرها داهية صليبي اسمه 'جوسلين' ففهم من تحركات عماد الدين زنكى أنه يخطط لفتح الرها فعمد إلى تقوية دفاعاتها والمبالغة في تحصينها وظل مقيماً في الرها لا يفارقها أبداً رغم أن زوجته وأولاده بفرنسا ولكنه صبر في فراقهم من أجل الدفاع عن الرها وهكذا يكون عزم الرجال وهمة القادة .

\*كان عماد الدين زنكى يعرف قدر 'جوسلين' ودهائه وحكته لذلك وضع خطة في غاية الذكاء فهو كما يقولون [لا يقل الحديد إلا الحديد] فلقد أظهر عماد الدين أنه مشغول بحرب القبائل الكردية التي تسيطر على قلاع كثيرة في منطقة ديار بكر 'جنوب تركيا الآن' وهي قبائل ذات نزعة إستقلالية ولا تقبل الإنضمام لصف عماد الدين زنكى لدواعي عصبية وقبلية، وبالفعل انطلت هذه



دعة على 'جوسلين' الذى خفف من شدة التحصينات وتراخى في دفاعاته حتى أنه قد سافر لزيارة أهله في فرنسا، وكان عماد الدين زنكى قد بث العيون التى ترافع له الأخبار ليل نهار فلما علم مغادرة 'جوسلين' وتراخت الدفاعات، نادى في معسكر جيشه بالاستعداد للهجوم على الرها .

\*كان عماد الدين من أشجع الناس وأقواهم وأجرؤهم في القتال لايجاريه أحد من جنده في ذلك، وقبل القتال وضع عماد الدين مائدته للطعام وقال [لا يأكل معى على المائدة إلا من يطعن معى غداً باب الرها] وهى كناية عن شدة القتال والشجاعة لأن طاعن الباب يكون أول فارس في الجيش يصل لباب المدينة ولا يفعل ذلك إلا أشجع الناس، فلم يجلس معه على المائدة إلا صبي صغير فقيل له :ارجع مما أنت في هذا المقام، فقال له عماد الدين زنكى القائد المربى القدوة الذى يعرف كيف يحبس الشباب والنشء ويحفز طاقاتهم [دعوه فوالله إنى أرى وجهاً لا يتخلف عنى] وبالفعل أثرت هذه الكلمات عن طاقة جبارة عند الصبي فكان أول طاعن وأول بطل في هذه المعركة وفتحت المدينة في ٦ جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هجرية وكان لفتحها رنة شديدة في العالمين الإسلامى والصليبي، فلقد كان أعظم إنتصار حققه المسلمون على الصليبيين منذ دخولهم للشام منذ خمسين سنة، وأعاد ذاكرة الانتصارات لهم وسرت روح جهادية كبيرة عند المسلمين بعدها وعادت لهم الثقة وتغلبوا على الهزيمة النفسية تجاه الصليبيين التى أقعدتهم عن السعى للتحرير عشرات السنين .

\*أما الصليبيون فقد نزلت بهم أعظم المصائب وفقدوا أهم إمارة صليبية لهم بالمنطقة، ولقد قاموا بحملتهم الصليبية الثالثة على الشام سنة ٥٤٣ هجرية لاسترجاع الإمارة ولكنهم فشلوا .

الأبطال لا يقتلون إلا غدرًا

إن الأسود لا يقتلون إلا في الظلام وإن الأبطال لا يُنلون إلا بالغدر والخيانة، وتلك هى المأساة الكبيرة التى عانت منها أمة الإسلام على مر عصورها، فكلما ظهر فيها بطل أو قائد أو داعية أو عالم في الشرع أو في فرع من فروع العلوم أو نبغ أحد في أى مجال من المجالات التى ستحقق خيراً ونفعاً للمسلمين فإن أعداء الأمة والدين يعملون على إزاحة هذا النابغة بشتى الوسائل إما بالاغراء والإستقطاب أو بالسجن والنفي أو بالقتل والغدر، وثبت الأبطال والأفذاذ الذين قتلوا غدرًا طويلاً وممتداً منذ عهد النبى صلى الله عليه وسلم حتى وقتنا الحاضر . \*بعد الإنتصار العالمى في 'الرها' ضاقت السبل على أعداء الإسلام وأصبح كيافهم الصليبي بالشام والذى بنوه في خمسين سنة في خطر حقيقى في ظل وجود هذا الأسد الرابض، وبعد أن أعيتهم الحيل في ميادين القتال وصار ينتصر الأسد عليهم في كل موطن، قرروا اللجوء إلى سلاح الغدر والخيانة والأيدى القذرة التى لا تعمل إلا في الظلام .

\*فكر الصليبيون في كيفية التخلص من عماد الدين زنكى وبعد تفكير وتقلب في من سيقوم بهذه المهمة قرروا إسناد مهمة الإغتيال لجرمين محترفين مأجورين متخصصين في هذا الطريق وهم الحشاشون وهى فرقة باطنية وإحدى الفرق الشيعية وقد أسسها رجل اسمه الحسن الصباح بعد أن تعلم الزندقة والإلحاد في مصر أيام المستنصر الفاطمى ولما عاد إلى الشام أسس هذه الفرقة التى تعتمد على الإغتيال والغدر مقابل الأموال والضياع، وكان الباطنية أشد ضرراً وخطراً على المسلمين من الصليبيين واليهود .

\*وبالفعل وفي ٦ ربيع الآخر سنة ٥٤١ هجرية والبطل الفذ عماد الدين زنكى يحاصر أحد القلاع المطلّة على نهر الفرات واسمها 'قلعة جعبر' قامت مجموعة من الباطنية بالاتفاق مع الصليبيين بعد أن قبضوا الثمن بالتسلل إلى معسكر عماد الدين زنكى واندسوا بين حراسه وفي الليل دخلوا عليه خيمته وهو نائم وقتلوه رحمه الله وهكذا مات البطل وترجل الفارس وحط الراكب بعد حياة طويلة كلها جهاد وكفاح ونصرة للإسلام وأهله وبعد أن أحيما ما كان مندثراً وأعاد ما كان مفقوداً ووضع الأساس المتين لمن جاء بعده فرحمه الله رحمة واسعة وغفر له ما كان من خطايا وزلات .

\*واسمع ما قاله عنه المؤرخون قال ابن الأثير في وصفه [كان شديد الهيبة في عسكره ورعيته عظيم السياسة لا يقدر القوى على ظلم الضعيف وكانت البلاد قبل أن يملكها خراباً من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج، فعمرها وامتلأت أهلاً وسكاناً، وكان أشجع

عن الله [ \* وقال عنه ابن كثير [وقد كان زكياً من خيار الملوك وأحسنهم سيرة وشكلاً وكان شجاعاً مقداماً حازماً خضع ملوك الأطراف وكان من أشد الناس غيرة على نساء الرعية وأجود الملوك معاملة وأرفقهم بالعامّة ] .  
ولعل أكثر ما تميز به عماد الدين زكياً عن قادة زمانه هو فهمه لحقيقة المشكلات التي تعاني منها الأمة الإسلامية وإحساسه بالمسئولية تجاه أمته وإيثاره لمصلحتها على مصلحته الخاصة وعمله بمقتضى ما يجب عليه وقتها، لذلك فاق ملوك زمانه وعلا ذكره عنهم، ويكفيه فخراً أنه قد خلف ورائه بطلاً عظيماً مثله وزيادة هو نور الدين محمود .  
\*وقد لقب الناس عماد الدين زكياً بالشهيد لحرصه على طلب الشهادة في كل لقاء مع الأعداء حتى قدرها المولى جل وعلا له في آخر السعى .

المراجع والمصادر :الكامل في التاريخ / البداية والنهاية / سير أعلام النبلاء / شذرات الذهب / البرق الشامي / الروضتين في تاريخ الدولتين / وفيات الأعيان / الطريق إلى بيت المقدس / محاضرات الدولة العباسية / المنتظم / النجوم الزاهرة .

## نور الدين محمود - مجدد الجهاد المقدس

الزمان / الأربعاء ١١ شوال - ٥٦٩هـ

المكان / دمشق - الشام.

الموضوع / وفاة نور الدين محمود - قسيمة الدولة الشهيد.

الأحداث /

: هناك رجال في تاريخ الأمة المسلمة يمثلون نقاط فارقة في مسار الأحداث يكون وجودهم بمثابة النقطة بين عصرين وعهدين مختلفين سواءً كان على المستوى العلمي أو العملي، هؤلاء الرجال هم مشاهير هذه الأمة وفخرها بين الأمم بهم تنباهى على من سلف وبهم ترقى إلى قيادة البشرية وبهم بعد فضل الله وحده تحقق الكثير من الإنجازات، ولعل شهرة هؤلاء تكفي في كونهم قد جددوا ما اندرس من مقومات النجاح لهذه الأمة لذلك فهم أحق الناس بوصف المجددين، وصفحتنا هذه لواحد من هؤلاء المجددين من هذه الأمة.  
هو السلطان الكبير والملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زكياً التركي السلجوقي الملقب بالقسيم بن القسيم والملقب أيضاً بالشهيد بن الشهيد أمير الشام وسلطانها وفاتح مصر وأعمالها ومزيل الفاطميين وبدعها الذي قيضه الله عز وجل في هذه الفترة العصيبة من حياة الأمة المسلمة التي كانت تعاني من كيد أعدائها وعجز أبناءها وتفرق الصف المسلم وكثرة الصراعات الداخلية والميل للجدل النظري والفلسفة العقيمة وانتشار الرفض والبدع بين المسلمين فأراد الله عز وجل بهذه الأمة خيراً فأرسل لها هذا الرجل بمثابة هدية ومنحة ربانية.

ولد نور الدين محمود في ١٧ شوال سنة ٥١١ هـ وكان أبوه عماد الدين زكياً صاحب الموصل وحلب وأول من حمل راية الجهاد ضد الصليبيين فنشأ نور الدين في كفالة هذا المجاهد الكبير فتعلم القرآن والفروسية والرماية فنشأ شهماً شجاعاً ذا همة عالية وقصد صالح وحرمة وافترة وديانة بينة، فلما قتل عماد الدين زكياً سنة ٥٤١ هـ وهو محاصر قلعة جعبر أخذ نور الدين خاتمه من يده ولبسه هو دليلاً على أنه سيجمل راية الجهاد من بعد أبيه.

عندما تولى نور الدين الأمر عمل على جبهتين جبهة داخلية عمل فيها على توحيد بلاد الشام تحت راية خاصة مدينة دمشق حاضرة الشام وحصن الإسلام بما لضعف حكامها واستعانتهم بالصليبيين أحياناً كثيرة، وبالفعل استطاع ضمها سنة ٥٤٩ هـ ووسّع أملاكه في بلاد الجزيرة والشام، أما في الجبهة الخارجية فعمل على التصدي للصليبيين وطردهم من الكثير من الحصون والبلاد والمعاقل المنيعة وأعاد أكثر من خمسين بلداً وحصناً لدولة الإسلام وكسر ملوك الصليبيين عدة مرات وأسر كبيرهم الذي افتدى نفسه بفدية هائلة وأقسم ألا يحارب نور الدين محمود بعدها.

رغم اشتغال نور الدين محمود معظم حياته بالجهاد ضد الصليبيين إلا أنه كان يعمل على راحة المسلمين وتوسيع بلادهم فبنى المساجد والمدارس ووسّع الطرق والأسواق ووضع المكوس وأعطى أموالاً كثيرة للأعراب ليمتنعوا عن الإغارة على الحجيج، وبنى بدمشق مارستاناً منقطع النظير لم يرى مثله في الشام، وجعله وقفاً على الفقراء والمساكين به من الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه حتى قيل أن النار لم تنطفئ فيه مئات السنين، ورتب الخضراء في الأماكن المخوفة، ولما اتسع ملكه أدخل نظام الحمام الهوادي لنقل الأخبار والرسائل بسرعة، وبنى داراً للعدل كان يجلس فيها بنفسه مرتين في الأسبوع ولا يحجب دونه أحداً قوياً كان أو ضعيفاً فيخاطب الناس بنفسه ويسمع كلامهم وشكواهم وكان السر وراء بناءها أن كبيراً امرأته أسد الدين شيركوه قد اتسعت أملاكه وإقطاعاته وقام نوابه بظلم جيرانهم، ولم يكن أحد يقوى على استعداء والانتصاف من أسد الدين لمكانه عند نور الدين فبنى نور الدين هذه الدار من أجل ذلك وشعر أسد الدين أن هذه الدار ما بنيت إلا لأجله فجمع نوابه، ونهاهم عن ظلم أي أحد فامتنع الجميع عن الظلم، وأوقف نور الدين أوقافاً كثيرة على الأيتام والأرامل والمجاورين للحرمين واخويع وأصحاب العاهات والمدرسين الذين يعملون بالقراءة والكتابة.

أما عن صفاته رحمه الله فقد كان محافظاً على الصلوات في الجماعات كثير التلاوة محباً لفعل الخيرات عفيف البطن والفرج مقتصدًا في الإنفاق على نفسه وعياله حتى قيل أن أدنى الفقراء في زمانه أعلى منه نفقة، ولم يسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا في رضى صموتاً وقوراً قال ابن الأثير [لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز مثل الأمير نور الدين ولا أكثر تحريماً للعدل والإنصاف منه] وكانت له دكاكين بمحصى قد اشتراها مما يخصه من المغامر فكان يقتات منها، واستفتى العلماء في ما يحل له من بيت المال فكان يتناوله ولا يزيد عليه شيئاً أبداً.

كان نور الدين محباً للعلم والعلماء وكان فقيهاً على مذهب أبي حنيفة وسمع الحديث وأسمعه وكان يحب الصالحين ويعظمهم وبنى بدمشق داراً لاستماع الحديث وإسماعه وكان شديد الهيبة وقوراً ولا يستطيع أن يجلس بين يديه إلا بإذنه وكان أسد الدين شيركوه ومجد الدين بن الداية من كبار الأمراء لا يستطيعون أن يجلسوا إلا بإذنه وإذا دخل عليه أحد من الفقهاء والعلماء قام له ومشى خطوات وأجلسه معه على سجاده في وقار وسكون ويقول عنهم [هؤلاء جند الله وبدعائهم تُنصر على الأعداء] ، وكان شديد الاتباع للحديث النبوي سمع جزءاً من حديث النبي صلى الله عليه وسلم وفيه [خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم متقلداً سيفه] فتعجب من تغيير عادات الناس في ذلك فأمر جنوده أن يخرجوا جميعاً للقتال وهم متقلدي السيوف يريد الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، وكان مواظباً على قيام الليل مدمناً له حتى أنه رتب من يضرب بالطبول في أوقات الثلث الأخير من الليل ليوقظ المتجهدين للصلاة وكان شديد التأثير بالمواعظ مستجيباً لمن ينصحه وينكر عليه، أنشده أبو عثمان الواعظ أبياتاً في عاقبة الظلم عندما سمعها نور الدين بكى بكاءً شديداً وأمر بعدها بوضع المكوس عن جميع البلاد وأمر الوعاظ والأئمة أن يستحلوا له رعيته فيما أخذ منهم وأنه كان لصالح قتال الصليبيين وكان نور الدين متواضعاً لله عز وجل لا يرى لنفسه فضلاً ولا منزلة قال له يوماً صديقه الفقيه قطب الدين النيسابوري [بالله يا مولانا لا تخاطر بنفسك فإنك لو قتلت قتل جميع من معك وأخذت البلاد وفسد حال المسلمين] فقال له نور الدين [اسكت يا قطب الدين فإن قولك إساءة أدب على الله ومن هو محمود؟ من كان يحفظ الدين والبلاد قبلي غير الذي لا إله إلا هو؟ ومن هو محمود] وكان نور الدين يقول في سجوده [اللهم ارحم المكاس العشار الظالم محمود الكلب؟].

أما عن شجاعته فإنه لم ير على ظهر فارس قط أشجع منه ولا أثبت منه تماماً مثل والده عماد الدين زنكي أشجع أهل زمانه، وكان حسن اللعب بالكرة [لعبة البولوا الآن] وكان يضرب الكرة بعصاه ثم يسوق ورائها ويأخذها بيده قبل أن تقوى على الأرض، ولقد عاتبه بعض الصالحين على لعبه بالكرة فقال له [إنما الأعمال بالنيات وإنما أريد بذلك تمرين الخيل على الكر والفر وتعليمها ذلك ونحن لا نترك الجهاد]، وكان صبوراً في الحرب يقول عن نفسه [قد تعرضت للشهادة غير مرة فلم يتفق لي ذلك ولو كان فيخير ولي عند الله قيمة لرزقيها والأعمال بالنية].

ما عن شهادة العدو في حقه فلقد سمع أحد المسلمين الذين دخلوا القدس لزيارة جنود الصليبيين وهم يتحدثون فيما بينهم يقولون [إن القسيم بن القسيم [يعني نور الدين] له مع الله سر فإنه لم يظفر علينا بكثرة جنده وجيشه، وإنما يظفر علينا وينصر بالدعاء وصلاة الليل فإنه يصلي لله ويرفع يده إلى الله يدعو فإنه يستجيب له ويعطيه سؤله فيظفر علينا].

أما عن أهم أعماله الجهادية فإنه قد استطاع أن يفتح حوالي نيفاً وخمسين مدينة وحصناً كانت في أسر الصليبيين وكسرهم مرات عديدة ومن أهم أعماله أيضاً قيامه بإرسال أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي لفتح مصر قرابة هجمة الصليبيين عنها وهذا ما مهد السبيل لإزالة الدولة الفاطمية الخبيثة التي استمرت بمصر قرابة القرنين وزيادة من الزمان كالسرطان المشتري في جسد الأمة المسلمة وأزال شعار الرفض من مصر والشام، وكان لنور الدين من مسألة القدس أمر تنوء بحمله الجبال فقد كان مهتماً بأمر القدس بصورة شغلت كل تفكيره وعيشه ولقد اطلع في صغره على تفسير ابن برجان الأندلسي والذي استنبط فيه من تفسير سورة الروم أن فتح بيت المقدس سيكون سنة ٥٨٣هـ فتاقت نفسه لمن يكون هو الفاتح فشرع في عمل منبر من أعظم المنابر حجماً وصناعة كي يوضع في المسجد الأقصى عند فتح القدس واستمر يصنع فيه قرابة الخمس سنوات وأمله وحلمه أن يرى هذا المنبر داخل المسجد الأقصى، والناس من حوله يتعجبون من هذا الذي يصنع منبراً لمسجد أسير، ولكن حلمه وأمله لم يتحقق ذلك لأنه أصيب بمرض الخوانيق [الدفتريا] ومات رحمه الله في ١١ شوال سنة ٥٦٩هـ بدمشق عن عمر يناهز الثامنة والخمسين من عمره الذي قضاه بأسره بين جهاد وصلاة وعلم وصدقة وبر وتقوى فكان رحمه الله كما قيل فيه:

جمع الشجاعة والخشوع لديه ما أحسن الشجعان في الخراب

ومما يبرهن على أن هذا الدين يحمله رجال وهذه الأمة لا ينصلح حالها إلا بأمثال هؤلاء الرجال انظر ماذا حدث بعد وفاته رحمه الله مباشرة فلقد اختلفت الأمراء من بعده وظهرت الشرور وكثرت الخمر وقد كانت لا توجد في زمانه، وانتشرت الفواحش وظهرت حتى أن ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل لما تحقق موته، وكان يبغضه لكون نور الدين يردعه عن أفعاله السيئة نادى مناديه بالمساحة باللعب واللهو والشراب والسكر والطرب ومع المناادي دف وقده ومزمار وتحقق فيهم قول الشاعر :

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرًا وقد أمكن الجهر

ولا عزاء للرجال ويا حسرة على أمة الإسلام بفقد رجالها.

## صلاح الدين الأيوبي

يا صلاح الدين.. أيها القائد العظيم.. لقد بعثك الله إلينا لتخلص المسلمين من الذل والهوان.. لتعيد إليهم عزهم وكرامتهم المسلوبة.. ولتعلمهم أن النصر لا يتم إلا بالإيمان بالله ورسوله، وأن رايات الإسلام لن تُرفع ماداموا متفرقين غير معتمدين بحبل الله. في سنة ٤٩٢هـ استولى الصليبيون على بيت المقدس، فقتلوا الأطفال واغتصبوا النساء ومثلوا بالشيخوخ، وهدموا المساجد، وأحرقوا البيوت، وذبحوا الآلاف من شباب المسلمين الأبرياء، واقتحموا المسجد الأقصى، وقتلوا كل من احتسى به من المسلمين، فقتلوا أكثر من سبعين ألفاً من أئمة المسلمين وعلمائهم وعُبادهم وزهادهم ممن فارقوا الأوطان، وجاوروا ذلك الموضع الشريف، ليحتموا به ظناً منهم أن الصليبيين لن يقتحموا الأماكن المقدسة. وبعد هذه المذبحة الوحشية التي حدثت في المسجد الأقصى، أمروا الأسرى فغسلوا شوارع المدينة الملتخة بدماء المسلمين، ودموعهم تنهمر من أعينهم، وظل المسلمون ينتظرون مجاهداً من مجاهدي الإسلام ينقذ بيت المقدس من أيدي الصليبيين، وبعد حوالي ٤٠ سنة من الزمان، وفي سنة ٥٣٢هـ ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب من أسرة كردية عريقة الأصل، في بلدة صغيرة من بلاد العراق تسمى (تكريت) وتولّى والده ولاية (تكريت) في نفس الليلة التي وُلد فيها صلاح الدين؛ لإخلاصه لـ(عماد الدين زنكي) أتابك الموصل. رحلت أسرة صلاح الدين إلى الموصل، واستقرت بها، وفيها نشأ صلاح الدين ينعم بخيراتها، ولما وصل إلى سن البلوغ، أرسله والده إلى مدرسة المدينة، فتعلم القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، وكان صلاح الدين معروفاً بين زملائه بالذكاء الشديد، وهدوء الطبع، وحبه الشديد للمطالعة ودراسة الكتب، ولم



من أبوه أن يعلمه الفروسية، ويدربه على استعمال أدوات الحرب، وفنون القتال، فأظهر فيها مهارة حربية كبيرة، أدهشت وازملاءه. كان صلاح الدين يقرأ ويستمتع إلى سِير قادة الحروب من المسلمين الذين يجاهدون في سبيل الله، ويتمنى أن يكون واحدًا منهم لينقذ المسلمين من بطش الصليبيين، استجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه؛ عندما سحب عمه (أسد الدين شيركوه) على رأس حملة أرسلها (نور الدين محمود) وهو ابن عماد الدين زنكي إلى مصر لحمايتها من أطماع الصليبيين، وأظهر صلاح الدين من الشجاعة والثبات والبأس ما أدهش القادة، وتم النصر لجيش عمه (شيركوه) الذي عينه الخليفة الفاطمي (العاضد) وزيراً له، وأقام صلاح الدين مع عمه في القاهرة. وشاءت الأقدار أن يموت (شيركوه) في مارس سنة ١١٦٩م، فاختار الخليفة الفاطمي صلاح الدين وزيراً له بدلاً من عمه وهو في الحادية والثلاثين من عمره، فنشر صلاح الدين العدل بين الناس، وتقرَّب إلى الشعب المصري، يعطف على المساكين، ويساعد الفقراء، حتى أحبوه وأعجبوا بشخصيته. ولما مات الخليفة الفاطمي تولى صلاح الدين حكم مصر، وثبت ملكه؛ فقضى على عناصر الخيانة فيها، وتخلص من القوى التي هددت سلطانه، ونجح في إزالة الخلاف المذهبي بين المسلمين عن طريق القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية ونشر المذهب السني، ورأى صلاح الدين أن الفرصة قد جاءت له ليحقق ما كان يتمناه من إنقاذ المسلمين ورد اعتبارهم، وطرد الصليبيين من بيت المقدس، فأعد جيشاً قوياً، كامل الأسلحة، كثير العدد، ثم قاد الجيش بنفسه، وسار إلى البلاد الخاضعة للصليبيين وأخذ يجررها واحدة بعد أخرى حتى وصل إلى بيت المقدس، فحصره حول الحصار؛ مما اضطر الصليبيين إلى تسليم المدينة له. ودخل جيش صلاح الدين بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ - ١١٨٨م) تقريباً، ظافراً منتصراً، رافعاً رايات النصر والتوحيد، مكبراً.. الله أكبر.. الله أكبر، لم يقتل طفلاً أو امرأة أو شيخاً كبيراً، بل عاملهم بالرحمة والشفقة، وأطلق صلاح الدين سراح الشيوخ والضعفاء، ولم تنهب جيوشه بيتاً من البيوت أو تحرق زرعاً أو تقطع شجراً، وحينما جمعت غنائم الحرب وقسمت بين الجنود والقادة، تنازل صلاح الدين عن نصيبه للفقراء من المسيحيين، وجعل الأسرى الذي كانوا من حظِّه أحراراً.

وبينما كان صلاح الدين سائراً ذات يوم في بعض طرقات مدينة بيت المقدس قابله شيخ مسيحي كبير السن، يعلق صليفاً ذهبياً في رقبته وقال له: أيها القائد العظيم لقد كتب لك النصر على أعدائك، فلماذا لم تنتقم منهم، وتفعل معهم مثل ما فعلوا معك؟ فقد قتلوا نساءكم وأطفالكم وشيوخكم عندما غزوا بيت المقدس، فقال له صلاح الدين: أيها الشيخ.. يعني من ذلك ديني الذي يأمرني بالرحمة بالضعفاء، ويحرم على قتل الأطفال والشيوخ والنساء، فقال له الشيخ: وهل دينكم يمنعكم من الانتقام من قوم أذاقوكم سوء العذاب؟ فأجابه صلاح الدين: نعم.. إن ديننا يأمرنا بالعفو والإحسان، وأن نقابل السيئة بالحسنة، وأن نكون أوفياء بعهودنا، وأن نصفح عند المقدرة عمن أذنب.. فقال الشيخ: نعم الدين دينكم وإني أحمد الله على أن هداي في أيامي الأخيرة إلى الدين الحق، ثم سأل: وماذا يفعل من يريد الدخول في دينكم؟ فأجابه صلاح الدين: يؤمن بأن الله واحد لا شريك له، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله، ويفعل ما أمر الله به، ويتعد عما نهى الله عنه، وأسلم الرجل وحسن إسلامه، وأسلم معه كثير من أبناء قومه. وذات يوم كان صلاح الدين يتفقد أحوال جنده؛ فرأى امرأة من الصليبيين تبكي وتضرب على صدرها، فسألها عن قصتها، فقالت: دخل المسلمون في خيمتي وأخذوا ابني الصغيرة فنصحني الناس بأن أذهب إليك، وقالوا: إن السلطان صلاح الدين رجل رحيم، فدمعت عينا صلاح الدين، وأمر أحد الجنود أن يبحث عن الصغيرة وعمن اشتراها، ويدفع له ثمنها ويحضرها، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه، ففرحت الأم فرحاً شديداً وشكرت صلاح الدين على مروءته وحسن صنيعه. ولما علمت أوروبا بانتصار القائد صلاح الدين ودخوله بيت المقدس جهزوا جيشاً كبيراً من الفرسان والبواسل والقادة الشجعان؛ لاسترداد بيت المقدس من يد صلاح الدين، ووصلت الجيوش الصليبية إلى بلاد الشام تحت قيادة (ريتشارد قلب الأسد) الذي حاصر عكا ودخلها وغدر بأهلها بعد أن أمنهم، لكنه لم يستطع دخول بيت المقدس، وتحرك ريتشارد في نهاية أكتوبر عام ١١٩١م من (بافا) قاصداً بيت المقدس، ولكن صلاح الدين حصنها بنفسه، فراجع ريتشارد وارتفعت الروح المعنوية لدى المسلمين، وتم عقد صلح الرملة بين المسلمين والصليبيين، وكان من شروط الصلح وقف القتال بينهما لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، ورجع ريتشارد إلى بلاده يجر أذيال الخيبة. وبعد أن أتمَّ الله النصر للمسلمين، وخلص بيت المقدس من الصليبيين عاد صلاح الدين إلى مصر بعد أن طال



بأنه عنها؛ فبنى المساجد والمدارس، وبنى قلعة فوق هضبة جبل المقطم، وبنى حول القاهرة سوراً عظيماً من الحجر يحميها من الأعداء، ثم توجه صلاح الدين يتفقد القلاع والمواقع البحرية، وبعدها توجه إلى دمشق، ماراً ببيت المقدس، وفي دمشق مرض صلاح الدين واشتد المرض عليه ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩هـ، وبات في غيبوبة طويلة لم يفتق منها إلا نادراً، فاستحضر أحد المقرئين ليقرأ عنده القرآن حتى وصل القارئ إلى قوله تعالى: لا إله إلا هو عليه توكلت.. تبسم وجه صلاح الدين، وتقل وانتقلت روحه إلى رضوان الله، ودفن صلاح الدين في قلعة دمشق إلى أن يدت له قبة ضريح في شمال (الكلاسة) شمالي جامع دمشق قرب المدرسة العزيزية التي بناها العزيز عثمان بن صلاح الدين؛ فنقل إليها. وقد كتب في سيرة صلاح الدين كثير من المؤرخين القدماء والمحدثين مثل: (النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية) لابن شداد، و(الناصر صلاح الدين) لسعيد عبد الفتاح عاشور.

## سيف الدين قطز

ازداد خطر التتار، وأصبحت مصر مهددة بغزوهم بعد أن نزل (هولاكو) قائد التتار بجيوشه إلى بغداد في سنة ٦٥٦هـ، فقتل مئات الألوف من أهلها، ونهبوا خزانها، وقضوا على الخلافة العباسية، ثم قتلوا الخليفة المستعصم بالله وأفراد أسرته، وكبار رجال دولته. امتد زحفهم إلى بلاد الجزيرة، واستولوا على (حران) و(الرُّها) و(ديار بكر) ونزلوا على (حلب) في سنة ٦٥٨هـ، فاستولوا عليها، ووصلوا إلى دمشق، فهرب سلطانها (الناصر يوسف بن أيوب) ثم دخلوا المدينة بعد أن استسلم أهلها، وواصل التتار زحفهم، فوصلوا إلى (نابلس) ثم إلى (الكرك) وبيت المقدس، وتقدموا إلى (غزة) دون أن يقاومهم أحد، ولم يبقَ غير اليمن والحجاز ومصر، التي كان يتولى عرشها في ذلك الوقت المنصور على بن عز الدين أيلك، وكان صغيراً لم يتجاوز عمره خمس عشرة سنة، ولم يكن قادراً على تحمل أعباء الملك في هذه الظروف العصيبة؛ لذلك طلب علماء الإسلام من قطر أن يتولى العرش مكانه؛ لإنقاذ مصر والبلاد الإسلامية من خطر التتار. ووصلت رسالة إلى قطر من زعيم التتار (هولاكو) وكانت الرسالة مليئة بالتخويف والتهديد، ومن بين ما جاء فيها: (... فلکم بجميع البلاد معتبر وعن عزمننا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمرکم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا، ويعود علیکم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكّا، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليکم بالهرب، وعلینا الطلب، فأی أرض تأویکم، وأی طریق ینجیکم، وأی بلاد تحمیکم؟!).

جمع قطر الأمراء بعد أن استمع إلى الرسالة، واتفق معهم على قتل هولاكو فقبض عليهم واعتقلهم وأمر بإعدامهم، ثم علق رؤسهم على (باب زويلة) كان هذا التصرف من جانب قطر يعني إعلانه الحرب على التتار، فجمع القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم وأخذ رأيهم في الجهاد، وفي دار السلطنة بقلعة الجبل حضر العالم الكبير الشيخ (عز الدين بن عبد السلام)، والقاضي (بدر الدين السنجاري) قاضي الديار المصرية، واتفق الجميع على التصدي للتتار والموت في سبيل الله. خرج قطر يوم الاثنين الخامس عشر من شعبان سنة ٦٥٨هـ بجميع عسكر مصر، ومن انضم إليهم من عساكر الشام والعرب والتركمان.. وغيرهم من قلعة الجبل، فنادى في القاهرة وكل أقاليم مصر، يدعو الناس إلى الجهاد في سبيل الله والتصدي لأعداء الإسلام، وجمع الأمراء، وطلب منهم أن يساعده في قتال التتار، لكنهم امتنعوا عن الرحيل معه، فقال لهم: (يا أمراء المسلمين.. لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبي، ومن لم يختتر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين). وقبل المسير جمع (قطر) قاداته، وشرح لهم خطورة الموقف، وذكرهم بما وقع من التتار من الخراب والتدمير وسفك الدماء، وطلب منهم وهو يجهد بالبكاء أن يبذلوا أرواحهم وأنفسهم في سبيل إنقاذ الإسلام والمسلمين، ولم يتمالك القادة أنفسهم فأخذوا ييكون لبكائه، ووعدوه أن يضحوا بكل شيء لنصرة الإسلام. وخرج قطر لملاقاة التتار خارج مصر، ولم يقف موقف المدافع، وذلك لإيمانه بأن المهجوم خير وسيلة للدفاع، وحتى يرفع معنويات رجاله، ويثبت لأعدائه أنه لا يخافهم ولا يرهبهم، وتحرك قطر من مصر في شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ، ووصل مدينة (غزة) وكانت فيها بعض جموع التتار بقيادة (بيدرا) الذي فوجئ بهجوم أحد كتائب المماليك بقيادة بيبس أحد قواد قطر الشجعان، لتحقيق بشائر النصر، ويستعيد قطر (غزة) من التتار، وأقام بها يوماً واحداً، ثم اتجه شمالاً نحو سهل البقاع ببلبنان حيث التتار بقيادة (كُتْبَغَا) الذي فشل في إنقاذ التتار الذين هزمهم المسلمون في

وكان قطر رجلاً عسكرياً من الدرجة الأولى، فهو يعد لكل شيء عدته، فقد أرسل حملة استطلاعية استكشافية تحت قيادة (ركن الدين بيبرس) وكان قائداً ذا خبرة واسعة بالحروب، لكي تجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن التتار، عن قوتهم وعددهم وسلاحهم، وبعد أن انتهى (بيبرس) من استطلاع الأخبار اشتبك مع التتار في مكان يسمى (عين جالوت) وظل القتال مستمراً حتى وصل قطر مع قواته إلى ميدان المعركة الفاصلة. وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان من سنة ٦٥٨هـ، دارت معركة حاسمة بين الطرفين، واقتحم قطر صفوف القتال، وتقدم جنوده وهو يصيح: (وا إسلاماه.. وا إسلاماه) يضرب بسيفه رعوس الأعداء، ويشجع أصحابه، وبطالهم بالشهادة في سبيل الله، واشتدت المعركة، فأخذ قطر يصرخ أمام جيشه: (وا إسلاماه.. وا إسلاماه.. يا الله.. انصر عبدك قطر على التتار) وقتل فرس قطر، وكاد يتعرض للقتل لولا أن أسعفه أحد فرسانه، فزول له عن فرسه، فسارع قطر إلى قيادة رجاله، ودخل دون خوف في صفوف الأعداء حتى ارتبكت صفوفهم، ولجأ القائد العظيم إلى حيلة ذكية؛ فقد أخفى بعض قواته من المماليك بين التلال؛ حتى إذا زادت شدة المعركة، ظهر المماليك من كمائنهم، وهاجموا التتار بقوة وعنف. وكانت هناك مزرعة بالقرب من ساحة القتال، فاخفى فيها مجموعة من جنود التتار، فأمر (قطر) جنوده أن يشعلوا النار في تلك المزرعة، فاحترق من فيها من التتار، وبدأ المسلمون يطاردون التتار، حتى دخل قطر دمشق في أواخر شهر رمضان المبارك، فاستقبله أهلها بالفرح والسرور، ولم تمض أسابيع قليلة، حتى ظهرت بلاد الشام من التتار، فخرج من دمشق عائداً إلى مصر، وفي طريق عودته انقض عليه عدد من الأمراء وقتلوه حسداً منهم وحقداً على ما أكرمه الله به من نصر، وذلك يوم السبت السادس عشر من ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ، ودفن في المكان الذي قتل فيه، وحزن الناس عليه حزناً شديداً.

## عمر المختار

اتركوه.. لا تقتلوا شيخاً كبيراً جاوز السبعين من عمره.. أي ذنب جناه؟! لم يفعل شيئاً سوى أنه دافع عن تراب وطنه وعزة دينه!! لم يستجيبوا لنداء الرحمة.. أعدموه وسط أهله وعشيرته.. لم يتركوهم ليعبروا عن أحزانهم.. حبسوا دموعهم في عيونهم.. قتلوا البطل المجاهد.. قتلوا العزة والكرامة.. ألا ساء ما يفعلون!! وهب حياته من أجل حرية بلاده والجهاد في سبيل الله، وتمنى أن يلقي الله شهيداً فحقق الله أمنيته. ولد في (البطنان) بركة الليبية عام ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م لأبوين صالحين، وشاءت إرادة الله أن ينشأ (عمر المختار) يتيماً، فقد توفي والده أثناء سفره إلى الحج بعد أن أوصى أحد رفاقه بولديه عمر، ومحمد، وكانا يقيمان بـ (زنزور) يدرسان براويتها. ذهب عمر إلى زاوية (الجغبوب) لإتمام دراسته، وظل بها ثمانية أعوام يحفظ القرآن الكريم، ويتعلم العلوم الإسلامية وخلال الدراسة ظهرت صفاته الخلقية السامية، ولما كان عمر المختار قد تأدب بآداب الإسلام، فقد أحبه شيوخ الطريقة السنوسية وزعماءها الذين كانت لهم مقاليد الأمور في ليبيا، ونال ثقتهم، ولذلك اصطحبه السيد محمد المهدي السنوسي معه عندما انتقل إلى (الكفرة) وكان محل ثقته، كما عينه شيخاً لزاوية القصور بالجليل الأخضر.

واحتل الاستعمار الإيطالي ليبيا سنة ١٩١١م، وارتكبوا الكثير من الفظائع، وعاثوا في الأرض الفساد، وبدأ نضال المجاهدين من أبناء ليبيا، ودعا الزعماء السنوسيون في بني غازي وغيرها شيوخ الزوايا للجهاد، وأسرع عمر المختار يلبي النداء، وأظهر في كفاحه ضد المستعمر الغاصب شجاعة نادرة، ومقدرة كبيرة على القتال، فقد كان مؤمناً بحق وطنه في الحرية والكرامة.

وتولى عمر المختار قيادة المجاهدين، وبدأ في رسم الخطط لاتباعه، وقد التزم في بداية الأمر موقف الدفاع والترص بالعدو، حتى إذا خرج الجنود الإيطاليون من مواقعهم؛ انقض المجاهدون عليهم كالصقور، فقاتلوهم قتالاً شديداً، وأخذوا منهم ما يحتاجون إليه من أسلحة، وبعد أن بدأت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، فاجأ المجاهدون المعسكرات الإيطالية، وأشعلوا الثورة في الجهات التي يحتلها الإيطاليون. وسافر الأمير إدريس السنوسي إلى مصر في سنة ١٩٢٢م للعلاج، ولطلب المساعدة من مصر، فعين عمر المختار نائباً عنه، نظم عمر المختار صفوف المجاهدين بعد هجمات الإيطاليين المتتالية، وأخذ مجموعة المجاهدين، وذهب بهم إلى الجبل الأخضر، وأنشأ قاعدة عسكرية، ومراكز لتدريب المتطوعين، فتوافد عليه الناس من كل ناحية؛ ليشاركوا في الجهاد ضد المستعمر. فعين لكل

بنة رئيساً منها، وأجمع الرؤساء على أن يكون عمر المختار قائدًا عامًا ورئيساً لكل المجاهدين، بعد أن أقسموا على الجهاد حتى لحظة في حياتهم، حتى يخلصوا وطنهم العزيز من أنياب المستعمر، وازداد القتال شراسة بين المجاهدين والإيطاليين، وكانت معركة (الرحبية) ومعركة (عقير المظمورة) و(كرسة) وهي أسماء أماكن في الجبل الأخضر.. من أعظم تلك المعارك التي شهدتها منطقة الجبل الأخضر، وانتهت كلها بانسحاب الإيطاليين مخذولين، مما رفع من شأن عمر المختار في نفوس المجاهدين، فالتفوا حوله، وتعاهدوا على مناصرته. لم يركن البطل عمر المختار إلى الراحة، بل ظل يقاتل، وكيف لا يستمر في القتال وأمام عينيه صور الفظائع والانتهاكات وأصناف العذاب التي صبها الإيطاليون على شعبه، فقد قتلوا الآلاف، ومثلوا بالكثيرين، وهتكوا أعراض النساء، وألقوا في السجون أعداداً عظيمة من الرجال والنساء، وأذلوا الشيوخ والأطفال، وحرقوا الزروع والثمار، فكان لابد من القتال حتى الموت أو النصر، وبعد أن انتشر القتال في كل أنحاء ليبيا، قرر عمر المختار الذهاب إلى مصر لمقابلة الأمير إدريس السنوسي ليتلقى منه التعليمات بشأن الجهاد. وفي طريق عودته من مصر إلى برقة عن طريق السلوم أبلغ جواسيس الجيش الإيطالي رؤساءهم أن عمر المختار عبر الحدود الشرقية، فأعدوا له كميناً للقبض عليه، وما إن ظهر عمر المختار ورفاقه حتى أطلق عليهم العدو مدافعهم الرشاشة، لكن المجاهدين استطاعوا التصدي لهم وانقضوا على القوة الإيطالية وأبادوها عن آخرها، ولع اسم عمر المختار في سماء الجهاد.. عرفه الصغير والكبير كقائد بارع يتقن أساليب الكر والفر، وانضمت إليه القبائل المقيمة بالجبال، وتعاطف معه الشعب؛ فأمدوه بما يقدرون عليه من مؤن وأسلحة.

ولم يعرف المجاهد الكبير طعم الراحة، وحاول مشايخ قبيلته، ذات مرة منعه من الجهاد لكبر سنه، فقال لهم: (إن ما أسير فيه هو طريق الخير، ومن يبعدي عنه فهو عدو لي، ولا ينبغي لأحد أن ينهائي عنه).. ولم تفلح مدافع الجيش الإيطالي في وقف هجمات عمر المختار ورفاقه، فحاولوا استمالة وشراؤه بالمال، ووعده بحياة ناعمة هنيئة، لكنه رفض، وأخذ يدافع عن تراب وطنه بكل قوة وشراسة، وألحق بالإيطاليين خسائر كبيرة في الأرواح والمعدات، مما دفع (موسوليني) إلى تعيين المارشال (بادوليو) حاكماً على (طرابلس وبرقة) وبمجيئه إلى ليبيا بدأت مرحلة جديدة من النضال في (برقة والجبل الأخضر). واتصل الحاكم الجديد بعمر المختار لإنهاء الخلاف، وقبل عمر بشروط فيها الكرامة والعزة لوطنه، لكن الإيطاليين حاولوا خداعه، وتأكد غدرهم عندما قامت الطائرات الإيطالية بإلقاء قذائفها على عمر المختار ورفاقه من المجاهدين، فبدأ النضال من جديد!! اشتبك المجاهدون مع الإيطاليين في معركة كبيرة في أكتوبر عام ١٩٣٠م، وقد عثر الإيطاليون بعد انتهائها على نظارة عمر المختار، كما عثروا على جواده المشهور مقتولاً في ميدان المعركة، فقال (جرازياني) نائب المارشال بادوليو متوعداً: لقد أخذنا اليوم نظارة عمر المختار، وغداً نأتي برأسه، وظل عمر المختار يقاومهم وهو متسلح بالإيمان حتى وقع البطل في الأسر؛ ففرحت إيطاليا كلها فرحاً شديداً. ودعيت المحكمة إلى الانعقاد، ونصبت المشنقة، وجاءوا بالبطل الكبير عمر المختار مقيد اليدين بالسلاسل والقيود، وحكموا عليه بالإعدام شنقاً في محاكمة صورية لم تستغرق سوى ساعة وربع الساعة، وكان الشيخ آنذاك في السبعين من عمره، وسار المجاهد الكبير إلى حبل المشنقة بقدم ثابتة وشجاعة نادرة، لا يتوقف لسانه عن ترديد الشهادتين؛ حتى نفذ فيه حكم الإعدام، وعندما وجدوا أنه لم يمت أعادوا شنقه مرة ثانية. واستشهد البطل بعد أن غرس الحرية والكرامة في نفوس شعبه، وحقق الله ما نتمناه، فقد أشرقت شمس الحرية على ليبيا من جديد، ورحلت إيطاليا عنها، وحصلت على استقلالها ١٩٥١م ولا ينسى العالم الإسلامي عامة والشعب الليبي خاصة واحداً من أبرز مجاهديها، بعدما ضحى بكل ما يملك في سبيل نصرته الإسلام، واستقلال وطنه.

## عبد الحميد الثاني

(لن يستطيعوا أخذ فلسطين إلا عند تشريح جثتي وساعتها يأخذونها بلا ثمن، أما وأنا على قيد الحياة فلا). في سنة ١٢٥٨هـ — ١٨٤٢م ولد السلطان عبد الحميد ونشأ وترعرع في دار الخلافة العثمانية التي كانت محط أنظار المسلمين، كانت لهم نعم العون والسند، يجتمعون تحت رايتها، ويحتمون بها من شرور أعداء الإسلام. ومرت الأيام، وآن لـ (عبد الحميد الثاني) أن يتحمل المسئولية في وقت كانت تحيط فيه الأخطار بالدولة من كل جانب، بعد أن أصدر شيخ الإسلام في دار الخلافة العثمانية فتواه التاريخية بعزل

سلطان (مراد الخامس) وتعيين شقيقه الأصغر عبد الحميد الثاني خليفة على المسلمين. وقبل أن يباشر السلطان مهامه الجديدة حـ لله تعالى ركعتين شكرًا في جامع (أبي أيوب الأنصاري) وهناك تسلم من شيخ الإسلام سيف عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وهو سيف الخلافة، وبدأ موكب السلطان الجديد يسير في شوارع العاصمة (استنبول).. تنثر الزهور، وتنشر الرياح من شرفات المنازل ابتهاجًا بالسلطان الجديد، حتى إذا مرَّ الموكب بقبر والد السلطان ومقابر أجداده الفاتحين، نزل السلطان عبد الحميد ليدعو لهم بالرحمة والمغفرة وفاء وعرفانًا.

وبدأ السلطان عبد الحميد الثاني بداية طيبة تدل على اعتزازه بدينه الإسلامي وفخره بتعاليمه، فكان أول ما أصدره من قرارات أن أقرَّ الدستور الذي يكفل المساواة بين جميع الناس من خلال المجالس الشرعية، كما أصدر أوامره بحرية القضاء لتكون كلها نافذة من خلال النظام الإسلامي للدولة، فظل الإسلام في عهده منبع القوانين ودستورها، كما عرف السلطان للعلماء حقهم، فكان لا يقطع أمرًا دونهم، ويحرص على استشارتهم والأخذ بآرائهم. وقد حاول اليهود عن طريق زعيمهم الماكر (هرتزل) استمالة السلطان عبد الحميد الثاني، حتى يسمح لهم بإقامة وطن لليهود في فلسطين (بيت المقدس)، فعرضوا عليه مبلغًا ضخماً في ذلك الزمان البعيد يقدر بثلاثة ملايين من الجنيهات بالإضافة إلى دفع مبلغ كبير للدولة العثمانية -سنوياً- مقابل أن يصدر السلطان عبد الحميد قراراً يسمح فيه لليهود بالهجرة إلى فلسطين والتوطن فيها، وهنا قال السلطان عبد الحميد قولته الخالدة التي سجلها التاريخ بمداد من ذهب: (لست مستعداً لأن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد، فهي ليست ملكي بل هي ملك لشعبي، روي تراهما بدمه، وليحتفظ اليهود بأموالهم، ولن يستطيعوا أخذ فلسطين إلا عند تشريح جثتي، وساعتها يأخذونها بلا ثمن، أما وأنا على قيد الحياة.. فلا). واستمرت مكائد اليهود، فحاول هرتزل، أن يقدم عرضاً مغرياً جديداً للسلطان، فلقد كانت الدولة العثمانية مدينة لأوروبا بمبلغ كبير من المال، وعرض اليهود تسديد هذه الديون مقابل تحقيق طلبهم، ولكن السلطان كان أثبت جأشاً وأقوى عزيمة عندما قال: (إن الديون ليست عاراً، ولكن العار أن أبيع أرضاً لليهود، فليحتفظ اليهود بأموالهم، فالدولة العثمانية لا يمكن أن تحتمي وراء حصون بنيت بأموال أعداء المسلمين). واستمرت الدسائس والحيل الخبيثة، ففي عام ١٩٠٢م طلب هرتزل من السلطان أن يسمح له بإنشاء جامعة عبرية في فلسطين يديرها أساتذة من بني صهيون، فرفض السلطان هذا العرض أيضاً، لأنه يعلم أن هذه الجامعة سوف تكون بداية لاحتلال الأرض، فأنكر جميع رسائلهم ورفض قبول هداياهم. وعند ذلك عمل اليهود على تأليب أوروبا وروسيا ضد السلطان عبد الحميد، فقامت الثورات على الحدود، وأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية، وتكررت أوروبا للمعاهدات المعقودة معها، فوقفت إلى جوار روسيا في حربها ضد السلطان عبد الحميد. وفي نفس العام ثار المسيحيون في (تكريت) بتحريض من البابا، وكان السلطان يحارب ومن ورائه قلوب المسلمين تدعو له، ورغم هزيمته فإن القادة والجنود العثمانيين أظهروا شجاعة فائقة شهد بها الأعداء الأوروبيون، ولكن لم تشغل هذه الأحداث السلطان عبد الحميد عن الإصلاحات الداخلية في شتى أنحاء الدول العثمانية؛ فنشر التعليم المدني بجميع مراحل وأنواعه، وأنشأ جامعة (استنبول) سنة ١٨٨٥م والتي كانت تعرف أولاً باسم (دار الفنون) كما أنشأ دوراً للمعلمين ومعاهد فنية ومدارس ابتدائية وثانوية مدنية، واهتم بالتعليم العسكري، وأنشأ المكتبات ومدرسة خاصة لتخريج الدعاة. كما توسع في إنشاء الخطوط الحديدية ليسهل الحج وذلك بتقصير مدة الرحلة وليجعله في متناول الجميع، واستخدم البرق كوسيلة جديدة للمراسلة، وتبنى مشروع الجامعة الإسلامية، وسار فيه سيراً مباركاً، وعمل على إعادة الهيبة إلى الخلافة كما كانت في عهدها الأولى، وكان دائماً يدعو المسلمين إلى الاتحاد، كما كان حريصاً كل الحرص على نشر هذا الأمر بين المسلمين جميعاً في كل البلاد الإسلامية. لكن اليهود ظلوا يعملون ضده في الخفاء، فسلطوا عليه إعلامهم، واتهموه في حياته الخاصة، وشهروا به وبأسرته، وساهموا في إنشاء جمعية (الاتحاد والترقي العثمانية) التي قامت بثورة عسكرية استمرت عاماً كاملاً من سنة ١٩٠٨ حتى سنة ١٩٠٩ ونجحت بعدها في سلب الخلافة من السلطان عبد الحميد، وقررت نفيه إلى (سالونيك) في إبريل سنة ١٩٠٩م. وظل عبد الحميد الثاني في منفاه حتى لقي ربه سنة ١٩١٨م بعد أن أدار شئون الدولة العثمانية لمدة أربعة وثلاثين عاماً، فكان من أطول سلاطين الدولة العثمانية حكماً، كما كان من أكثر السلاطين الذين تمَّ الافتراء عليهم زوراً وبهتاناً.



أحمد



## المتنبى

'أبو الطيب المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ / ٩١٥ - ٩٦٥ م)

اسمه أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي. ولد بالكوفة ونشأ بالشام. وقيل أصوله من كندة، وهم ملوك يمنيون، و دس خصومه في نسبه، و قوى الآراء المتناقضة في نسبه أنه لم يشير إلى أبيه في شعره أبداً. و الغالب أن طفولته كانت تتميز بالحرمان، و بالتنقل في العراق و الشام حيث كانت الفتن تتمرور المتنبى و سيف الدولة الحمداني:

كان المتنبى قد عرف سيف الدولة من قبل وسمع عن أفضاله الكثير وكانا في سن متقاربة، فوفد عليه المتنبى وعرض عليه أن يمدحه بشعره على ألا يقف بين يديه لينشد قصيدته كما كان يفعل الشعراء فأجاز له سيف الدولة أن يفعل هذا. أجازته سيف الدولة على قصائده بالجوائز الكثيرة وقربه إليه فكان من أخلص خلصائه وكان بينهما مودة واحترام، وتعد سيفياته أصفى شعره. غير أن المتنبى حافظ على عادته في إفرااد الجزء الأكبر من قصيدته لنفسه وتقديمه إياها على ممدوحة، فكان أن حدثت بينه وبين سيف الدولة جفوة وسعها كارهوه وكانوا كثيراً في بلاط سيف الدولة.

المتنبى و كافور الإخشيدي:

الشخص الذي تلا سيف الدولة الحمداني أهمية في سيرة المتنبى هو كافور الإخشيدي، و كان مبعث ذهاب المتنبى إليه على كرهه له لأنه عبد طمعه في ولاية يوليها إياه. و لم يكن مديح المتنبى لكافور صافياً، بل بطنه بالهجاء و الحنين إلى سيف الدولة الحمداني، فكان مطلع أول قصيدته مدح بها كافور:

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً و حسب المنيا أن يكن أمانيا

و كان كافور حذراً، داهية، فلم ينل المتنبى منه مطلبه، بل إن وشاة المتنبى كثروا عنده، فهجاهم المتنبى، و هجا كافور و مصر هجاء مرا و مما نسب إلى المتنبى في هجاء كافور: لا تأخذ العبد إلا والعصاة معه إن العبد لأنجاس مناكيد و استقر في عزم المتنبى أن يغادر مصر بعد أن لم ينل مطلبه، فغادرها في يوم عيد، و قال يومها قصيدته الشهيرة التي ضمنها ما بنفسه من مرارة على كافور و حاشيته، و التي كان مطلعها:

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

وقيل أن ابن خالويه رمى دواة الخبر على المتنبى في بلاط سيف الدولة، فلم ينتصف له سيف الدولة، و طعن في هذه الرواية كثيرون لأسباب متعددة. بعد تسع سنوات في بلاط سيف الدولة جفاه الأخير وزادت جفوته له بفضل كارهي المتنبى ولأسباب غير معروفة قال البعض أنها تتعلق بحب المتنبى المزعوم لخولة شقيقة سيف الدولة التي رثاها المتنبى في قصيدة ذكر فيها حسن مبسمها، وكان هذا

لا يليق عند رثاء بنات الملوك. انكسرت العلاقة الوثيقة التي كانت تربط سيف الدولة بالمتنبي وغادره إلى مصر حزينا خائبا

ليواصل النظر في أطماعه السياسية بعد أن قال في حضرته قصيدته الشهيرة:

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ وَمَنْ بَجَسَمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ  
مَا لِي أَكْتِمُ حَبًّا قَدْ بَرَى جَسَدِي وَتَدْعِي حُبَّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الْأُمَمُ  
إِنْ كَانَ يَجْمَعُنَا حُبٌّ لِعُرَّتِهِ فَلَيْتَ أَنَا بِقَدْرِ الْحُبِّ نَقْتَسِمُ  
قَدْ زُرْتُهُ وَسُيُوفُ الْهِنْدِ مُغْمَدَةٌ وَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَالسُّيُوفُ دَمُ  
وَكَانَ أَحْسَنَ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ وَكَانَ أَحْسَنَ مَا فِي الْأَحْسَنِ الشَّيْءِ  
فَوْتُ الْعَدُوِّ الَّذِي يَمُمُّهُ ظَفَرٌ فِي طَيْهِ أَسْفَ فِي طَيْهِ نَعَمُ  
قَدْ نَابَ عَنْكَ شَدِيدُ الْخَوْفِ وَاصْطَنَعْتَ لَكَ الْمَهَابَةَ مَا لَا تَصْنَعُ الْبُهِمُ  
أَلَزَمْتَ نَفْسَكَ شَيْئًا لَيْسَ يَلْزُمُهَا أَنْ لَا يُوَارِيَهُمْ أَرْضٌ وَلَا عَلَمُ  
أَكَلَمَا رُمْتَ جَيْشًا فَاثْنَى هَرَبًا تَصَرَّفْتَ بِكَ فِي آثَارِهِ الْهِمَمُ  
عَلَيْكَ هَزْمُهُمْ فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ وَمَا عَلَيْكَ بِهِمْ عَارٌ إِذَا انْهَزَمُوا  
أَمَا تَرَى ظَفَرًا حُلُوا سِوَى ظَفَرٍ تَصَافَحَتْ فِيهِ بِيضُ الْهِنْدِ وَاللَّمَمُ  
يَا أَعْدَلُ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخِصْمُ وَالْحَكَمُ  
أُعِيدُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةٌ أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فَيَمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ  
وَمَا انْتِفَاعُ أَحْيِ الدُّنْيَا بِنَاطِرِهِ إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلُمُ  
سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا بِأَنْتِي خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ  
أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدَبِي وَأَسْمَعْتُ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ  
أَنَا مِلءُ جُفُوفِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ  
وَجَاهِلٌ مَدَّةً فِي جَهْلِهِ ضَحِكِي حَتَّى أَتَتْهُ يَدٌ فَرَّاسَةٌ وَقَمُ  
إِذَا رَأَيْتَ يُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ اللَّيْثَ يَيْتَسِمُ  
وَمُهْجَةٍ مُهْجَتِي مِنْ هَمِّ صَاحِبِهَا أَدْرَكْتُهَا بِجَوَادٍ ظَهَرُهُ حَرَمُ  
رِجَالُهُ فِي الرِّكْضِ رِجْلٌ وَالْيَدَانِ يَدٌ وَفَعْلُهُ مَا تُرِيدُ الْكَفُّ وَالْقَدَمُ  
وَمُرْهَفُ سِرْتِ بَيْنِ الْجَحْفَلَيْنِ بِهِ حَتَّى ضَرَبْتُ وَمَوْجُ الْمَوْتِ يَلْتَطِمُ  
الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ  
صَحِبْتُ فِي الْفَلَوَاتِ الْوَحْشَ مُتَفَرِّدًا حَتَّى تَعَجَّبَ مِنِّي الْقُورُ وَالْأَكَمُ  
يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ وَجَدَانَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ  
مَا كَانَ أَخْلَقْنَا مِنْكُمْ بِتَكْرِمَةٍ لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمْ مِنْ أَمْرِنَا أَمَمُ  
إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لَجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمُ  
وَبَيْنَا لَوْ رَعَيْتُمْ ذَاكَ مَعْرِفَةً إِنَّ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ النُّهَى ذِمَمُ  
كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عِيًّا فَيُعْجِزُكُمْ وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرَمُ  
مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنَّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي أَنَا الثَّرِيَّا وَذَانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمُ  
لَيْتَ الْعَمَامَ الَّذِي عِنْدِي صَوَاعِقُهُ يُزِيلُهَا إِلَى مَنْ عِنْدَهُ الدَّيَمُ  
أَرَى النَّوَى يَفْتَضِينِي كُلَّ مَرَّحَلَةٍ لَا تَسْتَقِيلُ بِهَا الْوَحَّادَةُ الرُّسُمُ

مَنْ تَرَكَنَ ضُمَيْرًا عَنْ مِيَامِنَا لِيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتَهُمْ نَدَمٌ  
إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا أَنْ لَا تُفَارِقَهُمْ فَالِرَّاحِلُونَ هُمْ  
شَرُّ الْبِلَادِ مَكَانٌ لَا صَدِيقَ بِهِ وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ مَا يَصِمُ  
وَشَرُّ مَا قَنَصْتُهُ رَاحَتِي قَنَصْتُ شُھْبُ الْبُرَاةِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّخِمِ  
بِأَيِّ لَفْظٍ تَقُولُ الشَّعْرَ زَعْفَةً تُجْوزُ عِنْدَكَ لَا عُرْبٌ وَلَا عَجَمٌ  
هَذَا عِتَابُكَ إِلَّا أَنَّهُ مَقَّةٌ قَدْ ضَمَّنَ الدَّرَّ إِلَّا أَنَّهُ كَلِمٌ  
التي مدح فيها نفسه وسيف الدولة واعتذر إليه وعاتبه قبل أن يغادره إلى مصر  
مقتله:

كان المتنبي قد هجا ضبة بن يزيد الأسدي العيني بقصيدة شديدة، وهي:

مَا أَنْصَفَ الْقَوْمُ ضَبَّةً وَأُمَّهُ الطُّرْبَةُ  
وَأِنَّمَا قُلْتُ مَا قُلْتُ رَحْمَةً لَا مَحَبَّةَ  
وَحِيلَةَ لَكَ حَتَّى غُذِرْتَ لَوْ كُنْتَ تَأَبَّةَ  
وَمَا عَلَيْكَ مِنَ الْقَتْلِ إِنَّمَا هِيَ ضَرْبَةٌ  
وَمَا عَلَيْكَ مِنَ الْغَدْرِ إِنَّمَا هِيَ سَبَّةُ  
يَا قَاتِلًا كُلَّ ضَيْفٍ غَنَاهُ ضَيْحٌ وَعُلْبَةٌ  
وَحَوْفٌ كُلِّ رَفِيقٍ أَبَاتِكَ اللَّيْلُ جَنَبَةٌ  
كَذَا خُلِقْتَ وَمَنْ ذَا الَّذِي يُغَالِبُ رَبَّهُ  
وَمَنْ يُبَالِي بِذِمٍّ إِذَا تَعَوَّدَ كَسْبُهُ  
فَسَلِّ فَوَازِكَ يَا ضَبَّ أَيْنَ خَلَّفَ عَجْبَةٌ  
وَأِنْ يَخْنُكَ فَعَمْرِي لَطَالَمَا خَانَ صَحْبُهُ  
وَكَيْفَ تَرْغَبُ فِيهِ وَقَدْ تَبَيَّنَتْ رُغْبَةُ  
مَا كُنْتَ إِلَّا ذُبَابًا نَفَثَكَ عَنَّا مَذْبَةُ  
وَأِنْ بَعْدُنَا قَلِيلًا حَمَلْتَ رُمْحًا وَحَرَبَةً  
وَقُلْتَ لَيْتَ بِكَفِّي عَنَانَ جَرْدَاءَ شَطْبَةٍ  
إِنْ أَوْحَشْتِكَ الْمَعَالِي فَإِنَّهَا دَارُ غُرْبَةٍ  
أَوْ آنَسْتِكَ الْمَخَازِي فَإِنَّهَا لَكَ نَسْبَةٌ  
وَأِنْ عَرَفْتَ مُرَادِي تَكْشَفْتَ عَنْكَ كُرْبَةٌ  
وَأِنْ جَهِلْتَ مُرَادِي فَإِنَّهُ بِكَ أَشْبُهُ

فلما كان المتنبي عائداً يريد الكوفة، وكان في جماعة منهم ابنه محشد وغلामه مفلح، لقيه فاتك بن أبي جهل الأسدي، وهو خال ضبة،  
وكان في جماعة أيضاً. فاقتتل الفريقان وقتل المتنبي وابنه محشد وغلामه مفلح بالنعمانية بالقرب من دير العاقول غربي بغداد. فكان بحق  
رحمه الله: ماله الدنيا وشاغل الناس.

قصة قتله أنه لما ظفر به فاتك... أراد الهرب

فقال له ابنه... اتقرب وأنت القاتل

الخيال والليل والبيداء تعرفني \*\*\*\* والسيف والرمح والقرطاس والقلم

المتنبى: قتلتني يا هذا، فرجع فقاتل حتى قتل

ولهذا اشتهر بأن هذا البيت هو الذي قتله. بينما الأصح أن الذي قتله هو تلك القصيدة  
مترلته الشعرية:

لأبي الطيب المتنبى مكانة سامية لم تنح مثلها لغيره من شعراء العربية ، فقد كان نادرة زمانه ، وأعجوبة عصره ، وظل شعره إلى اليوم  
مصدر إلهام ووحى للشعراء والأدباء ، يجدون فيه القوة ، والتدفق ، والشاعرية المرتكزة على الحس والتجربة الصادقة.

شعر المتنبى

كان المتنبى شاعرا من شعراء المعاني وفق بين الشعر والحكمة، وجعل أكثر عنايته بالمعنى يسكبه في بيت واحد مهما اتسع ويصوغه  
بأبداع الصياغة التي تأخذ بالألباب. أطلق الشعر من قيوده التي قيده بها أبو تمام وخرج عن أساليب العرب المخصوصة، فهو إمام  
الطريقة الإبداعية في الشعر العربي.

شعر المتنبى صورة صادقة لعصره ، وحياته ، فهو يحدّثك عما كان في عصره من ثورات ، واضطرابات ، ويدلّك على ما كان به من  
مذاهب ، وآراء ، ونضج العلم والفلسفة . ويمثل شعره حياته المضطربة : ففيه يتجلى طموحه وعلمه ، وعقله وشجاعته ، وسخطه  
ورضاه ، وحرصه على المال ، كما تتجلى القوة في معانيه ، وأخيلته ، وألفاظه ، وعباراته.

وترى فيه شخصية واضحة ، حتى لتكاد تتبينها في كل بيت ، وفي كل لحظة ، بل هي تُضفي طابعاً خاصاً يميز شعره عن غيره . فبناءً  
القصيدة بناءً محكم منطقي متسلسل ، وهو يتناول موضوعه مباشرة أن يقدم له بحكم تناسبه ، وقد ظهرت قصائده الموحدة الموضوع  
، أو التماسكة الموضوعات في كهولته ، حين كان في صحبة سيف الدولة ، وكافور ، وأما قصائده الأخرى فيسير فيها على نمط  
الشعر القديم ، ويمزج فيها بين فنون وأغراض مختلفة.

والمعاني تمتاز بقوة وفخامتها ، وسموها غالباً ، وكثيراً ما يركزها في صورة حقائق عامة ، ويصوغها في قوالب حكمة بارعة . وتختلف  
الأخيلة في شعره تبعاً لمراحل حياته ، ويمتاز خياله بالقوة والخصب : وألفاظه جزلة ، وعباراته رصينة ، تلائم قوة روحه ، وقوة معانيه  
، وخصب أخيلته ، وهو ينطلق في عباراته انطلاقاً ولا يعنى فيها كثيراً بالحسنات والصناعة.

يقول عنه أبو العلاء المعري إنه أشعر المحدثين. ضمن شعره كثيراً من الأمثال والحكم، واختص بالإبداع في وصف القتال والتشبيب  
بالأعرايبات، وأجاد التشبيه وإرسال المثلين في البيت الواحد، وأبداع المديح والهجاء، وظل شعره مدداً في كل عصر لكل شاعر  
وكاتب، وما يزال المتنبى يحتفظ بمجده وشهرته إلى يومنا، لا يدانيه أحد من الشعراء. ونحن نورد من روائع أقواله وأمثاله بعضاً مما جاء  
في شعره: ففي صرعى الحب يقول:

لا تعذل المشتاق في أشواقه \*\*\* حتى يكون حشاك في أحشائه  
إن القليل مضر جاً بدموعه \*\*\* مثل القليل مضر جاً بدمائه  
ويقول فيما عاناه من نوائب الزمان:

لم يترك الدهر في قلبي ولا كبدي \*\*\* شيئاً تميمه عين ولا جيد  
يا ساقبي أخمر في كنوسكما \*\*\* أم في كنوسكما هم وتسعيد  
أصخرة أنا مالي لا تميمي \*\*\* هذي المدام ولا تلك الأغاريد  
إذا أردت كميّ اللون صافية \*\*\* وجدتها وحبيب النفس مفقود  
وفي العفة مع الحبيب يقول:

وأشنب معسول الشيات واضح \*\*\* سترت فمي عنه فقبل مفرقي  
وأجساد غزلان كجيدك زرنني \*\*\* فلم أتبين عاطلاً من مطوق  
وما كل من يهوى يعف إذا خلا \*\*\* عفافي ويرضي الحب والخيل تلنقي

وداع الأحبة يقول:

ولم أر كالألحاظ يوم رحيلهم \*\*\* بعثن بكل القتل من كل مشفق  
أدرن عيوننا حائرات كأنها \*\*\* مركبة أحداقها فوق زئبق  
عشية يغدوننا عن النظر البكا \*\*\* وعن لذة التوديع خوف التفرق  
وفي آلام الحب والهوى يقول:

أرق على أرق ومثلي يأرق \*\*\* وجوى يزيد وعبرة تترق  
جهد الصبابة أن تكون كما أرى \*\*\* عين مسهدة وقلب يخفق  
ما لاح برق أو ترنم طائر \*\*\* إلا انشيت ولي فؤاد شقيق  
جربت من نار الهوى ما تنتظفي \*\*\* نار الغضى وتكل عما تحرق  
وعذلت أهل العشق حتى ذقته \*\*\* فعجبت كيف يموت من لا يعشق  
وعذرتهم وعرفت ذنبي أنني \*\*\* عيرتهم فلقيت فيه ما لقوا.  
وفي مفارقة الأحباب يقول:

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت \*\*\* لها المنايا إلى أرواحنا سبلا  
وفي أهل العزم يقول:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم \*\*\* وتأتي على قدر الكرام المكارم  
وتعظم في عين الصغير صغارها \*\*\* وتصغر في عين العظيم العظائم  
وفي نوائب الأيام يقول:

عرفت نوائب الحدثان حتى \*\*\* لو انتسبت لكنت لها نقيبا  
وفي التبرم بالحياة وتمني الموت لندرة الصديق يقول:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا \*\*\* وحسب المنايا أن يكن أمانيا  
تمنيها لما تمنيت أن أرى \*\*\* صديقا فأعيا أو عدوا مداجيا  
وفي الفخر بنفسه يقول:

وما أنا إلا سمهري حملته \*\*\* فزين معروضا وراع مسددا  
وما الدهر إلا من رواة قصائدي \*\*\* إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا  
فسار به من لا يسير مشمرا \*\*\* وغنى به من لا يغني مغردا  
وفي ذلك يقول:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي \*\*\* وبنفسي فخرت لا بجوددي  
وبهم فخر من نطق الضاد \*\*\* وعوذ الجاني وغوث الطريد  
إن أكن معجبا فعجب عجيب \*\*\* لم يجد فوق نفسه من مزيد  
وفي علو الهمة وتمجيد الكرامة:

أعطى الزمان فما قبلت عطائه \*\*\* وأراد لي فأردت أن أتخيرا  
وفي حال الدنيا يقول:

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا \*\*\* وأعيا دواء الموت كل طبيب  
سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها \*\*\* منعنا بها من جيئة وذهوب



جها الآتي تملك سالب \*\*\* وفارقها الماضي فراق سليب  
وقوله:

لحا الله ذي الدنيا مناخا لراكب \*\*\* فكل بعيد المهم فيها معذب  
وقوله:

أبى خلق الدنيا حبيبا تديمه \*\*\* فما طلبى منها حبيبا ترده  
ونراه يندب حظه فيقول:

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه \*\*\* أنى بما أنا باك منه محسود  
أمسيت أروح مشر خازنا ويداً \*\*\* أنا الغنى وأمواي المواعيد  
وفي حظ الجهال في الحياة يقول:

تحلو الحياة لجاهل أو غافل \*\*\* عما مضى منها وما يتوقع  
ولمن يغالط في الحقائق نفسه \*\*\* ويسومها طلب الحال فتطمع  
المال والحظ لا يجتمعان وفي ذلك يقول:

وما الجمع بين الماء والنار في يدي \*\*\* بأصعب من أن أجمع الجد والفهما  
وفي مفارقة الصديق المتغير يقول:

إذا صديق نكرت جانبه \*\*\* لم تعني في فراقه الحيل  
في سعة الخافقين مضطرب \*\*\* وفي بلاد من أختها بدل  
ونراه يمتدح شعره بقوله:

وما قلت من شعر كأن بيوته \*\*\* إذا كتبت يبيض من نورها الخبر  
كأن المعاني في فصاحة لفظها \*\*\* نجوم الثريا أو خلائقك الزهر  
و من أشعاره:

ما لنا كلنا جوى، يا رسول، --- أنا أهوى، وقلبك المتبول  
كلما عاد من بعثت إليها، --- غار مني، وخان فيما يقول  
أفسدت بيننا الأمانات عينا --- ها وخانت قلوبهن العقول  
وإذا خامر الهوى قلب حب --- فعليه لكل قلب دليل

## أبو العتاهية

(ما رأيته إلا توهمت أنه سماوي وأني أرضي).. قالها أبو نواس الشاعر المعروف اعترافاً بفضلته وتعظيماً لقدره وتقديرًا لشعره. إنه (إسماعيل بن القاسم بن سويد) المعروف بأبي العتاهية، ولد سنة ١٣٠ هـ لأبوين فقيرين في قرية صغيرة بالقرب من الكوفة بأرض العراق، ولما اشتدت ظروف الحياة بأسرته واشتكت آلام الفقر، قرر الأب الرحيل إلى الكوفة، لعله يجد بها فرجاً لضيقه ومخرجاً لهم، وكانت الكوفة في تلك الفترة مدينة المتناقضات والأضداد؛ ففي مقابل الغنى الفاحش يوجد الفقر الشديد، وفي مقابل الزهد والتبسك يوجد المجون والاستهتار، وفي مقابل العلم يوجد الجهل. فرح إسماعيل بقدمه إلى الكوفة، لأنه كان يهوى الشعر منذ نعومة أظفاره، فبحث عن شعراء الكوفة وتردد على مجالسهم وكان يقضي نهاره متجولاً في دروب الكوفة وأزقتها، حاملاً قفصاً مليئاً بالجرار والخزف، ويعود آخر النهار بدهام قليلة يسد بها جوعه، وكان يهون على نفسه عناء العمل بترديد أشعار يحفظها. وذات يوم مرَّ

يأتى تذكارون الشعر ويتنافسون في إنشاده، فسلم عليهم، ووضع قفصه عن ظهره، ثم قال: يا فتیان أراكم تتذاكرون الشعر، سأقول شطراً من بيت فتكمّلونه، فإن فعلتم فلکم عشرة دراهم، وإن لم تفعلوا فعليکم عشرة دراهم، فتعجبوا من بائع جوار يتردد على مجالس الشعراء، وسخروا منه، وقالوا له: مالك والشعر؟! ولكنه أصر على التحدي.. فقال: أكملوا البيت: ساكني الأحداث أنتم....

فلم يستطيعوا أن يكملوا البيت، ولما طال انتظاره لهم سخر منهم، ثم أكمل:

ساكني الأحداث أنتم مثلنا بالأمس كنتم

ليت شعري ما صنعتم أم أربحتم أم خسرتكم

وبدأت شهرة أبي العتاهية تنتشر في الكوفة، وذاع شعره لجودته وحسنه، ولما تميز به من بساطة وبعد عن التعقيد، ورحل بعد ذلك إلى الحيرة، واستقر بها فترة من الزمن، وأتجه أبو العتاهية في بداية حياته الشعرية إلى شعر الغزل الذي كان شائعاً، ثم تركه بعد ذلك إلى حياة الزهد والتعفف، فكتب أرجوزته (ذات الأمثال) التي تتضمن أربعة آلاف مثل يبدو من خلالها عقلاً أدرك ما في الحياة من خير وشر، فأراد تنمية الخير ومقاومة الشر. ومن جيد شعره قوله الذي يصلح حكمة في كل العصور:

إن الشَّبابَ والفراغَ والجِدَّةَ

مفسدةٌ للمرء أي مفسده

وقال: مذكراً للعباد:

الناس في غفلةٍ

ورحى المنية تطحن

ما دون دائرة الردى

حصن لمن يتحصن

وظل أبو العتاهية على زهده وتنسكه حتى لاقى ربه سنة ٢١٣هـ، بعد أن ترك شعرًا مازال يتردد حتى الآن.

## أبو تمام الطائي

في قرية (جاسم) بالقرب من دمشق، وفي أواخر القرن الثاني الهجري سنة ١٨٨هـ ولد (أبو تمام حبيب بن أوس الطائي).. ذهب إلى كتاب القرية ليتعلم القراءة والكتابة، ويحفظ القرآن الكريم، ولأنه كان فقيراً لا يملك قوت يومه فقد ترك الكتاب ليعمل بمهنة الحياطة، ليساعد أباه العطار على مواجهة أعباء الحياة، لكن أباً تمام في ظل انشغاله بالعمل لم ينس أبداً حبه للعلم والتعلم، فكان يتردد عقب انتهائه من العمل على حلقات الدرس في مساجد مدينة دمشق بعد أن استقرت بها الأسرة بحثاً عن سعة العيش وينهل من علوم الدين واللغة والشعر، وكان أبو تمام يهوى الشعر والترحال والسفر، يقول في ذلك:

وطول مقام المرء بالحي مُخلّق

لدياجتيه فاغترب تتجدد

فإني رأيت الشمس زيدت محبة

إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

ويقصد أبو تمام أن يقول: اغترب بالترحال والسفر لكي يشتاق إليك أحباؤك، فإن الشمس محبوبة لأنها ليست دائمة الظهور. ثم رحل أبو تمام إلى مصر، فأقام في مسجد عمرو بن العاص، وقضى بها خمس سنوات، كان يعمل خلالها في سقاية الماء، كما كان يتعلم من خلال استماعه للدروس التي تعقد في المسجد، فألم بالفقه والتاريخ والشعر والحديث والفلسفة، ولكنه كان يميل إلى الأدب والشعر؛ فحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة وكثيراً من القصائد، وحفظ سبعة عشر ديواناً من الشعر. وتفتحت موهبة أبي تمام في نظم الشعر، فأخذ يتكسب به، لكنه مع ذلك لم يحقق ما كان يرجوه من تحسين أحوال معيشتة، فاتجه إلى الشام، ثم إلى العراق بعد أن ضاق عليه

رق، ويقول في ذلك:

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل  
ويكدى الفتى في دهره وهو عالم  
ولو كانت الأرزاق تجري على الحجي  
هلكن إذا من جهلن البهائم  
ولم تجتمع شرق وغرب لقاصد  
ولا المجد في كف امرئ والدراهم

وانصرف أبو تمام إلى الرحلات، وأخذ ينشد الشعر في شتى البلاد، فذاع شعره وانتشر، حتى سمع به الخليفة المعتصم، فاستدعاه وقربه منه، فكان ذلك فاتحة خير عليه وتحسنت حالته، ولم يكن أبو تمام شاعراً فحسب بل كان ذواً للشعر، وقد تجلت هذه الموهبة في عدد من الكتب التي اختار فيها ما أعجبه من أشعار القدماء والحدثين وأشهرها (ديوان الحماسة) الذي ألفه وجمعه في خراسان، بعد أن نزل الثلج فأغلق الطريق، وحال بينه وبين الرحيل، فزل ضيفاً في دار بها مكتبة ضمت الكثير من الدواوين الشعرية. وكان أبو تمام رقيق المشاعر، فدانماً ما كان يحن إلى قريته (جاسم) يقول فيها:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى  
ما الحـب إلا للحبيب الأول  
كم منزل في الأرض يألفه الفتى  
وحينه أبداً لأول منـزل

وبعد أن طاف أبو تمام وتنقل في بلاد الله؛ استقر به المقام في الموصل؛ حيث استدعاه (الحسن بن وهب) والي الموصل والكاتب المشهور ليتولى بريد الموصل، فظل بها عاماً، حتى توفي بها في عام ٢٣١هـ، وقد تميز شعر (أبي تمام) ببجودة اللفظ وحسن المعاني، لكنه كان يكثر من استخدام التشبيهات والجناس والألفاظ المتشابهة والغموض في التعبير، وكان إمام الشعراء في عصره، حتى قيل فيه: (ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهماً بالشعر في حياة أبي تمام، فلما مات تقاسم الشعراء ما كان يأخذه).

## البحثري

عاش البحتري فيما بين سنة ٢٠٦ ، ٢٨٥ هـ أي في القرن الثالث الهجري من مفتحه إلى قريب من نهايته ، في أيام الدولة العباسية التي بدأت منذ عام ١٣٢ هـ فبلغت أوجها ، نفوذاً في السياسة ، وعروجاً في مراقي العلم ، على أيام الرشيد والمأمون ابنه . ولكنها لم تكن بعد ذلك في أيام البحتري بتلك المثابة ، إذ كان الموالي قد صار لهم في الدولة شأن عظيم ، وقوة القاهرة ، فجعلوا يتحكمون في الخلفاء عزلاً وتنصيماً ، وكانت موارد الدولة في أيديهم يتصرفون بها فيما يرضي رغباتهم ويشبع همهم .

بقي العرب إلى أواخر الدولة الأموية مستمسكين بالأخلاق العربية الكريمة من إباء وعزة نفس ، وحيطة للعرض ، وترفع عن الدنيا ، كما كانوا مستمسكين بدينهم مقيمين في الغالب لمناسكه ، لا يجاهرون بمعصية ولا يستهترون بموبقة ، حتى كانت الخلطة الشاملة بالأمم المجاورة (خصوصاً الفرس) في أيام الدولة العباسية فاستبيحت الحرمات ، وجاهر الناس بالمعاصي ، وتبعوا الفرس في كثير من عاداتهم (والفرس إباحيون في كثير من أمورهم) . فكان من نتائج ذلك أن شاع الفسق وأحلت المحارم ، وتبجح مرتكبوها بها ، ووصفت الدعارات في الشعر ، مما تراه مستفيضاً فيما تقرأ لأهل هذا العصر ، ولا ترى له مثيلاً في شعر أهل الدولة السابقة .

هذه هي جناية هذه المدينة الفارسية على السذاجة العربية ، جعلت حياة المدن في المملكة الإسلامية موبوءة بكل ما استطاع الشيطان أن يغري به بني آدم .

ت هي البيئة التي كان يعيش فيها البحري ، جنت عليه بلا شك ، فرأينا في شعره عُهرًا وإن قلَّ ، ورأينا لا يستحي أن يتغزّر غلامه «نسيم» وما كان عربي يفعل ذلك قبل الإسلام ولا بعده ، لولا عدوى هذه المدينة الفارسية .

كذلك كان من أثر هذه الخلطة أن ذلت نفس العربي حين رأى المال يستولي عليه الحكام وأصحاب السلطان ، فلا يستطيع استخلاص قوته من أيديهم إلا بالملق . فكثر ذلك من الشعراء الذين لم يعرفوا لهم مرتزقاً غير استجداء العظماء ، ورأينا منهم قهاتاً في هذا الباب وإسرافاً في إجلال ممدوحهم حتى خرجوا بالمبالغة إلى حد الكفر أو قريب منه .

كما كان من أثر قهات الشعراء على العظماء وكثرتهم حولهم أن قبض هؤلاء أيديهم عنهم قليلاً ، فكثر الهجاء وبالغوا فيه حتى أفحشوا وتناولوا الأعراس بما لم يكن له نظير في العصور السابقة .

وكذلك كان البحري أحد شعراء هذه الفترة التي نصفها ، يمدح ويهجو من أجل المال ، وذلك هو الشأن فيه وفي غيره من الشعراء من أمد بعيد ، وإن كان الحال في هذه الفترة أشد وأشنع .

#### حياة البحري الخاصة

نسبه : هو الوليد بن عُبيد الله ينتهي نسبه إلى بُحتر ثم إلى طيء ثم إلى قحطان . وهو عربي صميم لأن أمه كما ذكر في شعره عربية كذلك . قال :

بني ناهلٍ مهلا فإن ابن أختكم له عَزَمَات هَزَل آراءها جدّ

وقد كان البحري يفخر بآبائه ، فمن ذلك قوله :

وإذا ما عدَدْتُ يحيى وعمراً وأبانا وعمرا والوليدا

وعبيداً ومُسهرًا وجدياً وتُدولاً وبُحترًا وعُتودا

لم أدع من مناقب الجد ما يقنع من هم أن يكون مجيدا

ذهبت طيءٌ بسابقة الجد على العالمين بأساً وجوداً

نشأته وتصرفه

ولد بمدينة مَنبج سنة ٢٠٦ هـ . ومنبج هذه تقع بين حلب والفرات . وكان يضرب على شواطئ الفرات كثير من قبائل طيء ، فكان يختلف إليهم ، فنشأ عربي اللهجة كما هو عربي النسب .

ومنبج التي كانت منشأة وحلب التي كان يتردد عليها ، والصقع كله الذي كان مسترداه ومذهبه ، ومراحه ومُعاده ، كل ذلك كان له في نفسه منزلة كبيرة ، فلم يفتّر عن ترديد ذكر هذه البلاد في شهره ، بعد أن صار إلى العراق ، ومدح الخلفاء ونادمهم .

بك لتظفر بأسباب تعلقه بموطنه الأول مما رددته في شعره من الحنين إليه . ومرجع ذلك إلى حسن الهواء ، وطيب الماء ، وفتنة الطبيعة ، وما كان له فيه من هوى يجذبه إليه ، إذ عشق علوة بنت زُرعة الحلمية ، ولعلها كانت الحبيب الأول ؛ فإنه لم يفتر عن ذكرها والنسيب بها في قصائده التي مدح بها المتوكل وغيره .

ثم يظهر أنه كان يعيش بمنبج في عزة من قومه ، وشرف قديم لبيته . وتلك أسباب لا يَعْدِلُ لوطن معها شيء .

فأما فتنته بجمال بلاده فيدل عليها قوله :

حَنَّتْ رِكَابِي بِالْعِرَاقِ وَشَاقِي      فِي نَاجِرِ بَرْدِ الشَّامِ وَرَيْفِهَا وَقَوْلُهُ :

ذَكَّرْتَنَا بَرْدَ الشَّامِ وَعَيْشَنَا      بَيْنَ الْقَبَابِ الْبَيْضِ وَالْمُضْبَاتِ

وأما ما يدل على أن الشام مسكن هواه فقولهُ :

وَقَدْ حَاوَلْتُ أَنْ تَخِدَ الْمَطَايَا      إِلَى حَيٍّ عَلَى حَلَبِ حُلُولِ

وَلَوْ أَنِّي مَلَكَتُ إِلَيْكَ عَزْمِي      وَصَلْتُ النَّصَّ فِيهَا بِالذَّمِيلِ

وقوله :

جَفَوْتُ الشَّامَ مَرَّتَبَعِي وَأَنْسِي      وَعَلْوَةَ خُلْتِي وَهَوَى فَوَادِي

وأما كرم محنته وعراقة مجده ففي قوله :

جَدِّي الَّذِي رَفَعَ الْأَذَانَ بِمَنْبَجٍ      وَأَقَامَ فِيهَا قِبْلَةَ الصَّلَوَاتِ

مبلغ الحقيقة في دعاوى البحري

والحق أن للخيال الشعري والدعوة الكاذبة من الشعراء أثراً في بعض تلك الحقائق التي أحب البحري أن يلزمنا الاعتراف بها . فقد أَرَانَا أنه كان في بلاده في أرغد عيش وأكرم منزلة ، حتى لقد جعل ذلك مضرب المثل في قوله لأبي نَهْشَلٍ مادحاً شاكراً :

لَا أَنْسِيَنَّ زَمَنًا لَدَيْكَ مَهْدَبًا      وَظِلَالَ عَيْشٍ كَانَ عِنْدَكَ سَجَسَجَ

فِي نَعْمَةٍ أَوْ طِنْتِهَا فَأَقَمْتُ فِي      أَفْيَائِهَا فَكَأَنِّي فِي مَنْبَجٍ

ويقول في قصيدته في وصف إيوان كسرى :

وَاشْتَرَى أَبِي الْعِرَاقَ خُطَّةَ غَبْنٍ      بَعْدَ بَيْعِي الشَّامِ بَيْعَةَ وَكْسٍ

وليس أحد يعقل أن البحري كان في مَنْبَجٍ في أرفه ومن عيشه بالعراق ، وقد اقتنى المال الكثير ، وصار يركب في جملة من عبيده ، واتخذ قهارمة وكتابا ، وخلف لأنبائه ثروة جعلتهم إلى زمن بعيد من الرؤساء والسادة المذكورين . هل يعقل أن يكون شأن البحري



منبج كما وصف ، وقد ذكر أنه كان يتنقل في أسواقها ويمدح باعة الباذنجان والبصل ؟ فهب أن انطباعه على قول الشعر ج يتحدر من فمه ، ولكن الشرف وسمو المكانة كما يزعم كان جديراً أن يجعل موضوع شعره شيئاً غير مدح الباعة ، وهل يمدحهم إلا من يطمع في شيء من دراهمهم أو مما يبيعونه غالباً .

وإذا قيس الغائب بالشاهد حكمنا بأن علوة هذه عروس من عرائس الشعر لم يدع البحري عشقها إلا ليصغ خياله بلون الحقيقة ، حتى يستطرقه سامعوه .

ولعل صابته بما وتحرقه عليها كانا كصابته بغلامه «نسيم» الذي باعه يوماً فاشتراه إبراهيم بن الحسن بن سهل ، فأكثر البحري من الأسف عليه وإظهاره اللفظة والحسرة إلى فقدته ، حتى رده إليه إشفافاً عليه . ثم باعه ، فأعاد السيرة في الحنين إليه وهكذا . فجعل من كذب غرامه بغلامه وسيلة للحصول على المال .

اتصال البحري بأبي تمام

سمع البحري بشاعر عظيم القدر نابه الشأن أحمل شعراء عصره وحرهم العطاء طول مدته ، ذلك هو أبو تمام الطائي وقد كان بجمص ، دخلها في جولة من جولاته التي ذرع بها المملكة الإسلامية شرقاً وغرباً فقصده ليعرض عليه شعره في جملة الشعراء الذين جعلوا من أبي تمام حكماً يرجعون إليه ، كما كان النابعة الذبياني بين أهل الجاهلية . فلما سمع أبو تمام من البحري أقبل عليه من بين سائر من حضر واستبقاه بعد انصرافهم . فلما تفرقوا عنه فقال له : أنت أشعر من أنشدني ، فكيف حالك ؟ فشكا إليه الخلّة . فكتب إلى أهل مَعْرَةَ النُّعْمَان ( يصل كتابي هذا على يد الوليد بن عبيد الله الطائي وهو على بذاته شاعر فأكرموه ) وسلمه البطاقة وأمره أن يمدحهم فأكرموه بهذه الوصية ، ووظفوا له أربعة آلاف درهم فكان ذلك أول مال أصابه البحري كما يقول .

وقد ذكر صاحب الأغاني راوي هذا الحديث ، حديثاً آخر في أول اجتماع كان بين أبي تمام والبحري . قال محدثاً عن لسان البحري :

أول ما رأيت أبا تمام أني دخلت على أبي سعيد محمد بن يوسف وقد مدحته بقصيدتي :

أأفاق صب من هوى فأيقا أو خان عهداً أو أطاع شقيقاً

فسر بما أبو سعيد وكان في مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس تكاد تمس ركبته ركة أبي سعيد . فقال يا فتى : أما تستحي مني !!؟ هذا شعري وإنما تنتحلّه ، وتنشده بحضرتي . قال أبو سعيد أحقاً ؟ قال : نعم . ثم اندفع فأنشد أكثر القصيدة ، حتى شككني في نفسي . فجعلت أحلف له بكل مُخرجة من الإيمان أن الشعر لي ما سبقني إليه أحد ولا سمعته منه ولا انتحلته . فلم ينفع ذلك شيئاً . فأطرق أبو سعيد ، وقطع بي حتى تمنيت أني سُخت في الأرض . فقممت أجر رجليّ فما هو إلا أن بلغت الباب حتى خرج الغلمان فردوني فأقبل على الرجل (الذي ادعى أن الشعر له) فقال : الشعر لك يا بني والله ما قلته قط ولا سمعته إلا منك . قال ثم دعاني (هو أبو تمام) وضممني إليه وعانقني وأقبل يقرظني ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه واقتديت به .

تلمذة البحري لأبي تمام في الشعر

ويعترف البحري بأنه تلميذ أبي تمام ، وأنه يحذو مذهبه ، وينحو نحوه ، ويراه أماماً ، ويقدمه على نفسه . وكان إذا سئل عن نفسه وأبي تمام قال : جيده خير من جيدي ورديني خير من رديته .

إن له يوماً أبو العباس المبرّد ، وقد أنشد شعراً كان أبو تمام قال في مثل موضوعه : أنت والله أشعر من أبي تمام في هذا الشعر فقال : كلا والله ، إن أبا تمام للرئيس والأستاذ ، والله ما أكلت الخبز إلا به . فقال له المبرّد : لله درك يا أبا الحسن ، فإنك تأبى إلا شرفاً من جميع نواحيك .

وقال بعضهم للبحري : إن الناس يزعمون أنك أشعر من أبي تمام ، فقال : والله ما ينفعني هذا القول ولا يضر أبا تمام ، والله ما أكلت الخبز إلا به ، ولوددت أن الأمر كما قالوا ، ولكني والله تابع له ، آخذ منه ، لئلا يبه ، نسيمي يركد عند هوائه ، وأرضي تنخفض عند سمائه .

والذي يثبت لك أن البحري تلمذ لأي تمام تلك الوصية التي حفظها عنه في كيفية معالجة الشعر . ومنها :

« فإن أردت النسب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رقيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوَجّع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت في مدح سيد ذي أيادٍ فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأين فعاله ، وشرف مقامه ، وتقاض المعاني ، واحذر الجھول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام .

ثم يقول له : وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنه العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله » .

## عبد القاهر الجرجاني

في (جرجان) وهي مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ببلاد فارس ولد (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني) في مطلع القرن الخامس للهجرة.. كان منذ صغره محباً للعلم، فأقبل على الكتب والدرس، خاصة كتب النحو والأدب والفقه، ولما كان فقيراً لم يخرج لطلب العلم نظراً لفقره، بل تعلم في جرجان وقرأ كل ما وصلت إليه يده من كتب، فقرأ للكثيرين ممن اشتهروا باللغة والنحو والبلاغة والأدب، كسيبويه والجاحظ والمبرّد وابن دُرَيْد وغيرهم. وتهيأت له الفرصة ليتعلم النحو، على يد واحد من كبار علماء النحو؛ عندما نزل جرجان واستقر بها، وتمضي الأيام ليصبح عبد القاهر عالماً وأستاذاً، واشتهر شهرة كبيرة، وذاع صيته، فجاء إليه طلاب العلم من جميع البلاد يقرءون عليه كتبه ويأخذونها عنه، وكان عبد القاهر يعتز بنفسه كثيراً ويكره النفاق، ولا يذل نفسه من أجل المال، ووصل عبد القاهر الجرجاني لمرتلة عالية من العلم، ولكنه لم يُقدّر التقدير الذي يستحقه.

وقضى عبد القاهر حياته بين كتبه، يقرأ ويؤلف، فكتب في النحو عدة كتب؛ منها: (المغني) و(المقتصد) و(التكملة) و(الجمال) وفي الشعر كتب؛ منها: (المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبو تمام) وترجع شهرة عبد القاهر إلى كتاباته في

البلاغة، فهو يعتبر مؤسس علم البلاغة، أو أحد المؤسسين لهذا العلم، ويعد كتاباه: (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) من أهم الكتب التي ألفت في هذا المجال، وقد ألفها الجرجاني لبيان إعجاز القرآن الكريم وفضله على النصوص الأخرى من شعر ونثر، وقد قيل عنه: كان ورعاً قانعاً، عالماً، ذا نسل ودين. وتوفي شيخ البلاغيين (عبد القاهر الجرجاني) سنة ٤٧١هـ، لكن علمه مازال باقياً، يعترف منه كل ظمآن إلى المعرفة ويهدي إلى السبيل الصحيح في بيان إعجاز القرآن الكريم.

## البارودي

محمود سامي البارودي 1839 / 1904

محمود سامي باشا بن حسن حسين بن عبد الله البارودي المصري

شاعر عربي ولد في ١٨٣٩ م في القاهرة لأبوين من أصل شركسي

حق بالمرحلة التجهيزية من المدرسة الحربية المفروزة وانتظم فيها يدرس فنون الحرب، وعلوم الدين واللغة والحساب والجبر وتخرج من المدرسة المفروزة عام ١٨٥٥ م ولم يستطع استكمال دراسته العليا، والتحق بالجيش السلطاني. عمل بعد ذلك بوزارة الخارجية وذهب إلى الأستانة عام ١٨٥٧ م وأعانه إجادته للغة التركية ومعرفته اللغة الفارسية على الالتحاق بقلم كتابة السر بنظارة الخارجية التركية وظل هناك نحو سبع سنوات ثم عاد إلى مصر وعينه الخديوي إسماعيل معيناً لأحمد خيرى باشا على إدارة المكاتب بين مصر والأستانة.

تجلت مواهبه الشعرية في سن مبكرة بعد أن استوعب التراث العربي وقرأ روائع الشعر العربي والفارسي والتركي، فكان ذلك من عوامل التجديد في شعره الأصيل. بعد سلسلة من أعمال الكفاح والنضال ضد فساد الحكم وضد الاحتلال الإنجليزي لمصر عام ١٨٨٢ قررت السلطات الحاكمة نفيه مع زعماء الثورة العرابية إلى جزيرة سرنديب (سريلانكا). ظل في المنفى بمدينة كولومبو أكثر من سبعة عشر عاماً يعاني الوحدة والمرض والغربة عن وطنه، فسجل كل ذلك في شعره النابع من ألمه وحنينه . تعلم الإنجليزية في خلالها وترجم كتباً إلى العربية. بعد أن بلغ الستين من عمره اشتدت عليه وطأة المرض وضعف بصره فقرّر عودته إلى وطنه مصر للعلاج. عاد إلى مصر يوم ١٢ سبتمبر ١٨٩٩ م وكانت فرحته غامرة بعودته إلى الوطن وأنشد أنشودة العودة التي قال في مستهلها:

أبأبلُ رأي العين أم هذه مصرُفإني أرى فيها عيوناً هي السحرُ

ومن شعره :

منْ ظنني موضعاً يوماً لحاجتِهكنتُ الحريَّ بأنْ أعطيه ما سألاً  
لَهُ عَلَيَّ بِحُسْنِ الظَّنِّ مَأْثَرَةً لَا يَسْتَقِلُّ بِهَا شُكْرِي وَإِنْ جَمَلاً

ألا ، إِنَّ أخلاقَ الرجالِ وَإِنْ غُتْفأربعةٌ منها تفوقُ على الكلِّ :  
وَقَارَّ بِلاَ كِبَرٍ، وَصَفَحَ بِلاَ أذى وَجُودَ بِلاَ مَنْ، وَحَلَمَ بِلاَ ذُلٍّ

يا هاجري ظلماً بغيرِ خطيئةٍ هلْ لي إلى الصفحِ الجميلِ سبيلُ ؟  
ماذا يضركَ لوْ سمحتَ بنظرةٍ تَحيا بِهَا نَفْسٌ عَلَيَّكَ تَسيلُ ؟

توفي البارودي في ١٢ ديسمبر ١٩٠٤ م بعد سلسلة من الكفاح والنضال من أجل استقلال مصر وحريتها وعزتها.

كان الناس في انتظار شاعر يشعل الحماسة، ويتغنى بالعزة والكرامة، ويوقد مشاعل الثورة في القلوب، بعد أن ظلوا فترة طويلة محرومين من ظهور الشعراء الكبار أمثال جرير، والفرزدق، والمتنبي.. وغيرهم، وجاء شعر أحمد شوقي في اللحظة الحاسمة، نغماً هادئاً، ولحنًا شجيلاً عذباً، يتسلل إلى النفوس والقلوب ليفيض عليها العزة والكرامة. ولد أحمد شوقي في القاهرة في السادس عشر من أكتوبر سنة ١٨٧٠م لأب تركي، وأم يونانية، يقول شوقي عن نفسه: إني عربي، تركي، يوناني، جركسي أصول أربعة في فروع مجتمعة، تكفلها له مصر. نشأ في بيئة مترفة، إذ عاش في قصر خديوي مصر حيث كانت جدته من وصيفات القصر، ودخل كتاب الشيخ صالح بحي السيدة زينب بالقاهرة وهو في الرابعة من عمره، ثم مدرسة المبتديان الابتدائية، ومنها إلى المدرسة التجهيزية، وقد منح المجانية نظراً لتفوقه، قال الشعر في الرابعة عشر من عمره، وأعجب به أستاذه الشيخ (حسين المرصفي). وما يدل على نبوغه الشعري المبكر أن أستاذه في اللغة العربية، وكان شاعراً فصيحاً بمرشاه شاعريته فكان يجلس منه مجلس التلميذ من أستاذه، وكان هذا الشيخ ينظم القصائد الطوال في مدح الخديوي توفيق؛ كلما حل موسم أو جاء عيد، وقبل أن يرسلها إلى القصر لكي تنشر في الصحف، يعرضها على شوقي، فيصلح شوقي فيها، فيمحو هذه الكلمة أو تلك ويعدل هذا الشطر أو ذاك، أو يسقط بعض الأبيات، وبعد أن أتم أحمد شوقي تعليمه الثانوي التحق بمدرسة الحقوق لدراسة القانون، وقضى بها سنتين، ثم انضم إلى قسم الترجمة ونال بعد سنتين إجازة للترجمة.

وبحكم تربيته في قصر الخديوي فقد أخذ ينشد قصائده في مدح الخديوي توفيق، وقد نشرت أولى قصائده في جريدة الوقائع المصرية في ٧ إبريل سنة ١٨٨٨م، ونظراً لصلته شوقي بالقصر فقد أرسله الخديوي على نفقته في بعثة إلى فرنسا لإتمام دراسته في الحقوق والآداب بجامعة مونبلييه بباريس، وعاد شوقي إلى مصر، فعمل في قسم الترجمة بالقصر، وظل يتدرج في المناصب حتى أصبح رئيساً لهذا القسم، وأصبح قريباً من الخديوي عباس حلمي الذي خلف الخديوي توفيق وأنيس مجلسه ورفيق رحلته، وأخذ شوقي يمدحه بقصائده، حتى سمي (شاعر الأمير) وجاءت الفرصة لأحمد شوقي ليخرج من القفص الذهبي الذي كان محبوساً فيه، حين أراد الخديوي عباس حلمي الثاني أن يضم إلى صفه أبناء الشعب ليضغط على قوى الاحتلال الإنجليزي حتى يستجيبوا لمطالبه وهنا جاء دور أحمد شوقي. فأخذ شوقي ينادي بالحرية والاستقلال وينشد قصائده في حب الوطن، ويساعده على ذلك الخديوي عباس ويشجعه، فنفى الإنجليز الخديوي عباس إلى خارج البلاد، وعينوا بدلاً منه السلطان (حسين كامل) ولم يترك الإنجليز أحمد شوقي وشأنه، وإنما عزموا على نفيه هو الآخر، فخيروه أي البلاد التي يحب أن يذهب إليها؟ فاختار إسبانيا (أندلس العرب) سنة ١٩١٥م وهناك أخذ ينظم قصائده في أمجاد العرب ودولتهم البائدة، وينشر قصائده في حب الوطن، ويناجيه بقصائد كلها حب وحنين:

أحبك مصر من أعماق قلبي  
وحبك في صميم القلب نامي  
سيجمعني بك التاريخ يوماً  
إذا ظهر الكرام على اللئام  
لأجلك رحت بالدين شقياً  
أصد الوجه والدين أمامي  
وأنظر جنة جمعت دنائباً  
فيصرفني الإباء عن الزحام  
وهبتك غير هيب يراعاً  
أشد على العدو من الحسام

بول:

اختلاف النهار والليل يُنسي  
اذكرا لي الصَّبَّ وأيام أنسي  
وسلا مصر هل سلا القلب عنها  
أو أسي جرحه الزمان المؤسي  
كلما مَرَّت الليالي عَليهِ  
رَقَّ والعهد في الليالي تقسي

وبعد أن قضى شوقي في بلاد الأندلس فترة طويلة صدر العفو عنه، وعاد إلى البلاد في شهر فبراير سنة ١٩١٩م، وفي الإسكندرية والقاهرة تجمع الشباب لاستقبال شوقي، فتأثر بذلك الموقف، فقال يخاطب وطنه الغالي، وقد رأى أن عودته إلى أرض الوطن تشبه عودة الشباب بعد المشيب:

ويا وطني لقيتك بعد يـــــــأس  
كأنني قد لقيت بك الشبابـــــــا

وعاد شوقي والبلاد في حالة غليان، والشعب يدفع حياته ثمنًا للحرية في ظل مستعمر غاصب، فلم يقف مكتوف الأيدي، بل أطلق لسانه مشاركا أبناء وطنه في محنتهم، وقام بدوره الوطني على أكمل وجه، وأثبت أنه شاعر الوطن، المدافع عن حقوقه في وقت الشدة، وكان يريد للأمة العربية والإسلامية الوحدة وعدم التفرق، ولشوقي في مدح الرسول -صلى الله عليه وسلم- قصائد غراء مشهورة، يعرفها كل من يقرأ بالعربية. عاش شوقي حتى نهاية العمر يتغنى بالوطنية والحرية، حتى أجمع الشعراء على زعامته في ميدان الشعر، فجاءت الوفود من كل البلاد التي تنطق العربية، لتبايع شوقي بإمارة الشعر، ووقف زميله الشاعر حافظ إبراهيم في حفل تكريمه يبايعه بزعامته للشعراء بقصيدة يقول فيها:

أمير القوافي قد أتيت مـــــــايـــــــعا  
وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

وظل شوقي ينشد الشعر إلى أن توفي سنة ١٩٣٢م بعد أن ترك تراثا شعريا كبيرا.

## حافظ إبراهيم

ولد حافظ إبراهيم على متن سفينة كانت راسية على النيل أمام ديروط وهي مدينة بمحافظة أسيوط من أب مصري وأم تركية. توفي والداه وهو صغير. وقبل وفاتها، أتت به أمه إلى القاهرة حيث نشأ بها يتيما تحت كفالة خاله الذي كان ضيق الرزق حيث كان يعمل مهندسا في مصلحة التنظيم. ثم انتقل خاله إلى مدينة طنطا وهناك أخذ حافظ يدرس في الكتاتيب. أحس حافظ إبراهيم بضيق خاله به مما أثر في نفسه، فرحل عنه وترك له رسالة كتب فيها:

ثقلت عليك مؤونتي إني أراها واهية  
فافرح فإني ذاهب متوجه في داهية

بعد أن خرج حافظ إبراهيم من عند خاله هام على وجهه في طرقات مدينة طنطا حتى انتهى به الأمر إلى مكتب الخام محمد أبو شادي، أحد زعماء ثورة ١٩١٩، وهناك اطلع على كتب الأدب وأعجب بالشاعر محمود سامي البارودي. وبعد أن عمل بالخاماة لفترة من الزمن، التحق حافظ إبراهيم بالمدرسة الحربية في عام ١٨٨٨ م وتخرج منها في عام ١٨٩١ م ضابط برتبة ملازم ثان في الجيش المصري وعين في وزارة الداخلية. وفي عام ١٨٩٦ م أرسل إلى السودان مع الحملة المصرية إلى أن الحياة لم تطب له هنالك، فثار مع بعض الضباط. نتيجة لذلك، أحيل حافظ على الاستيداع بمرتب ضئيل.



كان حافظ إبراهيم إحدى أعاجيب زمانه، ليس فقط في جزالة شعره بل في قوة ذاكرته التي قاومت السنين ولم يصيبها الوهن والضعف على مر ٦٠ سنة هي عمر حافظ إبراهيم، فإنما ولا عجب إتسعت لآلاف الآلاف من القصائد العربية القديمة والحديثة ومئات المطالعات والكتب وكان باستطاعته - بشهادة أصدقائه - أن يقرأ كتاب أو ديوان شعر كامل في عدة دقائق وبقراءة سريعة ثم بعد ذلك يتمثل ببعض فقرات هذا الكتاب أو أبيات ذاك الديوان. وروى عنه بعض أصدقائه أنه كان يسمع قارئ القرآن في بيت خاله يقرأ سورة الكهف أو مريم أو طه فيحفظ ما يقوله ويؤديه كما سمعه بالرواية التي سمع القارئ يقرأ بها. يعتبر شعره سجل الأحداث، إنما يسجلها بدماء قلبه وأجزاء روحه ويصوغ منها أدبا قيما يحث النفوس ويدفعها إلى النهضة، سواء أضحك في شعره أم بكى وأمل أم ينس، فقد كان يتربص كل حادث هام يعرض فيخلق منه موضوعا لشعره ويملؤه بما يجيش في صدره.

وللأسف، مع تلك الهبة الرائعة التي قلما يهبها الله - عز وجل - لإنسان، فإن حافظ رحمه الله أصابه - ومن فترة امتدت من ١٩١١ إلى ١٩٣٢ - داء اللامباله والكسل وعدم العناية بتنميه مخزونه الفكري وبالرغم من إنه كان رئيساً للقسم الأدبي بدار الكتب إلا أنه لم يقرأ في هذه الفترة كتاباً واحداً من آلاف الكتب التي تذخر بها دار المعارف! الذي كان الوصول إليها يسير بالنسبة لحافظ، ولا أدري حقيقة سبب ذلك ولكن إحدى الآراء تقول ان هذه الكتب المترامية الأطراف القت في سأم حافظ الملل! ومنهم من قال بأن نظر حافظ بدا بالذبول خلال فترة رئاسته لدار الكتب وخاف من المصير الذي لحق بالبارودي في أواخر أيامه. كان حافظ إبراهيم رجل مرح وأبن نكتة وسريع البديهة يملأ المجلس ببشاشته و فكاهاته الطريفة التي لا تخطأ مرامها. وأيضاً تروى عن حافظ إبراهيم مواقف غريبة مثل تبذيره الشديد للمال فكما قال العقاد ( مرتب سنة في يد حافظ إبراهيم يساوى مرتب شهر ) وما يروى عن غرائب تبذيره أنه استأجر قطار كامل ليوصله بمفرده إلى حلوان حيث يسكن وذلك بعد مواعيد العمل الرسمية.

مثلاً يختلف الشعراء في طريقة توصيل الفكرة أو الموضوع إلى المستمعين أو القراء، كان لحافظ إبراهيم طريقته الخاصة فهو لم يكن يتمتع بقدر كبير من الخيال ولكنه أستعاض عن ذلك بجزالة الجمل وتراكيب الكلمات وحسن الصياغة بالإضافة أن الجميع اتفقوا على انه كان أحسن خلق الله إنشاداً للشعر. ومن أروع المناسبات التي أنشد حافظ بك فيها شعره بكفاءة هي حفلة تكريم أحمد شوقي ومبايعته أميراً للشعر في دار الأوبرا، وأيضاً القصيدة التي أنشدها ونظمها في الذكرى السنوية لرحيل مصطفى كامل التي خلبت الأبواب وساعدها على ذلك الأداء المسرحي الذي قام به حافظ للتأثير في بعض الأبيات، وما يبرهن ذلك ذلك المقال الذي نشرته إحدى الجرائد والذي تناول بكامله فن إنشاد الشعر عند حافظ. ومن الجدير بالذكر أن أحمد شوقي لم يلقي في حياته قصيدة على ملاء من الناس حيث كان الموقف يرهبه فيتلعثم عند الإلقاء.

أقوال عن حافظ إبراهيم

حافظ كما يقول عنه مطران خليل مطران "أشبه بالوعاء يتلقى الوحي من شعور الأمة وأحاسيسها ومؤثراتها في نفسه، فيمتزج ذلك كله بشعوره وإحساسه، فيأتي منه القول المؤثر المتدفق بالشعور الذي يحس كل مواطن أنه صدى لما في نفسه". ويقول عنه أيضاً "حافظ المحفوظ من أفصح أساليب العرب ينسج على منوالها ويتذوق نفائس مفرداتها وإعلاق حلالها." وأيضاً "يقع إليه ديوان فيتصفحه كله وحينما يظفر بجيده يستظهره، وكانت محفوظاته تعد بالآلوف وكانت لا تزال ماثلة في ذهنه على كبر السن وطول العهد، بحيث لا يمتري إنسان في ان هذا الرجل كان من أعاجيب الزمان."

وقال عنه العقاد "مفطوراً بطبعه على إثارة الجزالة والإعجاب بالصياغة والفحولة في العبارة".

كان أحمد شوقي يعتز بصداقه حافظ إبراهيم ويفضله على أصدقائه. و كان حافظ إبراهيم يرافقه في عديد من رحلاته وكان لشوقي أيادى بيضاء على حافظ فساهم في منحه لقب بك و حاول ان يوظفه في جريدة الأهرام ولكن فشلت هذه المحاولة لميول صاحب

مرام - وكان حينذاك من لبنان - نحو الإنجليز وخشيته من المبعوث البريطاني اللورد كرومر.

من أشعاره

سافر حافظ إبراهيم إلى سوريا، وعند زيارته للمجمع العلمي بدمشق قال هذين البيتين:

شكرت جميل صنعكم بدمعي ودمع العين مقياس الشعور

لاول مرة قد ذاق جفني - على ما ذاقه - دمع السرور

لاحظ الشاعر مدى ظلم المستعمر وتصرفه بخيرات بلاده فنظم قصيدة بعنوان الامتيازات الأجنبية، ومما جاء فيها:

سكت فأصغروا أدبي وقلت فأكبروا أربي

يقتلنا بلا قود ولا دية ولا رهب

ويمشي نحو رايته فنحميه من العطب

فقل للفاخرين: أما لهذا الفخر من سب؟

أروني بينكم رجلا ركيئا واضح الحسب

أروني نصف مخترع أروني ربع محتسب؟

أروني ناديا حفلا بأهل الفضل والأدب؟

وماذا في مدارسكم من التعليم والكتب؟

وماذا في مساجدكم من التبيان والخطب؟

وماذا في صحائفكم سوى التمويه والكذب؟

حصائد ألسن جرّت إلى الولايات والحرب

فهبوا من مراقدكم فإن الوقت من ذهب

وله قصيدة عن لسان صديقه يرثي ولده، وقد جاء في مطلع قصيدته:

ولدي، قد طال سهدي ونحيبي جئت أدعوك فهل أنت مجيبي؟

جئت أروي بدموعي مضجعا فيه أودعت من الدنيا نصيبي

ويجيش حافظ إذ يحسب عهد الجاهلية أرفق حيث استخدم العلم للنشر، وهنا يصور موقفه كإنسان بهذين البيتين ويقول:

ولقد حسبت العلم فينا نعمة تأسو الضعيف ورحمة تندفق

فإذا بنعمته بلاء مرهق وإذا برحمته قضاء مطبق

ومن شعره أيضاً:

كم مر بي فيك عيش لست أذكره ومر بي فيك عيش لست أنساه

ودعت فيك بقايا ما علقته به من الشباب وما ودعت ذكره

أهفو إليه على ما أقرحت كبدي من التباريح أولاه وأخراه

لبسته ودموع العين طيعة والنفس جياشة والقلب أواه

فكان عوني على وجد أكابده ومر عيش على العلات ألقاه

إن خان ودي صديق كنت أصحبه أو خان عهدي حبيب كنت أهواه

قد أرخص الدمع ينبوع الغناء به وا لهفتي ونضوب الشيب أغلاه

كم روح الدمع عن قلبي وكم غسلت منه السوايق حزنا في حناياه

قالوا تحررت من قيد الملاح فعش حرا ففي الأسر ذل كنت تأباه

بت يا ليتته دامت صرامته ما كان أرفقه عندي وأحناء  
بدلت منه بقيد لست أفلته وكيف أفلت قيدا صاغه الله  
أسرى الصباة أحياء وإن جهدوا أما المشيب ففي الأموات أسراه  
وقال:

والمال إن لم تدخره محصنا بالعلم كان نهاية الإملاق  
والعلم إن لم تكتنفه شمائل تعليه كان مطية الإخفاق  
لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخلاق  
من لي بتربية النساء فإنها في الشرق علة ذلك الإخفاق  
الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق  
الأم روض إن تعهده الحيا بالسري أورك أيما إيرا  
الأم أستاذ الأساتذة الألى شغلت مآثرهم مدى الآفاق  
أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا بين الرجال يجلن في الأسواق  
يدرجن حيث أزدن لا من وازع يحذرن رقبته ولا من وافي  
يفعلن أفعال الرجال لوأهيا عن واجبات نواعس الأحداق  
في دورهن شؤونهن كثيرة كشؤون رب السيف والمزراق  
تتشكل الأزمان في أدوارها دولا وهن على الجمود بواق  
فتوسطوا في الحاليتين وأنصفوا فالشر في التقيد والإطلاق  
ربوا البنات على الفضيلة إنهما في الموقفين لهن خير وثاق  
وعليكم أن تستبين بناتكم نور الهدى وعلى الحياء الباقي  
وفاته

توفي حافظ إبراهيم سنة ١٩٣٢ م في الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس، وكان قد أستدعى ٢ من أصحابه لتناول العشاء ولم  
يشاركهما لمرض أحس به. وبعد مغادرتهما شعر بوطئ المرض فنأدى غلامه الذي أسرع لإستدعاء الطبيب وعندما عاد كان حافظ في  
الترع الأخير، توفي رحمه الله ودفن في مقابر السيدة نفيسة (رضي الله عنها).

وعندما توفي حافظ كان أحمد شوقي يصطاف في الإسكندرية و بعدما بلغه سكرتيره - أى سكرتير شوقي - نبأ وفاة حافظ بعد  
ثلاث أيام لرغبة سكرتيره في إبعاد الأخبار السيئة عن شوقي ولعلمه بمدى قرب مكانة حافظ منه، شرد شوقي لحظات ثم رفع رأسه  
وقال أول بيت من مراثيته لحافظ:

قد كنت أوتر أن تقول رثائي يا منصف الموتى من الأحياء

## عباس العقاد

في أقصى الصعيد، وفي بلدة تحيطها تلال من الرمال، ولا تنقطع عنها أشعة الشمس اللافحة، في مدينة (أسوان) مدينة الشمس  
والتاريخ، استقبلت أسرة محمود أفندي إبراهيم مصطفى العقاد مولوداً جديداً، سُمِّي: عباساً في يوم الجمعة الثامن والعشرين من يونيو  
عام ١٨٨٩م فتهولت نسوة الدار إلى محمود أفندي معاون قلم محفوظات المدينة ينقلن إليه البشرى، ويهنئنه بهذا الحدث السعيد.  
كان أجداد العقاد يعملون في صناعة الحرير، فعرفوا بذلك اللقب العقاد؛ الذي يطلق على من يعقد الحرير، ونشأ الطفل الصغير  
عباس بين أسرة تعرف الله حق المعرفة، فمنذ أن طلعت عيناه على نور الدنيا وجد أبويه يستيقظان قبل الفجر لأداء الصلاة، وكان

مما يستمع إلى عبارات الحب للنبي -صلى الله عليه وسلم- بل إن أسماء النبي وآله كانت تتردد في جنبات البيت ليل نهار، وعجب في ذلك فأسماء إخوته: محمد وإبراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر.

وفي بيت ريفي قديم عاش عباس العقاد معتزاً بنفسه، غيوراً على أهله وكرامته، تلقى عباس العقاد مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم في كُتّاب القرية.. حتى إذا ما بلغ السابعة من عمره أحلقه والده بمدرسة أسوان الابتدائية، وبين جدران هذه المدرسة ظهرت علامات الذكاء والنبوغ على عباس العقاد، وكان مدرس اللغة العربية يعجب به إعجاباً شديداً، كلما طالع كرامته في الإنشاء. وفي يوم من الأيام، وبينما عباس في الفرقة الرابعة الابتدائية، إذا بالشيخ محمد عبده الذي كانت له مكانة كبيرة في ذلك الوقت يزور المدرسة، فيطلعه مدرس الإنشاء على موضوع كتبه عباس، فأعجب الشيخ به إعجاباً شديداً وقال: ما أجدر هذا الصبي أن يكون كاتباً بعد، فكانت هذه الجملة التي قالها الشيخ محمد عبده حافزاً قوياً لعباس العقاد في ذلك الوقت المبكر، جعلته يسلك طريق الكتابة دون سواها. وفي الشارع الذي كان يقع فيه منزل الأسرة، كان عباس يستمع إلى القصص الخيالية من كبار السن، فكانت هذه القصص سبباً في تفتح مواهبه الأدبية والشعرية إثراء خياله، فأنشد الأناشيد قبل أن يبلغ العاشرة، وغنت مواهبه الأدبية أكثر وأكثر إذ كان والده يصحبه عصر كل يوم إلى جلسات الشيخ أحمد الجداوي الأدبية، وكان عباس أحياناً يذهب إلى هذه الجلسات بمفرده ليعرض على الشيخ الجداوي ما كتبه من موضوعات الإنشاء، وكان بارعاً في حل المسائل الرياضية.

وكان والده محمود أفندي يقتني بعض المجلات الشهيرة في ذلك الوقت مثل مجلة الأستاذ لـ(عبد الله النديم) و(أبو نضارة) و(العروة الوثقى) فقرأها الصبي الصغير، وأعجب بها، وخصوصاً مجلة الأستاذ لعبد الله النديم خطيب الثورة العربية فتأثر به تأثراً شديداً، حتى إن عباساً أخرج صحيفة التلميذ محاكياً بذلك صحيفة الأستاذ للنديم. وكانت أسوان مدينة سياحية يأتي إليها السائحون، ويختلطون بأهلها، فأتاحت الفرصة لعباس ليتحدث معهم ويختلط بهم، كما تهيأت له الفرصة لكي يتقن اللغة الإنجليزية حيث كانت تتدرس العلوم باللغة الإنجليزية في المدارس الابتدائية في ذلك الوقت، فقرأ عباس في الأدب الإنجليزي كثيراً، وأصبحت له حصيلة أدبية كبيرة.

وخلال تلك الفترة المبكرة من حياته، أخذ الصبي عباس العقاد يحلم كثيراً، ففكر أن يتم تعليمه بالمدرسة الحربية، أو يدرس علم النبات والحيوان، وظل الفتى يتمنى تحقيق تلك الآمال وهذه الأحلام إلى أن تخرج في المدرسة الابتدائية وحصل على شهادتها سنة ١٩٠٣م ورأى أبوه أن يكفي بما حصل عليه من العلم وأن يعين في الوظيفة الحكومية (الميري) فلم يجد الفتى بُدّاً من أن يطيع كلام والده. ومكث في البيت في انتظار الوظيفة تحقيقاً لرغبة والده وأفراد أسرته، وطال انتظاره، فستوع بالتدريس في المدرسة الإسلامية الخيرية بأسوان، لكن والد العقاد استطاع بعد فترة أن يوظفه بأربعة جنيهات بالقسم المالي بمدينة قنا سنة ١٩٠٤م، وفي أثناء عمله بالصعيد كان هو وبعض زملائه الموظفين من أنحاء قنا يعقدون الندوات الأدبية لإلقاء الزجل ومقطوعات الشعر التي ينظمونها، ثم انتقل عباس العقاد في العام نفسه إلى مدينة الزقازيق، وأخذ يتردد على القاهرة كل أسبوعين لينهل من ندواتها الأدبية ويقتني منها الكتب القيمة. وفي سنة ١٩٠٦م استقال العقاد من وظيفته بعد أن ملّ منها؛ فذهب إلى القاهرة والتحق بمدرسة الفنون والصنائع، ثم تركها وعمل بمصلحة البرق، وكان يسكن في حجرة يستأجرها ببضعة قروش يضع فيها كل ما يملك من كتب قديمة كان يشتريها من حي الأزهر العتيق، وتتعرّض أحوال عباس العقاد المادية، ويعجز عن مواجهة أعباء الحياة، حتى إيجار الحجرة التي كان يسكن فيها أصبح يمثل له مشكلة كبيرة، فاضطر إلى الرحيل إلى بلدته أسوان تاركاً كتبه ومتاعه في الحجرة، فمكث هناك مدة قصيرة، ثم عاد إلى القاهرة، فتمكن من العمل بجريدة الدستور مع المفكر الإسلامي الكبير محمد فريد وجدي سنة ١٩٠٧م بمرتب قدره ستة جنيهات، واستطاع أن يجري حديثاً صحفياً مع الزعيم سعد زغلول، وكان وزيراً للمعارف في ذلك الوقت، فأحدث ضجة صحفية كبيرة، وفي عام ١٩٠٩م تعطلت صحيفة الدستور فاضطر محمد فريد وجدي أن يبيع كتبه ليسدد بها أجور العمال وأصحاب الديون.

وافترق عباس العقاد عن الكاتب الإسلامي محمد فريد وجدي بعد صحة استمرت عامين، واضطر عباس العقاد هو الآخر لبيع كتبه ليشتري بثمنها حاجاته وطعامه على أن يشتري غيرها بعدما يجد عملاً وتتحسن الظروف، لكنه مرض فقرّر السفر إلى أسوان، وهناك

سعى كل وقته في المطالعة والكتابة إلى أن استعاد صحته، وشفي من مرضه، فعاد إلى القاهرة مرة أخرى وكان ذلك سنة ١٩١١م فاشترك في تحرير جريدة البيان، والتقى فيها بالكثير من الأدباء والشعراء أمثال: طه حسين، وعبد الرحمن شكري، والمازني.. وغيرهم من حملة الأقلام. ولفتت كتابات العقاد أنظار الكاتب المشهور في ذلك الوقت محمد الميوليحي مدير قسم الإدارة بديوان الأوقاف، فاختاره مساعد كاتب بالجلس الأعلى بقلم السكرتارية، ثم عمل في جريدة المؤيد لصاحبها في ذلك الوقت الصحفي الكبير أحمد حافظ عوض، وقام بتحرير الصفحة الأدبية فيها، ولم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره. وفي أثناء فترة عمله بهذه الجريدة وبالتحديد في عام ١٩١٤م قام الخديوي برحلة في الوجه البحري ليجمع الصفوف حوله ليستعيد شعبيته وصحب معه أحمد حافظ عوض ليصوغ كتاباً عن هذه الرحلة يسميه كتاب الرحلة الذهبي، وفوجئ العقاد الذي كان ينوب عن أحمد عوض أثناء غيابه بالجريدة، بمحاولات لإغرائه بالمال ليشارك في تحرير هذا الكتاب الذي يهمل للخديوي ويشيد به، في حين كان العقاد يهاجم الخديوي في كتاباته، فغضب لكرامته، وترك المؤيد إلى غير رجعة مفضلاً الجوع على النفاق.

وكتب العقاد فصولاً نقدية في مجلة عكاظ مع الشعراء المازني وعبد الرحمن شكري من سنة ١٩١٢م إلى سنة ١٩١٤م ولكنه خرج من عمله بالأوقاف بتدبير من رجال الخديوي، فعاد إلى البطالة والحاجة، وعاد إلى بلده أسوان يستجير بها سنة ١٩١٤م وظل ببلده يكتب الشعر والخواطر. وبعد سنة ١٩١٦م اشتغل بالتدريس في المدارس الحرة، هو وصديق عمره إبراهيم عبد القادر المازني حتى اندلعت ثورة سنة ١٩١٩م فشملت البلاد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، وخلال تلك الفترة عمل العقاد بجريدة الأهرام، وسخر قلمه للدفاع عن الثورة ورجائها، فتركت مقالاته أثراً كبيراً في نفوس المصريين، وكانوا ينتظرونها بشوق ولهفة، حتى إن باعة الصحف كانوا يجرون في الشوارع وينادون على الصحيفة باسمه قائلين: "اقرأ مقالات العقاد يا جدد".

سئل الزعيم سعد زغلول ذات مرة عن العقاد فقال: أديب فحل، له قلم جبار، ورجولة كاملة، ووطنية صافية، وإطلاع واسع، ما قرأت له بحثاً أو رسالة في جريدة أو مجلة إلا أعجبت به غاية الإعجاب، وفي شتاء عام ١٩٢١م عاوده المرض، فعاد إلى بلده أسوان التي يستجير بها دائماً كلما نزلت به محنة، وفي تلك الفترة نشر كتاب الديوان الذي أصدره بالاشتراك مع المازني وهاجم فيه الشاعر أحمد شوقي هجوماً شديداً.

وقد بعث عباس العقاد في نهضة مصر الأدبية روحاً جديداً، وأسهم في النضال الوطني، فكان قلمه أقوى سلاح، وقد استعان به سعد زغلول لمناصرته والدفاع عنه، فظل العقاد يدافع عن حزب الوفد المصري بعد وفاة سعد زغلول، ويفضح الفساد؛ ففي سنة ١٩٣٠م صاح صيحته المشهورة في مجلس النواب -وكان عضواً به- قائلاً: إن الأمة على استعداد أن تسحق أكبر رأس في البلاد يخون الدستور ولا يصونه، فاعتبروا قولته هذه عيباً في الملك فؤاد، وحوكم العقاد عن تلك التهمة وحبس تسعة أشهر، وعانى ما عانى من الشدائد، واحتمل متاعب السجن والاضطهاد، وذاق الفقر، وعانى المرض، وكان العقاد على صلة بأسرة تجاوره، عرفت ما يعانیه من فقر وبؤس، فعرضت عليه سيدة نبيلة القلب من هذا البيت حليها ليرهنه، حتى يستطيع تدبير أموره والتغلب على مصاعب الحياة، ورد العقاد لها المعروف بعد موته بأن كفل ابنة لها ورعاها وأفاض عليها من العطف حتى كانت تدعوه بأبيها!! وظل يدافع عن وطنه وعن الإسلام دفاعاً شديداً، وكتب العديد من الكتب عن عظماء الإسلام، فكتب عن محمد -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر الصديق، وعمر وخالد بن الوليد، وعثمان بن عفان، كما كتب الفلسفة القرآنية، والإسلام في القرن العشرين، وحقائق الإسلام وأباطيل خصومه، وما يقال عن الإسلام. والعقاد شاعر كبير من مجددي الشعر في النهضة الأدبية الحديثة، وعرف هو وصديقه الشعراء المازني وعبد الرحمن شكري بأنهم أصحاب مدرسة الديوان وأصدر العقاد نحو عشرة دواوين من الشعر منها وحي الأريعين. كما أن له العديد من الدراسات والبحوث في كافة المجالات الأدبية والاجتماعية والسياسية، وفي سنة ١٩٥٦م تم اختياره عضواً بالجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وفي سنة ١٩٦٠م كرمته الدولة فمنحته جائزة الدولة التقديرية للآداب تقديراً منها لجهوده في مجال الفكر والأدب. وتحين ساعة النهاية، ففي سنة ١٩٦٤م مات عملاق الأدب، مات الكاتب الكبير عباس العقاد، ورحل



عالمنا بعد أن ترك ثروة أدبية ضخمة لأجيالنا القادمة، وبعد أن دافع بقلمه وفكره عن الإسلام والمسلمين.

## محمد إقبال

(يا ولدي كن برعمًا في غصن المصطفى، وكن وردة من نسيم ربيع، وخذ من خلقه الطيب بنصيب).

في (سيالكوت) تلك المدينة التي تقع بإقليم (البنجاب) بالهند، وُلِدَ (محمد إقبال) عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م، وتفتحت عيناه على مناظر بلاده الجميلة، فالأنهار الجارية تنحدر بين التلال، والعشب الأخضر يملأ الأرض ويكسوها بماء وجمالاً.

ينتمي محمد إقبال إلى أسرة هندوكية من البراهمة، وهي جماعة لها شأن كبير في الهند رغم أنها تعبد الأصنام وتقدس التماثيل، لكن أسرة محمد إقبال تنازلت عن كل هذه العظمة، لتدخل في دين الإسلام الذي لا يفرق بين أبيض وأسود وأصفر أو أحمر إلا بالتقوى، وأصبح الجد الأكبر لمحمد إقبال واسمه (بنديت) فردًا عاديًا لا يدعي الألوهية كما يفعل البراهمة!! بعد أن هداه الله على يد أحد رجال الإسلام في (كشمير) وأنجبت الأسرة التي كانت بالأمس القريب تعبد الأصنام وتحتقر الآخرين (محمد إقبال) فيلسوف الإسلام الكبير وشاعره، وفضلت الإسلام مع الفقر على عبادة الأصنام مع الغنى والعظمة. ونشأ إقبال في بيت طاهر لأبوين تقيين؛ فكانت أمه نموذجًا رائعًا للتقوى والورع والالتزام بتعاليم الإسلام، أما والده (محمد نور إقبال) فكان صوفيًا زاهدًا، تدمع عيناه خوفًا كلما ذكرت الجنة والنار، وكلما سمع عن يوم الحساب، والناس كلهم وقوف أمام الله عز وجل ليحاسبوا عما قدموه في حياتهم الدنيا من خير أو شر. وكان هذا الوالد التقي هو المعلم الأول لمحمد إقبال، فقد حثه على قراءة القرآن وحفظه وتدبره منذ صغره، وكان يقول له كلما رآه يكثر من قراءة القرآن: إن أردت أن تفقه القرآن فاقراه كأنه أنزل عليك، فأخذ إقبال منذ ذلك الحين يتدبر آيات القرآن الكريم، ويفهم معانيه ويغوص في بحار علومه؛ حتى انطبع نور القرآن في قلبه، وفاض على لسانه، وأصبح دليله ومرشده في جميع خطوات حياته. وقد ربَّى محمد نور الدين إقبال ولده (محمدًا) تربية إسلامية سليمة تعتمد على الكتاب والسنة والقدوة الحسنة، فكان يوقظ طفله الصغير ليصلي صلاة الفجر كل يوم، وكان يرشده دائمًا لعمل الخير والابتعاد عن الشر.. حكى إقبال في كتاباته قصة جليلة عن والده تكشف عن عمق إيمان الأب وعن أسلوب التربية الإسلامية الحقّة، قال: (جاء سائل، فطرق بابنا بعنف، فضربته بعضا على رأسه، فتناثر ما جمعه، فتألم والدي وسال الدمع من عينيه وقال: (يا بني غداً تجتمع أمة خير البشر أمام مولاها، ويحشر أهل الملة البيضاء حكماؤها والشهداء والعلماء والعصاة ويأتي هذا السائل المسكين صائحًا شاكياً، فماذا أقول إذا قال لي النبي -صلى الله عليه وسلم-: إن الله أودعك شابًا مسلمًا، فلم تؤدبه بأدي، بل لم تستطع أن تجعله إنسانًا، فانظر يا ولدي عتاب النبي الكريم ومقامي في خجلي بين الخوف والرجاء، أتفضح أباك أمام مولا؟! يا ولدي كن برعمًا في غصن المصطفى، وكن وردة من نسيم ربيع، وخذ من خلقه الطيب بنصيب). بدأ إقبال التعليم في طفولته على يد والده، ثم أدخل كُتُبًا ليتعلم القرآن، وانتقل إلى مدرسة (سيالكوت) ولما أتم دراسته الثانوية التحق بكليتها، فدرس اللغة الفارسية والعربية على يد أستاذه (مير حسن) ولفت الأنظار إليه بذكائه الشديد، وأخلاقه الكريمة؛ فاحترمه الجميع؛ زملاؤه وأساتذته، وحصل على الكثير من الجوائز، ونال فرصة الدراسة مجانًا، وتخرج من الكلية عام ١٨٩٧م. وفي هذه الفترة ازداد تفكير محمد إقبال، وشعر بالألم والحسرة، فهو ينظر إلى المسلمين، فيراهم مستسلمين لأعدائهم، فتسيل الدموع من عينيه، وينشد قائلاً:

مسلمًا إن ترد حياة فيها

ما بغير القرآن تأتي الحياة

وفتحت كلية الحكومة في (لاهور) ذراعها للشباب الذكي فتفوق على زملائه، وحصل على ميداليتين ذهبيتين، ثم حصل على درجة الماجستير في الآداب والفلسفة، ومن فوق منبر جمعية حماية الإسلام أخذ محمد إقبال يردد قصائده ويلقيها على السامعين، حتى اشتهر وأصبح معروفًا بين الناس، وظل يدافع عن الإسلام والمسلمين، ويدعوهم إلى الكفاح والجهاد في سبيل الله، حتى تمَّ اختياره سكرتيرًا لجمعية حماية الإسلام.

والتقى (محمد إقبال) في كلية الحكومة بـ(لاهور) بأستاذه المستشرق (توماس أرنولد) وهو من كبار علماء الغرب الذين درسوا

سلام عامة والتصوف خاصة، فكان يرشده ويعينه في الدراسة، وكان توماس يفخر بذكاء تلميذه، ويعتز بصداقته. وبعد أن أنهى (محمد إقبال) دراسته الجامعية بـ (لاهور) عُيِّن أستاذًا للتاريخ والفلسفة والسياسة المدنية بالكلية الشرقية بـ (لاهور) ثم أستاذًا للفلسفة واللغة الإنجليزية في الكلية الحكومية التي تخرج فيها، لكنه كان طموحًا يريد مزيدًا من العلم، ويتمنى أن يرى البلاد الأوربية ومضارقتها؛ فسافر إلى أوروبا سنة ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م حيث نال درجة في الفلسفة من جامعة (كمبردج) ودرجة في القانون من كلية لندن للعلوم السياسية، وعمل أستاذًا للغة العربية في جامعة لندن، كما حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة (ميونيخ) بألمانيا، وعاد مرة أخرى إلى لندن، فلم يضيع وقته في العبث واللهو، بل نال شهادة اخامة من جامعة لندن. وهناك في بلاد الغرب كان محمد إقبال يدعو إلى دين الإسلام، ويدافع عنه دفاعًا صادقًا من خلال المقالات التي كان ينشرها والقصائد الشعرية التي كان يبدعها، وكان دائمًا يفخر بالإسلام الذي حرر الرءوس، وطهر النفوس، وأصلح الأرض وحصن العرض، ولم يعجبه الفسق والكفر الذي يعيش فيه الأوروبيون، وقال لهم محذرًا: (يا أهل الغرب إن أرض الله ليست دار تجارة، ولسوف تنتحر حضارتكم بخنجرها؛ لأنما كالعش الذي بني على غصن ضعيف لا قوة له). رجع إقبال إلى لاهور عام ١٩٠٨م بعد رحلة استغرقت ثلاث سنوات، وبدأ العمل بالخمارة، يدافع عن المظلومين، وعرف عنه في أثناء عمله بما أنه لا يقبل إلا قضايا الحق، كما عرف عنه أيضًا اقتداره في مهنته، وكان مؤهلًا لبلوغ أعلى الدرجات فيها، لكنه ترك الخمارة وعمل أستاذًا للفلسفة واللغة الإنجليزية في الكلية الإسلامية في (لاهور) ثم استقال من منصب الأستاذية، واشتغل بالسياسة، فانتخب عام ١٩٢٦م في الجمعية التشريعية في (بنجاب) وعمل في حزب الرابطة الإسلامية، ورأس المؤتمر السنوي لها في (إله آباد) سنة ١٩٣٠م، واشترك إقبال في مؤتمر المائدة المستديرة عام ١٩٣١م، ١٩٣٢م في لندن للنظر في وضع دستور للهند. وقد كان إقبال يحلم بإنشاء دولة إسلامية لمسلمي الهند، وسخر منه الناس حينئذ، ولكن تحققت فكرته بقيام دولة باكستان الإسلامية، زار (إقبال) كثيرًا من الدول الإسلامية، فزار مصر، وأفغانستان كما زار قرطبة، وصلى في مسجد قرطبة الشهير، وظل طيلة حياته المجيدة يدافع عن الإسلام والمسلمين في المحافل الدولية والمؤتمرات الإسلامية والكتب والأشعار التي أبدعها، ويحاول قدر طاقته إيقاظ المسلمين من غفلتهم، ومساعدة الأمة الإسلامية على النهوض، وكان إقبال دائمًا يعطف على الفقراء والمساكين، يجلس معهم، ويهتم بأمهم، ويخالطهم في الطعام والشراب. كما كان يدعو المسلمين إلى المشاركة في حركة الحضارة والتقدم، وينبذ الفكر الذي يكنفي من الدين بالعلاقة بين العبد وربّه في صورة العبادات، وكان له موقف أصيل من التصوف، يقوم على رفض التصوف الذي يخالف الكتاب والسنة ويتأثر بفلسفات وثنية، كما رفض التصوف الذي يجعل من المسلم سلبًا لا يشارك في خدمة مجتمعه، ومقاومة الظلم والدفاع عن المسلمين وكان يسمى هذا اللون من التصوف بالتصوف الأعجمي. وكان (إقبال) يدعو المسلمين إلى التمسك بدينهم، ثم بالعلم الذي هو السبب في تقدم الأمم، وبذل جهودًا كبيرة في الدعوة إلى وحدة المسلمين تحت راية الجامعة الإسلامية التي تضم المسلمين جميعًا مع اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم.

ولم يترك إقبال فرصة إلا نصح فيها إخوانه من المسلمين، فيخاطب المسلم ويقول له: (اقرأ مرة أخرى في سيرتك الأولى، اقرأ دروس الصدق والعدل والشجاعة، لأنك أنت المنشود؛ لتسود العالم مرة ثانية، أنت تملك العالم بالأخوة وتحكمه بالحبّة، ما الذي محا استبداد (قيصر) وشدة (كسرى)؟! أكانت هناك قوة في العالم تحارب الجبايرة سوى قوة (علي) كرم الله وجهه، وفقر (أبي ذر) وصدق (سليمان) رضي الله عنهم؟! وأبدع إقبال العديد من الدواوين الشعرية الرائعة منها: (صلصلة الجرس) ونشر عام ١٩٢٤م، ويحتوي على حوالي ستين قصيدة وقطعة نظمها في بداية شبابه حتى سفره إلى أوروبا، بالإضافة إلى ثلاثين قصيدة نظمها في أوروبا، وأهم قصائد هذا الديوان قصيدته الشهيرة: (طلوع الإسلام).

\* (رسالة المشرق) : وهي رد على ديوان الشاعر الألماني (جوته).

\* (زبور العجم) : وهو ديوان من أروع ما كتب إقبال، وأهم قصائده: (حديقة السر الجديدة) وهي قصيدة في الحب الإلهي.

\* (ما ينبغي أن نعمل يا أمم المشرق) وهي منظومات تدعو المسلمين إلى الاتحاد لمقاومة الاستعمار الأجنبي.

(هدية الحجاز) وهو ديوان أغلبه يدور حول موضوعات هامة

مثل: الحديث عن الله وعن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وعن الأمة وعن العلم الإنساني، وعن رفاق الطريق إلى الله، وأهم قصائد الديوان قصيدة تدور حول إبليس ومعاونيه.

ومن أهم مؤلفاته: (تطور الفكر الفلسفي في إيران) و(تجديد التفكير الديني في الإسلام) ومن شعره المترجم إلى العربية:

ملكنا هذه الدنيا قرونًا وأخضعها جدود خالدينا

وسطرنا صحائف من ضياء فما نسي الزمان ولا نسينا

وأجاد محمد إقبال الكثير من اللغات كالأوردية، والفارسية والإنجليزية، والألمانية، وكان يعرف العربية، وتحمل كل هذا العناء لكي يزيل عن أمتة ظلام الجهل والتأخر.

وبعد رحلة مريرة بما فيها من مصاعب، مباركة بخدمتها

المسلمين، تكالبت أمراض كثيرة على الشاعر الفيلسوف، فقد ضعف بصره، وأصابته آلام، وأزمات كثيرة نتيجة حصوات تكونت

في الكلى، لكن المرض لم يقعه عن كتابة الشعر، وفي إبريل

سنة ١٩٣٨م رحل (إقبال) وفاضت روحه التي أجهدتها العناء الطويل في سبيل هداية البشر، وعلت شفتيه البسمة الهادئة فرحًا بلقاء

ربه. وذاع خبر موت (إقبال)، ففجع الناس فيه، وصعقهم النبأ، وهزمهم الأسى، وعمهم الحزن، وكان يومًا عصبيًا في حياة جماهير

الهند عامة، والجماهير المسلمة خاصة، ونعاه قادة الهند وأدباؤها من المسلمين والهندوس على السواء.. رحم الله الفيلسوف الشاعر

الذي أحدث برحيله فراغًا كبيرًا في عالمنا الإسلامي، رحم الله إقبال القائل:

وَمَا فَتَى الزَّمَانُ يَدُورُ حَتَّى

مَضَى بِالْمَجْدِ قَوْمٌ آخَرُونَا

وَأَصْبَحَ لَا يَرَى فِي الرِّكْبِ قَوْمِي

وَقَدْ عَاشُوا أَيْمَتَهُ سِنِينَ

وَأَلْمَى وَآلَمَ كُلَّ حُرٍّ

سُؤَالَ الدَّهْرِ أَيْنَ الْمُسْلِمُونَ

## المحتويات

م	الموضوع	الصفحة
	<b>علماء</b>	٣-٥٠
١	سعيد بن المسيب	٤
٢	سعيد بن جبير	٥
٣	الحسن البصري	٧
٤	جعفر الصادق	٨
٥	أبو حنيفة النعمان	٩
٦	الليث بن سعد	٩
٧	شريك بن عبد الله	١٠
٨	مالك بن أنس	١١
٩	أبو يوسف	١٢
١٠	الشافعي	١٣
١١	أحمد بن حنبل	١٥
١٢	ابن حزم	١٦
١٣	الجويني	١٧
١٤	عز الدين بن عبد السلام	١٨
١٥	ابن تيمية	٢٠
١٦	سفيان الثوري	٢١
١٧	البخاري	٢٢
١٨	ابن ماجه	٢٤

٢٤	أبو داود	١٩
٢٥	ابن حجر العسقلاني	٢٠
٢٦	الطبري	٢١
٢٧	الألوسي	٢٢
٢٧	إبراهيم بن أدهم	٢٣
٢٩	عبد الله بن المبارك	٢٤
٣٠	الفضيل بن عياض	٢٥
٣١	الخليل بن أحمد	٢٦
٣٢	سيبويه	٢٧
٣٣	الفيروزبادي	٢٨
٣٤	الماوردي	٢٩
٣٥	أبو حامد الغزالي	٣٠
٣٦	ابن رشد	٣١
٣٦	جابر بن حيان	٣٢
٣٧	أبو بكر الرازي	٣٣
٣٩	ابن سينا	٣٤
٤٠	البيروني	٣٥
٤٢	الشريف الإدريسي	٣٦
٤٣	ابن بطوطة	٣٧
٤٤	عبد الرحمن الجبرتي	٣٨
٤٥	ابن ماجد	٣٩
٤٦	شكيب أرسلان	٤٠
٤٧	عبد الرحمن الكواكبي	٤١
٤٨	جمال الدين الأفغاني	٤٢
١٨٥-٥١	أمراء	
٥٢	سعد بن أبي وقاص	٤٣
٥٨	عبد الملك بن مروان	٤٤



٥٩	عمر بن عبد العزيز	٤٥
٦٢	هارون الرشيد	٤٦
٦٣	المأمون بن الرشيد	٤٧
٦٤	المعتصم بالله	٤٨
٦٥	عقبة بن نافع	٥٠
٦٩	طارق بن زياد	٥١
٦٩	موسى بن نصير	٥٢
٧١	أسد بن الفرات	٥٣
٧٢	يوسف بن تاشفين	٥٤
٧٣	قتيبة بن مسلم	٥٥
٧٧	محمد بن القاسم	٥٦
٨١	بايزيد الصاعقة	٥٧
٨٥	محمد الفاتح	٥٨
١١١	مراد الأول	٥٩
١١٦	عبد الله بن محمد	٦٠
١٢٠	ألب أرسلان	٦١
١٢٨	عثمان الأول	٦٢
١٣٣	شهاب الدين الغوري	٦٣
١٣٨	محمود بن سبكتين	٦٤
١٤٤	بركة خان	٦٥
١٤٨	أسد بن الفرات	٦٦
١٥١	حسن الطوشي	٦٧
١٥٤	ليو الطرابلسي	٦٨
١٥٦	مجاهد العامري	٦٩
١٥٨	خير الدين بروروسيا	٧٠
١٦١	أبطال من دولة المرابطين	٧١
١٦٤	طغر لبك السلجوقي	٧٢

١٦٥	أسد الدين شيركوه	٧٣
١٧٠	الظاهر بيبرس	٧٤
١٧٣	عماد الدين زنكي	٧٥
١٧٨	نور الدين محمود	٧٦
١٨٠	صلاح الدين الأيوبي	٧٧
١٨١	سيف الدين قطز	٧٨
١٨٣	عمر المختار	٧٩
١٨٤	عبد الحميد الثاني	٨٠
٢٠٩-١٨٦	أدباء	
١٨٧	المتنبي	٨١
١٩٢	أبو العتاهية	٨٢
١٩٣	أبو تمام الطائي	٨٣
١٩٤	البحري	٨٤
١٩٨	عبد القاهر الجرجاني	٨٥
١٩٨	البارودي	٨٦
١٩٩	أحمد شوقي	٨٧
٢٠١	حافظ إبراهيم	٨٨
٢٠٤	عباس العقاد	٨٩
٢٠٦	محمد إقبال	٩٠
٢١٠	المحتويات	